المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
عمادة الدراسات العليا - كلية التربية
قسم الثقافة الإسلامية - شعبة العقيدة

أدلة أهل السنة العقلية
في
الأسماء والصفات والقدر

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في شعبة العقيدة

إعداد الطالبة

أحلام بنت صالح بن عبد الله الضبيحي

إشراف

د. خالد بن عبد الله القاسم

العام الجامعي ١٤٢٤هـ

المملكة العربية السعودية
وزاره التعليم العالي
عمادة الدراسات العليا - كلية التربية
قسم الثقافة الاسلامية - شعبة العقيدة

أدلة أهل السنة العقلية
في
الأسماء والصفات والقدر

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في شعبة العقيدة

إعداد الطالبة

أحلام بنت صالح بن عبد الله الضبيعي

إشــــراف

د. خالد بن عبد الله القاسم

العام الجامعي ١٤٢٤هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك سعود

كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

شعبة (العقيدة)

(إجـــــــــــازة)

بحث مقدم استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في (العقيدة)

بعنوان: (أدلة أهل السنة العقلية في الأسماء والصفات والقدر)

إعداد الطالبة/ أحلام بنت صالح بن عبدالله الصنيعي

نوقشت هذه الرسالة في ٢٧/ ١٠/ ١٤٢٤هـ

وتم إجازتها

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
١- د/ خالد بن عبدالله القاسم	مشرفاً ومقرراً	
٢- د/ سليمان بن قاسم العيد	عضواً	
٣- د/ عبدالله بن صالح البراك	عضواً	

للعام الجامعي ١٤٢٣هـ / ١٤٢٤هـ

جامعة الملك سعود - كلية التربية - قسم الثقافة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

أما بعد :

فقد أرسل الله – سبحانه وتعالى – رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلمه الكتاب والحكمة ، فتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

وقد أرشدنا رسولنا محمد ﷺ إلى أن هذا الدين يتكون من أصول قوية يجب على المرء اتباعها والأخذ بها ، واعتقادها اعتقاداً سليماً خالياً من الزيادة أو النقصان .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

(٢) النساء : ١ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .

وقد بين شيخ الإسلام – رحمه الله – أن أصول الدين تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : المسائل : وهذه المسائل يجب اعتقادها ، ويجب أن تذكر قولاً ، أو تعمل عملاً ، كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد[1] .

القسم الثاني : الدلائل : أي دلائل هذه المسائل[2] .

وقد بيَّن – رحمه الله – أن جماع الأدلة نوعان : شرعية وعقلية[3] .

وربنا – سبحانه وتعالى – ساق لنا كثيراً من الأدلة الشرعية والعقلية في كتابه الكريم ، وجاءت الأدلة العقلية أيضاً على لسان رسوله ﷺ .

فالأمثال المضروبة في القرآن هي عبارة عن أقيسة عقلية – كما بين ذلك شيخ الإسلام – وأن العلم الإلهي لا يجوز أن يستعمل فيه إلا قياس الأولى (ولله المثل الأعلى)[4] ، وأن مثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب ، كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام[5] .

مشكلة البحث :

هناك اتهام موجه إلى أهل السنة يقول أن أهل السنة بسبب تمسكهم بالكتاب والسنة حدث لهم جمود فكري ، فهم لا يستخدمون عقولهم في إثبات العقائد ويكتفون باتباع النص من الكتاب والسنة ، وأن هذا لا يصلح في إقناع الخصوم بل لا بد من استخدام العقل في إثبات العقائد لمقابلة الخصوم بالمثل .

بل إن بعض الكتاب المولعين بالفلسفة والذي أيد القول بأنها تاج العلوم وأنها تسير والعلم جنباً إلى جنب ، وأن الفلسفة الإسلامية ظهرت متأخرة في الإسلام بسبب أنها

---

(١) انظر : درء التعارض ، ابن تيمية ، ١/ ١٨ ، ت عبداللطيف عبدالرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

(٢) انظر : المصدر السابق : ١٨/١ .

(٣) المصدر السابق : ١/ ١٤ .

(٤) النحل : ٦٠ .

(٥) انظر : المصدر السابق : ١/ ٢٠،١٩ .

تتطلب نضجاً عقلياً لا قبل للمجتمع الإسلامي به في سني حداثته[1] .

هؤلاء الكتاب وأمثالهم جعلوا من انتصار مذهب أهل السنة على المعتزلة في عصر الخليفة المتوكل سبباً من أسباب ركود الحركة الفلسفية في العالم الإسلامي[2] .

كما أنه يوجد من يدعي أنه من السلف من يلغي أهمية العقل في الفهم والاستنباط والفقه ، وربما يصل به الأمر إلى الإنكار على من يقول بوجود أدلة عقلية في القرآن الكريم والسبب في ذلك عدم تمييزه بين أدلة المتكلمين التي سموها معقولات وعارضوا بها وحي الرحمن ، وبين أدلة السلف العقلية التي أخذوها من القرآن الكريم[3] .

أهداف الدراسة :

١ - نقض هذا الاتهام الموجه لأهل السنة ببيان بعض أدلتهم العقلية التي استخدموها في الرد على المخالفين .

٢ - بيان عوار مذاهب المخالفين من الجهمية والمعتزلة والقدرية باستعراض شبههم العقلية عند ردود أهل السنة عليهم .

٣ - إظهار قوة الدليل العقلي عند أهل السنة وذلك لقوة أصوله المستمد منها .

٤ - إظهار ضعف أدلة المخالفين لضعف الأصول المستمدة منها ، كالفلسفة الوثنية ، أو الديانات المحرفة كاليهودية والنصرانية ، أو الديانات الوضعية كالمجوسية الزرادشتية والبوذية والهندوكية .

أسئلة الدراسة :

لمعرفة مدى صحة هذا الاتهام - وهو تعطيل العقل - الموجه لأهل السنة من عدمه ، يجب الإجابة عن الأسئلة التالية :

---

(١) انظر : مقدمة في الفلسفة الإسلامية ، عمر محمد الشيباني ، ٤٩ ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ٦٧ .

(٣) منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة ، جابر إدريس علي أمير ، ١٠/١ ، أضواء السلف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١ – هل اشتمل القرآن الكريم على أدلة عقلية ؟

٢ – ما هو موقف أهل السنة والجماعة من العقل وأدلته ؟

٣ – ما هي العلاقة بين العقل والنقل عند أهل السنة ؟

٤ – هل استخدم أهل السنة الأدلة العقلية في إثبات العقائد والرد على المخالفين ؟ وهل هناك حاجة تستدعي ذلك ؟

٥ – ما هو المصدر الذي اعتمد عليه أهل السنة في استنباطهم لأدلتهم العقلية؟

٦ – ما هي هذه الأدلة ؟ وكيف كانت صيغتها ؟

أهمية الدراسة :

اهتم أهل السنة والجماعة بالأدلة العقلية اهتماماً كبيراً ، فقد كانوا يحتجون بالأدلة العقلية كما يحتجون بالأدلة النقلية في مسائل الاعتقاد ، واهتمامهم هذا كان لعدة أسباب منها :

١ – إن القرآن الكريم مليء بالأدلة العقلية التي ساقها الله سبحانه وتعالى ليفتح الأذهان ويلفت الأنظار ، يقول ابن القيم (فحججه سبحانه العقلية التي في كتابه جمعت بين كونها عقليةُ سمعية ظاهرة واضحة قليلة المقدمات)[(١)] .

٢ – كذلك السنة المطهرة جاءت مليئة بالأدلة العقلية ، فقد كان الرسول ﷺ يضرب لأصحابه الأمثال ويختبر فهمهم ويشرح لهم المسائل عن طريق الأسئلة والأمثلة ، وكل ذلك كان السلف – رحمهم الله – يعتبرونه أدلة عقلية على ما يقدمونه في مسائل العقيدة .

٣ – كان السلف – رحمهم الله – يتدبرون القرآن خير تدبر ، وذلك لامتثالهم قولَ الله سبحانه ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[(٢)] فتدبرهم للقرآن كان يفتح أمامهم آفاقاً واسعة في الرد على المخالفين .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، ابن قيم الجوزية ، ٨١/١ ، ت سيد إبراهيم ، دار الحديث، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

(٢) ص : ٢٩ .

٤ - حرصهم – رحمهم الله – في الرد على المخالفين بنفس منطقهم وسلاحهم حتى لا يستطيعوا أن ينكروا أو يتمردوا ، بل إن أدلة أهل السنة العقلية كانت أقوى بكثير من أدلة المخالفين ، لأن عمدة أهل السنة الكتاب والسنة ، وعمدة المخالفين أقوال أهل المنطق اليوناني وترهاتهم .

الدراسات السابقة :

عند استعراضي للدراسات السابقة عثرت على رسالتين :

الرسالة الأولى : كانت بعنوان (منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة) للباحث جابر إدريس علي أمير ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .

قام فيها الباحث بمقارنة المنهجين من حيث موافقة العقل للنقل في قضايا التوحيد والعقيدة ، وبين أن اهتمام السلف كان بالعقل والنقل معاً وأنهما لا يتعارضان بل هما متفقان تمام الاتفاق ، وبين المميزات التي تميز بها أهل السنة بسبب اتباعهم لهذا المنهج .

على العكس تماماً من منهج المتكلمين الذين اعتقدوا التعارض ، فأدى بهم ذلك إلى تقديم كلام المخلوق (العقل) على كلام الخالق (النصوص الشرعية) ، فأوصلهم ذلك إلى الشك والحيرة والتخبط والتشتت والدخول في متاهات هم في غنى عنها ، ولم يكن لهم سبيل للخروج من ذلك إلا بالرجوع إلى منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة .

والباحث جابر إدريس تعرض في رسالته لبعض أدلة أهل السنة العقلية ولكن بشكل موجز وبسيط(١) ، لذلك فإني سأحاول – إن شاء الله – التوسع في هذه الجزئية لبيان طريقة السلف في

استخدامهم للعقل ، والتعليق على هذه الأدلة العقلية التي سيتم عرضها في هذا البحث ما أمكن ذلك .

---

(١) انظر : منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة ، جابر ادريس علي أمير ، ١٠٦-١٠١/١ .

الرسالة الثانية : وكانت بعنوان (الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد) للباحث سعود بن عبدالعزيز العريفي ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى في مكة المكرمة .

قام فيها الباحث بتتبع آيات القرآن الكريم ، وكذلك السنة المطهرة ، واستخراج الأدلة العقلية منها ، لإثبات أن النقل غني بالأدلة العقلية على أصول الاعتقاد ، وأنه لا حاجة لاستخدام المناهج الفلسفية والطرق الكلامية ، واستشهد على ذلك بكلام المتكلمين أنفسهم .

والفرق بين رسالة الباحث العريفي وبين رسالتي ، أني قمت بعون الله وتوفيقه بتتبع بعض كتب السلف لاستخراج أدلتهم العقلية في بعض المسائل لإثبات أن السلف – رحمهم الله – استخدموا عقولهم النيرة الذكية اليقظة في الرد على المخالفين .

حدود البحث :

من المعلوم أن أهل السنة استخدموا الأدلة العقلية في جميع مسائل أصول الدين ، لذلك فإنني في هذا البحث سوف أقتصر على الأدلة العقلية لأهل السنة في مسائل الأسماء والصفات والقدر وذلك لعدم الإطالة .

منهج البحث :

سوف يكون المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي ، وهو مرحلة من مراحل المنهج التجريبي ، بل هو من أهمها – كما يرى ذلك كثير من علماء المنهج – وقد يطلق المنهج الاستقرائي ويراد به المنهج التجريبي وهذا من باب إطلاق الخاص على العام .

وأغلب العلوم الإسلامية تقبل المنهج التجريبي الذي لا يشترط أن تكون التجربة حسية بحتة ، فاستقراء نص من النصوص يكون مناسباً للبحث التجريبي .

وفي هذا البحث قمت بتتبع بعض كتب أهل السنة – كما ذكرت سابقاً – لجمع الأدلة العقلية منها في مسائل الأسماء والصفات والقدر ودراسة هذه الأدلة والتعليق عليها ما أمكن ، لإثبات أن أهل السنة كانت لهم صولة وجولة في مجال الأدلة العقلية .

إجراءات الدراسة :

١- كان اعتمادي في هذا البحث كلية على كتب أهل السنة الثقات العدول ، لذلك فإن معظم أقوال الفرق المخالفة كنت أنقلها منهم ، إلا بعض الأقوال التي تيسر لي فيها بعض المراجع .

٢- عزو الآيات إلى مواضعها من السور في الهامش أسفل الصفحة .

٣- عزو الأحاديث إلى صحيح البخاري إن وجدت فيه ، وإلا انتقلت إلى صحيح مسلم ، فإذا لم يوجد في أحدهما بحثت عنه في أحد الكتب الأربعة : أبي داوود – الترمذي – النسائي – ابن ماجة – على الترتيب ، مع ذكر درجة الحديث ، فإن لم يوجد رجعت إلى باقي كتب السنة كمسند الإمام أحمد وغيره مع الحرص أيضاً على بيان درجة الحديث ، وجعلت ذلك كله في الهامش .

٤- تعريف غير المشهورين من الأعلام في الهامش - مع أن الشهرة وعدمها أمر نسبي إضافي - ويكون ذلك بذكر اسمه كاملاً وبعض صفاته ومؤلفاته وتاريخ وفاته .

٥- شرح بعض الكلمات الصعبة إن وجدت في الهامش .

٦- التعريف بالفرق في الهامش .

٧- ذكر المصادر والمراجع في الهامش ، ويكون ذلك بذكر جميع معلومات الكتاب في أول مرة يذكر فيها ، ثم بعد ذلك أكتفي بذكر اسم الكتاب واسم المؤلف والجزء والصفحة ، مع وجود فهرس المصادر والمراجع آخر البحث .

٨- قد يلاحظ القارئ الكريم قلة التعليقات في البابين الثاني والثالث وذلك لأن الهدف من هذين البابين هو عرض لبعض أدلة أهل السنة العقلية مع التعليق عليها ما أمكن ، فإن تيسر لي التعليق فعلت ، وإلا تركت ذلك للقارئ الكريم على ضوء ما قرأه في الباب الأول .

٩- وضع فهارس متنوعة .

وقد اضطررت إلى إجراء بعض التعديلات على الخطة أثناء فترة البحث وذلك

لصعوبة التفريق بين المعلومات ، أو بمعنى أوضح : أن بعض النقاط تصب كلها في موضوع واحد مثل :

مطلب إثبات صفة النزول الذي تم دمجه مع مطلب إثبات صفة الإتيان والمجيء لأن أهل السنة فسروا إتيان الله سبحانه وتعالى ومجيئه يوم القيامة إنما هو نزوله سبحانه ليحكم بين العباد ، فلذلك رأيت دمج هذين المطلبين .

كذلك تم دمج مطلب إثبات صفتا الغضب والرضا مع مطلب إثبات صفتا المحبة والبغض لأني أثناء البحث في كتب أهل السنة وجدت أنهم يثبتون هذه الصفات جميعاً ويأتون بالأدلة العقلية في إثباتها عامة .

وقد تم حذف مطلب إثبات صفة الساق لأني لم أجد فيه مادة للكتابة كافية ، ولأن أهل السنة أنفسهم مختلفين في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[(١)] هل هي من آيات الصفات أم لا ؟ مع أنهم متفقون على إثبات صفة الساق لله سبحانه وتعالى عن طريق السنة .

هذا بالنسبة للباب الثاني ، أما الباب الثالث فقد تم إدخال مبحث : صلة الرحم وأثرها في الكتابة ، ومبحث : هل المقتول مات بأجله في مبحث : ليس للعبد القدرة على تغيير علم الله .

أما مبحث : الفرق بين اللوح المحفوظ وبين صحف الملائكة فقد تم إدخاله في الفصل الثاني نفسه وهو : الكتابة لكل ما سيعمله الخلق ، لقلة المادة العلمية فيه .

أما المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الثاني وهو : إثبات أن الاسم هو المسمى ، فقد تبين لي أثناء البحث أن هذا الكلام إنما هو قول الأشاعرة ، وأن قول أهل السنة هو : أن الاسم للمسمى ، وقد رأيت أن هذا الموضوع ليس له كثير علاقة بالبحث فأدخلته في المبحث الذي قبله وهو : إثبات أن أسماء الله غير مخلوقة ، وتحدثت فقط عن ردود أهل السنة على المعتزلة في قولهم أن الاسم غير المسمى .

---

(١) القلم : ٢٤ .

خطة البحث :

يشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة :

المقدمـــة :

وتشتمل على مشكلة البحث ، وأهمية الموضوع وأسباب الاختيار ، والدراسات السابقة ، وحدود البحث ، ومنهج البحث ، وإجراءات البحث .

التمهيد :

المبحث الأول : التعريف بأهل السنة .

المبحث الثاني : التعريف بالدليل العقلي .

الباب الأول : الدليل العقلي عند أهل السنة :

الفصل الأول : دعوة القرآن إلى النظر العقلي .

المبحث الأول : اشتمال القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة السمعية والعقلية .

المبحث الثاني : مخاطبة الله - سبحانه - لعباده بالتدبر والنظر والتفكر .

المبحث الثالث : دعوة الرسل لأقوامهم بإعمال عقولهم في هذا الكون .

الفصل الثاني : موقف أهل السنة من العقل .

المبحث الأول : موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - .

المبحث الثاني : موقف التابعين بإحسان وتابعيهم - رحمهم الله - .

المبحث الثالث : موقف علماء أهل السنة بعد الصحابة والتابعين .

الفصل الثالث : العلاقة بين العقل والنقل عند أهل السنة .

المبحث الأول : موافقة النقل الصحيح للعقل الصريح عند أهل السنة .

المبحث الثاني : موقف أئمة أهل السنة من الذين ادعوا التعارض بين العقل والنقل .

الباب الثاني : الأدلة العقلية في إثبات الأسماء والصفات :

الفصل الأول : في أسماء الله جل وعلا .

المبحث الأول : إثبات أن أسماء الله غير مخلوقة .

الفصل الثاني : في صفات الله جل وعلا .

المبحث الأول : في إثبات الصفات الذاتية :

المطلب الأول : صفة العلو .

المطلب الثاني : صفة المعية .

المطلب الثالث : صفة العلم .

المطلب الرابع : صفتا الحياة والقيومية .

المطلب الخامس : صفتا السمع والبصر .

المبحث الثاني : الصفات الفعلية .

المطلب الأول : صفة الاستواء ، وإثبات العرش .

المطلب الثاني : صفة الكلام .

المطلب الثالث : صفة النزول الإتيان والمجيء .

المطلب الرابع : صفة الضحك .

المطلب الخامس : صفة القرب .

المطلب السادس : صفتا الغضب والرضا المحبة والبغض .

المبحث الثالث : الصفات الخبرية .

المطلب الأول : صفة الوجه .

المطلب الثاني : صفة العين .

المطلب الثالث : صفة اليدين .

المطلب الرابع : صفة الأصابع .

المطلب الخامس : صفة القدم .

الباب الثالث : الأدلة العقلية في إثبات القدر :

الفصل الأول : علم الله السابق الأزلي .

المبحث الأول : مطابقة العلم للمعلوم .

المبحث الثاني : ليس للعبد القدرة على تغيير علم الله .

الفصل الثاني : الكتابة الأزلية لكل ما هو كائن .

الفصل الثالث : عموم مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة .

المبحث الأول : إثبات أن الله على كل شيء قدير .

المبحث الثاني : إثبات الاستطاعة والاختيار للعبد .

المبحث الثالث : الفرق بين الإرادة والمحبة .

الفصل الرابع : خلق الله لكل شيء .

المبحث الأول : دخول أفعال العباد في خلق الله .

المبحث الثاني : تعليل أفعال الله .

الخاتـمة :

وتشتمل على النتائج والتوصيات والفهارس : وهي على النحو التالي :

فهرس الآيات ويكون ترتيبها على حسب ترتيب السور في المصحف .

فهرس الأحاديث .

فهرس الأعلام ، المترجم لهم في الحاشية .

فهرس الفرق ، المترجم لهم في الحاشية .

فهرس المصادر والمراجع ، ويكون ترتيب هذه الفهارس على حسب حروف المعجم .

فهرس الموضوعات .

هذه هي الخطة التي أعددتها للبحث ، وإني مهما تكلمت في هذا الموضوع ومهما عرضت من أدلة أهل السنة العقلية فإني أعترف بتقصيري وأني لم ولن أوفي هذا الموضوع حقه لأنه جدير بالاهتمام وفيه رد على طوائف كثيرة اتهمت أهل السنة بالتقصير في مجال العقل .

ولكن حسبي أني بذلت فيه وسعي فما كان فيه من صواب فمن الله فله وحده الحمد والمنة ، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان والله ورسوله بريئان منه ، وأستغفر الله من هذا الخطأ ، ورحم الله من رأى فيه خطئاً أو خللاً فأرشدني إلى صوابه وإصلاحه .

هذا وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل بعد شكر الله تعالى إلى والديَّ الكريمين اللذَين أحاطاني بدعائهما ورعايتهما وعنايتهما وكذلك زوجي الكريم الذي أحاطني برعايته وكرمه وطيب أخلاقه وجميل صبره حتى استطعت بحول الله وحده وعونه وتوفيقه وفضله إنجاز هذا العمل .

وأتوجه كذلك بالشكر الجزيل إلى جامعة الملك سعود ممثلة في كلية التربية قسم الثقافة الإسلامية على إتاحة هذه الفرصة لي لإعداد هذه الرسالة .

كما أتوجه بالشكر الجزيل لفضيلة الدكتور المشرف خالد بن عبدالله القاسم على ما قدمه لي من توجيهات سديدة وآراء قويمة وملحوظات دقيقة استفدت منها كثيراً في هذا البحث ، وأسأل الله العظيم أن يجزيه عني خير الجزاء وأن يبارك في علمه وحياته وأن يجعلنا وإياه من العالمين العاملين لابتغاء وجهه الكريم .

وأخيراً فإني أشكر جميع من أعانني في بحثي هذا بإشارة أو بإعارة من أساتذتي أو استاذاتي أو زميلاتي .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزق الجميع الإخلاص في السر والعلن ، وأن يحفظنا من فتنة القول والعمل ، وأن يبارك في أعمالنا وأعمارنا ، ويحسن لنا الختام ، إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التمهيد

ويشمل :

المبحث الأول : التعريف بأهل السنة والجماعة

المبحث الثاني : التعريف بالدليل العقلي

المبحث الأول

التعريف بأهل السنة والجماعة

أولاً : التعريف بالسنة لغة وشرعاً :

وردت كلمة (سنة) في معاجم اللغة العربية بمعنى : السيرة والطريقة .

والسنة في الأصل : سنة الطريق وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم[1] .

وقد وردت كلمة سنة في القرآن تارة بمعنى سنة الخير وتارة بمعنى سنة الشر ، ومعناها يتحدد من خلال ما أضيفت إليها .

أما على المعنى الأول ففي مثل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾[2] .

أي ما كان على النبي ﷺ حرج فيما أحل الله له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها زيد بن حارثة ﷺ (سنة الله) أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبل النبي ﷺلم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فيه حرج[3] .

فالمقصود هنا بالسنة سنة الخير .

أما على المعنى الثاني ففي مثل قول الله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾[4] وقال ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾[5] .

---

(١) تهذيب اللغة ، الأزهري ، ٢٩٨/١٢ ، ت عبدالسلام محمد هارون ومحمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

(٢) الأحزاب : ٣٨ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٦٤٩/٣ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ .

(٤) الأنفال : ٣٨ .

(٥) الحجر : ١٣ .

فالمقصود هنا بـ(سنة الأولين) أي سنة الأولين في الكفر بالله والتكذيب بالرسل وإهلاك الله لهم ، وقد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى كثيراً في القرآن .

وكذلك وردت كلمة سنة في أقوال الرسول ﷺ تارة بمعنى الخير وتارة بمعنى الشر .

فعلى المعنى الأول قوله ﷺ : ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ))[(١)] .

وعلى المعنى الثاني قوله ﷺ : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم))[(٢)] .

وقد جمع الرسول ﷺ المعنيين في قوله : ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً))[(٣)] .

وإذا رجعنا إلى كلام العرب فإننا نجدهم استخدموا هذه الكلمة عامة في الخير والشر ، قال شاعرهم مادحاً :

فضلاً وذو كرم يعين عم الندى ... سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنَّت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سنّة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم ... إذ لا يميل مع الهوى أحلامها[(٤)]

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ٤/١٢٦ ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده ، انظر : النسخة المحققة ٢٨/٣٦٧ ، الموسوعة الحديثية ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المشرف العام على إصدار هذه الموسوعة : الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، المشرف على تحقيق هذا المسند : الشيخ شعيب أرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ : ﴿ لتتبعن سنن من كان قبلكم ﴾ رقم الحديث ٧٣٢٠ ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، حديث رقم ١٠١٧ ، دار المغني ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

(٤) شرح المعلقات السبع ، أبو عبدالله الزوزني ، ١٦١ ، والقائل هو الشاعر لبيد ، دار القلم ، بيروت – لبنان .

وقال آخر :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع[(١)]

وقال آخر :

فجاء بسنة العُمَرَين فيها ... شفاء للصدور من السقام[(٢)]

أما مجيئها بمعنى الشر فذلك في قول الشاعر في الذم :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ... وأول راضي سنَّةٍ من يسيرها

فإن التي فينا زعمت ومثلها ... لفيك ولكني أراك تجورها[(٣)]

ومن هنا يتبين لنا أن كلمة (سنة) لغةً تشمل طريقة الخير وطريقة الشر .

جاء في (تاج العروس) : (السنة (السيرة) حسنة كانت أو قبيحة)[(٤)] .

وجاء في (التعريفات) : (السنة في اللغة : الطريقة مرضية كانت أو غير مرضية)[(٥)] .

أما الذين جعلوا معناها اللغوي خاصاً بطريقة الخير فهم متأثرون بالمعنى الاصطلاحي للكلمة .

قال الأزهري[(٦)] : (والسنة الطريقة المستقيمة المحمودة ، ولذلك قيل : فلان من أهل

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ١٤٥ ، دار بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

(٢) النقائض ، ١٠١٣ ، والقائل هو الفرزدق ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٧م .

(٣) ديوان الهذليين ، ١٥٧ ، والقائل هو الشاعر خالد بن زهير الهذلي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م ، والدار القومية ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

(٤) تاج العروس ، الزبيدي ، ٩/٢٤٤ ، دار صادر ، بيروت .

(٥) التعريفات ، الجرجاني ، ١٦١ ، ت إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ . وانظر : التوقيف على مهمات التعاريف ، للمناوي ، ٤١٥ ، ت محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، بيروت دمشق ، ط ١ ، ١٤١٠هـ .

(٦) هو العلامة أبو منصور ، محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي اللغوي الشافعي ، كان رأساً في اللغة والفقه ، كان ثقة ، ثبتاً ، ديناً ، من مؤلفاته (تهذيب اللغة) (التفسير) (ألفاظ المزني) وغيرها ، توفي في عام ٣٧٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٦/ ٣١٥ — ٣٧٦ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، وطبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ٣/٦٣ ، ت عبدالفتاح الحلو ومحمود محمد الطناحي ، دار هجر ، الجيزة ، ط ٢ ، ١٩٩٢م .

السنة)[1] .

وبهذا نخلص إلى أن السنة في اللغة هي السيرة والطريقة ، وأنها قد تطلق ويراد بها طريقة الخير أو طريقة الشر ، وهذا يتحدد بحسب القرينة ، وأنه ليس هناك شواهد تدل على تخصيص كلمة السنة في اللغة بمعنى الخير فقط ، وأن المخصصون لها إنما هم متأثرون بالمعنى الاصطلاحي .

وهناك معان أخرى لكلمة (سنّ) في اللغة ترجع إلى السير على طريقة واحدة ، منها ما قاله ابن فارس[2] في معجم مقاييس اللغة : (السين والنون أصل واحد مطرد ، وهو جريان الماء واطراده في سهولة ، والأصل قولهم : سننت الماء على وجهي ، أسنه سناً ، إذا أرسلته إرسالاً)[3] .

وتابع صاحب لسان العرب ذكر معاني هذه المادة التي تدور جميعها على معاني : الجريان ، والاطراد ، والصقل ، والإحداد[4] .

وقد ذكر الدكتور عبدالرحيم سعيد في كتابه (التمهيد في علوم الحديث) كلاماً جميلاً في التوفيق بين هذه المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحي لكلمة (سنّ) فقال : (وأما سنة النبي ﷺ فهي جامعة لهذه المعاني اللغوية السابقة ، لجريان الأحكام الشرعية وفقها ، ولما فيها من الاطراد بمعنى الدوام والتعميم ، وهذه السنة يسعد صاحبها ، لأنها تصقل الحياة الإنسانية ، فيكون وجه المجتمع السائر على هديها ناضراً بخيرها وببركتها ، ويلاحظ في معاني السنة : التكرار والاعتياد والتقويم ، وإمرار الشيء على الشيء ، مرة بعد أخرى ، من أجل إحداده وصقله)[5] .

---

(١) تهذيب اللغة ، للأزهري ، مادة سنن ، ٢٩٨/١٢ .

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ، كان فقيهاً شافعياً فصار مالكياً ، ومن مؤلفاته (جمع التأويل في تفسير القرآن) (سيرة النبي ﷺ) (أخلاق النبي ﷺ) (المجمل في اللغة) ، توفي في عام ٣٩٥هـ . انظر طبقات المفسرين ، السيوطي ، ٩٣/١ ، ت علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٦هـ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، ٦٠/٣ ، ت عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور ، ٢٢٠/١٣ ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ .

(٥) التمهيد في علوم الحديث ، همام عبدالرحيم سعيد ، ١٠-١١ ، دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

وسن الله سنة : أي بين طريقاً قويماً ، وسنة الله : حكمه وأمره ونهيه[(١)] ، وقد ورد ذكر السنة في القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، وفي جميع المواضع معناها : أحكام الله الجارية المطردة[(٢)] .

السنة شرعاً:

أما السنة في الاصطلاح فقد اختلفت تعريفات العلماء لها بحسب كل فن :

فالأصوليون بسبب بحثهم في الأدلة الشرعية اهتموا بالسنة على أنها دليل من الأدلة الأربعة المعتبرة وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فعرفوا السنة بأنها :

ما نقل عن رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً أو إقراراً على فعل أو قول[(٣)] .

وذلك لأنهم يطلقون لفظ السنة على ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص ، مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز ، سواء كان بياناً لما في الكتاب أو لا[(٤)] .

أما الفقهاء فبسبب عنايتهم بالبحث عن الأحكام الشرعية من فرض وواجب ومندوب وحرام ومكروه ، فقد عرفوا السنة بأنها : (ما يرادف المستحب)[(٥)] .

أي يطلقونها على ما ليس بواجب ، لأنها طريقة مسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب[(٦)] ، وهذا الاصطلاح اصطلاح حادث وعرف متجدد[(٧)] .

---

(١) انظر : تهذيب اللغة ، الأزهري ، ١٢/٣٠٣ -٣٠٤ ، وتاج العروس ، الزبيدي ، ٩/٢٤٤ .

(٢) انظر : التمهيد في علوم الحديث ، همام عبدالرحيم سعيد ، ١١ ، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبدالباقي ، ٤٦٦ ، دار الحديث ، القاهرة .

(٣) شرح مختصر الروضة ، الطوفي ، ٢/٦١ ، ت عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، وزارة الشؤون الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م . وانظر : الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ١/٣٨ ، ت عبدالله التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

(٤) انظر : الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ، ٤/٣ ، ت عبدالله دراز ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . وإرشاد الفحول ، الشوكاني ، ٥٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م . والنهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير ، ٢/٤٠٩ ، ت محمود محمد الطناحي ، المكتبة الإسلامية ، ط ١ ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م . والحديث والمحدثون ، أبو زهو ، ٩ ، مطبعة مصر .

(٥) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٣/٢٤٥ ، ت محمد فؤاد عبدالباقي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ .

(٦) انظر : إرشاد الفحول ، الشوكاني ، ٥٣ ، والتعاريف ، المناوي ، ٤١٥ ، والحديث والمحدثون ، أبو زهو ، ١٠ .

(٧) قواعد التحديث ، القاسمي ، ١٥١ ، ت محمد بهجة البيطار ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

وكثيراً ما يعبر عنها الفقهاء بأنها ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه .

والمحدثون نظراً لعنايتهم بنقل كل ما نسب إلى النبي ﷺ ، فتعريف السنة عندهم هو : كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقية أو خَلْقية أو سيرة سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، وهي بهذا ترادف الحديث عند بعضهم[(١)] ، لأن تعريف الحديث عند علماء الحديث هو كل ما أضيف للنبي ﷺ من أقوال أو أفعال أو أحوال[(٢)] .

أما التعريف الذي كان يعنيه السلف الأول في كلامهم عن السنة ، فهو : التمسك بالكتاب وبسنة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وبما كان عليه الخلفاء الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال[(٣)] .

وهذا المعنى هو أول معنى اصطلاحي عُرِف لكلمة السنة ، وذلك لأن هذا المعنى كان موجوداً في عصر الإسلام الأول أي منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[(٤)] قوله : (فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة ، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة)[(٥)] .

فالمفهوم من كلام ابن عباس رضي الله عنهما أنه يقصد بأهل السنة المتمسكون بكتاب الله وسنة المصطفى ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين ، بدليل مقابلته أهل السنة بأهل البدعة ، والبدعة كما عرفها الشاطبي (٧٩٠هـ) هي : (طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، مصطفى السباعي ، ٤٧ ، المكتب الإسلامي ، دمشق - بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م . وانظر : دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، محمد الأعظمي ، ١/١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت - دمشق ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٢) انظر : توجيه النظر ، طاهر الجزائري ، ٢ ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة .

(٣) انظر : جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ، ٦٨/٢ ، ت مروان كجك ، دار الكلمة الطيبة ، ط ١ ، ١٣٠٩هـ - ١٩٨٩م .

(٤) آل عمران : ١٠٦ .

(٥) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي ، ٧٩/١ ، ت أحمد حمدان الغامدي ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٥ ، ١٤١٨هـ .

بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه)[1] .

كذلك فإن علماء الإسلام الأوائل كانوا كثيراً ما يتحدثون عن السنة وأهلها بهذا المعنى ، وسأذكر قولين من أقوالهم في هذا الشأن :

الأول قول سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) : (السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة : إثبات القدر ، وتقديم أبي بكر وعمر ، والحوض ، والشفاعة ، والميزان ، والصراط ، والإيمان قول وعمل ، والقرآن كلام الله ، وعذاب القبر ، والبعث يوم القيامة ، ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم)[2] .

والثاني قول الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) : (أصول السنة عندنا : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة . . . ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها : الإيمان بالقدر خيره وشره . . . ومثل أحاديث الرؤية . . . ويؤمن بالآثار والقرآن كلام الله وليس بمخلوق . . .) إلى آخر كلام رحمه الله[3] .

كذلك فإن المعاني الواردة للسنة في العلوم الشرعية الأخرى كعلم الحديث وعلم الفقه وعلم أصول الفقه جاءت متأخرة قليلاً عن المعنى الاصطلاحي الأول الذي كان يعنيه السلف في صدر الإسلام ، وقد تحدث عن هذه النقطة الشاطبي في الاعتصام في معرض كلامه عن البدع ، وبيَّن رحمه الله أن البدعة هي التي لا يكون لها أصلاً في الشرع ، وأن هذه العلوم الشرعية وإن كانت لم توجد في الزمان الأول إلا أن أصولها التي استنبطت منها كانت موجودة .

وبهذا يتبيَّن لنا أن المعنى الذي ذكرناه آنفاً لمصطلح السنة هو أول معنى اصطلاحي عرف للفظ السنة وهو : التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وبما كان عليه الخلفاء

(١) الاعتصام ، الشاطبي ، ٢٧/١ ، ت عبدالرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١٧٥/١ .
(٣) المصدر السابق ، ١٧٦/١ .

الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال .

يقول ابن رجب رحمه الله : (وهذه هي السنة الكاملة ، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ، وروي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفضيل بن عياض)[1] .

وتطلق السنة أحياناً على ما عمل به أصحاب رسول الله ﷺ من مأثور ، يشهد لهذا قوله ﷺ : ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ))[2] .

قال الشاطبي : (ويطلق أيضاً لفظ السنة على ما عمل عليه الصحابة وجد ذلك في الكتاب والسنة أو لم يوجد لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا أو اجتهاداً مجتمعاً عليه منهم أو من خلفائهم ...)[3] .

وتطلق السنة مقابل البدعة ، لقوله ﷺ : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[4] .

قال الشاطبي : (ويطلق أيضاً – أي لفظ السنة – في مقابلة البدعة فيقال : (فلان على سنة) إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ ، كان ذلك مما نص عليه الكتاب أو لا ، ويقال : (فلان على بدعة) إذا عمل على خلاف ذلك)[5] .

نخلص مما سبق إلى أن جميع الإطلاقات الاصطلاحية على لفظ السنة إنما هي تعود إلى طريقة الرسول ﷺ التي كان يتحراها سواء كان ذلك في الاعتقاد أو في القول أو في العمل وذلك لما يأتي :

---

(١) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ، ٦٨/٢ .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في (السنة) ، باب ما أمر به من اتباع السنة وسنة الخلفاء الراشدين ، رقم الحديث ٥٥-٥٨-٥٩ ، قال عنه الألباني : حديث صحيح الإسناد ورجاله ثقات ، انظر : ظلال الجنة في تخريج السنة في نفس الكتاب ، المكتب الإسلامي ، بيروت - دمشق ، ط ٣ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

(٣) الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ، ٤/٣-٤ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، حديث رقم ٢٦٩٧ .

(٥) الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ، ٣/٤ .

أولاً : لأنه ﷺ هو الرسول المبلغ الذي بلغنا القرآن عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين سبحانه وتعالى .

ثانياً : ولأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يعتقدون أو يقولون أو يعملون إلا بشيء قد أثروه عن الرسول ﷺ ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم .

ثالثاً : ولأن في البدعة مخالفة لأمر الرسول وطريقته التي كان يتحراها لذلك أطلق لفظ السنة في مقابلة البدعة .

معنى أهل السنة :

أهل الشيء : هم أقرب الناس إليه وأخصهم به .

وأهل المذهب من يدين به ، وأهل الإسلام من يدين به ، وأهل الأمر ولاته ، وأهل البيت سكانه ، وأهل الرجل أخص الناس به[(١)] .

وفي الحديث ((أهل القرآن هم أهل الله وخاصته))[(٢)] أي حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله والمختصون به اختصاص أهل الإنسان[(٣)] .

فأهل السنة هم أقرب الناس إليها وأخصهم بها .

قال أبو القاسم الأصبهاني[(٤)] : (قال أهل اللغة : السنة : السيرة والطريقة ، فقولهم فلان على السنة ومن أهل السنة أي هو موافق للتنزيل والأثر في الفعل والقول ، ولأن السنة لا تكون مع مخالفة الله ومخالفة رسوله – ﷺ - ... والدليل على ذلك قوله تعالى

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، ١١/٢٩ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ٣/١٢٧ ، رقم الحديث ١٢٣٠١و١٢٣١٤ ، والحديث إسناده حسن .انظر النسخة المحققة ١٩/٣٠٥،٢٩٦ .

(٣) لسان العرب ، لابن منظور ، ١١/٢٨ .

(٤) هو الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام ، أبو القاسم ، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي بن أحمد بن ظاهر القرشي التيمي ثم الطلحي الأصبهاني الملقب بقوام السنة ، قال عن الحافظ يحيى بن منده : كان أبو القاسم حسن الاعتقاد ، جميل الطريقة ، قليل الكلام ، ليس في وقته مثله ، ومن مؤلفاته : (الجامع) (الموضح) (السنة) (المغازي) ، توفي في عام ٥٣٥هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : الذهبي ، ٢٠/ ٨٠– ٨١ .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[1] فأمر باتباعه وطاعته فيما أمر ونهى ، وقال ﷺ ((عليكم بسنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني))[2][3] .

ويخصص ابن حزم مصطلح أهل السنة بالصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء ، فيقول : (وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق ، ومن عداهم فأهل البدعة ، فإنهم – أي أهل السنة – الصحابة رضي الله عنهم ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمهم الله تعالى ، ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا ، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم)[4] .

وقد بين شيخ الإسلام في معرض رده على أحد الرافضة[5] ، أن لفظ أهل السنة قد يطلق ويراد به معنيان :

المعنى الأول : معنى عام ، وهو يشمل جميع الطوائف المنتمية للإسلام عدا الرافضة، وجعله ابن تيمية مصطلحاً للعامة فقال : (... حتى إن العامة لا تعرف من شعائر البدع إلا الرفض ، والسني في اصطلاحهم – أي في اصطلاح العامة – من لا يكون رافضياً ، وذلك لأنهم أكثر مخالفة للأحاديث النبوية ولمعاني القرآن وأكثر قدحاً في سلف الأمة وأئمتها ، وطعناً في جمهور الأمة من جميع الطوائف)[6] .

---

(١) الحشر :٧ .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في (السنة) ، باب ذكر قوله عليه السلام : ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، رقم الحديث ٦١ -٦٢ ، ولم يذكر لفظة ((عيكم بسنتي)) أول الحديث ، قال عنه الألباني : إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات على شرط مسلم .

(٣) الحجة في بيان المحجة ، قوام السنة ، ٣٨٤/٢ ، ت محمد أبو عبدالرحيم ، دار الراية ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم الأندلسي ، ٣٧١/١، ت أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت -لبنان ، ط ١ ، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م .

(٥) هو ابن المطهر الحلي في كتابه (منهاج الكرامة) .

(٦) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٥٥/٤ ، جمع وترتيب :عبدالرحمن بن قاسم ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

قول ابن تيمية هذا يدل على أن هناك من الطوائف التي تدخل في المسمى العام لأهل السنة خالفت الكتاب والسنة وقدحت في سلف الأمة وجمهورها ولكنهم كانوا أقل مخالفةً وقدحاً بكثير من الرافضة قبحهم الله .

كذلك من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم يدخل في المعنى العام لأهل السنة ، ويخرج طائفة الرافضة فقط من هذا المصطلح .

يقول ابن تيمية : (فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة)[1] .

المعنى الثاني : معنى خاص ، وهو الذي يعبر عنه ابن تيمية بقوله : (وقد يراد به — أي لفظ أهل السنة — أهل الحديث والسنة المحضة ، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ، ويقول أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله يرى في الآخرة ، ويثبت القدر ، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة)[2] .

ثم قال : (ثم المثبتون للصفات منهم من يثبت الصفات المعلومة بالعقل وهذا قول أهل السنة الخاصة أهل الحديث ومن وافقهم)[3] .

وبهذه النصوص عن ابن تيمية تم تصفية مصطلح أهل السنة من جميع الطوائف المخالفة لمنهج أهل السنة في العقيدة كالخوارج والجهمية والمرجئة والمعتزلة والشيعة وغيرهم من أهل البدع .

وبمعنى آخر أهل السنة : هم المتمسكون بكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه خلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، المجتنبون للبدع والاستماع إلى ما أحدثه المضلون بعد وفاة النبي ﷺ ، المثبتون لما أثبته الله ورسوله ﷺ ، والنافون لما نفاه الله ورسوله .

ومصطلح أهل السنة كان موجوداً ومعروفاً منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم ،

(١) منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، ٢٢١/٢ ، ت محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ .
(٢) المصدر السابق ، ٢٢١/٢ .
(٣) المصدر السابق ، ٢٢٢/٢ .

وقد تبين لنا هذا في كلام ابن عباس الآنف الذكر في تفسيره لقول الله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[(١)].

ولكن بحسب اطلاعي وجدت أن أول من استخدم هذا المصطلح في التأليف هو أبو عبيد القاسم بن سلام[(٢)] في كتابه (الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته) حيث تكلم رحمه الله في هذا الكتاب عن مذهب أهل السنة في الإيمان فقال : (أما بعد ، فإنك كنت تسألني عن الإيمان واختلاف الأمة في استكماله وزيادته ونقصه ، وتذكر أنك أحببت معرفة ما عليه أهل السنة من ذلك . . .)[(٣)].

ثانياً : معنى الجماعة :

معنى الجماعة لغة : الجمع خلاف التفريق ، جمعت الشيء أجمعه جمعاً إذا ضممت بعضه إلى بعض[(٤)].

قال الفراء[(٥)] : [فإذا أردت جمع المتفرق قلت جمعت القوم فهم مجموعون ، كما قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾[(٦)]][(٧)].

---

(١) آل عمران : ١٠٦ .

(٢) هو الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون ، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبدالله ، صنف التصانيف المونقة التي سارت بها الركبان ، وهو من أئمة الاجتهاد ، كان ثقة ، ديناً ، ورعاً ، كبير الشأن ، من مؤلفاته : (الأموال) (الغريب) (فضائل القرآن) (الطهور) ، توفي في عام ٢٢٤هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ٤٩٠ — ٥٠٩ .

(٣) الإيمان ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، ٩ ، ت محمد ناصر الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت - دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٤) جمهرة اللغة ، ابن دريد ، ٢٨٣/١ ، ت رمزي منير بعلبكي ، دار الملايين ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧م . وانظر : مختار الصحاح ، مادة جمع ، ت محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٥) هو العلامة صاحب التصانيف ، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله ابن منظور الأسدي ، مولاهم الكوفي النحوي ، صاحب الكسائي ، كان عالماً بالعربية والنحو والفقه والطب وأيام العرب والشعر والنجوم ، قيل عنه أنه أمير المؤمنين في النحو ، من مؤلفاته : (معاني القرآن) (البهي) ، توفي في عام ٢٠٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ١١٨ — ١٢١ .

(٦) هود : ١٠٣ .

(٧) تهذيب اللغة ، الأزهري ، ٤٠٠/١ .

والجماعة : عدد كل شيء وكثرته[1] .

فالجماعة في الأصل كانوا متفرقين في أمر ما ثم اجتمعوا واتفقوا عليه فصاروا جماعة على هذا الأمر ، والجماعة مأخوذة من الكثرة والاجتماع والإتقان .

أما معنى الجماعة اصطلاحاً فقد جاء اسم الجماعة مقروناً باسم السنة ، فيقال أهل السنة والجماعة ، كما أن البدعة مقرونة بالفرقة ، فيقال أهل البدعة والفرقة[2] .

وقد علل شيخ الإسلام تسميتهم بالجماعة فقال : (وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين ، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين)[3] .

والجماعة تطلق شرعاً على معانٍ عدة منها :

أولاً : إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص ، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين ، وأرسوا أوتاده ، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلاً ، ويتبعهم في ذلك جماعة أئمة العلماء المجتهدين ، لأنهم يسيرون على نهجهم[4] .

قال رسول الله ﷺ : ((استوصوا بأصحابي خيراً ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يعجل الرجل بالشهادة قبل أن يسألها فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، ومن الاثنين أبعد فمن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن))[5] .

قال أبو مسعود البدري ﷺ : (... وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمته على

---

(1) تهذيب اللغة ، الأزهري ، ١/٤٠٠ .

(2) انظر : الاستقامة ، ابن تيمية ، ١/٤٢ ، ت محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ .

(3) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣/١٥٧ .

(4) انظر : الاعتصام ، الشاطبي ، ٢٦١ -٢٦٢ .

(5) رواه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة ، رقم الحديث ١٥٥ ، وانظر : السنة لابن أبي عاصم في السنة ، رقم الحديث ٨٦ -٨٧ -٨٨ ، وصححه الألباني .

ضلالة)[1] .

والآجري (٣٦٠هـ) عندما ساق مثل هذه الروايات عن الجماعة قال : (علامة من أراد الله عز وجل به خيراً : سلوك هذه الطريق : كتاب الله عز وجل ، وسنن رسول الله ﷺ ، وسنن أصحابه رضي الله عنهم ، ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم ، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر ما كان من العلماء ، مثل الأوزاعي ، وسفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، والقاسم بن سلام ، ومن كان على مثل طريقهم ، ومجانبة كل مذهب لا يذهب إليه هؤلاء العلماء)[2] .

وقال ابن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ) عند شرحه لقول الطحاوي : (ونتبع السنة والجماعة ، ونتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة) قال : (السنة : طريقة الرسول ﷺ ، والجماعة : جماعة المسلمين ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال)[3] .

ثانياً : إن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير ، وهذا القول اختاره الطبري وصوبه فقال : (والصواب أن المراد في الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره ن فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة)[4] .

قال رسول الله ﷺ : ((من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية))[5] .

ثالثاً : أن الجماعة هو من وافق الحق وإن كان وحده ، وهو قول ابن مسعود ﷺ

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة ، رقم الأثر ١٦٢ ، وابن أبي عاصم في السنة ، رقم الأثر ٨٥ ، قال عنه الألباني : إسناده جيد موقوف ، رجاله رجال الشيخين .

(٢) الشريعة ، للآجري ، ١٨ ، ت محمد بن الحسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ٥٤٤/٢ ، ت عبدالله التركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط ٥ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

(٤) فتح الباري ، ابن حجر ، ٣٧/١٣ ، وانظر : الاعتصام ، الشاطبي ، ٢٦٤/٢ .

(٥) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، رقم الحديث ١٨٤٨-١٨٤٩ .

حيث قال : (الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك)[(١)] .

أما القول بأن معنى الجماعة : السواد الأعظم ، فإني عند تتبعي لطرق الحديث الوارد بهذا المعنى ، وجدت أن الحديث ضعيف الإسناد جداً[(٢)] ، فاكتفيت بالأقوال التي وردت بمعناها أحاديث صحيحة والله تعالى أعلم .

ثالثاً : باقي ألقاب أهل السنة والجماعة :

يطلق على أهل السنة والجماعة ألقاب أخرى ، ترادف لقب أهل السنة والجماعة ، منها : (السلف) ، (أهل الحديث) ، (أهل الأثر) وغيرها من الألقاب التي تفيد النصر والنجاة واتباع الحق .

السلف :

السلف لغة : هو التقدم والسبق ، والقوم السلاف : المتقدمون ، وسلف الرجل : آباؤه المتقدمون[(٣)] .

ويطلق السلف أيضاً : على كل عمل قدمه العبد[(٤)] .

وعند النظر في معنى السلف لغة نجد أن المعنى الأول وهو إطلاقه على القوم المتقدمون هو الذي يعنينا هنا .

فالسلف في الاصطلاح : هم الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين ، وهو قول جمهور أهل العلم ، وهو الراجح[(٥)] لقوله ﷺ : ((خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم

---

(١) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١٢٢/١ ، رقم الأثر ١٦٠ .

(٢) انظر السنة لابن أبي عاصم ومعه ظلال الجنة للألباني ، رقم الحديث ٨٠ و ٨٤ ، وحاشية المحقق لكتاب اللالكائي ، ١١٥/١-١١٨ .

(٣) انظر : مختار الصحاح ، مادة سلف ، ولسان العرب ، ابن منظور ، ١٥٨/٩ .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور ، ١٥٨/٩ .

(٥) منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ، جابر إدريس ، ٣٦/١ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، ٣٦٣/٣ ، والتحف في مذاهب السلف ، الشوكاني ، ٧١ ، ت طارق السعود ، دار الهجرة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م . وقواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي ، مصطفى حلمي ، ١٨٧ ، دار الدعوة ، ط ٣ ، مصر ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته))[1] .

ومعنى السلف في الاصطلاح يدور حول مفهومين :

السلفية الزمنية : ويطلق على المجموعة المتقدمة من الأمة الإسلامية التي عاشت في فترة تاريخية معينة ، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم .

السلفية المنهجية : وهو المنهج الذي كان عليه السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الأولى المفضلة من اتباع الكتاب والسنة ، وفهمها الفهم الصحيح النقي غير المشوب بشائبة البدع والهوى ، وكل من اقتدى بهم ، وسار على دربهم فهو على منهجهم[2] .

أما عن أول من استخدم هذا المصطلح في التأليف فهو - بحسب اطلاعي — الإمام مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩هـ) في الموطأ حيث تحدث عن صيام ست من شوال فبيَّن أنه لم ير أحداً من أهل العلم والفقه يصومها ، وقال : (ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف)[3] .

أهل الحديث :

الحديث لغة : الجديد ، والخبر قليله وكثيرة[4] .

واصطلاحاً : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلْقِي أو خُلُقِي[5] .

وبعض العلماء لم يقتصروا في معنى الحديث على ما أضيف إلى النبي ﷺ خاصة ،

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، رقم الحديث ٢٦٥٢ ، وكتاب الفضائل ، باب (١) ، رقم الحديث ٣٦٥١.

(٢) انظر : منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ، جابر إدريس ، ١/٣٥-٤٠ .

(٣) الموطأ ، مالك بن أنس ، ١/٣١١ ، ت محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، مصر . وقول الإمام مالك هذا مخالف للنصوص الصحيحة الصريحة التي وردت عن الرسول ﷺ بصيام ست من شوال ، ولكن الإمام معذور لأحد الأسباب التي ذكرها ابن تيمية في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) .

(٤) انظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، باب الثاء فصل الحاء ، مادة حدث ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م . ومختار الصحاح ، مادة حدث .

(٥) أسباب اختلاف المحدثين ، خلدون الأحدب ، ١/٢١ ، الدار السعودية ، جدة - الدمام - الرياض ، ط ١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

بل إنه يشمل أيضاً ما أضيف إلى الصحابي والتابعي[1] .

أما عن معنى لفظ (أهل الحديث) : فهم الذين سمعوا حديث رسول الله ﷺ وعرفوه وحفظوه وكتبوه أو رووه ، وفهموه ظاهراً وباطناً ، واتبعوه باطناً وظاهراً[2] .

وأصحاب الحديث هم الطائفة المنصورة الذين ذكرهم الرسول ﷺ في قوله : ((لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة))[3] .

سئل الإمام أحمد رحمه الله عن معنى هذا الحديث فقال : (إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم)[4] .

وعندما عرَّف أبو القاسم الأصبهاني لفظ (السنة) في اللغة والاصطلاح ، وبيَّن أن صاحب السنة هو من كان موافقاً للكتاب والسنة في الفعل والقول ، طرح سؤالاً قال فيه : (فإن قيل كل فرقة تنتحل أتباع السنة وتنسب مخالفيها إلى خلاف الحق ، فما الدليل على أنكم أهلها دون من خالفكم ؟ قلنا : الدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[5] فأمر باتباعه وطاعته فيما أمر ونهى ، وقال النبي ﷺ : ((عليكم بسنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني))[6] وعرفنا سنته بالآثار المروية بالأسانيد الصحيحة ، وهذه الفرقة الذين هم أصحاب الحديث لها أطلب – أي للسنة - وفيها أرغب ولصحاحها أتبع ، فعلمنا بالكتاب والسنة أنهم أهلها دون سائر الفرق ، لأن مدعي كل صناعة إذا لم يكن معه دلالة من صناعته يكون مبطلاً في دعواه ، وإنما يستدل على صناعته كل صاحب صنعة بآلته ، ... وقد وجدنا أصحابنا قد دخلوا

---

(١) انظر : توجيه النظر ، طاهر الجزائري ، ٣ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٩٥/٤ .

(٣) رواه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الشام ، رقم الحديث ٢١٩٢ ، ت أحمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . وصححه الألباني ، انظر : صحيح سنن الترمذي ، الألباني ، ٤٧١/٢ ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

(٤) معرفة علوم الحديث ، الحاكم ، ١ ، ت السيد معظم حسين ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ط ٢ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

(٥) الحشر : ٧ .

(٦) رواه البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ، رقم الحديث ٥٠٦٣ .

في طلب الآثار التي تدل على سنن النبي ﷺ فأخذوها من معادنها وجمعوها من مظانها وحفظوها ، ودعوا إلى اتباعها وعابوا من خالفها وكثرت عندهم وفي أيديهم حتى اشتهروا بها كما اشتهر البزاز ببزه ، ... فعلمنا بالدلائل أن هؤلاء الراغبين فيها وفي جمعها وحفظها واتباعها ، أولى بها من سائر الفرق)[1] .

وعندما سئل شيخ الإسلام عن الفرق التي ورد ذكرها في حديث الافتراق ، وعن معتقد كل فرقة قال في معرض جوابه : (وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة ، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها : تصديقاً وعملاً وحباً وموالاةً لمن والاها ومعاداةً لمن عاداها)[2] .

فنلاحظ من النصوص السابقة أن أهل السنة هم أنفسهم أصحاب الحديث ، وأنه مهما اختلفت المسميات فإن المعنى يؤدي إلى نفس الغرض وهو أن أهل السنة هم المتبعون للكتاب والسنة ، المتمسكون بهما ، المجانبون لكل ما نهى الله عنه ، وانهم أعلم الناس بسنة رسول الله ﷺ وأكثرهم تعظيماً لها .

وقد عُرِفَ مصطلح أهل الحديث منذ أوائل القرن الثالث تقريباً ، لأن الإمام علي بن المديني رحمه الله (٢٣٤هـ) ذكر أصحاب الحديث في تأويله لحديث الطائفة المنصورة – السابق الذكر – فقال : (هم أصحاب الحديث)[3] ثم بدأ بعد ذلك بالانتشار حتى استخدمه العلماء في التأليف ، فكان أول من استخدمه في التأليف – بحسب اطلاعي – هو الإمام مسلم في صحيحه (٢٦١هـ) أي في النصف الثاني من القرن الثالث ، حيث قال رحمه الله : (... فأما ما كان منها عند قوم هم عند أهل الحديث متهمون أو عند

(١) الحجة في بيان المحجة ، الأصبهاني ، ٣٨٥/٢ .
(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٤٧/٣ .
(٣) انظر : سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الشام ، رقم الحديث ٢١٩٢ .

الأكثر منهم فلسنا نتشاغل بتخريج حديثهم)[1] وقال في موضع آخر : (وما علمنا أحداً من أئمة السلف ممن يستعمل الأخبار ويتفقد صحة الأسانيد وسقمها مثل أيوب السختياني[2] وابن عون[3] ومالك بن أنس وشعبة بن الحجاج[4] ويحيى بن سعيد القطان[5] وعبدالرحمن بن مهدي[6] ومن بعدهم من أهل الحديث فتشوا عن موضع السماع في

(١) صحيح الإمام مسلم ، المقدمة ، ٣/١ .

(٢) هو أيوب السختياني الإمام الحافظ سيد العلماء أبو بكر بن أبي تميمة كيسان العتري مولاهم البصري الآدمي ، كان الحسن يقول : أيوب سيد شباب أهل البصرة ، وقال سلام : قال كان أيوب السختياني يقوم الليل كله فيخفي ذلك فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة ، وقال حماد : ما رأيت رجلاً قط أشد تبسماً في وجوه الرجال من أيوب ، وقال أيضاً : ما فقنا أهل الأمصار في عصر قط إلا في زمن أيوب ويونس وابن عون لم يكن في الأرض مثلهم ، توفي سنة ١٣١هـ . انظر : طبقات الفقهاء ، الشيرازي ، ١/ ٩٥ ، ت خليل الميس ، دار القلم ، بيروت . وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/ ١٥ – ٣٦ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ١٨١/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٣) هو عبد الله بن عون بن أرطبان الإمام القدوة عالم البصرة أبو عون المزني مولاهم البصري الحافظ ، قال هشام بن حسان : لم تر عيناي مثل ابن عون قال مثل هذا القول وقد رأى الحسن البصري ، وقال ابن المبارك : ما رأيت أحدا أفضل من ابن عون ، وقال شعبة : شك ابن عون أحب إلي من يقين غيره ، وقال ابن سعد : كان ابن عون ثقة كثير الحديث ورعاً عثمانياً ، توفي سنة ٢٣٢هـ .انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/ ٣٦٤ – ٣٧٦ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٧٦/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ١٤٠٣هـ . وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٢٣٠/١ .

(٤) هو أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأمدي مولاهم أبو بسطام الواسطي بصري الدار ، الحافظ العلم أحد أئمة الإسلام ، قال أحمد : شعبة أثبت في الحكم من الأعمش وأحسن حديثاً من الثوري لم يكن في زمن شعبه مثله ، وقال الشافعي : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق ، وكان سفيان يقول : شعبة أمير المؤمنين في الحديث ، وقال ابن منجويه : كان من سادات أهل زمانه حفظاً وإتقاناً وورعاً وفضلاً وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين وجانب الضعفاء والمتروكين وصار علماً يقتدى به وتبعه عليه بعده أهل العراق ، توفي سنة ١٦٠هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٤٦٩/٢ ، ت إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨م . وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٨٩/١ ، شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٢٤٧/١ .

(٥) هو يحيى بن سعيد القطان التميمي أبو سعيد البصري الأحول ، الحافظ أحد الأئمة ، قال أحمد : لم يكن في زمانه مثله ، وقال أبو زرعة : من الثقات الحفاظ ، وقال ابن منجويه : كان من سادات أهل زمانه حفظاً وورعاً وفهماً وفضلاً وديناً وعلماً وهو الذي مهد لأهل العراق رسم الحديث وأمعن في البحث عن الثقات وترك الضعفاء ، توفي سنة ١٩٨هـ . انظر : صفوة الصفوة ، أبو الفرج ، ٣٦٥/٣ ، ت محمود فاخوري ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م . وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١٣١/١ .

(٦) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان أبو سعيد البصري اللؤلؤي الحافظ ، كان عالماً إماماً ثقةً ثبتاً متقناً حجةً ، توفي سنة ١٩٨هـ . انظر : شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٥٥/١ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١٤٤/١ .

الأسانيد كما ادعاه الذي وصفنا قوله)[1] .

أهل الأثر :

الأثر لغة : بقية الشيء ، وقد يطلق على الخبر ، وخرج في أثْره وأثَرِه : بعده .

وائْتَثَرَه وتَأَثَّرَه : تبع أثره ، ونقل الحديث وروايته كالأثارة والأُثْرَة[2] ، وأثرت الحديث نقلته[3] .

أما الأثر اصطلاحاً : فهو المروي عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي أو تابعي مطلقاً ، وهو المختار عند الجمهور[4] .

ومعنى لفظ (أهل الأثر) فكما قال الإمام السفاريني[5] – رحمه الله - : هم (... الذين يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله جل شأنه في كتابه أو في سنة النبي ﷺ أو ما ثبت وصح عن السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين الفخام دون زبالات أهل الأهواء والبدع ونخالات أصحاب الآراء والبشع)[6] .

أما عن أول من استخدم مصطلح أهل الأثر في التأليف فهو – بحسب اطلاعي – الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (٢٤١هـ) في كتابه (السنة) حيث قال : (هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها

---

(١) صحيح الإمام مسلم ، المقدمة ، ٢٩/١ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، باب الراء فصل الهمزة ، مادة أثر .

(٣) التعاريف ، المناوي ، ٣٣ .

(٤) انظر : أسباب اختلاف المحدثين ، خلدون الأحدب ، ٢٣/١ .

(٥) هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الشهرة والمولد ، النابلسي الحنبلي ، الشيخ الإمام والحبر البحر النحرير الهمام ، العلامة العالم العامل الفهامة ، صاحب التآليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة ، أبو العون شمس الدين ، اشتهر بالفضل والذكاء ، ودرس وأفتى وأفاد ، ومن مؤلفاته : (شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد) وشرح نونية الصرصري وسماها (معارج الأنوار في سيرة النبي المختار) (تحبير الوفاء في سيرة المصطفى) (البحور الزاخرة في علوم الآخرة) ، توفي في عام ١١٨٨هـ وقيل ١١٨٩هـ . انظر : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، نقلاً عن مقدمة كتاب لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ط المكتب الإسلامي ، دار الخاني .

(٦) لوامع الأنوار البهية ، السفاريني ، ٦٤/١ .

من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا)[1] .

قواعد أهل السنة والجماعة في العقيدة :

أولاً : مصدر التلقي هو كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع السلف الصالح .

وذلك لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[2] .

فطاعة الله هي اتباع كتابه ، وطاعة الرسول هو الأخذ بسنته ، وطاعة أولي الأمر وهم العلماء والأمراء تكون فيما أمروا به من طاعة الله لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[3] .

والرسول ﷺ يبين خيرية الكتاب والسنة ، ويذم الخارج عنهما المحدث في أمر الله ما ليس منه في خطبه فيقول : ((أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة))[4] .

قال الأوزاعي (١٥٧هـ) : (اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم وقل بما قالوا وكف عما كفوا واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم)[5] .

وقال أبوحاتم الرازي (٢٧٧هـ) : (مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان وترك النظر في موضع بدعهم والتمسك بمذهب أهل الأثر .. . ولزوم الكتاب والسنة والذب عن الأئمة المتبعة لآثار السلف واختيار ما اختاره أهل السنة من الأئمة في الأمصار)[6] .

قال شارح الطحاوية : (وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة

---

(١) كتاب السنة ، للإمام أحمد بن حنبل ، ٣٣ ، مع كتاب الرد على الجهمية والزنادقة ، (ط البابي الحلبي) .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ٥١٨/١ .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، رقم الحديث ٨٦٧ .

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١٧٤/١ .

(٦) المصدر السابق ، ٢٠٢/١ .

رسوله)[1] .

ويدخل تحت هذا الأصل ما يلي :

أ) يعتقد أهل السنة اعتقاداً جازماً أن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، وقد كفروا من ادعى وأصر على أن القرآن مخلوق .

قال سفيان الثوري (١٦١هـ) : (القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود من قال غير هذا فهو كافر)[2] .

قال أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) : (والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ولا تضعف أن تقول ليس بمخلوق فإن كلام الله منه وليس ببائن منه وليس منه شيء مخلوق)[3] .

ب) المرجع في تفسير آيات كتاب الله :

- تفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فسِّر في مكان آخر ، وما اختصر في مكان بسط في مكان آخر .
- تفسير القرآن بالسنة إن لم يوجد في القرآن ، لأن السنة شارحة للقرآن ومبينة له ، قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] وقال حسان بن عطية[5] : (كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن)[6] وقال مكحول[7] : القرآن أحوج إلى السنة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ٢١٨/١ .
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١٧٠/١ .
(٣) المصدر السابق ، ١٧٧/١ .
(٤) النحل : ٤٤ .
(٥) هو حسان بن عطية ، الإمام الحجة ، أبو بكر المحاربي مولاهم الدمشقي ، قال عنه الأوزاعي : ما رأيت أحداً أكثر عملاً في الخير من حسان بن عطية ، وقد وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، بقي إلى حدود عام ١٣٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٥/ ٤٦٦ — ٤٦٨ .
(٦) السنة ، محمد بن نصر المروزي ، ٣٣ ، قال عنه محقق الكتاب (سالم بن أحمد السلفي) : أثر إسناده صحيح ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
(٧) هو عالم أهل الشام ، يكنى بأبي عبدالله ، وقيل : بأبي أيوب ، وقيل : بأبي مسلم ، الدمشقي الفقيه ، قال عنه سعيد بن عبدالعزيز : لم يكن في زمن مكحول أبصر بالفتيا منه ، وقال العجلي : تابعي ثقة ، وقال أبو حاتم : ما بالشام أحد أفقه من مكحول ، قيل أنه توفي ما بين عام ١١٢هـ إلى ١١٦هـ .انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٥/ ١٥٥ — ١٦٠ .

من السنة إلى القرآن[1] .

- تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم إن لم يوجد في أقوال الرسول ﷺ لأنهم أدرى الناس بذلك لما شاهدوه من التنْزِيل ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، وقال ابن مسعود ﷺ : (والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أُنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[2] .

ج) كل ما صح من سنة الرسول ﷺ وجب قبوله والعمل به وإن كان آحاداً في العقائد وغيرها .

ولذلك اهتم السلف رضوان الله عليهم بالأسانيد والرواة في الأخذ بالأحاديث ، فما صح منها أخذوه ، وما علموه ضعيفاً أو موضوعاً نبذوه ، وأنكروا على أهل الكلام لأنهم ردوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة المتواترة تارة بالتأويل ، وتارة بالقول أنها أحاديث آحاد وذلك لجهلهم بالسنة ، ولاعتمادهم على عقولهم القاصرة ، مثل أحاديث الرؤية ، فقد رواها نحو ثلاثين صحابياً كما ذكر ذلك شارح الطحاوية[3] ، ومع ذلك ردوها وقالوا عنها أنها أحاديث آحاد .

وأهل السنة والجماعة يأخذون بالحديث الصحيح في العقيدة وغيرها وإن كان حديث آحاد ، ويعتقدون اعتقاداً جازماً أنه يفيد العلم ، وأن القول بضد ذلك بدعة أحدثها المعتزلة .

وكيف لا يؤخذ بحديث الآحاد والرسول ﷺ بعث رسله إلى الملوك آحاداً وقبل

---

(١) السنة ، محمد بن نصر المروزي ، ٣٣ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، رقم الأثر ٥٠٠٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ٢١٤/١ .

أخبارهم ، وبعث معاذاً إلى اليمن وقبل أهل اليمن خبره ؟!![1]

ثانياً : أصول الدين كلها قد بينها الله سبحانه وتعالى وبينها النبي ﷺ وليست لأحد أن يحدث شيئاً زاعماً أنه من الدين ، قال تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾[2] .

وقال ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[3] .

وقال رسول الله ﷺ : ((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))[4] .

فالرسول ﷺ قد بيّن جميع الدين أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ، علمه وعمله[5] .

وأصول الدين الحق الذي أنزل الله بها كتابه وأرسل بها رسوله : هي الأدلة والبراهين والآيات الدالة على المطالب الإلهية ، وإثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله والمعاد ، وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية ، بل وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية وإن كان لا يحتاج إليها .

ودلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر بل بدلالة الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين[6] .

لذلك فإن كل محدثة في الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

قال رسول الله ﷺ : ((وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة))[7] .

---

(١) للاستزادة انظر : الرسالة ، الشافعي ، ٣٦٩ – ٤٧٠ ، ت أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م والإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ، ١٠٧/١ ، دار الحديث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ .

(٢) الأنعام : ٣٨ .

(٣) النحل : ٨٩ .

(٤) رواه ابن ماجه ، المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، رقم الحديث ٤٣ ، ت محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، بيروت . وصححه الألباني ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، ٣٢/١ ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٥٥/١٩ .

(٦) انظر : المصدر السابق : ١٥٩/١٩–١٦٠ .

(٧) رواه ابن ماجة ، المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل ، رقم الحديث ٤٦ ، وصححه الألباني ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، ٣٤/١ .

وقال : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[1] .

والبدعة قد تكون زيادة في الدين أو نقص منه ، يقول ابن الوزير اليماني في ذلك : (فاعلم أن منشأ معظم البدع يرجع إلى أمرين واضح بطلانهما ، ... هما الزيادة في الدين بإثبات مالم يذكره الله تعالى ورسله عليهم السلام من مهمات الدين الواجبة ، والنقص منه بنفي بعض ما ذكره الله تعالى ورسله من ذلك بالتأويل الباطل)[2] .

وبيَّن أن أمر الله سبحانه في قوله ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[3] المقصود به هو الرد للكتاب والسنة ، فقال : (ولو لم يكونوا وافيين ببيان مهمات الدين ما أمرهم الله بالرجوع إليهما عند الاختلاف)[4] .

وقد أجمع الصحابة والتابعون لهم بإحسان على تحريم البدعة في الدين ، وحذروا منها ، حتى تمت النعمة وقامت الحجة بموافقة المتكلمين والغلاة على ذلك في الجملة[5] .

ثالثاً : التسليم لله ولرسوله ﷺ ، ظاهراً وباطناً ، فلا يعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة بقياس ، ولا ذوق ولا كشف ولا قول شيخ ولا إمام ونحو ذلك .

فيجب على المسلم التسليم المطلق ونبذ الخيرة والحذر من مشاقة الله ورسوله ، قال تعالى ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[6] وقال ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ﴾[7] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، رقم الحديث ٢٦٩٧ .

(٢) إيثار الحق على الخلق ، ابن الوزير اليماني ، ٨٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

(٣) النساء : ٥٩ .

(٤) إيثار الحق على الخلق ، ابن الوزير اليماني ، ١٠٧ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ١٠٧–١٠٨ .

(٦) النساء : ٦٥ .

(٧) الأحزاب : ٣٦ .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه)(1) .

وهذا التسليم للوحيين لا يلغي العقل ، بل يعطيه دوره اللائق به ، ولا يسمح له بالدخول في الأمور الغيبية مما لا مجال للعقل فيه ، ولكنا مع ذلك مأمورين بإعمال عقولنا في المحسوسات ، وسيأتي الكلام عن هذه النقطة في الفصل الأول من الباب الأول .

ومن مظاهر التسليم لله ورسوله عدم معارضة الكتاب بالسنة ، لقوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ ﴾(2) ، ولقوله ﷺ : ((لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه))(3) .

وقد حدث سعيد بن جبير (٩٤هـ) عن رسول الله ﷺ حديثاً فقال رجل : إن الله عز وجل قال في كتابه كذا وكذا ، فقال سعيد : (لا أراك تعارض حديث رسول الله ﷺ بكتاب الله عز وجل ، رسول الله ﷺ أعلم بكتاب الله عز وجل سبحانه وتعالى)(4) .

يقول ابن أبي العز : (فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً ، أو يحمّله شبهة أو شكاً ، أو يقدم عليه آراء الرجال ، وزبالة أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما وحد المُرْسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل)(5) .

رابعاً : العقل الصريح موافق للنقل الصحيح ولا يتعارض قطعيان منهما أبداً .

---

(1) رواه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب كيف المسح ، رقم الأثر ١٢٦ -١٦٤ ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر . وصححه الألباني ، انظر : صحيح سنن أبي داوود ، ٣٣/١ ، ت زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

(2) الحشر : ٧ .

(3) رواه أبو داوود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، رقم الحديث ٤٦٠٥ ، صححه الألباني ، انظر ، صحيح سنن أبي داوود ، ٨٧١/٣ .

(4) الشريعه ، الآجري ، رقم الأثر ٩٦ .

(5) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ٢٢٨/١ .

فالعقل خلقه الله سبحانه وتعالى وجعل من وظائفه أن يفهم عنه ويعقل دينه وشرعه، فلا يجوز في حقه أن يرد شيئاً من الوحي بحجة أنه يخالف قضية العقل ، فالشريعة قد تأتي بما يحير العقول لا بما تحيله العقول .

أما عن أسباب توهم التعارض[1] :

- إما أن لا تكون من المسائل البينة المعروفة بصريح العقل .
- أن يكون العقل ليس بصحيح ولا صريح .
- أن يكون النقل المستدل به مكذوباً موضوعاً ، ويعلم ذلك أهل الصناعة والمعرفة بالحديث .
- أن يكون النقل صحيحاً لكن المستدل غلط في الاستدلال به .

خامساً : الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة وتجنب الألفاظ البدعية التي أحدثها الناس ، والألفاظ المجملة المحتملة للخطأ والصواب يستفسر عن معناها ، فما كان حقاً أثبت بلفظه الشرعي وما كان باطلاً رد .

فالسلف رضوان الله عنهم كرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لاشتمالها على أمور كاذبة مخالفة للحق ، فهي تخالف الكتاب والسنة ، وتشتمل مقدماتها أيضاً على الحق والباطل ، فبسبب ذلك حدث المراء والجدال ، وانتشر القيل والقال ، وتولد عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال[2] .

قال شارح الطحاوية : (والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية ، هو سبيل أهل السنة والجماعة ، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ، ولا يتدبرون معانيها ، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده .

وأما أهل الحق والسنة والإيمان ، فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز ، ١/٢٢٧ ، و قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد ، عثمان علي حسن ، ٧١ ، دار الوطن ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٣هـ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ١/٢٠ .

اعتقاده واعتماده ، والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضاً جملياً ، أو يبينوا حاله تفصيلاً ، ويحكم عليه بالكتاب والسنة لا يحكم به على الكتاب والسنة)[1] .

سادساً : العصمة ثابتة للرسول ﷺ والأمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة ، وأما آحادها فلا عصمة لأحد منهم ، وما اختلف فيه الأئمة وغيرهم فمرجعه إلى الكتاب والسنة ، فما قام عليه الدليل قبل ، مع الاعتذار للمخطيء من مجتهدي الأمة.

أما عن عصمة الرسول ﷺ فذلك لقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[2] .

وأما عصمة الأمة فلقوله ﷺ : ((إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة))[3] .

وكل إمام دون رسول الله ﷺ يؤخذ من كلامه ويرد إلا رسول الله ﷺ كما قال الإمام مالك رحمه الله ، وكل كلام عارض الكتاب والسنة يضرب به عرض الحائط كما قال الإمام الشافعي[4] .

سابعاً : الابتعاد عن المراء والجدال الباطل في الدين ، ويرون المجادلة بالحسنى مشروعة ، وما صح النهي عن الخوض فيه وجب امتثال ذلك ، ويجب الإمساك عن الخوض فيما لا علم للمسلم به ، وتفويض علم ذلك إلى عالمه .

قال تعالى ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[5] .

وقال رسول الله ﷺ : ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل))[6] ثم قرأ هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[7] .

---

(١) المصدر السابق ، ٧١/١ .

(٢) النجم : ٣-٤ .

(٣) رواه ابن أبي عاصم في (السنة) ، باب ما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمره بلزوم الجماعة وإخباره أن يد الله مع الجماعة ، رقم الحديث ٨٣ ، قال عنه الألباني : حديث حسن ، وإسناده ضعيف .

(٤) انظر : خصائص أهل السنة ، أحمد فريد ، ٦٤ ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

(٥) النحل : ١٢٥ .

(٦) رواه ابن ماجه ، المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل ، رقم الحديث ٤٨ ، حسنه الألباني ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، ٣٥/١ .

(٧) الزخرف : ٥٨ .

فتبين من الآية والحديث أن الجدل قسمان : جدل محمود مشروع في الدين وهو الجدل البناء الذي يخرج المتجادلون منه بنتيجة متفق عليها .

أما الجدل المذموم المنهي عنه في الحديث فهو الذي يكون لمجرد الجدل وإثارة الفوضى والشكوك حول الأمر الذي يدور عليه الجدل .

والجدل الذي ذمه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنواع :

أ) منه الجدل الذي يكون لتقرير الباطل والدفاع عنه ، وذلك في قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾[(١)] .

ب) ومنه الجدال بالباطل ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً ﴾[(٢)] .

ج) ومنه الجدل بغير علم ، قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾[(٣)] وقال ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾[(٤)] .

د) ومنه الجدل في الحق بعد ما تبين ، قال تعالى ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾[(٥)] .

وقد ذم الرسول ﷺ المراء في القرآن فقال : ((المراء في القرآن كفر))[(٦)] .

وسمع قوماً يتدارؤون في القرآن فقال : ((إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض ، وإنما كتاب الله تعالى يصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا

(١) النساء : ١٠٩ .
(٢) الكهف : ٥٦ .
(٣) الحج : ٣ .
(٤) الحج : ٨ ، لقمان : ٢٠ .
(٥) الأنفال : ٦ .
(٦) رواه أبو داوود ، كتاب السنة ، باب النهي عن الجدال في القرآن ، رقم الحديث ٤٦٠٣ ، صححه الألباني ، انظر : صحيح سنن أبي داوود ، ٣/٨٧٠ .

بعضه ببعض ، ما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه))[(١)] .

وعندما سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن معنى قول الله تعالى ﴿ وفاكهة وأباً ﴾[(٢)] قال : (أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم)[(٣)] .

ثامناً : الالتزام بمنهج الوحي في الرد ، كما يجب في الاعتقاد والتقرير ، فلا ترد البدعة ببدعة ، ولا يقابل التفريط بالغلو ولا العكس[(٤)] ، مع العلم بأن منهج المجادلة والرد أوسع من منهج الاعتقاد .

وقد بيَّن ابن القيم رحمه الله فساد رد البدعة ببدعة مثلها فقال : (من المعلوم أن كل مبطل أنكر على خصمه شيئاً من الباطل قد شاركه في بعضه أو نظيره ، فإنه لا يتمكن من دحض حجته لأن خصمه تسلط عليه بمثل ما تسلط هو به عليه .

مثاله : أن يحتج من يتأول الصفات الخبرية وآيات الفوقية والعلو على من ينكر ثبوت صفة السمع والبصر والعلم بالآيات والأحاديث الدالة على ثبوتها ، فيقول له خصمه : هذه عندي مؤولة كما أولت نصوص الاستواء والفوقية والوجه واليدين والنزول والضحك والفرح والغضب والرضى ونحوها .فما الذي جعلك أولى بالصواب في تأويلك مني ؟ فلا يذكر سبباً على التأويل إلا أتاه خصمه بسبب من جنسه أو أقوى منه أو دونه ... فقد بان أنه لا يمكن أهل التأويل أن يقيموا على مبطل حجة من كتاب ولا سنة ، ولم يبق لهم إلا نتائج الأفكار وتصادم الآراء)[(٥)] .

تاسعاً : العمل بالمحكم والإيمان بالمتشابه ، فأهل السنة والجماعة يعملون بمحكم القرآن ويؤمنون بمتشابهه .

قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، ٢/١٨٥ ، رقم الحديث ٦٧٤١ ، حديث صحيح وإسناده حسن . انظر : النسخة المحققة ، ١١/٣٥٤ .

(٢) عبس : ٣١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ١/٦ ، ٤/٤٧٤ .

(٤) مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة ، ناصر العقل ، ٩ ، دار الوطن ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٣هـ .

(٥) مختصر الصواعق المرسلة ، ابن قيم الجوزية ، ٧٩-٨٠ .

مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [١] .

وقد وردت عن العلماء عدة تعريفات للمحكم والمتشابه[٢] ، ولكن سأكتفي بتعريف شيخ الإسلام في التدمرية حيث بيَّن رحمه الله أن التشابه :

هو مشابهة الشيء لغيره من وجه مع مخالفته من وجه آخر ، بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله وليس كذلك .

أما المحكم : فهو الفصل بينهما ، بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر ، وهذا التشابه إنما يكون بقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما[٣] .

أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة :

أولاً : الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

قال تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [٤] .

وقال ﷺ : ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان))[٥] .

قال سفيان الثوري (١٦١هـ) : (والإيمان قول وعمل ونية يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، ولا يجوز القول إلا بالعمل ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، الإكليل في المتشابه والتنزيل ، ١٣/ ٢٧٠ – ٣١٣ ، و قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد ، عثمان علي حسن ، ١٢٧ – ١٤٢ .

(٣) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، التدمرية ، ٣/ ٦٢ .

(٤) البينة : ٥ .

(٥) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ، رقم الحديث ٣٥ .

ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بموافقة السنة)[1] .

وقال أحمد بن حنبل : (والإيمان قول وعمل يزيد وينقص كما جاء في الخبر : ((أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً))[2] .

والإمام أحمد يقصد هنا بقوله : (الإيمان قول وعمل) أي قول القلب والجوارح وعمل القلب والجوارح .

وقد ألف جماعة من السلف أمثال القاسم بن سلام ، وابن أبي شيبة[3] في الإيمان وبينوا فيه درجاته واستكماله ومعالمه وزيادته ونقصانه والأدلة الدالة على ذلك ، وبينوا فيه قول أهل السنة ورجحوه وصوبوه بالأدلة من الكتاب والسنة .

ثانياً : الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره كل من عند الله ، وأن الخير والشر بقدر الله[4] .

قال تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[5] .

وقال ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[6] .

وقال ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[7] .

وقال رسول الله ﷺ : ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حتى يعلم أن ما

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/١٧٠-١٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ١/١٧٩ ، وانظر : أصول السنة ، أحمد بن حنبل ، ٥٨-٥٩ ، ت الوليد بن سيف النصر ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م . والحديث المذكور رواه أبو داوود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، رقم الحديث ٤٦٨٢ ، صححه الألباني ، انظر : السلسلة الصحيحة ، ١/٥٧٣ ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٣) هو عبدالله بن محمد بن القاضي ابن شيبة إبراهيم بن عثمان بن خواستي ، الإمام العلم سيد الحفاظ ، قال عنه العجلي : كان أبو بكر ثقة حافظاً للحديث ، وقال الخطيب : كان أبو بكر متقناً حافظاً ، صنف الكتب الكبار مثل (المسند) (المصنف) (التفسير) (الأحكام) ، توفي عام ٢٣٥هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١١/ ١٢٢ - ١٢٧ .

(٤) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/١٧١و ١٩٦ .

(٥) الفلق : ١-٢ .

(٦) الصافات : ٩٦ .

(٧) القمر : ٤٩ .

أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه))[١] .

قال الإمام أحمد : (ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها : الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه والإيمان بها ، لا يقال : لم ؟ ولا كيف ؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها ، ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفي ذلك وأحكم له ، فعليه الإيمان به والتسليم له مثل حديث الصادق المصدوق وما كان مثله في القدر)[٢] .

ثالثاً : عدم الشهادة لأحد بجنة ولا نار ، إلا من شهد له الرسول ﷺ بذلك ، مثل العشرة المبشرين بالجنة وبعض الصحابة غيرهم .

أما من لم يرد فيه نص من المسلمين فأهل السنة يرجون للمحسن الثواب ويخافون على المسيء العقاب ويرجون له رحمة الله .

قال سفيان الثوري : (ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم)[٣] .

لذلك فأهل السنة يعتقدون بأن من لقي الله بذنب مصراً عليه ، فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، ولا يشهدون له بنار ولا مغفرة وإنما هو تحت المشيئة .

قال علي بن المديني : (ولا يشهد على أحد من أهل القبلة بعمل عمله بجنة ولا نار نرجو للصالح ونخاف على الطالح المذنب ونرجو له رحمة الله عز وجل .

ومن لقي الله بذنب يجب له بذنبه النار تائباً منه غير مصر عليه فإن الله يتوب عليه ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

ومن لقي الله وقد أقيم عليه حد ذلك الذنب فهو كفارته كما جاء عن رسول الله ﷺ .

ومن لقيه مصراً غير تائب من الذنوب التي استوجبت بها العقوبة فأمره إلى الله عز

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب القدر عن رسول الله ، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره ، رقم الحديث ٢١٤٤ ، صححه الألباني ، انظر : صحيح سنن الترمذي ، الألباني ، ٢/٤٤٦ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/١٧٦ ، وانظر : أصول السنة ، أحمد بن حنبل ، ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ١/١٧٥ .

وجل إن شاء عذبه وإن شاء غفر له)[1] .

ومع هذا فأهل السنة يعتقدون أن من عذبه الله من الموحدين فهو لا يخلد في النار ولكن يخرج منها ويدخل الجنة ، قال أبو ثور (٢٤٠هـ) : (والذي عندنا أن نقول : لا يخلد موحد في النار)[2] .

رابعاً : الإيمان بالحوض والشفاعة والميزان والصراط وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ، وجميع الأمور الغيبية المستقبلية التي أخبر بها الرسول ﷺ .

قال الإمام أحمد : (والإيمان بالميزان كما جاء ((يوزن العبد يوم القيامة فلا يزن جناح بعوضة))[3] وتوزن أعمال العباد كما جاء في الأثر ، والإيمان به والتصديق به والإعراض عن من رد ذلك وترك مجادلته ، . . . والإيمان بالحوض وأن لرسول الله ﷺ حوضاً يوم القيامة ترد عليه أمته عرضه مثل طوله مسيرة شهر ، آنيته كعدد نجوم السماء على ما صحت به الأخبار من غير وجه ، والإيمان بعذاب القبر وأن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن الإيمان والإسلام ومن ربه ؟ ومن نبيه ؟ ويأتيه منكر ونكير كيف شاء الله عز وجل وكيف أراد ، والإيمان به والتصديق به ، والإيمان بشفاعة النبي ﷺ ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما احترقوا وصاروا فحما فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة كما جاء في الأثر كيف شاء الله ؟ وكما شاء ؟ إنما هو الإيمان به والتصديق به)[4] .

خامساً : الصحابة كلهم عدول وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ ، وهذا هو موافقة السنة الذي عناه سفيان الثوري عندما قال : (ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بموافقة السنة ، فسئل : وما موافقة السنة ، قال : تقدمة الشيخين أبي بكر وعمر

---

(١) المصدر السابق ، ١/١٨٩-١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ١/١٩٣ .

(٣) رواه البخاري بلفظ ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة)) كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ رقم الحديث ٤٧٢٩ .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/١٧٨ .

رضي الله عنهما ، ولا ينفعك ما كتبت حتى تقدم عثماناً وعلياً على من بعدهما)[1] .

قال ابن عمر رضي الله عنهما : (كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ ، فنخير أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان رضي الله عنهم)[2] .

ثم بعد هؤلاء يأتي بقية العشرة المبشرين بالجنة طلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعيد بن زيد ، ثم أهل بدر من المهاجرين ، ثم أهل بدر من الأنصار على قدر الهجرة والسابقة أولاً فأولاً[3] .

قال رسول الله ﷺ : ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . .))[4] .

سادساً : وجوب طاعة ولي أمر المسلمين براً كان أو فاجراً ، وأمير المؤمنين هو من ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين[5] .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[6] .

وقال رسول الله ﷺ : ((من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني))[7] .

والغزو ماض معهم إلى يوم القيامة لا يترك ، وعدم الخروج عليهم لأن في ذلك مخالفة لله ورسوله ، إلا أن يروا كفراً بواحاً عليهم من الله فيه سلطان وهو ترك الصلاة ومنع إقامتها .

---

(١) المصدر السابق ، ١/١٧١ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، رقم الأثر ٣٦٥٥ .

(٣) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، ١/١٧٩ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على جور إذا أشهد ، رقم الحديث ٢٦٥٢ .

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/١٨٠ ، وانظر : أصول السنة ، أحمد بن حنبل ، ٦٤ .

(٦) النساء : ٥٩ .

(٧) رواه البخاري ، كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ رقم الحديث ٧١٣٧ .

قال رسول الله ﷺ : ((خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، ويصلون عليكم وتصلون عليهم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم)) قيل : يارسول الله أفلا ننابذهم بالسيف ، فقال : ((لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه ، ، فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة))[1] .

سابعاً : المسح على الخفين حضراً وسفراً ، وهذه المسألة من الفروع لكن ذكرت هنا لمخالفة بعض الفرق فيها ، فأصبحت علامة لأهل السنة .

وعندما سئل سهل بن عبدالله التستري (٢٨٣هـ) : متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة ؟ ذكر عدة خصال فكان منها قوله : (ولا يترك المسح على الخفين)[2] .

ثامناً : الإيمان بالأسماء والصفات ، وإثباتها على ما جاءت في الكتاب والسنة ، قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[3] وقال ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[4] ، مع إثبات العلم بمعناها ونفي العلم بكيفيتها ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾[5] ، ونفي التمثيل في الإثبات ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[6] .

جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال : يا أبا عبدالله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[7] كيف استوى ؟ قال الراوي : فما رأيت مالكاً وجد في شيء كموجدته من مقالته وعلاه الرحضاء – يعني العرق – قال : وأطرق القوم جعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه ، قال : فسري عن مالك فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير

(١) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب خيار الأئمة وشرارهم ، رقم الحديث ١٨٥٥ .
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/٢٠٥ .
(٣) الأعراف : ١٨٠ .
(٤) الإسراء : ١١٠ .
(٥) طه : ١١٠ .
(٦) الشورى : ١١ .
(٧) طه : ٥ .

مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالاً) وأمر به فأخـــرج[1] .

والإيمان بأن الله يُرى يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[2] أي تنظر إلى ربها نظراً[3] .

قال أبو جعفر الطبري (٣١٠هـ) : (وأما الصواب من القول في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل يوم القيامة وهو ديننا الذي ندين الله به وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة فهو أن أهل الجنة يرونه على ما صحت الأخبار عن رسول الله) ﷺ[4] .

ثم ساق بسنده إلى رسول الله ﷺ قوله : ((إنكم راءون ربكم عز وجل كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته))[5] .

وأن الله مستو على عرشه ، بائن من خلقه ، قال أبو جعفر الطبري : (ويعلم أن ربه هو الذي ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾[6] فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وضل وهلك[7] .

تاسعاً : في الأمة محدِّثون ملهمون كعمر بن الخطاب ، والرؤيا الصالحة حق ، وهي جزء من النبوة ، والفراسة الصادقة حق ، وفيها كرامات ومبشرات ، بشرط موافقتها للشرع ، وليست مصدراً للعقيدة ولا للتشريع .

---

(١) رواه اللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، ٣/ ٤٤١ .

(٢) القيامة : ٢٢-٢٣ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ٢١٠/١ .

(٤) صريح السنة ، أبو جعفر الطبري ، ٢٠ ، ت بدر يوسف المعتوق ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت، ط ١ ، ١٤٠٥هـ . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ٢٠٧/١ .

(٥) رواه الطبري في (صريح السنة) بسنده ، ٢٠ ، والحديث صحيح رواه البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر ، رقم الحديث ٥٥٤ .

(٦) طه : ٥-٦ .

(٧) صريح السنة ، أبو جعفر الطبري ، ٢٧ ، وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ٢٠٩/١ .

قال رسول الله ﷺ : ((لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر))[1] .

وقال : ((الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة))[2] .

(١) رواه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب عمر بن الخطاب ، رقم الحديث ٣٦٨٩ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب التعبير ، باب رؤيا الصالحين ، ٦٩٨٣ .

المبحث الثاني

التعريف بالدليل العقلي

أولاً : التعريف بالدليل لغة وشرعاً :

وردت كلمة (دلَّ) في معاجم اللغة بمعاني كثيرة منها : الهداية والتسديد إلى الشيء والإرشاد ، فيقال : دل فلان إذا هدى[(١)] ، ويقال فلان دليل إذا كان محدِّثاً[(٢)] لأنه يهدي الناس إلى الخير .

وفي حديث علي ﷺ في صفة الصحابة رضي الله عنهم : (ويخرجون من عنده أدلة)[(٣)] - أي من عند رسول الله ﷺ - وهو جمع دليل أي بما قد علموا فيدلون عليه الناس يعني يخرجون من عنده فقهاء ، فجعلهم أنفسهم أدلةً مبالغةً[(٤)] .

ويقال أيضاً : دله على الشيء يدله دلاً ودلالة فاندل سدده إليه ، ومنه الدليل وهو ما يستدل به ، والدليل هو الدال ، والدليلة المحجة البيضاء[(٥)] ، والدُّلّي : المحجة الواضحة[(٦)] ، والدليل هو المرشد وما به الإرشاد[(٧)] .

ووردت كلمة (دلَّ) كذلك بعدة معاني أخرى مختلفة عن المعاني السابقة منها :

١ - الانبساط والثقة ، يقال : أدلَّ عليه وثق بمحبته فأفرط عليه ، ومنه دلال المرأة على زوجها .

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، ٢٤٨/١١ ، وتاج العروس ، الزبيدي ، ٢٣٥/٧ .

(٢) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ١٢٩٢ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، ذكر صفة خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ٤٢٣/١ ، دار صادر ، بيروت . وصفوة الصفوة ، لابن الجوزي ، ذكر صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ١٥٨/١ .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور ، ٢٤٩/١١ .

(٥) لسان العرب ، ابن منظور ، ٢٤٨/١١ -٢٤٩ .

(٦) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ١٢٩٣ .

(٧) تاج العروس ، للزبيدي ، ٢٣٥/٧ ، والتعريفات ، للجرجاني ، ١٤٠ ، والتعاريف ، للمناوي ، ٣٤٠ ، والواضح في أصول الفقه ، لأبي الوفاء ابن عقيل ، ٣٢/١ ، وشرح الكوكب المنير ، لأبي البقاء الفتوحي ، ١٥ ، ت محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م .

٢ - الشكل وحسن الهيئة والمنظر والحديث ، والسكينة والوقار .

٣ - الجرأة ، يقال : ما دلك عليّ أي ما جرأك عليّ ، والمدل بالشجاعة هو الجريء .

٤ - الفخر ، يقال : دلَّ فلان إذا افتخر .

٥ - المنُّ بالعطاء ، يقال : دلَّ فلان إذا منَّ بعطائه ، والأدلّ المنان بعمله .

٦ - التهدل والتحريك والتدلي ، ومنه الدلدلة وهو تحريك الرجل رأسه وأعضاءه في المشي .

٧ - الاضطراب ، يقال : يتدلدل في مشيه إذا اضطرب ، ويقال : القوم في دلدال وبلبال إذا اضطرب أمرهم وتذبذب ، وقوم دلدال إذا تدلدلوا بين أمرين فلم يستقيموا[(١)] .

هذه هي معاني لفظ (دلَّ) كما وردت في معاجم اللغة ، ولكن كلمة (دليل) على وزن فعيل — صيغة مبالغة — لا تأتي إلا بمعنى الشيء الذي يهدي ويرشد ويستدل به ، كما ذكرنا في المعنى الأول .

الدليل شرعاً :

عُرِّف الدليل اصطلاحاً بأنه :

ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري[(٢)] .

وهذا هو التعريف المعتبر عند أكثر العلماء من الأصوليين والمتكلمين ، وهو تعريف عام يشمل القطعي والظني من الأدلة[(٣)] .

ولكنَّ بعض المتكلمين نظروا في تعريفهم للدليل إلى نتيجته من حيث إفادتها لليقين أو الظن ، وتبعاً لذلك فقد فرقوا بينهما في التسمية ، فما كان مفيداً لليقين جعلوه دليلاً ،

---

(١) انظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ١٢٩٢ ، وتاج العروس ، الزبيدي ، ٢٣٥/٧ ، ولسان العرب ، ابن منظور ، ٢٤٧/١١ -٢٥٠ ، ومختار الصحاح ، مادة دلل .

(٢) شرح الكوكب المنير ، أبو البقاء الفتوحي ، ١٦ ، والمواقف ، الإيجي ، ٣٤ ، عالم الكتب ، بيروت . والتعاريف ، المناوي ، ٤٣٠ .

(٣) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، ٢٩٢/٢ ، ت لطفي عبدالبديع ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط ١ ، ١٩٩٦م .

وما كان مفيداً للظن أمارة[1] .

وهذا خلاف ما يفهم من القرآن فأن لفظ الدليل ورد في القرآن بمعنى العلامة أو الأمارة ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾[2] والفعل منه ورد في عدة آيات بمعنى الهداية والإرشاد كقوله تعالى ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾[3] .

أما المصطلحات التي وردت في القرآن بمعنى الدليل ، فهي تفيد معنى الدليل وأكثر كالوضوح والظهور والبيان والقطعية ، من هذه الألفاظ (البرهان[4] ، الآية[5] ، الحجة[6] ، البينة[7] ، السلطان[8])[9] وهذا يدل على أن لفظ الدليل يفيد العموم ، وليس هناك فرق بين الدليل والأمارة .

يقول أحد الباحثين : (ومن الأمور اللافتة للنظر أن القرآن لم يستعمل لفظ الدليل إطلاقاً في أي موقف أو محاجة كما استعمل المصطلحات السابقة ولعل من أسباب ذلك أن لفظ الدليل قد يستعمل في غير الدلالة البرهانية القاطعة)[10] .

وقد نقض أبو يعلى في (العدة) هذا التفريق ، فقال : (وهذا غير صحيح لأن ذلك – أي الأمارة – اسم لغوي ، وأهل اللغة لا يفرقون بينهما ، وأيضاً فإنه مرشد إلى المطلوب – أي الأمارة – فوجب أن يكون دليلاً كالموجب للعلم ، وأيضاً فإن اعتقاد

---

(١) انظر : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، الفخر الرازي ، ٥٠ ، ت طه عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

(٢) الفرقان : ٤٥ ، وانظر تفسير الآية في فتح القدير ، الشوكاني ، ٧٩/٤ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت– لبنان .

(٣) طه : ٤٠ .

(٤) البقرة : ١١١ .

(٥) البقرة : ١٤٥ .

(٦) الأنعام : ١٤٩ .

(٧) الأنعام : ٥٧ .

(٨) الدخان : ١٩ .

(٩) انظر : دراسات في المنطق ومناهج البحث ، محمد السيد الجليند ، ٩/٢ .

(١٠) المصدر السابق ، ١١/٢ .

موجبهما والعمل بهما واجب فلا فرق بينهما ، ولا فرق بين ما دل بنفسه مثل دلالة الفعل على الفاعل والإحكام والإتقان على قصده إليه وعلمه به ، وبين ما دل بالمواضعة مثل الفعل والقول الدالين على ما وضعا له من المعاني ، والرجل الدال على الطريق يسمى دليلاً ، وهو مجاز ، لأن شخصه ليس بدليل وإنما الدليل قوله وفعله)[(١)] .

وقد أيده الشيرازي[(٢)] في (اللمع) وذكر أن هذا التفريق خطأ ، لأن العرب لا تفرق في تسمية ما يؤدي إلى العلم أو الظن فلم يكن لهذا الفرق وجه[(٣)] .

لذلك فإن هؤلاء الذين فرقوا بين الدليل والأمارة عرفوا الدليل فقالوا :

هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبري[(٤)] .

فأضافوا كلمة (العلم) ليبينوا أن لفظ الدليل لا يفيد إلا اليقين ، وتفريقهم هذا تابع لقولهم بتقديم العقل على النقل عند التعارض كما يزعمون[(٥)] .

ومن المتكلمين الذين قالوا بالتفريق الفخر الرازي[(٦)] في (المحصل) حيث قال : (الدليل : هو الذي يلزم من العلم به العلم بوجود المدلول ، والأمارة : هو الذي يلزم من

---

(١) العدة في أصول الفقه ، أبو يعلى ، ١/١٣١-١٣٢ ، ت أحمد بن علي سير المباركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزآباذي الملقب جمال الدين ، سكن بغداد وتفقه على جماعة من الأعيان ، وصار إمام وقته في بغداد ؛ تولى مدرسة نظام الملك بعد ابن الصباغ ولم يزل بها حتى مات ، من مؤلفاته : (المهذب في المذهب) (التنبيه في الفقه) (واللمع وشرحها في الفقه) (النكت في الخلاف) وغيرها ، توفي في ٤٧٦هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ١ / ٢٨ — ٣١ .

(٣) انظر : شرح اللمع في أصول الفقه ، الشيرازي ، ١/٩٧ ، ت علي العميريني ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، ٢/٢٩٢ ، وانظر : المواقف ، الإيجي ، ٣٤-٣٥ .

(٥) انظر : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، الفخر الرازي ، ٥١ .

(٦) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري ، أبو عبدالله المعروف بالفخر الرازي ، كان يتوقد ذكاءً ، ولكن بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة ، وقيل أنه توفي على طريقة حميدة والله يتولى السرائر ، من مؤلفاته : (التفسير) (المطالب العالية) (المباحث المشرقية) (الأربعين) (المحصول) وهو في أصول الفقه ، توفي في ٦٠٦هـ . انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٧/ ١١ — ١٤ ، ت عبدالله التركي ، دار هجر ، مصر ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م . وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٢١/ ٥٠٠ — ٥٠١ ، وطبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ٨/ ٨١ — ٩٦ .

العلم بها ظن وجود المدلول)[1] .

ومما لا شك فيه أن هذا الاصطلاح حادث وهو تفريق بلا مبرر ، ومن المعلوم أن الفخر الرازي من المتكلمين المغالين في التعويل على العقل وأنه هو صاحب قانون التعارض[2] .

فيتبين مما سبق أن لفظ الدليل شامل لكل ما أفاد اليقين أو الظن ، وأنه هو والأمارة بمعنى واحد ، بل إن بعض الأمارات تفيد القطع واليقين ، وأن القرآن الكريم عندما عرض أدلته البرهانية اليقينية لم يسمها باسم الدليل بل أطلق عليها ألفاظاً أخرى أبلغ من لفظ الدليل ، فبطل بذلك قولهم بالتفريق .

كذلك من الأقوال في تعريف الدليل قول من قال أن الدليل هو : المرشد إلى معرفة الغائب عن الحواس ومالا يعرف باضطرار ، وهو الذي يُنْصَب من الإمارات ويورد من الإيماء والإشارات مما يمكن التوصل به إلى معرفة ما غاب عن الضرورة والحس[3] .

وقد انْتُقِدَ هذا التعريف بأنه تضييق لمفهوم الدليل لا داعي له ، لأن معرفة الله سبحانه وتعالى ضرورية عند أكثر الناس ، ومع ذلك كل شيء يدل عليه ، كما أن الله سبحانه وتعالى جعل الشمس دليلاً على الظل مع وقوعه تحت الحواس[4] .

تعريف النظر :

قلنا في تعريف الدليل أنه : ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري .

فما هو النظر ؟ وما هي صحته ؟

(١) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، الفخر الرازي ، ٥٠ .

(٢) انظر : أساس التقديس ، الفخر الرازي ، ١٣٠ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٣) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، أبو بكر الباقلاني ، ٣٣-٣٤ ، ت عماد الين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . وانظر : الإرشاد ، الجويني ، ٢٩ ، ت أسعد تميم ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٤) انظر : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ، سعود العريفي ، ٢٣ ، دار عالم الفوائد ، مكة ، ط ١ ، ١٤١٩هـ .

النظر : هو الفكر في حال المنظور[1] .

وقيل : هو الفكر الذي يطلب به من قام به علماً أو غلبة ظن[2] .

وقيل : هو الانتقال من أمور حاصلة في الذهن إلى أمور مستحصلة هي المقاصد ، والفكر بحسب الاصطلاح كالمرادف للنظر[3] .

نجد أن هذه التعريفات كلها بمعنى واحد ، وهي تفيدنا بأن هناك شخصاً ما ، لديه قضية يريد أن يتوصل إلى نفيها أو إثباتها ، فيحاول التفكر والتأمل لكي يصل إلى النتيجة المرادة ، وقد يكون ما يتوصل إليه علماً يقينياً ، وقد يكون غلبة ظن ، وهذا الشخص يسمى ناظر .

وقد ذكر الأصوليون في أثناء كتبهم شروطاً للنظر الصحيح الذي يتوصل به إلى العلم اليقيني ، منها :

- الإيمان بالله عز وجل ورسوله ﷺ وقصد طاعتهما[4] .
- كون الناظر كامل الآلة ، وهو معرفة طريق الأحكام الشرعية وكيفية ترتيب الأدلة بعضها على بعض[5] .
- كون النظر في دليل وبرهان لا في شبهة لأن في ذلك درك للمقصود ووصول إلى المراد[6] .
- التجرد عن التعصب والحمية وإماتة الشهوات[7] .

---

(١) شرح اللمع في أصول الفقه ، الشيرازي ، ٩٣/١ .

(٢) الإرشاد، الجويني، ٢٥ ، وانظر: شرح الكوكب المنير، أبو البقاء الفتوحي، ١٧ ، والمواقف، الإيجي، ٢١.

(٣) تلخيص المحصل ، الطوسي ، ٤١ . وهذا الكتاب في ذيل كتاب المحصل السابق الذكر .

(٤) انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة ، ٦٧/٢ ، ت عبدالرحمن بن قاسم ، مؤسسة قرطبة . و الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٥١٧/٢ ، ت علي الدخيل الله ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(٥) شرح اللمع ، الشيرازي ، ٩٤/١ .

(٦) انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة ، ٦٧/٢ ، و شرح اللمع ، الشيرازي ، ٩٤/١ .

(٧) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٥١٧/٢ ، و بيان تلبيس الجهمية ، ابن تيمية ، ٢٧٥/١ ، ت محمد ابن قاسم ، مؤسسة قرطبة .

- استفراغ الوسع وبذل الطاقة في سبيل معرفة الحكم الصحيح[1] .
- وجوب كون الناظر متعين الإصابة غالباً[2] .
- استيفاء الدليل بشروطه فيقدم ما يجب تقديمه ويؤخر ما يجب تأخيره ويعتبر ما يجب اعتباره ، وهذا يستدعي التروي في الحكم[3] .

وعند البحث وجدت أن بعض العلماء فرقوا بين الاستدلال والنظر ، والبعض الآخر جعلوهما بمعنى واحد .

فمن الذين فرقوا بينهما في المعنى الشيرازي في (اللمع) ، وذلك أنه بعد تعريفه للنظر عرَّف الاستدلال فقال : (والاستدلال : هو طلب الدليل وقد يكون ذلك من السائل للمسؤول وقد يكون من المسؤول في الأصول)[4] .

وكذلك ابن عقيل[5] في (الواضح) حيث عرَّف الاستدلال بأنه : طلب المدلول[6] ، أو طلب الدلالة على المعنى[7] ، ثم عرَّف النظر بعد ذلك بأنه : التأمل والتفكر والاعتبار بمعرفة الحق من الباطل[8] .

أما الذين جعلوهما بمعنى واحد ، فمنهم أبو يعلى في (العدة) حيث قال : (ومعنى

---

(١) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٥١٧/٢ .

(٢) انظر : الملل والنحل ، الشهرستاني ، ٢١١/١ ، ت أحمد فهمي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

(٣) شرح اللمع ، الشيرازي ، ٩٥/١ .

(٤) المصدر السابق ، ٩٧/١ .

(٥) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبدالله البغدادي الظفري الحنبلي المتكلم ، كان يتوقد ذكاءً، وكان بحر معارف ، قال ابن الجوزي : كان ابن عقيل ديناً ، حافظاً للحدود ، توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه ، وكان كريماً ينفق ما يجد ، وما خلف سوى كتبه وثياب بدنه ، من مؤلفاته : (الفنون) وهو أزيد من أربع مئة مجلد ، (الفصول) (التذكرة) (الإشارة) وغيرها ، توفي في ٥١٣هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٩/ ٤٤٣ — ٤٥١ ، ومقدمة كتاب (الواضح في أصول الفقه) للدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، ١/ ٦ — ٢٤ .

(٦) الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ٣٢/١ .

(٧) المصدر السابق ، ٤٤٧/١ .

(٨) المصدر السابق ، ٤٦/١ .

النظر والاستدلال : ما يحصل العلم به عن ابتداء نظر وتفكر)[1] .

وكذلك الباقلاني في (التمهيد)[2] .

وتحقيق هذا الأمر – والله أعلم – هو : أن كلا الفريقين على حق فيما قال ، وذلك أن الذين فرقوا بين النظر والاستدلال علموا أن النظر أعم من الاستدلال فكل استدلال نظر وليس كل نظر استدلال ، فالنظر عام والاستدلال خاص ، فالناظر بالمعنى العام قد يريد التوصل إلى نتيجة معينة أو قد لا يريد ذلك إنما هو ينظر لمجرد النظر فقط .

أما الذين لم يفرقوا فإنهم يقصدون بالنظر المعنى الخاص ، أي هو نظر خاص في الدليل فقط للوصول إلى نتيجة معينة مرادة من وراء هذا النظر والاستدلال لأن الألف والسين والتاء تدل على الطلب .

مسألــــــة :

هل الدال هو الدليل ؟ وهل يجوز أن يسمى الله سبحانه وتعالى دليلاً ؟

منع ابن عقيل وكثير من أصحاب الأشعري أن يسمى الله سبحانه وتعالى دليلاً ، لاعتقادهم أن الدليل هو ما يستدل به ، وأن الله هو الدال[3] .

يقول ابن عقيل : (وقال قوم : الدليل هو الفاعل للدلالة ، وليس بصحيح ، لأن الله سبحانه خلق الدلائل ، ولا يطلق عليه اسم دليل)[4] .

أما أهل السنة فإنهم جوَّزوا أن يسمى الله سبحانه وتعالى دليلاً ، لأنه دليل يهدي إلى الحق ومن ذلك قول الإمام أحمد : (يا دليل الحيارى ، دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين)[5] .

أما عن قول الأشاعرة : أن الدليل هو ما يستدل به ، وأن الله سبحانه وتعالى هو

---

(١) العدة ، أبو يعلى ، ١/٨٢ .
(٢) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، الباقلاني ، ٣٤ .
(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢/١٧ .
(٤) الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ١/٣٢ .
(٥) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢/١٧ .

الدال ، فقد أجاب شيخ الإسلام عن ذلك فقال : (وهذا الذي قالوه بحسب ما غلب في عرف استعمالهم من الفرق بين الدال والدليل وجوابه من وجهين :

أحدهما : أن الدليل معدول عن الدال ، وهو ما يؤكد فيه صفة الدلالة ، فكل دليل دال ، وليس كل دال دليل ، وليس هو من أسماء الآلات التي يفعل بها ، فإن فعيل ليس من أبنية الآلات كمفعل ، ومفعال .

وإنما سمي ما يستدل به من الأقوال والأفعال والأجسام أدلة : باعتبار أنها تدل من يستدل بها ، كما يُخْبَرُ عنها بأنها تهدي ، وترشد ، وتعرف ، وتعلم ، وتقول ، وتجيب، وتحكم ، وتفتي ، وتقص ، وتشهد ، وإن لم يكن لها في ذلك قصد وإرادة ، ولا حس ولا إدراك ، كما هو مشهور في الكلام العربي وغيره ، فما ذكروه من الفرق والتخصيص لا أصل له في كلام العرب .

الثاني : أنه لوكان الدليل من أسماء الآلات التي يفعل بها ، فقد قال الله تعالى فيما روي عن نبيه في عبده المحبوب : ((فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يعقل ، وبي ينطق ، وبي يبطش ، وبي يسعى))[1] والمسلم يقول : استعنت بالله واعتصمت بالله .

وإذا كان ما سوى الله من الموجودات : الأعيان والصفات يستدل بها سواء كانت حية أو لم تكن ، بل ويستدل بالمعدوم ، فلئن يستدل بالحي القيوم أولى وأحرى .

على أن الذي في الدعاء المأثور : (يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين) يقتضي أن تسميته دليلاً باعتبار أنه دال لعباده ، لا بمجرد أنه يستدل به كما قد يستدل بما لا يقصد الدلالة والهداية ، من الأعيان ، والأقوال ، والأفعال)[2] .

فتبين لنا بذلك أنه يجوز إطلاق اسم الدليل على الله سبحانه وتعالى خلافاً لما عليه ابن عقيل وأصحاب الأشعري .

---

(١) رواه البخاري بلفظ : ((... كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ...)) كتاب الرقاق ، باب التواضع ، رقم الحديث ٦٥٠٢ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢/١٧-١٨ .

ومما سبق نستطيع أن نستخلص الأمور التالية :

١) أن الدليل يشتمل على صفة الدلالة لأنه معدول عن الدال .

٢) أن بين الدليل والدال عموم وخصوص ، فكل دليل دال وليس كل دال دليل .

٣) أن كلمة (دليل) ليس من أسماء الآلة ، فليس من أسماء الآلة ما يكون على وزن فعيل ، أي بمعنى أنه إذا كان إنكار إطلاق اسم (الدليل) على الله سبحانه وتعالى بسبب أنه يُفْعَل به أو يُسْتَدَل به ، فإنه لا يُفْعَل إلا بما يكون وزنه على وزن أسماء الآلة ، والدليل ليس من أسماء الآلة .

٤) كذلك أن ما يطلق عليه اسم (دليل) سواء كان قولاً أو فعلاً أو جسماً ، فإنما أطلق عليه ذلك لأنه يتصف بصفات الدليل من الدلالة والإرشاد والهداية والتعريف وغيرها ، مع أن بعض هذه الأشياء تتصف بهذه الصفات وهي ليس لها قصد ولا إرادة ولا حس ولا إدراك ، فالله سبحانه وتعالى أولى بأن يدل عباده ويرشدهم ويهديهم من هذه الأشياء لأنه ربهم وخالقهم .

٥) أنه على فرض أن اسم الدليل من أسماء الآلة ، فإن حديث : ((من عادى لي ولياً ...)) يؤيد هذا القول ، وأن الله سبحانه وتعالى إذا سمي دليلاً فإن هذا يكون باعتبار أنه دال لعباده ، لا بمجرد أنه يستدل به ، كما يستدل بما لا يقصد الدلالة والهداية .

ثانياً : تعريف العقل لغة وشرعاً :

وردت كلمة (عقل) في اللغة بعدة معاني منها :

١- العلم .

٢- الحجر والنهية .

٣- المنع ، لمنعه صاحبه مما لا يليق .

٤- الملجأ ، لالتجاء صاحبه إليه ، فيقال : هو معقل قومه : أي ملجؤهم ، والمعقل هو الملجأ .

٥- الحبس ، ومنه اعتقل لسانه : أي حبس ومنع من الكلام وامتسك ، ورجل عاقل : أي يحبس نفسه ويردها عن هواها .

٦ - الجمع ، فيقال : رجل عاقل : أي الجامع لأمره ورأيه ، وهو مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه .

٧- الإمساك ، يقال : عقل الدواء بطنه : أي أمسكه ، قال ابن شميل[(١)] : إذا استطلق بطن الإنسان ثم استمسك فقد عقل بطنه[(٢)] . ومَعْقِلَة : اسم لخبراء بالدهناء تمسك الماء .

٨ - الشد ، يقال : عقل البعير يعقله عقلاً إذا شد وظيفه إلى ذراعه ، وفي الحديث ((القرآن كالإبل المعقلة))[(٣)] أي المشدودة ، ومنها سميت الدية عن المقتول عقلاً لأن الإبل كانت تعقل بفناء ولي المقتول ثم كثر استعمالهم هذا اللفظ .

٩ - الصعود والامتناع ، يقال : عقل الظبي : أي صعد ، وعقل الوعل إذا امتنع في الجبل العالي .

١٠- التحصن ، يقال وعل عاقل إذا تحصن بوَزَرِه[(٤)] عن الصياد ، والعقل هو الحصن .

١١- الكرم والنفاسة ، يقال : العقيلة من النساء الكريمة المخدرة النفيسة ، والعقيلة من كل شيء أكرمه ، وعقيلة البحر الدر .

١٢- التشبيك ، يقال : تعقل له بكفيه : أي شبك بين أصابعهما ليركب الجمل واقفاً.

---

(١) هو النضر بن شميل بن خرشه بن زيد بن كلثوم بن عنزة بن زهير بن عمر بن حجر بن خزاعي بن مازن بن عمر بن تميم ، العلامة الإمام الحافظ أبو الحسن المازني البصري النحوي ، كان نزيل مرو وعالمها ، وقد وثقه يحيى بن معين وابن المديني والنسائي ، وقال أبو حاتم : ثقة صاحب سنة ، وقال العباس : كان النضر إماماً في العربية والحديث وهو أول من أظهر السنة بمرو وجميع خراسان ، وكان أروى الناس عن شعبة وخرج كتباً كثيرة لم يسبقه إليها أحد ، ولي قضاء مرو ، من مؤلفاته : (الصفات) (السلاح) (خلق الفرس) (الأنواء) (المعاني) (غريب الحديث) ، توفي في ٢٠٣هـ وقيل ٢٠٤هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٥/ ٣٩٧ — ٤٠٥ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٩/ ٣٢٨ — ٣٣٢ .

(٢) تاج العروس ، الزبيدي ، ٢٦/٨ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن وتعاهده ، رقم الحديث ٥٠٣١ .

(٤) الوَزَر : بفتحتين وأصله الجبل . مختار الصحاح ، مادة وزر .

١٣- الفهم ، يقال : عقل الشيء يعقله عقلاً فهمه ، قال الحارث المحاسبي[١] : (والعرب إنما سمت الفهم عقلاً ، لأن ما فهمته فقد قيدته بعقلك وضبطته كما البعير قد عقل، أي : أنك قد قيدت ساقه إلى فخذيه)[٢] .

١٤- والعقل ضرب من المشط ، يقال : عقلت المرأة شعرها وعقلته ، والعاقلة الماشطة .

١٥- والعقال ، زكاة عام ، يقال : يكره أن تشتري الصدقة حتى يعقلها الساعي أي يقبضها[٣] .

من المعاني السابقة لكلمة (عقل) في اللغة ، يتبين لنا أن أكثر معاني هذه الكلمة تدور حول المنع والالتجاء والحبس والإمساك والشد ، وهي كما نلاحظ تدل القوة والإحكام والضبط .

فالعقل يمنع صاحبه ويحبسه ويمسكه عما لا يليق ، ويكون جامعاً لأمره شاداً لأزره، رافعاً له عن سفاسف الأمور ، موجهاً له إلى المهمات منها ، فيكون عالماً فاهماً بما يسعده وينفعه في دنياه وآخرته ، نافراً مبتعداً عن كل ما يشقيه ويضره ، فهو بذلك يكون قوياً حكيماً حازماً ضابطاً لنفسه وأموره .

قال الشاعر :

للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمه[٤]

(١) هو الزاهد العارف شيخ الصوفية أبو عبدالله الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي البصري الأصل ، صاحب التصانيف الزهدية ، سمي بالمحاسبي لكثرة ما يحاسب ، كان كبير القدر ، وقد دخل في شيء يسير من الكلام فنُقِمَ عليه ، وورد أن الإمام أحمد أثنى على حال الحارث من وجه وحذر منه ، من مؤلفاته : (الرعاية) (العقل وفهم القرآن) ، توفي في ٢٤٣هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٢/ ٥٧ — ٥٨ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٢/ ١١٠ — ١١٢ .

(٢) العقل وفهم القرآن ، المحاسبي ، ٢٠٩ ، ت حسين القوتلي ، دار الكندي ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

(٣) انظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ١٣٣٦ ، وتاج العروس ، الزبيدي ، ٢٥/٨ ، لسان العرب ، ابن منظور ، ٤٥٨/١١ ، ومختار الصحاح ، مادة عقل .

(٤) ديوان طرفة بن العبد ، ١٥٤ ، ت علي الجندي ، مكتبة الانجلو .

والمعنى أن العاقل يحسن التصرف في كل مكان[1] .

وقيل :

اعقلي إن كنت لما تعقـــــلي ولقد أفلـح من كان عقـــــل[2]

وقد كان العرب يعلمون أن من الفخر الاتصاف بالعقل ، قال الشاعر :

ولست وإن عزوا علي بهالك خفاتاً ولا مستهزم ذاهب العقل[3]

وكان بعض العرب يبغض الخمر ولا يشربها لأنها تذهب بالعقل ، قال أحدهم :

ولا تسقني كأس المدام فإنهـا يضل بها عقل الشجاع ويذهب[4]

وكذلك كانوا إذا أرادوا هجاء شخص أو قوم وصفوهم بقلة العقل أو بعدمه ، قال الشاعر :

مـــاذا يشق عليك من ظعن إلا صبـــــاك وقلة العقــل[5]

وقال آخر :

ولم يك ذو الخمار رئيس قوم لهم عقل يعاقب أو نكـــــير[6]

معنى العقل شرعاً :

اختلف الناس في ماهية العقل وتعددت عباراتهم لفظاً وحقيقةً في معناه ، فمنهم من جعله غريزة ، ومنهم من جعله من العلوم الضرورية ، ومنهم من جعله جوهراً قائماً بنفسه .

وقد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله سبب هذا الاختلاف فقال : (اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان

---

(١) المصدر السابق ، ١٥٤ .

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، ١٤٠ ، دار صادر ، بيروت .

(٣) شعر النابغة الجعدي ، ٢٢٥ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

(٤) ديوان عنترة ، ٩٧ ، دار بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

(٥) ديوان امرؤ القيس ، ٢٣٦ ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٦٤م .

(٦) ديوان العباس بن مرداس ، ٦٩ ، ت يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم)[1] .

أي إن لفظ العقل من قبيل المشترك اللفظي[2] الذي يطلق على عدة معاني .

والصحيح الذي عليه أهل السنة وبعض المتكلمين ، هو أن العقل يطلق على أربعة معانٍ[3] ، وهي كالتالي :

أولاً : كونه غريزة فطرية :

أي (هو الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم ، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية)[4] .

وهو الذي أراده الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، حيث قال : (العقل غريزة ، والحكمة فطنة ، والعلم سماع ، والرغبة في الدنيا هوى ، والزهد فيها عفاف)[5] .

وقال الحارث المحاسبي رحمه الله : (هو غريزة وضعها الله سبحانه وتعالى في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض)[6] .

وقد فسر القاضي أبو يعلى قول الإمام أحمد السابق ، فقال : (ومعنى قوله غريزة أنه خلق لله تعالى ابتداءً ، وليس اكتساباً للعبد ، خلافاً لما حكي عن بعض الفلاسفة : أنه اكتساب)[7] .

وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء ، كما أن في العين قوة بها يبصر ، وفي اللسان

---

(١) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١/٨٥ ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .

(٢) المشترك اللفظي : هو ما وضع لمعنيين فأكثر كالقرء الطهر والحيض . انظر : الحدود الأنيقة ، زكريا بن محمد أبو يحيى ، ٨٠ ، ت مازن مبارك ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ . والتعريفات ، الجرجاني ، ٢٧٤ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١/٨٥-٨٦ ، والأذكياء ، ابن الجوزي ، ١٠-١١ ، المكتب التجاري ، بيروت . وبغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦١-٦٢ ، ت سعيد اللحام ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م .

(٤) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١/٨٥ ، وانظر : الأذكياء ، ابن الجوزي ، ١٠ ، وبغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦٢ .

(٥) العدة ، أبو يعلى ، ١/٨٥-٨٦ .

(٦) العقل وفهم القرآن ، المحاسبي ، ٢٠١ .

(٧) العدة ، أبو يعلى ، ١/٨٦ .

قوة بها يذوق ، وفي الجلد قوة بها يلمس[1] .

وكما أنهم أطلقوا على هذا المعنى لفظ (غريزة) فإنهم قالوا عنه أيضاً : أنه ما يحصل به الميز بين المعلومات[2] .

قال الإمام الشافعي رحمه الله عن العقل : أنه (آلة التمييز)[3] .

وقال أبو العباس القلانسي[4] : (العقل قوة التمييز)[5] .

كذلك من العبارات التي أطلقوها على هذا المعنى قولهم عن العقل أنه : (نور يقذف في القلب)[6] حيث قال أبو الحسن التميمي[7] : (العقل ليس بجسم ولا صورة ولا جوهر ، وإنما هو نور ، فهو كالعلم)[8] .

وقال الفيروزآبادي بعد ما ذكر الأقوال في العقل : (والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية)[9] .

وقد ذكر الحارث المحاسبي هذا القول عن جماعة وأيده[10] .

وهذا هو المعنى الأول من المعاني الاصطلاحية التي تطلق على العقل ، وقد رأينا

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢٨٧/٩ .

(٢) شرح الكوكب المنير ، الفتوحي ، ٢٣ ، وانظر : العدة ، ٨٥/١ ، والواضح ، ٢٢/١ .

(٣) شرح الكوكب المنير ، الفتوحي ، ٢٣ .

(٤) هو أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن بن خالد القلانسي الرازي من معاصري أبي الحسن رحمه الله لا من تلامذته ، وهو من جملة العلماء الكبار الأثبات واعتقاده موافق لإعتقاده في الإثبات . انظر : تبيين كذب المفتري ، ابن عساكر ، ٣٩٨ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٤هـ .

(٥) بغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦٤ .

(٦) ومن الذين ذكروا أن العقل غريزة وأنه نور يقذف في القلب : أبو البقاء الفتوحي في شرح الكوكب ، ٢٤ ، والتفتازاني في شرح العقائد النسفية ، ٢١ ، ت كلود سلامة ، إحياء التراث العربي ، دمشق ، ١٩٧٤هـ . والزبيدي في تاج العروس ، ٢٥/٨ ، وزكريا محمد أبو يحيى في الحدود الأنيقة ، ٦٧ ، والجرجاني في التعريفات ، ١٩٧ ، وابن عقيل في الواضح ، ٢٢/١ .

(٧) هو عمرو بن خالد بن فروخ بن سعيد بن عبدالرحمن بن واقد بن ليث ، الحافظ الحجة ، أبو الحسن التميمي ، ويقال : الخزاعي الخزري الحراني ، كان نزيل مصر ، قال عنه العجلي : مصري ثقة ثبت ، وقال أبو حاتم : صدوق ، توفي في ٢٢٩هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ٤٢٧ — ٤٢٨ .

(٨) العدة ، أبو يعلى ، ٨٤/١ .

(٩) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ١٣٣٦ .

(١٠) انظر : العقل وفهم القرآن ، المحاسبي ، ٢٠٤ .

كيف اختلفت عبارات العلماء في التعبير عن هذا المعنى ، وإن اختلافهم هذا إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، فمنهم من قال أنه وصف يفارق به الآدمي باقي الحيوانات ، ومنهم من قال أنه غريزة ، ومنهم من قال أنه نور ، ومنهم من قال أنه آلة التمييز ، والمعنى في هذه العبارات كله واحد ، وهو أن العقل نور من الله وفطرة فطر الله أكثر عباده عليها ليتم لهم بها مفارقة الحيوانات والتمييز بين الحسن والقبيح .

ثانياً : كونه علماً من العلوم الضرورية :

أي (هو العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد)[(١)] .

وهو الذي عناه بعض المتكلمين بقوله : أنه بعض العلوم الضرورية[(٢)] .

قال أبو يعلى : (العقل ضرب من العلوم الضرورية ، وهو مثل العلم باستحالة اجتماع الضدين ، وكون الجسم في مكانين ، ونقصان الواحد عن الاثنين ، والعلم بموجب العادات ، فإذا أخبره مخبر بأن الفرات تجري دراهم راضية ، فلا يجوز صدقه . ومن أخبر بنبات شجرة بين يديه ، وحمل ثمرة إدراكها من ساعته ، لا ينتظر ذلك ليأكل منها . وإذا أخبر بأن الأرض تنشق ويخرج منها فارس بسلاح يقتله ، لا يهرب فزعاً من ذلك ، فإذا حصل له العلم بذلك ، كان عاقلاً ولزمه التكليف)[(٣)] .

وقال بعضهم : ما حسن معه التكليف[(٤)] .

وقال الفيروزآبادي : (هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها

---

(١) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ٨٥/١ ، وانظر : الأذكياء ، ابن الجوزي ، ١٠ ، وبغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦١ .

(٢) انظر : شرح الكوكب المنير ، الفتوحي ، ٢٤ ، والعدة ، أبو يعلى ، ٨٣/١ ، والواضح ، ابن عقيل ، ٢٢/١ ، والإرشاد ، الجويني ، ٣٦ -٣٧ .

(٣) العدة ، أبو يعلى ، ٨٣/١ -٨٤ .

(٤) المصدر السابق ، ٨٥/١ .

ونقصانها ، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين أو مطلق الأمور ، أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن لمعان مجتمعة في الذهن يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح ، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه)[١] .

فيتبين لنا بذلك أن هذا العقل الذي أطلق عليه أنه علوم ضرورية ، هو مناط التكليف ، وهو الذي يُفرق به بين المجنون الذي رفع عنه القلم وبين العاقل الذي جرى عليه القلم[٢] .

قال شيخ الإسلام : (والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وبين ما يضره ، فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الأسبوع ، ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل ، أما من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل)[٣] .

وهذا القول هو قول الجمهور من المتكلمين أيضاً[٤] .

وهذا القول صحيح أيضاً في تعريف العقل ، وهو يعود إلى المعنى الأول ، لأن العقل غريزة فطرية يُعلم بها بعض العلوم الضرورية من غير تعلم ، فهو العقل المطبوع الذي ذكره علي بن أبي طالب ﷺ بقوله : (رأيت العقل عقلين ، فمطبوع ومسموع ، ولا ينفع مسموع ، إذا لم يك مطبوع ، كما لا تنفع الشمس ، وضوء العين ممنوع)[٥] .

ولكن بعض المتكلمين من أصحاب هذا القول أنكر أن يكون العقل غريزة ، وقالوا إنما هو ضرب من العلوم الضرورية فقط ، وقد ردَّ الإمام الغزالي على هذه الطائفة فقال : (ولم ينصف من أنكر هذا – أي كون العقل غريزة – وردَّ العقل إلى مجرد العلوم الضرورية ، فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة

---

(١) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ١٣٣٦ .
(٢) انظر : بغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦١ .
(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٩/٢٨٧ .
(٤) انظر : العدة ، أبو يعلى ، ١/٨٥ ، وشرح الكوكب المنير ، الفتوحي ، ٢٣-٢٤ .
(٥) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١/٨٦ ، وانظر : تاج العروس ، الزبيدي ، ٨/٢٥ .

فيهما مع فقد العلوم ، وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية ، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية) ثم لما ذكر أن العقل يطلق عليه أيضاً أنه من العلوم الضرورية قال : (وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم – أي الضرورية – موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر ، وإنما الفاسد أن ننكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم)[(١)] .

وبهذا نخلص أن هذين القولين يؤديان إلى نفس المعنى .

ثالثاً : كونه علوماً مكتسبة :

أي (علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال أنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال أنه غبي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم تسمى عقلاً)[(٢)] .

وهذا التعريف يشهد له قول النبي ﷺ : ((لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين))[(٣)] وقول معاوية ﷺ : (لا حكيم إلا ذو تجربة)[(٤)] وفي رواية أخرى أن معاوية كان يحدث نفسه ثم انتبه فقال : (لا حلم إلا تجربة) يعيدها ثلاثاً[(٥)] وكذلك روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال : (لا حليم إلا ذو عثرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة)[(٦)] .

فالإنسان إذا كان معه غريزة العقل والتمييز بين الأمور ، فإنه بمجرد دخوله غمار الحياة سوف يكتسب يوماً عن يوم تجارب جديدة ودروساً لم يكن يعلمها من قبل ، والحكيم العاقل هو الذي يأخذ العظة والعبرة من هذه التجارب ، وإلا لم يكن عاقلاً

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٨٥ ، وانظر : الأذكياء ، ابن الجوزي ، ١٠ ، وبغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦١ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، رقم الحديث ٦١٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الكتاب والباب ، وقد رواه البخاري معلقاً أي بدون إسناد .

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ، باب التجارب ، رقم الحديث ٥٦٤ .

(٦) المصدر السابق ، رقم الحديث ٥٦٥ ، وقد أخرج الإمام أحمد هذه الرواية عن أبي سعيد مرفوعة ولكن إسنادها ضعيف ، ورواية البخاري الموقوفة على أبي سعيد إسنادها أصح ، مع أن فيها عبدالله بن زحر وهو مختلف فيه وهو إلى الضعف أقرب كما قال الذهبي ، انظر : مسند الإمام أحمد ، النسخة المحققة ، ١٧/ ١١٠ -١١١ .

فطناً، وحديث ((لايلدغ المؤمن ...)) فيه تحذير شديد من الغفلة ، وإشارة إلى استعمال الفطنة .

قال ابن حجر : (قيل المراد بالمؤمن في هذا الحديث ، الكامل الذي أوقفته معرفته على غوامض الأمور حتى صار يحذر مما سيقع ، وأما المؤمن المغفل فقد يلدغ مراراً)[1] .

ويفهم من ذلك أن هذا النوع من العقول يتفاوت فيه الناس على حسب كثرة تجاربهم وقلتها ، وقد ذكر ابن عقيل أنه عندما يقال : فلان أعقل من فلان : أي إن تجاربه أكثر[2] .

رابعاً : كونه العمل بالعلم :

وهو (أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً)[3] .

وهو يؤدي إلى نفس المعنى الذي قاله ابن فورك عن العقل ، حيث قال : (هو العلم الذي يمتنع به من فعل القبيح)[4] .

وهذا العقل أيضاً يتفاوت فيه أصحابه ، فمنهم من يمنعه عقله هذا عن جميع المعاصي ، ومنهم من يمنعه عن بعضها لعدم اكتماله ، فإذا اكتمل هذا العقل امتنع صاحبه عما كان لا يستطيع الامتناع عنه سابقاً .

ومسألة تفاوت العقول اختُلِف فيها على قولين ، والصحيح فيها أن العقول تتفاوت لقوله ﷺ : ((...ما رأيت من ناقصات عقل ودين ...))[5] ولإجماع الناس ، فإنه مستفيض فيهم القول بأن أحد العاقلين أكمل عقلاً وأوفر وأرجح من الآخر[6] .

---

(١) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٠/٥٣٠ .

(٢) انظر : الواضح ، ابن عقيل ، ١/٢٥ .

(٣) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١/٨٦ ، وانظر : الأذكياء ، ابن الجوزي ، ١٠-١١ ، وبغية المرتاد ، ابن تيمية ، ٦١ .

(٤) العدة ، أبو يعلى ، ١/٨٥ .

(٥) رواه البخاري ، كتاب الحيض ، ترك الحائض الصوم ، رقم الحديث ٣٠٤ .

(٦) انظر : العدة ، أبو يعلى ، ١/٩٦-٩٧ ، وانظر إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١/٨٧ ، حيث أنه أيد القول بالتفاوت إلا في النوع الثاني وهو العلوم الضرورية ، فقد بين أن الناس فيها سواء ، ولكن القاضي أبي يعلى رد ذلك في (العدة) وبيَّن أنها تختلف باختلاف قوة الإدراك والتمييز والتفكير ، فيقل في حق بعضهم =

والعقل بالمعنى الرابع يكون من أنواع العقول المحمودة الممدوحة ، لأن صاحبه يعمل بما علم ، والعمل بالعلم واجب على كل من تعلم علماً شرعياً ، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يتجاوزون العشر آيات حتى يتعلمونها ويعلمون حدودها وأوامرها ونواهيها ، ويتقنوا العمل بها .

فعن عثمان وابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ كان يقرؤهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، قالوا : فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً[(١)] .

وعن أبي عبدالرحمن السلمي قال : (كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها)[(٢)] .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى من يتعلم العلم ولا يعمل به حيث قال مخاطباً علماء بني إسرائيل لما أمروا الناس بالعمل بالتوراة وتركوه هم ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[(٣)] .

قال ابن عبد البر[(٤)] رحمه الله عن هذه الآية : (وقد ذم الله عز وجل في كتابه قوماً كانوا يأمرون الناس بأعمال البر ولا يعملون بها ذماً ووبخهم الله به توبيخاً يتلى في طول الدهر إلى يوم القيامة فقال ﴿ أتأمرون الناس بالبر ... ﴾)[(٥)] .

= ويكثر في حق البعض الآخر ، فلهذا اختلف ، ١/١٠٠ .

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ١/٣٩ ، ت أحمد عبدالحليم البردوني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط ٢ ١٣٧٢هـ .

(٢) المصدر السابق ، ١/٣٩ .

(٣) البقرة : ٤٤ .

(٤) هو الإمام العلامة ، حافظ المغرب ، شيخ الإسلام أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النَّمَري ، الأندلسي ، القرطبي ، المالكي ، صاحب التصانيف الفائقة ، كان إماماً ديناً ثقة متقناً ، علامة متبحراً ، صاحب سنة واتباع ، وكان ظاهرياً ثم تحول مالكياً مع ميل إلى فقه الشافعي ، وقد بلغ مرتبة الأئمة المجتهدين ، من مؤلفاته : (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) (الاستذكار لمذهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار) (الاستيعاب في أسماء الصحابة) (جامع بيان العلم وفضله) ، توفي في ٤٦٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٨/ ١٥٣ – ١٦٣ .

(٥) صحيح جامع بيان العلم وفضله ، ابن عبد البر ، ٢٣٤ ، ت أبي الأشبال الزهيري ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ومكتبة العلم ، جدة ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

قال شيخ الإسلام : (فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم ، بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ، ولهذا قال أهل النار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (٢)) (٣) .

وقد أيد شيخ الإسلام القول بأن العقل هو عبارة عن علوم ضرورية ، وهو في نفس الوقت العمل بموجب تلك العلوم فقال : (والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا) (٤) .

ويمكن مما سبق أن نقسم العقل إلى ثلاثة أنواع من حيث المدح والذم :

١) عقل غريزة وعلوم ضرورية ، وهذا يفرق بين العاقل والمجنون ، وعليه مناط التكليف ، وهو ليس فيه مدح ولا ذم .

٢) عقل واعٍ اكتسبه المرء من خلال ما علمه وسمعه ورآه ، ومنعه هذا العقل الواعي من ارتكاب المحرمات وحثه على فعل المأمورات ، فهذا عقل ممدوح ، مدحه الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ (٥) أي إن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال لجميع الناس ، ولكن ليس كلهم يعقلها وإنما فئة قليلة فقط ، وهم الذين سماهم الله العالمون (أي العالمون بالله كما روي عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : ((العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه)) (٦) .

٣) عقل اكتسب علماً من خلال ما سمع وما رآى ، ولكن هذا العلم لم ينفع صاحبه بشيء ، فهذا عقل مذموم ، ذمه الله سبحانه وتعالى حيث قال ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى

(١) الملك : ١٠ .
(٢) الحج : ٤٦ .
(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٩/٢٨٦-٢٨٧ .
(٤) المصدر السابق ، ٩/٢٨٧ .
(٥) العنكبوت : ٤٣ .
(٦) تفسير القرطبي ، ١٣/٣٤٦ .

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [1] والقلب يطلق على العقل [2] ، قال القرطبي : ((أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محل الأذن)) [3] .

وكلام القرطبي هذا ينبهنا إلى مسألة اختلف العلماء فيها على قولين ، وهي مكان وجود العقل في الإنسان ، هل هو في القلب أم في الدماغ ؟ .

والصحيح الذي عليه أهل السنة وأكثر المتكلمين أن محل العقل في القلب [4] ، وذلك للآية السابقة ، ولقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [5] أي لمن كان له عقل [6] .

ولقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [7] والفقه بمعنى الفهم [8] ، ومن معاني العقل في اللغة الفهم [9] ، أي أن معنى الفقه هنا هو العقل ، فيكون معنى الآية : وجعلنا على قلوبهم أكنة [10] أن يعقلوه ، فجعل مكان العقل القلب ، فلما غُطي القلب أصبحوا لا يفهمون ولا يعقلون ، فدل ذلك على أن محل العقل هو القلب .

ولكن شيخ الإسلام حقق هذه المسألة تحقيقاً شافياً كافياً ، وذلك أنه أيد القول بأن العقل مكانه القلب لقوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [11]

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) القلب : الفؤاد ، وقد يعبر عن العقل ، قال الفراء في قوله تعالى : ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أي عقل ، مختار الصحاح ، مادة قلب .

(٣) تفسير القرطبي ، ٧٧/١٢ .

(٤) انظر : مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ن ١/١٩٤-١٩٥ ، ت علي الأثري ، دار ابن عفان ، الخبر ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م . والعدة ، أبو يعلى ، ٨٩/١ ، والأذكياء ، ابن الجوزي ، ١١ ، والواضح ، ابن عقيل ، ٣٧/١ .

(٥) ق : ٣٧ .

(٦) انظر : تفسير القرطبي ، ٢٣/١٧ ، ومختار الصحاح ، مادة قلب .

(٧) الأنعام : ٢٥ ، الإسراء : ٤٦ .

(٨) مختار الصحاح ، مادة فقه .

(٩) لسان العرب ، ابن منظور ، ٤٥٩/١١ .

(١٠) الأكنة : الأغطية ، انظر : مختار الصحاح ، مادة كنن .

(١١) الحج : ٤٦ .

بِهَا ﴾ (١) .

ولكنه بيَّن أن القلب مشترك لفظي يطلق على المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن ، ويطلق أيضاً على باطن الإنسان مطلقاً ، لأن قلب الشيء باطنه ، فإن أريد بالقلب المعنى الثاني فالعقل متعلق بالدماغ ، ولهذا قيل أن العقل في الدماغ ، كما يقوله كثير من الأطباء .

والصحيح أن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ، ومبدأ الإرادة في القلب ، وذلك أن العقل يراد به العلم ، ويراد به العمل ، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة ، وأصل الإرادة في القلب ، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد ، فلا بد أن يكون القلب متصوراً ، فيكون منه الإرادة والتصور ، ويبتدئ ذلك من الدماغ ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء (٢) .

وبهذا التحقيق من شيخ الإسلام يجد الإنسان حلاً لما يجده في نفسه من اشتراك قلبه ودماغه في تفكيره ونظره وعقله ، وكذلك نجد بهذا التحقيق تفسيراً لما يطلقه البعض من عبارات مثل قولهم : فلان يفكر بعقله ، وفلان يفكر بقلبه وعواطفه .

الدليل العقلي عند أهل السنة :

تحدث أهل السنة عن الدليل العقلي ، وتحدث المتكلمون عن ذلك أيضاً ، ولكن وجهة كل واحد منهم في المعنى المراد من الدليل العقلي ، أو ما اصطلح عليه كل منهم في معنى الدليل العقلي تختلف تماماً عما أراده الآخرون .

فأهل السنة عندما يتحدثون عن الدليل العقلي ، فهم يريدون بذلك الدليل العقلي الشرعي ، سواء كان ذلك الدليل موجوداً في الكتاب والسنة – أي عقلي سمعي - أو غير موجود فيهما ولكنه موافق لهما ولألفاظهما مستنبطاً منهما .

قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن طرق الناس في إثبات كون الله متكلماً :

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٩/٣٠٣-٣٠٤ .

(والطرق نوعان : سمعية وعقلية وإن كانت العقلية هي أيضاً شرعية سمعية باعتبار أن السمع دل عليها وأرشد إليها وأن الشرع أحبها ودعا إليها)[(١)] .

وقال ابن القيم : (إن أدلة القرآن والسنة التي يسميها هؤلاء الأدلة اللفظية ، نوعان : أحدهما : يدل بمجرد الخبر .

والثاني : يدل بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقلي .

والقرآن مملوء من ذكر الأدلة العقلية التي هي آيات الله الدالة عليه ، وعلى ربوبيته ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته)[(٢)] .

أما المتكلمون فإن الدليل العقلي عندهم هو ما كانت مقدماته عقلية محضة لا صلة لها بالسمع ، قال الإيجي[(٣)] : (الدليل إما عقلي بجميع مقدماته ، أو نقلي بجميعها ، أو مركب منهما ، والأول العقلي ، والثاني لا يتصور إذ صدق المخبر لا بد منه وأنه لا يثبت إلا بالعقل ، والثالث هو الذي نسميه بالنقلي)[(٤)] .

وقد أدى هذا الإتجاه بالمتكلمين إلى ابتداع أدلة عقلية في الشرع مضطربة في العقل ، مثل دليل الحدوث[(٥)] الذي قال به الأشاعرة ، والذي أدى بهم إلى انحرافات كبيرة في

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ، ابن تيمية ، ٨١ ، ت إبراهيم سعيداي ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٥هـ .

(٢) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٧٩٣/٢ .

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن أحمد الإيجي المطرزي ، قاضي القضاة عضد الدين الشيرازي ، يذكر أنه من نسل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كان إماماً في المعقولات عارفاً بالأصلين والمعاني والبيان والنحو مشاركاً في الفقه ، من مؤلفاته : (المواقف) في علم الكلام ، (شرح مختصر ابن الحاجب) في أصول الفقه ، (القواعد الغياثية) في المعاني والبيان ، وكان له ومال جزيل وإنعام على طلبة العلم وكلمة نافذة ، توفي سنة ٧٥٦هـ .انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ٤٦/١ ، وطبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ، ٢٧/٣ ، ت الحافظ عبدالعليم خان ، عالم الكتب ، بيروت ط ١ ، ١٤٠٧هـ .

(٤) المواقف ، الإيجي ، ٣٩ ، وانظر : المحصل ، الرازي ، ٥١ .

(٥) دليل الحدوث : هذا الدليل هو دليل إثبات وجود الله عند الأشاعرة ، وهو عبارة عن مقدمتين هما : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، فالنتيجة أن العالم لابد له من محدث أحدثه وهو الله سبحانه وتعالى، وهم يقولون بأن يجب أن يكون لكل مقدمة من مقدمات هذا الدليل أدلة على صحتها حتى تنتج المقدمتان نتيجة صحيحة . انظر : منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله ، خالد عبداللطيف ، ٣٥٤/١ وما بعدها ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

أبواب العقائد منها نفي الصفات ، ولا تسل عن مدى اختلافهم في هذه الأدلة العقلية التي ابتدعوها ، وذلك بسبب ضعف الأساس الذي بنيت عليه هذه الأدلة[(1)] .

وأهل السنة يعتبرون الأدلة النقلية تفيد اليقين سواء كانت سمعية أو سمعية عقلية ، ويكتفون بها في الاستدلال ، وإن أتوا بدليل عقلي ليس في النقل فإنما يأتون به للاعتضاد والاستئناس ، لا للتعويل عليه وجعله هو الأساس كما يفعل المتكلمون .

أما المتكلمون فقد جعلوا الأدلة العقلية في اصطلاحهم تفيد اليقين القاطع[(2)] ، لذلك فقد سموها في كتبهم تارة بالقواطع العقلية ، وتارة بالبراهين العقلية ، وتارة بالحجج العقلية ، وكل هذه التسميات تدل على اليقينية والقوة لدليلهم العقلي المحض الذي يزعمونه ، وذلك ليبينوا أنه لا مجال لتطرق الشك إليه بحال من الأحوال .

أما الأدلة النقلية فقد كان موقفهم منها على العكس تماماً من موقف أهل السنة ، إذ إنهم يقولون : أن (الدليل اللفظي – أي النقلي – لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة : عصمة رواة مفردات هذه الألفاظ وإعرابها وتصريفها ، وعدم الاشتراك والمجاز والنقل والتخصيص بالأشخاص والأزمنة ، وعدم الإضمار والتأخير والتقديم والنسخ ، وعدم المعارض العقلي الذي لو كان لرجح عليه ، إذ ترجيح النقل على العقل يقتضي القدح في العقل المستلزم للقدح في النقل لافتقاره إليه وإذا كان المنتج ظنياً فما ظنك بالنتيجة)[(3)] .

وهذا الاعتقاد عند المتكلمين أدى بهم إلى عكس النتيجة التي كانوا يرمون إليها ، فهم يريدون الوصول إلى اليقين القاطع من خلال أدلتهم العقلية ، فإذا بهم يجدون أنفسهم في قمة الشك والحيرة ، وهذا بشهادة علمائهم وكبرائهم .

---

(1) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٢/٣١٨-٣١٩ .

(2) انظر : معالم أصول الدين ، الفخر الرازي ، ٢١ ، ت طه عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية . وأساس التقديس ، له أيضاً ، ١٣٠ .

(3) هذا القول لإمام الأشاعرة والمتكلمين الفخر الرازي ، وقد ذكر هذا الكلام في : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، ٥١ ، وكرره في معظم كتبه مثل : معالم أصول الدين ، الرازي ، ٢٤ .

وقد ردَّ الإمامان الفاضلان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم على هذه الدعاوى ردوداً شافية كافية في مواضع كثيرة من كتبهم ، مثل كتاب درء تعارض العقل والنقل وكتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ، وكتاب الصواعق المرسلة لابن القيم .

وها هو ذا ابن القيم يتحدث عن مدى تذبذب أهل الكلام واختلافهم وتناقضهم في أدلتهم وحيرتهم عند موتهم فيقول : (إن الذين لم يحصل لهم اليقين بالأدلة العقلية أضعاف أضعاف الذين حصل لهم اليقين بالأدلة السمعية ، والشكوك القادحة في العقليات أكثر بكثير من الشكوك القادحة في السمعيات ، فأهل العلم والكتاب والسنة متيقنون لمراد الله ورسوله جازمون به معتقدون لموجبه اعتقاداً لا يتطرق إليه شك ولا شبهة ، أما المتكلمون الذين عدلوا عن الاستدلال بالأدلة السمعية إلى الأدلة العقلية في المسائل الكبار كمسألة حدوث العالم ومسألة ما هي الحوادث ؟ ... وأضعاف ذلك من المسائل التي عولوا فيها على مجرد عقل أفضلهم وأشدهم حيرة وتناقضاً واضطراباً فيها لا يثبت له فيها قول ... وأهل الكلام والفلسفة أشد اختلافاً وتنازعاً بينهم فيها من جميع أرباب العلوم على الإطلاق ، ولهذا كلما كان الرجل منهم أفضل كان إقراره بالجهل والحيرة على نفسه أعظم كما قال بعض العارفين : (أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام) ، وقال أفضل المتأخرين[(١)] من هؤلاء لتلاميذه عند الموت : (أشهدكم أني أموت وما عرفت مسألة واحدة إلا مسألة افتقار الممكن إلى واجب ، ثم قال : والافتقار أمر عدمي فها أنا ذا أموت وما عرفت شيئاً)[(٢)] .

وبيَّن ابن القيم أيضاً أن القول بأن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين يؤدي إلى القول بعدم يقينية اليوم الآخر ، خاصة وأن المتكلمين أنفسهم يصرحون أن المعاد إنما علم بالنقل ، لأن الأدلة العقلية لا مدخل لها فيه ، وهذا من أعظم الفساد والبطلان[(٣)] .

---

(١) ذكر شيخ الإسلام في الفتاوى ٩/١١٣ أن هذا العالم هو الخونجي صاحب كتاب (كشف أسرار المنطق) و (الموجز) .

(٢) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٢/٦٦٣-٦٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ٢/٧٤٠ .

وكذلك رد ابن القيم على مسألة توقف النقل على الأمور العشرة التي ذكرها المتكلمون فقال : (إن قول القائل : الأدلة اللفظية موقوفة على هذه المقدمات ، أتريد به أن كل دليل منها يقف على مجموع الأمور العشرة ؟ أم تريد به أن جنسها يقف على جنس هذه العشرة ؟ فإن أردت الأول فهو مكابرة ظاهرة يردها الواقع ، فإن جمهور الناس يعلم مدلول الكلام من غير أن تخطر هذه العشرة أو شيء منها بباله ، وإن أردت الثاني فالأدلة العقلية تتوقف على مابه مقدمة أو أكثر بهذا الاعتبار فإنه ما من مسألة عقلية إلا وهي متوقفة على مقدمات غير المقدمات التي يتوقف عليها مسألة أخرى فما يتوقف عليه دلالة الدليل لا ضابط له وإنما هو أمر نسبي إضافي)[1] .

ورَفْعُ المتكلمين من شأن الأدلة العقلية هذا نابع من نظريتهم التي تقول أن العقل هو أصل النقل ، وعليه فإذا تعارض عندهم عقل ونقل فإنهم يقدمون العقل بحجة أن عدم تقديمه قدح في الشرع ، وهذا غلو في العقل[2] .

قال الجويني[3] : إن (المعقولات تنقسم إلى البدائه ، وهي التي يهجم العقل عليها من غير احتياج إلى تدبر ، وإلى ما لا بد فيه من فرط تأمل ، فإذا تقرر على سداده أعقب

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٦٨٠ .

(٢) انظر : أساس التقديس ، الرازي ، ١٣٠ .

(٣) هو الإمام الكبير شيخ الشافعية إمام الحرمين أبو المعالي عبدالملك ابن الإمام أبي محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني ثم النيسابوري ضياء الدين الشافعي صاحب التصانيف ، ولكنه تعمق في علم الكلام ثم تاب ورجع عن ذلك فقال : (قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة وركبت البحر الخضم وغصت في الذي نهى أهل الإسلام كل ذلك في طلب الحق وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله فالويل لابن الجويني) ، من مؤلفاته : (نهاية المطلب في المذهب) (الإرشاد في أصول الدين) (الرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية) (الشامل في أصول الدين) (البرهان في أصول الفقه) (مدارك العقول) لم يتمه (غياث الأمم في الإمامة) (مغيث الخلق في اختيار الأحق) ، توفي سنة ٤٧٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٨ / ٤٦٨ — ٤٧٧ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٥٨/٢ .

العلم الضروري إن لم يطرأ آفة)[1] .

أقول : العلم الضروري مغروس في الفطر الإنسانية ، ولا يحتاج إلى فرط تأمل ، فكل إنسان يعلم بفطرته أن له رباً خالقاً رازقاً محيي مميت ، وذلك عن طريق ما يرى وما يسمع ، ولاتحتاج هذه الأشياء إلى فرط تأمل ، ولكن الذي يحتاج إلى التأمل والتفكير هي العلوم النظرية ، التي ليس لكل إنسان أن يعلمها وأن يلم بها .

مما تقدم يتبين لنا أن الدليل العقلي عند أهل السنة هو :

ما كان موافقاً للكتاب والسنة ، سواء كان مأخوذاً منهما أي عقلي سمعي ، أو كان مستنبطاً منهما وإن لم يكن موجوداً بنصه في الكتاب والسنة ، وهذا الثاني يأتي في الدرجة الثانية بعد الأدلة النقلية ، وأن معيار كونه صحيحاً أم لا ، هو عرضه على النقل فإن وافقه قبل وإلا رُدّ ، أي يجب ألا يحتوي على ألفاظ مجملة مبتدعة في الشرع ، فإذا سلم من ذلك فهو يفيد اليقين لأنه تابع للدليل النقلي وفرع منه ، ومعلوم أن الفرع يأخذ حكم الأصل .

وهذا التعريف توصلت إليه من خلال ما سبق - بحسب اجتهادي - ، وسوف أعتبره ضابطاً أسير عليه في هذا البحث .

---

(١) البرهان في أصول الفقه ، الجويني ، ١/١٢١ ، ت عبدالعظيم محمود الديب ، دار الوفاء ، مصر - المنصورة، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

الباب الأول

الدليـــل العقلي عند أهل السـنـة

ويشمل :

- الفصل الأول : دعوة القرآن إلى النظر العقلي .
- الفصل الثاني :موقف أهل السنة من العقل .
- الفصل الثالث : العلاقة بين العقل والنقل عند أهل السنة .

الفصل الأول

دعوة القرآن إلى النظر العقلي

ويشمل :

المبحث الأول : اشتمال القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة السمعية والعقلية .

المبحث الثاني : مخاطبة الله سبحانه وتعالى لعباده بالتدبر والنظر والتفكر .

المبحث الثالث : دعوة الرسل لأقوامه بإعمال عقولهم في هذا الكون .

المبحث الأول

اشتمال القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة السمعية والعقلية

تحدث العلماء الذين كتبوا في علوم القرآن عن هذا الموضوع في كتبهم ، وأوردوه تحت عنوان (جدل القرآن) ، لأن الأدلة هي موضوع الجدل والمناظرة في القرآن بل إن بعضهم أفرد له مؤلفات خاصة لأهميته .

وقد أطلق هؤلاء العلماء على هذه الأدلة التي وردت في القرآن لفظ (البراهين) لقطيعتها وحجيتها ويقينها .

وهناك أنواع من الأدلة اصْطُلِحَ عليها في علم الجدل ، وكلها وردت في القرآن على أحسن صورة ، ذلك لأن القرآن تنزيل من عزيز حميد .

قال الزركشي[(١)] : (اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية ، إلا وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين)[(٢)] .

---

(١) هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي الإمام العلامة المصنف المحرر ، كان فقيهاً أصولياً أديباً فاضلاً في جميع ذلك ، ودرس وأفتى وولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى : قال البرماوي : كان منقطعاً إلى الاشتغال لا يشتغل عنه بشيء وله أقارب يكفونه أمر دنياه ، ومن تصانيفه (تكملة شرح المنهاج) للأسنوي ثم أكمله لنفسه ، (وخادم الشرح) و (الروضة) وهو كتاب كبير فيه فوائد جليلة ، و (النكت على البخاري) و (البحر في الأصول) في ثلاثة أجزاء جمع فيه جمعاً كثيراً لم يسبق إليه وشرح (جمع الجوامع) للسبكي في مجلدين ، و(لقطة العجلان وبلة الظمآن) وله غير ذلك ، توفي عام ٧٩٤هـ . انظر : شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٣٥/٣ ، وطبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ، ١٦٧/٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ٢٤/٢ ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

وقال ابن القيم : (. . . والله سبحانه حاج عباده على ألسن رسله فيما أراد تقريرهم به وإلزامهم إياه بأقرب الطرق إلى العقل وأسهلها تناولاً ، وأقلها تكلفاً وأعظمها غنى ونفعاً ، فحججه العقلية التي في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة قليلة المقدمات)(١) .

ولو أخذنا نموذجاً لذلك سورة الأنعام مثلاً ، لوجدنا أنها تحتوي على أحسن أنواع الحجج والأدلة في إفحام الكفر والمشركين وهي تختص من دون سور القرآن الكبرى بخاصية مميزة لها وهي أنها أنزلت جملة واحدة ولم تنزل منجمة كباقي السور وذلك لأنها كلها بمعنى واحد وإن اختلفت وجوه الكلام ، قال القرطبي في بداية تفسيره لسورة الأنعام: (قال العلماء هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية دون السور التي تذكر والمذكورات)(٢) .

ومن الملاحظ في أقوال العلماء السابقة عن أدلة القرآن العقلية أنهم استخدموا ألفاظاً أخرى غير لفظ الدليل مثل : الآيات ، البراهين ، الحجج ، فهل يوجد فرق بين هذه المصطلحات ؟ أم أنه يوجد فرق في استخدامات هذه المصطلحات ؟

بالتعريف لهذه المصطلحات سوف يتبين ما إذا كان هناك فرق بينها أم لا :

فالآية : هي العلامة الظاهرة ، وحقيقته كل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمهما واحد ، وذلك ظاهر في المحسوس والمعقول(٣) .

والبرهان : هو علم قاطع الدلالة غالب القوة ، وقيل هو بيان الحجة ، فهو آكد

(١) مختصر الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٨١ .
(٢) تفسير القرطبي ، ٦/٣٨٣ .
(٣) التعاريف ، المناوي ، ١٠٧ .

الأدلة وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة[1] .

أما الحجة : فهي ما دل على صحة الدعوى[2] ، وقيل الحجة بالضم الدلالة المبينة للمحجة ، أي المقصد المستقيم الذي يقتضي أحد النقيضين[3] ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[4] ، وهي مأخوذة من المحجة وهي الاستقامة في الطريق المؤدي إلى البغية[5] .

وأخيراً الدليل[6] : وهو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، وعند الأصوليين: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري[7] .

هذه هي تعريفات الآية والبرهان والحجة والدليل ، والفروق بينها طفيفة ولذا ينوب بعضها عن بعض ، فمثلاً عند تعريف الآية قيل (دالة على حكم) وفي البرهان قيل (قاطع الدلالة) و (بيان الحجة) وفي الحجة (ما دل على صحة الدعوى) و (الدلالة المبينة) ، أما الدليل فمعنى الكلام في تعريفه يؤدي إلى نفس معنى الكلام في التعريفات التي قبله .

فكل لفظ منها يفيد معنى الدلالة ، والمتكلم بالأدلة من العلماء قد يعبر عنها بأي لفظ من هذه الألفاظ دون تحديد استخدامات معينة لكل لفظ .

قال ابن عقيل : (والحجة والدلالة والآية والعلامة نظائر ، وكذلك الدليل والبرهان ينوب بعضها عن بعض في أكثر المواضع)[8] .

وقال الجرجاني : (وقيل الحجة والدليل واحد)[9] .

---

(١) المرجع السابق ، ١٢٣ .
(٢) التعريفات ، الجرجاني ، ١١٢ .
(٣) التعاريف ، المناوي ، ٣٦٨ .
(٤) الأنعام : ١٤٩ .
(٥) الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ١/٣٣٤ .
(٦) سبق تعريف الدليل في المبحث الثاني من التمهيد ، ولكنني فضلت إعادته للتذكير به .
(٧) التعاريف ، المناوي ، ٣٤٠ .
(٨) الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ١/٣٣٤ .
(٩) التعريفات ، الجرجاني ، ١١٢ .

وقد ورد في مختار الصحاح – مادة برهن – أن البرهان بمعنى الحجة ، فيقال : برهن عليه أي أقام الحجة عليه ، وورد أيضاً لفظ (سلطان) وهو بمعنى الحجة والبرهان وهي كما نرى كلها ألفاظ مترادفة وبمعنى واحد .

وقد زعم بعضهم أن البرهان أقوى أنواع الأدلة وهم يقصدون به القياس الشمولي[1] المؤلف من المقدمات اليقينية ، وقد رد شيخ الإسلام هذا الزعم فقال (وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك ، كما سمى الله آيتي موسى برهانين ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾)[2] .

أما عن بعض أنواع الأدلة والبراهين التي وردت في القرآن الكريم :

- ضرب الأمثال .
- السبر والتقسيم .
- القول بالموجب .
- الإلزام .
- التسليم .
- الانتقال .
- المناقضة .
- المنع .
- الأقيسة الإضمارية .

أولاً : ضرب الأمثال :

وهو القياس : وهو الجمع بين مشتبهين لاستخراج الحكم الذي يشهد به كل واحد

---

(١) القياس الشمولي : وهو قياس المساواة وهو مركب من قضيتين متعلق محمول أولهما يكون موضوع الأخرى كقولنا : أ يساوي بَ و ب يساوي ج فإنهما يستلزمان أن أ يساوي ج لكن لا لذاتهما بل بواسطة مقدمة أجنبية ، وهو أن كل مســاوي المساوي للشيء مساوٍ لــه . انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، ١٣٥٠/٢ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، ١٩/١ .

منهما ، ولا يخلو منهما من أن يشهد بمثل ما شهد به الآخر أو نظيره[(١)] .

والتمثيل الوارد في القرآن الكريم هو أن يقاس الأمر الذي يريد إثباته على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهي لا تنكره العقول وتُقِر به الأفهام ، وتبين الجهة الجامعة بينهما ، وسلوك القرآن هذا المسلك كان على أدق وجه وأكمله ، مقرباً ما بين الحقائق القرآنية والبدائه العقلية[(٢)] .

ولو نظرنا في سورة يس لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى يثبت في آخرها أمر البعث فيقول سبحانه ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ، أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾[(٣)] .

قال ابن القيم : (فلو رام أفصح البشر وأعلمهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو مثلها ، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ، ووصف الدلالة وصحة البرهان ، لألفى نفسه ظاهر العجز عن ذلك ، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً ، وكان في قوله سبحانه ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ما وَفِيَ بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لولا ما أراد الله تعالى من تأكيد حجته وزيادة تقريرها وذلك أنه تعالى أخبر أن هذا السائل الملحد لو تبين خلق نفسه وبدء كونه لكانت فكرته فيه كافيه)[(٤)] .

فهذه الآيات السابقة من سورة يس تضمنت عدة أقيسة منها :

أولاً : قياس الإعادة على ابتداء الخلق .

---

(١) الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ١/٤٤٣ .

(٢) انظر : المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، ٢٧٤ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(٣) يس : ٧٨ - ٨١ .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٨٦ .

ثانياً : قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر .

ثالثاً : قياس الإعادة على خلق السماوات والأرض بطريق الأولى[1] .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[2] .

قال السيوطي : (وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ، ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ، ثم أماتها بالمحل ، ثم أحياها بالخصب ، وصدق خبره في ذلك كله ، - بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب ، حتى انقلب الخبر عياناً – صدق خبره في الإتيان بالساعة)[3] .

وهذا النوع من الاستدلال يسمى عند المتكلمين (قياس الغائب على الشاهد) ، ويعرفونه بأنه الاستدلال بالمعلوم فيما بيننا على ما هو غائب عنّا ، إذا كان الغائب لا يمكن معرفته ابتداءً إلاّ بطريقة البناء على الشاهد[4] .

وقد استدل الله سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بآيات عدة منها :

قوله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[5] وقوله ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه ﴾[6]

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن ، ابن القيم ، ٨٦ ، مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت ، دار العلوم الإنسانية ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

(٢) الحج : ٥ -٧ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ٢/ ١٠٥٥ .

(٤) انظر : المحيط بالتكليف ، القاضي عبد الجبار ، ١٦٧ ، ت عمر السيد عزمي ، المؤسسة المصرية العامة .

(٥) الأعراف : ٢٩ .

(٦) الأنبياء : ١٠٤ .

وقوله ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾[1] .

ففي هذه الآيات الثلاث يوجد قياس الإعادة على ابتداء الخلق الأول ، لتقريب ذلك للأفهام .

وكذلك من الأقيسة التي وردت في إثبات البعث والنشور ، القياس على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات ، كقوله تعالى ﴿ يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[2] وقوله ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[3] .

كذلك الأمثال الموجودة في القرآن نجد فيها القياس واضح جداً ، والله سبحانه وتعالى ضرب للناس في القرآن من كل مثل وذلك ليتفكروا ويتدبروا الأحوال التي جاءت الأمثال بخصوصها .

قال شيخ الإسلام : (. . . بل الأمر ما عليه سلف الأمة أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه وتعالى بيَّن من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء[4] قدره ، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه ، وذلك كالأمثال المضروبة التي ذكرها الله في كتابه التي قال فيها ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية)[5] .

قال شارح العقيدة الطحاوية : (والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال)[6] .

وقد ذكر ابن القيم أن للأمثال المضروبة فوائد منها : تقريب المراد ، وتفهيم المعنى ،

---

(١) ق : ١٥ .
(٢) الروم : ١٩ .
(٣) فاطر : ٩ .
(٤) يقصد المتكلمين والفلاسفة .
(٥) درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، ١/ ١٩ .
(٦) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ١/ ٣٨ .

وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به ، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره ، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير ... الخ[(١)] .

ثانياً : السبر والتقسيم :

وهو حصر الأوصاف في الأصل وإبطال ما لا يصلح ليتعين ما بقي[(٢)] .

قال الجويني في بيان معناه على الجملة : (إن الناظر يبحث عن معانٍ مجتمعة في الأصل ويتتبعها واحداً واحداً ويبين خروج آحادها عن صلاح التعليل بها إلا واحداً يراه ويرضاه)[(٣)] .

فالمقصود من السبر والتقسيم هو الوصول للعلة الحقيقية التي من أجلها كان الحكم ، أي إنه يجب حصر الطرق التي يمكن التوصل بها إلى معرفة كون الوصف الذي ادعاه المستدل علة ، ثم نلغي جميع الطرق ، فإن استقر ذلك بطل التعليل بما ذكره المستدل[(٤)] .

وقد ورد هذا النوع من الأدلة في القرآن الكريم في مثل قول الله تعالى ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[(٥)] .

وقد بين السيوطي رحمه الله وجه الاستدلال من هذه الآية فقال : (فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم ،

---

(١) انظر أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، ٢٣٩/١ ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
(٢) التعاريف ، المناوي ، ٣٩٦ .
(٣) البرهان في أصول الفقه ، الجويني ، ٥٣٤/٢ .
(٤) شرح مختصر الروضة ، نجم الدين الطوفي ، ٤٩١/٣ - ٤٩٣ .
(٥) الأنعام : ١٤٣–١٤٤ .

فقال : إن الخلق لله ، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً أو أنثى ، فمم جاء تحريم ما ذكرتم ؟ أي : ما علته ؟ لا يخلو إما من جهة الذكورة والأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدري له علة وهو التعبدي بأن يأخذ عن الله تعالى والأخذ عن الله تعالى إما بوحي أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو معنى قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها .

والأول : يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً ، والثاني : يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ .

وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدَّعَى وهو أن ما قالوه افتراء على الله وظلال)[1] .

وهذا الدليل معروف عند الجدليين بالتقسيم والترديد ، وعند الأصوليين بالسبر والتقسيم ، وعند المنطقيين بالشرطي المنفصل[2] .

وهذا الدليل تكرر وروده في القرآن ، في مثل قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾[3] .

هذه الآية نزلت في العاص بن وائل السهمي عندما جاءه خباب بن الأرت رضي الله عنه يتقاضاه حقاً له فرفض إعطاءه حتى يكفر بالرسول ﷺ ،فقال خباب : لا ، حتى تموت ثم تبعث ، فقال : العاص وأني لميت ثم مبعوث ، قال خباب : نعم ، قال العاص إن لي مالاً وولداً هناك فأقضيك ، فنزلت هذه الآية[4] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ١٠٥٧/٢-١٠٥٨ .
(٢) انظر : أضواء البيان ، الشنقيطي ، ٣٦٥/٤ .
(٣) مريم : ٧٧-٧٨ .
(٤) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ ، رقم الحديث ٤٧٣٢ .

قال الشنقيطي[1] في تفسير هذه الآية : (قولك أنك تؤتى مالا وولداً يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء :

الأول : أن تكون اطلعت الغيب ...

الثاني : أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك ...

الثالث : أن تكون قلت ذلك افتراء على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب ...)[2] .

ثم بين رحمه الله أن القسمين الأولين باطلين فتعين القسم الثالث ، وقد أشار سبحانه إلى هذا الثالث الذي هو واقع بالفعل بحرف الزجر والردع (كلا)[3] .

أما المثال الثاني الذي ساقه الشنقيطي من القرآن فهو قوله تعالى حكاية عن اليهود ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[4] .

قال الشنقيطي : (فالأوصاف هنا هي الأوصاف الثلاثة المذكورة في سورة مريم كما أوضحنا ، وما حذف منها يدل عليه ذكره في مريم ، فاتخاذ العهد ذكره في البقرة ومريم معاً ، والكذب في ذلك على الله صرح به في البقرة بقوله ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ وأشار له في مريم بحرف الزجر الذي هو (كلا) واطلاع الغيب صرح به في

(١) هو الشيخ العالم المفسر الفاضل محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد بن فرح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار الجكني - نسبة إلى يعقوب الجكني الأمير جد قبيلة الجكنيين - الشنقيطي - نسبة إلى شنقيط بموريتانيا - ، زاول مهنة التدريس والفتيا والقضاء ، فكان الناس من أهل بلده يفدون من أماكن بعيدة في بلدته أو حيث يكون نازلاً وكان يفصل بين الخصمين عن تراض منهما ، وكان يقضي في كل شيء إلا في الدماء والحدود ، من مؤلفاته : (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب) (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات) وغيرها كثير ، توفي سنة ١٣٩٣هـ . انظر : مشاهير علماء نجد ، عبدالرحمن آل الشيخ ، ٥١٧ - ٥٢٠ ، ٥٤٠ - ٥٤٣ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . والأعلام ، الزركلي ، ٤٥/٦ ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ط ١٠ ، ١٩٩٢م .

(٢) أضواء البيان ، الشنقيطي ، ٣٦٦/٤ ، عالم الكتب ، بيروت .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ٣٦٦/٤ .

(٤) البقرة : ٨٠ .

مريم وحذفه في البقرة لدلالة ما في مريم على المقصود في البقرة كما أوضحنا)[1] .

وطريقة حذف المقدمات المعلومة المتفق عليها طريقة فصيحة في البيان ، وهي طريقة القرآن[2] .

كذلك من الأمثلة قوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ ﴾[3] .

فالتقسيم الحاصل هنا هو :

الأول : أن يكونوا خلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلاً .

الثاني : أن يكونوا خلقوا أنفسهم .

الثالث : أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم .

ولا شك أن القسمين الأولين باطلان بطلاناً قطعياً ، فتعين القسم الثالث وقد حذف لظهوره[4] .

وأشار الشنقيطي إلى نقطة مهمة في دليل السبر والتقسيم ، وهي أن أوصاف المحل المحصورة فيه قد تكون كلها باطلة مثل آية الأنعام ﴿ ومن الضأن اثنين ... ﴾ الآية ، وآية مريم ﴿ أفرأيت الذي قال ... ﴾ الآية ، وآية الطور ﴿ أم خلقوا من غير شيء ... ﴾ الآية ، وكذلك بيَّن رحمه الله أن هذا الدليل أعم نفعاً وأكثر فائدة على طريقة الجدليين منه على طريقة الأصوليين والمنطقيين[5] .

ثالثاً : القول الموجب :

نقل السيوطي في الإتقان عن ابن أبي الإصبع[6] تعريف القول بالموجب فقال : هو

(١) أضواء البيان ، الشنقيطي ، ٤/٣٦٦ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ١/٣٨ .

(٣) الطور : ٣٥-٣٦ .

(٤) انظر : أضواء البيان ، الشنقيطي ، ٤/٣٦٩-٣٧٠ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ٤/٣٦٩ .

(٦) هو عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن عبدالله بن محمد بن جعفر بن الحسن ، زكي الدين أبو محمد البغدادي ثم المصري ، المعروف بابن أبي الأصبع ، كان أحد الشعراء المجيدين ، وهو صاحب التصانيف المفيدة في الأدب وغيره ، توفي بمصر سنة ٦٥٤هـ . انظر : النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، ٧/٣٧ ، المؤسسة المصرية ، مصر .

(رد كلام الخصم من فحوى كلامه[1])[2] .

وقد ذكر السيوطي أن القول بالموجب ينقسم إلى قسمين :

الأول : (أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم ، فيثبتها لغير ذلك الشيء)[3] .

وقد أورد مثالاً من القرآن على ذلك قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[4] .

قال السيوطي : (فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، والأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون ، وكأنه قيل : صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل ، لكن هم الأذل المُخْرَج ، والله ورسوله الأعز المُخْرِج)[5] .

القسم الثاني : (حمل لفظٍ وقع في كلام الغير على خلاف مراده ممن يحتمله بذكر متعلقه)[6] .

ومثال هذا القسم قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾[7] .

هذه الآية نزلت في المنافقين الذين قالوا أن الرسول ﷺ أُذُن ، أي يستمع لكل أحد ويصدق كلامه من غير أن يميز بين الصادق والكاذب ، والأذن تطلق في كلام العرب ويراد

---

(١) فحوى الكلام : هو مفهوم الموافقة بقسميه الأولى والمساوي ، وقيل هو تنبيه اللفظ على المعنى من غير نطق به نحو ﴿ فلا تقل لهما أفٍ ﴾ . التعاريف ، المناوي ، ٥٥١ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ١٠٥٨/٢ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ١٠٥٨/٢ .

(٤) المنافقون : ٨ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ١٠٥٨/٢-١٠٥٩ .

(٦) المرجع السابق ، ١٠٥٩/٢ .

(٧) التوبة : ٦١ .

بها المستمع والقابل لكل شيء[(١)] .

فرد الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المنافقين بأن كلامهم عن الرسول ﷺ أنه أذن صحيح ولكنه أذن خير يستمع لهم ، ولا يقبل إلا الصدق ، والصادقون هم المؤمنون ، لذلك قال تعالى ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى وافقهم على مقدمتهم بأن الرسول ﷺ (أذن) إذ هي مقدمة صحيحة ، ولكنه خالفهم سبحانه بأنه أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ، ويصدق المؤمنين ، فألزمهم الله سبحانه بأن يؤمنوا بالرسول ﷺ لأنه أذن كما يقولون ولكنه يعلم من يخاطبه بحديث صدق أو كذب ، وهذه معجزة أيد الله بها نبيه وهي إعلامه عن طريق الوحي بالصادق من الكاذب .

والفرق بين القسمين اللذين أوردهما السيوطي ، هو أن الأول يؤخذ من كلام الخصم كناية لا تصريحاً ، أي أن الخصم كنّى بالحكم المثبت ولم يصرح به ، لأن المنافقين عندما قالوا ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ كانوا يكنون بذلك كناية ويريدون أنفسهم بالأعز والمؤمنين بالأذل ، فهم لم يقولوا هذا صراحة .

أما القسم الثاني ففيه تصريح وذلك أن المنافقين صرحوا تصريحاً واضحاً ، فقالوا عن الرسول ﷺ أنه أذن ، فرد الله عليهم من لازم القولين .

وإذا تأملنا ما سبق فإنا نجد أن المقدمة المتفق عليها مقدمة صحيحة ، ولكن قد تكون المقدمة باطلة في بعض الأحيان ، مثل أن يطلق الخصم دعوى من الدعاوى فيسلم الخصم الآخر بهذه الدعوى لا على أنها صحيحة ، ولكن ليلتزم خصمه بشيء لا يقول به فحينئذٍ يتراجع الخصم عن دعواه ، ويتبين له فساد وخطأ حجته .

وعندما تحدث شيخ الإسلام عن الجدل ، وأن الله أمر المؤمنين بالمجادلة بالحسنى ، قال : (والله تعالى لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علماً ، فلو قدر

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ١٩٢/٨-١٩٣ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري ، ١٦٨/١٠-١٦٩ دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ . ومختار الصحاح ، مادة أذن .

أنه - أي المجادل - قال باطلاً لم يأمر الله أن يحتج عليهم بالباطل ، لكن هذا قد يفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه ، لا لبيان الدعوة إلى القول الحق ، و القرآن مقصوده بيان الحق ودعوة العباد إليه)[1] .

رابعاً : الإلزام :

عرَّف ابن عقيل الإلزام فقال : (هو التعليق على الخصم مالا يقول به بدلالة ما يقول به)[2] .

ومثاله آية في القرآن الكريم يأمر الله سبحانه وتعالى فيها رسوله ﷺ بإلزام اليهود بالإيمان بالرسل بناءً على دعوة باطلة ادّعوها ، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3] .

قيل أن هذه الدعوة من اليهود كانت فعلاً موجودة في التوراة ولكنهم ـ كعادتهم في التحريف و الإخفاء للنصوص التي لا يريدونها ـ أخفوا باقي الكلام ، فقد (كان تمام الكلام هو: حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان)[4] .

و الصحيح أن الدعوى باطلة ، لأن الله سبحانه وتعالى قال في نهاية الآية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا دليل كذبهم .

الحاصل أن اليهود عندما ادّعوا هذه الدعوى ألزمهم الله سبحانه وتعالى بالإيمان بجميع الرسل لأنهم جاؤوا بالبراهين الساطعة و الحجج الواضحة ، بل إن المعجزات التي جاء بها الرسل كانت أقوى مما طلبوا .

فالله تعالى أمر نبيه بأن يقول لهم : إن كنتم أيها اليهود صادقين في دعواكم هذه

(١) الرد على المنطقيين ، ابن تيمية ، ٤٦٨ ، دار المعرفة ، بيروت .
(٢) الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ١/١٩٧ .
(٣) آل عمران : ١٨٣.
(٤) انظر : تفسير القرطبي ، ٤/٢٩٥ .

فلازم كلامكم ، بل يجب عليكم أن تؤمنوا بجميع الرسل الذين أرسلوا إليكم لأنهم جاؤوا بالذي قلتم ، بل بأقوى من ذلك وأكبر فلِمَ كفرتم به وقتلتموهم ؟.

واليهود عندما ادّعوا هذه الدعوى ظنوا أنهم يمكنهم بهذه الحجة الفرار من الإيمان بالرسل فإذا بدعواهم تلزمهم وتوجب عليهم ما فروا منه .

وكذلك من أمثلة الإلزام الآيات التي فيها إلزام للمشركين بالإقرار بتوحيد الألوهية بعد إقرارهم بتوحيد الربوبية ، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[(١)] .

وقد وردت عدة آيات في القرآن تحوي مثل ما حوت هذه الآية ، فمرة يقررهم بخلق السموات و الأرض كما في هذه الآية ، ومرة بتسخير الشمس و القمر ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[(٢)] ، ومرة بإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[(٣)] ، ومرة بمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾[(٤)] ، وفي كل ذلك يجيبون إجابة واحدة فيقولون : الله . فيقال لهم : فكما أنكم وحدتموه بالربوبية، وجب عليكم أن توحدوه بالعبادة .

قال القرطبي : (المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين وتقرير الحجة عليهم ، فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم ، ومن لم يعترف فيقرر عليه أن السموات والأرض لا بد لهما من خالق ، ولا يتمارى في هذا عاقل ، وهذا قريب من مرتبة

---

(١) لقمان : ٢٥.
(٢) العنكبوت : ٦١ .
(٣) العنكبوت : ٦٣ .
(٤) يونس : ٣١ .

الضرورة .....

((فسيقولون الله)) لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله ، أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا)[1] .

وقال ابن كثير : (وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية)[2] .

وقال البيضاوي : [﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته ، ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم][3] .

خامساً : التسليم :

وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ، لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه[4] .

هذا تعريف السيوطي للتسليم الذي وقع في القرآن الكريم ، وقد أورد مثالاً على ذلك وهو قوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[5] .

ثم قال السيوطي : (المعنى : ليس مع الله من إله ، ولو سُلِّم أن معه سبحانه وتعالى إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق ، وعلا بعضهم على بعض ، فلا يتم في العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله ، و الواقع خلاف ذلك ، ففرض

---

(١) تفسير القرطبي ، ٨/٣٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ٣/٤٢٢ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي ، ٤/٣٥٠ ، ت عبدالقادر حسونة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ٢/ ١٠٥٩ .

(٥) المؤمنون : ٩١ .

إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه المحال)[1] .

وينطبق على هذا النوع من البراهين قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] لأن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون هناك إله غيره ، لكن على فرض التسليم بذلك لكانت النتيجة فساد السماوات و الأرض فلما لم تفسد دل ذلك على عدم وجود من له الإلهية الحقّة إلا الله .

وهذا النوع من الاستدلال يسمى استدلالاً بـ (العكس) ، وأصله عند أهل الجدل : أن يتبدل ترتيب الكلام ويتحفظ معه أمران : الصفة و الصدق ، وحقيقته عندهم : ما يمنع وقوعه يمنع تغيره ، وما يمنع تغيره يمنع وقوعه ، إلا أنه لا يتم له إلا إذا أتى بهما خاصين منكرين[3] .

قال ابن عقيل : (ومنهم - أي أهل العلم - من قال : يصح الاستدلال به ، وهم الأكثرون من الفقهاء وأهل الجدل ، وهو أصح لأن الحكمين إذا كان طريقهما واحداً وثبتا معاً جاز أن يستدل بوجود أحدهما على وجود الآخر ، وبعدم أحدهما على عدم الآخر ، لأن القرآن تضمن الاستدلال بالعكس ، قال سبحانه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ والمراد بقوله إلا الله : غير ، وهي صفة ، فوصف الآلهة التي ادّعوها بأنها غير الله ، ولم يتعرض لذكر الواحد في هذا الموضع البتة ، فكأنه قال سبحانه : لو كان فيهما الآلهة التي تدعونها لفسدتا ، فلما لم تفسدا علمنا أنها ليست آلهة . وهذا استدلال بالعكس)[4] .

وهذا النوع من الاستدلال يسمى أيضاً (قياس الخلف) : وهو إثبات الأمر ببطلان نقيضه[5] ، وهو منطبق على الأمثلة الآنفة الذكر.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ١٠٩٥/٢ .
(٢) الأنبياء : ٢٢ .
(٣) انظر : الواضح في أصول الفقه ، ابن عقيل ، ٧١/٢ .
(٤) المصدر السابق ، ٧٢/٢ .
(٥) المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، ٢٧١ .

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة : [قياس الخلف هو إثبات الأمر ببطلان نقيضه ، وذلك لأن النقيضين ، لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ، كالمقابلة بين العدم و الوجود ، والمقابلة بين نفي أمر معين في مكان وزمان معين ، وإثباته في هذه الحال ، فإن انتفى بالدليل كان ذلك حكماً بوجود نقيضه ، فدليل الخلف أن يبطل النقيض ، فيثبت الحق ، وأن القرآن الكريم يتجه في استدلاله إلى إبطال ما عليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان ، فيثبت التوحيد ، ومن ذلك الاستدلال على التوحيد بقوله تعالى : ﴿ لوْ كانَ فيهِما آلهة إلاّ الله لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ الله ربّ العرشِ عمَّا يَصِفُون ﴾[1]][2] .

وأورد الأستاذ أبو زهرة أمثلة أخرى على قياس الخلف منها :

قوله تعالى: ﴿ ما اتَّخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إله إِذاً لَذَهَبَ كُل إِلهٍ بِما خَلَق وَلَعَلا بَعْضهمْ عَلَى بَعْض ﴾[3] .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلهة كَمَا يَقُولُون إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِيْ العَرْشِ سَبِيْلاً ﴾[4] .

وقوله عن القرآن ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فيْهِ اختِلافاً كثِيْراً ﴾[5] .

والأمثلة من هذا النوع كثيرة في القرآن الكريم ، فالله سبحانه و تعالى يتحدى الكفار و المشركين ، و يثبت لهم الحقائق ، ولكن لمكابرتهم و عنادهم يفرض لهم المحال ليستنبطوا النتيجة بأنفسهم ، و الله سبحانه وتعالى لعلمه بأنهم مكابرون معاندون أجاب عنهم وبيَّن لهم النتيجة التي ستكون من وراء فرض المحال .

سادساً : الانتقال :

وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه ، لكون الخصم لم يفهم

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .
(٢) المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، ٢٧١ - ٢٧٢ ، وانظر : تاريخ الجدل ، للمؤلف ، ٦٦ ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٩٨٠هـ .
(٣) المؤمنون : ٩١.
(٤) الإسراء : ٤٢ .
(٥) النساء : ٨٢ .

وجه الاستدلال من الأول[1] .

وأورد السيوطي مثالاً على ذلك قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] .

قال السيوطي : (فعلم الخليل انه – أي النمرود – لم يفهم معنى الإحياء و الإماتة ، أو علم ذلك وغالط بهذا الفعل ، فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد الجبار له وجهاً يتخلص به منه فقال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ فانقطع الجبار وبهت ولم يمكنه أن يقول : أنا الآتي بها من المشرق لأن من هو أسن منه يكذبه)[3] .

وقال ابن الحنبلي بعد إيراد هذه الآية : (فالصادر من خصمه – أي خصم إبراهيم – معارضة[4] إلا أنها فاسدة لأن حقيقة الإحياء والإماتة التي فسرها خصمه غير الذي قصده إبراهيم فلا يخلو حال نمرود إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة ، أو فهم إلا انه قصد المصادمة والمباهتة وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم وأفلج للحجة)[5] .

وأورد ابن الحنبلي مثالاً آخر للانتقال في القرآن الكريم وهو قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ٢/١٠٥٩ .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .
(٣) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ٢/ ١٠٦٠.
(٤) المعارضة : هي الجمع بين الشيئين للتسوية بينهما في الحكم ، الواضح في أصول الفقه ، لابن عقيل ، ١/ ٤٠١ .
(٥) استخراج الجدل من القرآن الكريم ، ابن الحنبلي ، ٣٩ ، ت محمد حلاق ، مؤسسة الريان ، بيروت - لبنان، ط ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

الأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[1] .

فنلاحظ في هذه الآيات أن موسى عليه السلام كان ينتقل من دليل إلى دليل كلما اعترض عليه الطاغية الجبار فرعون ، مع أن فرعون كان يفهم ما يقوله موسى عليه السلام ، إلا أنه لعناده ومكابرته أخذ يعترض على كل دليل يأتي به موسى عليه السلام ، وموسى آخذ في الانتقال بين الأدلة الدالة على التوحيد .

وكما يوجد في القرآن انتقال من استدلال إلى استدلال ، كذلك يوجد انتقال من توبيخ إلى توبيخ ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِين ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[2] .

قال الشوكاني : (... و الثالث قوله ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ وفي هذا إضراب وانتقال من التوبيخ كما تقدم من التوبيخ بوجه آخر : أي بل ألم يعرفوا بالأمانة والصدق فأنكروه ، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك ، و الرابع قوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ وهذا أيضاً انتقال من توبيخ إلى توبيخ : أي بل أتقولون به جنة : أي جنون مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ...)[3] .

سابعاً : المناقضة:

وهي تعليق أمر على مستحيل ، إشارة إلى استحالة وقوعه[4] .

---

(١) الشعراء : ٢٣- ٣٢ .

(٢) المؤمنون : ٦٨- ٧٠ .

(٣) فتح القدير ، الشوكاني ، ٣/٤٩٢ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ٢/ ١٠٦٠ .

والمثال الذي أورده السيوطي في الإتقان هو قوله تعالى عن الكفار ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾[(1)].

فقد بين الله سبحانه في هذه الآية استحالة دخول الكفار الجنة ، وعلق هذا الأمر الذي لن يكون إلا يوم القيامة بأمر واقع محسوس مشاهد ، وهو دخول الجمل كبير الحجم في سم الخياط الصغير الضيق ، فهذا من المحال الذي لا تُقِر به العقول السليمة ، وهذه الآية فيها تحدٍ للكفار و استهزاء من الله سبحانه وتعالى بهم .

وقد وردت أمثلة في القرآن الكريم ينطبق عليها هذا النوع من الاستدلال ، منها قوله تعالى ﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[(2)].

بين الله سبحانه في هذه الآية أنه يستحيل أن يأتي الرسول ﷺ بآية أفضل من الآية التي معه وهي القرآن[(3)] ، وعلق هذا المستحيل على أمر مستحيل أيضاً وهو ابتغاء الرسول ﷺ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء لكي يأتي بآية أخرى غير القرآن ليصدقوا به ، وبين أن سبب ذلك هو المشيئة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾[(4)].

كذلك في هذه الآية يتحدى الله سبحانه وتعالى من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله محمد ﷺ[(5)] في الدنيا و الآخرة ، وإن كان ظنه صحيحاً كما يعتقد فليمدد بسلم إلى السماء لكي يقطع هذا النصر الذي ادعى أنه لن يكون ، فعلق الله سبحانه استحالة حصول ما يعتقده هذا الكافر وهو عدم النصر للرسول ﷺ في الدنيا والآخرة بأمر مستحيل

---

(1) الأعراف : ٤٠.

(2) الأنعام : ٣٥.

(3) انظر : تفسير الطبري ، ٧/ ١٨٤ .

(4) الحج : ١٥ .

(5) انظر : تفسير القرطبي ، ٢٢/١٢ .

وهو صعوده إلى السماء بسلم وقطع هذا النصر وهذا لن يكون أبداً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴾(1) .

والارتقاء في الأسباب أمر مستحيل وهم يعلمون ذلك ، إذاً يستحيل أن يكون لهم ملك السماوات و الأرض .

ثامناً : المنـــع :

وحقيقة المنع : طلب الدليل على ما يحتاج إلى الاستدلال ، وطلب التنبيه على ما يحتاج إليه(2) .

ومعنى ذلك أن الخصم يطالب خصمه بدليل يدل على صحة دعواه ، فإذا لم يوجد الدليل وجب منعها ، ويصح تسمية هذا النوع من البراهين بـ (طلب البرهان أو الدليل).

ولو تأمل الناظر في القرآن الكريم ، لوجد الكثير من الآيات التي يطالب الله سبحانه وتعالى الكفار و المشركين بأدلة يقدمونها على ما يدّعون من دعاوى باطلة ، ويأتي اسم الدليل في القرآن معبر عنه بلفظ (البرهان) أي الحجة ، فيقال : برهن عليه أي أقام الحجة(3) ، أو يأتي الدليل معبر عنه بلفظ (السلطان) وهو بمعنى الحجة والبرهان(4) ، وكل هذه الألفاظ مترادفة وبمعنى واحد .

مثال ذلك قوله تعالى حكاية عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(5) .

وقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ

---

(1) ص : 10 .

(2) رسالة الآداب في علم آداب البحث و المناظرة ، محمد محيي الدين عبد الحميد ،73 ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر - القاهرة ، وقد أشار المؤلف في الحاشية أن المنع قد يسمى مناقضة ولكن بالنظر إلى تعريف السيوطي للمناقضة نجد اختلافاً بين التعريفين.

(3) انظر : مختار الصحاح ، مادة برهن .

(4) انظر: مختار الصحاح ،مادة سلط .

(5) البقرة :111.

مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُعْرِضُونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ، وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[3] .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[4] .

وقوله تعالى حكاية عن أصحاب الكهف ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾[5] .

وقوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ، أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[6] .

وقوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[7] .

وغير ذلك من الآيات التي فيها منع لما يدعيه الكفار و المشركون من اتخاذ الله الولد ، وادعاء الشريك لله ، وأن القرآن من قول محمد ﷺ، وغيرها من الدعاوى الباطلة .

تاسعاً : الأقيسة الإضمارية :

وهي الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف ، فهو

---

(١) الأنبياء : ٢٤.
(٢) النمل : ٦٤.
(٣) القصص : ٧٤-٧٥.
(٤) يونس : ٦٨ .
(٥) الكهف : ١٥.
(٦) الصافات : ١٥١-١٥٧.
(٧) الطور : ٣٨.

محذوف معلوم مطوي في الكلام منوي فيه[1].

ومثال ذلك من القرآن قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[2].

قال شيخ الإسلام : (فإن قول الله تعالى : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها ، ... و التقدير : هذه العظام رميم ، ولا أحد يحيي العظام وهي رميم ، فلا أحد يحييها ، ولكن هذه السالبة كاذبة ، ومضمونها امتناع الإحياء ، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه)[3].

وقد نوّه الطبري في تفسيره لهذه الآية بهذه المقدمة المحذوفة فقال : (من يحيي العظام وهي رميم إذ كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد)[4].

ومن الأمثلة على هذا النوع من الأدلة ، قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[5].

في هذه الآية توجد مقايسة بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه السلام ، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مبرر لاتخاذ عيسى إلهاً فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبرراً لاتخاذ آدم إلهاً ، ولا أحد يقول ذلك .

فهنا نجد أن قد حذفت مقدمة وبقيت واحدة ، أي تقدير الكلام : إن آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم ، فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً[6].

قال القرطبي : [قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ دليل على صحة القياس ، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب

---

(١) المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة، ٢٦٩ ، وانظر : تاريخ الجدول للمؤلف ، ٦٤.
(٢) يس: ٧٨ -٧٩ .
(٣) درء تعارض العقل و النقل ، ابن تيميه ، ١\٢٢.
(٤) تفسير الطبري ، ٢٣/ ٣١ .
(٥) آل عمران ، ٥٩ -٦٠.
(٦) انظر : المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، ٢٧٠ .

كآدم،... ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي ﷺ قوله : ((إن عيسى عبد الله وكلمته)) فقالوا : أرنا عبداً خلق من غير أب ، فقال لهم النبي ﷺ : (آدم من كان أبـــوه ؟ أعجبتم من عيسى ليـــس له أب ؟ فآدم عليـــه السلام ليس له أب ولا أم)[(١)].

ولفصاحة القرآن الكريم وبيانه ورد فيه هذا النوع من القياس ، قال شارح الطحاوية : (والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل ، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحكم و الدليل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها ، استدل بها ، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها و الطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف وهي طريقة القرآن ، بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع ، فإنه يبينه ويدل عليه[(٢)])[(٣)].

خاتمـــــة:

فهذه بعض أنواع الأدلة العقلية التي وردت في القرآن الكريم ، وإحصاء مثل هذه الأدلة في القرآن يحتاج إلى رسالة علمية خاصة بهذا الموضوع[(٤)] ، ولكن المقصود من هذا المبحث هو بيان أن القرآن جاء بأحسن الأدلة العقلية وأروعها ، وأكثرها إلزاماً للخصم ، وفيها الحجة البالغة ، والفيصل الفارق بين الحق والباطل ، وقد أدحضت بها حجة الخصوم وأرشدوا إلى المحجة ، وبينت لهم الجادة الصواب ليسيروا عليها في وضح النهار لأن ضوء الحق أذهب ظلام الباطل .

قال شيخ الإسلام: (فقد تبين أن ما عند النظار أهل الكلام و الفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية ، فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق ، وما هو أبلغ

(١) تفسير القرطبي ، ١٠٣/٤ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ٣٨/١ .
(٣) والذي ظهر لي من خلال البحث أن العلماء الأوائل لم يكونوا يطلقوا عليه اسم (القياس الإضماري) وأن هذه التسمية معاصرة ، أما الأوائل فقد كانوا يطلقون عليه اسم (قياس حذفت إحدى مقدماته).
(٤) انظر : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ، سعود العريفي ، ١١٥-١٣٦ .

وأكمل منها على أحسن وجه ، مع تنزهه عن الأغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء ، فإن خطأهم فيها كثير جداً ، ولعل ضلالهم أكثر من هداهم ، وجهلهم أكثر من علمهم، ولهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره في كتابه (أقسام الذات) : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[1] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّب ﴾[2] واقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[3] ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾[4] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)[5] .

(١) طه : ٥ .

(٢) فاطر : ١٠.

(٣) الشورى : ١١.

(٤) طه : ١١.

(٥) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢٢٥/٩ .

المبحث الثاني

مخاطبة الله سبحانه وتعالى لعباده بالتدبر و النظر والتفكير

إن القارئ للقرآن لا يكاد يمر بآية حتى يجد فيها أمر بالتفكر أو التدبر أو النظر ، ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أمر الناس بتدبر القرآن ، و التفكر بآياته ، و التبصر في أنفسهم ، والتعقل لكل موعظة منه لعباده سواء كانت هذه الموعظة بصيغة الخطاب المباشر أو بصيغة القصص ، و الأمثال ، وفي هذا المبحث عرض لبعض الآيات التي خاطب الله سبحانه فيها عباده بأن يُعمِلوا عقولهم فيما أمرهم به ، على أن يعود هذا الإعمال عليهم بالنفع في دنياهم و آخر تهم .

أولاً : تدبر القرآن :

ورد الأمر بتدبر القرآن في كتاب الله في أربعة مواضع، منها ثلاثة جاءت بطريقة الاستفهام الإنكاري، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[1] .

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾[2] .

وقوله: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[3] .

أما الموضع الرابع فقد جاء بطريق الأمر المباشر، وهو قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَاب ﴾[4] .

---

(١) النساء : ٨٢.

(٢) المؤمنون: ٦٨.

(٣) محمد : ٢٤.

(٤) ص: ٢٩.

والتدبر هو التفكر في الأمر وما تؤول إليه عاقبته، و الدبر هو مؤخرة الشيء[(١)]، أي أن معنى تدبر القرآن هو التفكر و النظر فيه ورد أول الكلام إلى آخره حتى يصبح المعنى واضحاً جلياً كاملاً غير منقطع ولا مفصول، وهذا هو منهج أهل السنة و الجماعة في إثبات العقائد من القرآن والسنة .

وبيّن ابن القيم أن التدبر هو النظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ، ومنه تدبر القول، قال تعالى: ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾[(٢)] ، وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ، ولهذا جاء على بناء التفعُّل ، كالتجرُّع والتفهمُّ والتبيُّن[(٣)] .

قال الشوكاني: (الهمزة في قوله ﴿ أفلا يتدبرون ﴾ للإنكار ، و الفاء للعطف على مقدر: أي يعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه ، يقال تدبرت الشيء : تفكرت في عاقبته وتأملته ، ثم استعمل في كل تأمل ، و التدبير : أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته ودلت هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[(٤)] على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه ، و المعنى أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف ، صحيح المعاني ، قوي المباني ، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[(٥)] أي تفاوتاً وتناقضاً، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات والسور ، لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع ، وهذا شأن كلام البشر لاسيما إذا طال وتعرض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر)[(٦)] .

والتدبر كما لاحظنا في تعريفه فيه إعمال للعقول ، ولذلك فالله سبحانه و تعالى يأمر

---

(١) انظر: مختار الصحاح ، مادة دبر.
(٢) المؤمنون : ٦٨.
(٣) انظر : مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١/٥٤٤-٥٤٥ .
(٤) محمد : ٢٤.
(٥) النساء : ٨٢.
(٦) فتح القدير، الشوكاني، ١/٤٩١ .

عباده بإعمال عقولهم عند قراءة القرآن ليفهموا معناه ، قال ابن كثير : (ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة و المآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[1] أي ذوو العقول وهي الألباب جمع لب وهو العقل، قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى أن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ، رواه ابن أبي حاتم)[2] .

وقال ابن القيم : (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك وأحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه[3] فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[4])[5] .

ولكن إعمال العقل في القرآن لا يعني تأويل آياته تأويلاً متعسفاً ، يخرج بها عن المعنى المقصود تماماً ، كما فعل ذلك أكثر المتكلمين فنفوا كثيراً مما أثبته القرآن الكريم بسبب تأويلا تهم المتعسفة ، ولكن المقصود بالتدبر كما ذكرنا هو رد معاني الآيات بعضها إلى بعض ، وهذا معنى كونه مؤتلفاً لا يناقض بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه بعضاً ، ويؤيد بعضه بعضاً ، ويشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والصدق والإعجاز ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾[6] وقال : ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[7] وقال رسول الله ﷺ : (... إن هذا القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً ، إنما نزل يصدق

---

(١) ص: ٢٩.
(٢) تفسير ابن كثير، ٤/٣٤ .
(٣) الضمير الأول في لفظة (منه) عائد إلى من تكلم ، و الضمير الثاني في لفظة (إليه) عائد إلى من يخاطبه.
(٤) ق: ٣٧.
(٥) الفوائد ، ابن القيم ، ٣ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .
(٦) الزمر: ٢٣.
(٧) هود: ١.

بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه)[1].

وقد بين شيخ الإسلام أن القرآن فيه إحكام عام وتشابه عام، فالإحكام العام يوجد في قوله تعالى ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2] ومعناه إتقان الكلام بتمييز الصدق من الكذب في أخباره وتمييز الرشد من الغي في أوامره .

أما التشابه العام في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾[3] ومعناه تماثل الكلام وتناسبه ، بحيث يصدق بعضه بعضاً ، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته وإذا نهى عن شيء لم يأمر به في موضع آخر بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته إذا لم يكن هناك نسخ ، وكذلك إذا أخبر بثبوت شيء لم يخبر بنقيض ذلك ، بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته ، وإذا أخبر بنفي شيء لم يثبته ، بل ينفيه أو ينفي لوازمه ، وهذا التشابه يكون في المعاني وإن اختلفت الألفاظ ، فإذا كانت المعاني يوافق بعضها بعضاً ، ويعضد بعضها بعضاً ، ويناسب بعضها بعضاً، ويشهد بعضها بعضاً ، ويقتضي بعضها بعضاً ، كان الكلام متشابهاً[4].

والقرآن هو المعجزة الخالدة، وهو كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ ، غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، أخبر الله سبحانه بالحقائق الكونية وبعجائب المخلوقات وبكل شيء يحتاج إليه الإنسان في دنياه وآخر ته ، لذلك أمره بالتدبر فيه لأن الإنسان محتاج إلى هذا التدبر .

قال الشيخ عبد العزيز السلمان : (من هدي القرآن للتي هي أقوم الحث على تدبر القرآن والتفكر فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ وقو ارع الزواجر والوعد والوعيد ، وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق وفاضل الأدب وسديد الشرائع و الأحكام مما فيه سعادة

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، ١٨١/٢ ، رقم الحديث ٦٧٠٢ ، والحديث صحيح وإسناده حسن وله شواهد ، انظر: النسخة المحققة ١١ /٣٠٤-٣٠٥.

(٢) هود: ١.

(٣) الزمر: ٢٣.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (التدمرية)، ابن تيمية، ٦٠/٣ - ٦١.

البشر في حياتهم الدنيوية و الأخروية)[1] .

قال سيد قطب : (وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير ، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير)[2] .

وتدبر القرآن يشمل أموراً منها :

- حكمة التشريع .
- سنن الله الجارية في خلقه .
- قصص القرآن .
- أمثال القرآن .

حكمة التشريع :

إن الله سبحانه وتعالى أودع في شرائعه وأحكامه ما شاء من المصالح و الحكم ، لا يحيط العلماء بكل أسرارها ولكن قد يحيط ببعضها ، لأن العقل قاصر عن معرفة جميع الأسرار القرآنية، فقد ينكشف له بعض الأسرار و الحكم ، وقد لا يدرك للحكم فائدة ولا يرى له مصلحة ، فإذا انكشف له كان الحكم معللاً وإذا لم ينكشف كان الحكم تعبدياً يجب العمل به مع التسليم و القبول .

ولنأخذ الزكاة مثالاً لنرى الحكمة من مشروعيتها .

شرعت الزكاة لأمور منها :

إعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وإقدار العاجز وتقويته على أداء ما فرض الله عز وجل عليه من التوحيد والعبادات .

إن الزكاة تطهر نفس المؤدي عن أنجاس الذنوب وتزكي أخلاقه بخلق الجود والكرم

---

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات أو البرهان المحكم في أن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، عبد العزيز السلمان ٢/ ١٠٤ ، ط ٥ ، ١٤١٧هـ .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٤٦٤/٧ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط ٧ ، ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

وترك الشح إذ الأنفس مجبولة على الضن بالمال فتتعود السماحة وترتاض لأداء الأمانات وإيصال الحقوق إلى مستحقيها وقد تضمّن ذلك كله قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾(1) .

أن الله تعالى قد أنعم على الأغنياء وفضلهم بصنوف النعمة والأموال الفاضلة عن الحوائج الأصلية وخصهم بها فيتنعمون ويستمتعون بلذائذ العيش فيجب أداء شيء من فاضل أموالهم إلى الفقراء قياماً بشكر تلك النعمة .

ولها فائدة اجتماعية وهي كف شر الفقراء و منعهم عن السرقات و الإجرام وتطييب قلوبهم وجلب محبتهم للأغنياء(2) .

فالإسلام يوجه العقل إلى تدبر حكمة التشريع لإحسان تطبيقه ومن أجل الاجتهاد فيما أذن الله فيه بالاجتهاد ، وإعمال العقل لتدبر حكمة التشريع أمر واضح الضرورة وواضح الحكمة، فالتشريع أولاً لا ينطبق انطباقاً آلياً على كل حالة من الحالات التي تقع بين البشر، إنما يحتاج الأمر إلى إعمال العقل لمعرفة الحكم الذي ينبغي تطبيقه في الحالة المعروضة للحكم ، ولمعرفة الطريقة الصحيحة لتطبيقه ، وقد روعي في الشريعة أن تواجه الثابت و المتغير في حياة الناس(3) .

سنن الله الجارية في خلقه :

يوجه القرآن العقل إلى تدبر سنن الله الجارية بقدرته في حياة البشر من أجل إقامة مجتمع صالح ، لأن الحياة البشرية ليست فوضى وإنما هناك ضابط رباني دقيق يضبطها ، من خلال هذا الضابط يستطيع الإنسان أن يتبين السلوك الذي يجب أن يسلكه(4) .

---

(1) التوبة: ١٠٣.

(2) حكمة التشريع وفلسفته ، وضعه لجنة من علماء الأزهر، تعليق: عبد الله توفيق الصباغ ، ٣٧ ، دار القلم، الإمارات ، ط ١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

(3) مذاهب فكرية معاصرة، العقلانية ، محمد قطب ، ٥٤٤-٥٤٥ ، دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

(4) انظر المرجع السابق ، ٥٤٦.

ومن هذه السنن :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾[2] .

والعقل يتدبر هذه السنن ليعمل بوعي على إقامة مجتمع صالح يستحق التمكين في الأرض كما وعده ربه بذلك ويكتسب بذلك وعياً اجتماعياً و سياسياً ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3] .

تدبر قصص القرآن :

قص الله سبحانه وتعالى في كتابه قصص الأمم السابقة وما جرى لهم من عواقب ، وقد أخذت القصة حيزاً في القرآن أكثر مما أخذ التوحيد المباشر ، وما ذاك إلا لما في القصة من العظة والعبرة والتدبر ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[4] وقال سبحانه ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] .

وقد احتوى القرآن على أحسن القصص ، قال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[6] .

والقصص في القرآن جاءت على ثلاثة أنواع :

---

(١) الرعد: ١١.
(٢) غافر: ٨٤ - ٨٥.
(٣) النور: ٥٥.
(٤) يوسف: ١١١.
(٥) الأعراف: ١٧٦.
(٦) يوسف : ٣.

١- قصص الأنبياء ودعوتهم أقوامهم ومعجزاتهم وموقف أعدائهم منهم، ومراحل دعوتهم وتطورها، وعاقبة المؤمنين وعاقبة المكذبين.

٢- قصص تتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة ذي القرنين.

٣- قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن الرسول ﷺ كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة(١).

والمتدبر في قصص القرآن يشعر بأن القصة تطرق مسامعه بشغف وتنفذ إلى نفسه بسهولة ويسر وتسترسل مشاعره فلا تمل ولا تكل ويرتاد عقله عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير و الثمار(٢).

تدبر أمثال القرآن :

ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، ولا يشعر بذلك إلا المتدبر فيها العالم بمرادها وسبب ضربها، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾(٣) وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤).

والحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسي يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو الغالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ٣١٧، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
(٢) انظر: المرجع السابق، ٢٢١.
(٣) العنكبوت: ٤٣.
(٤) الحشر: ٢١.

بيانه ونواحي إعجازه[1].

وأمثال القرآن قسمان:

ظاهر مصرح به كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ الآيات[2].

وكامن لا ذكر للمثل فيه ، مثل الآيات التي ورد فيها الحث على التوسط في الأمور لأنه خيرها ، قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾[3] وقوله ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[4] وقوله: ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾[5][6].

ثانياً: النظر في مخلوقات الله:

أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالنظر في مخلوقاته في مواضع عديدة بهدف الاعتبار و التبصرة و الرجوع إليه سبحانه و الخضوع له بالعبادة وترك العناد والمكابرة ، وقد ورد الأمر بالنظر في مخلوقات الله في القرآن (٤٨) مرة .

وقد عرَّف ابن القيم النظر : بأنه التفات القلب إلى المنظور فيه[7] ، وهذا يعني اشتراك حاستين للإنسان حتى تكون النتيجة أقوى ، لأن استعمال حاسة واحدة قد لا يؤدي الهدف المطلوب .

ومن الأمور التي أمر الله بالتفكر بها :

- الأمر بالنظر في السموات والأرض ، وقد ورد الأمر بالنظر في السموات والأرض في القرآن (٦) مرات ، قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ

---

(١) مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، ٢٩٠ .
(٢) البقرة : ١٧ — ٢٠.
(٣) الفرقان: ٦٧.
(٤) الإسراء: ٢٩.
(٥) الإسراء: ١١.
(٦) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٠٤٣-١٠٤٥.
(٧) انظر : مفتاح دار السعادة، ، ابن القيم ، ١/٥٤٤.

وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1] .

أي أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك ممن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة و الدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد[2] .

قال سيد قطب : (وهي هزة أخرى أمام الكون العجيب ، والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام ، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه ، والإبداع الذي يشهد به ، و الإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير ، والنظر إلى ما خلق الله من شيء ، وكم في ملكوت السموات و الأرض من شيء ، يدهش القلب ويحير الفكر ، ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله ، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهود)[3] .

فالمراد إذن من وراء هذا النظر هو الإيمان بالله لمن لم يؤمن، وزيادة الإيمان لمن آمن ، وهذا ما تبينه الآية التالية :

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾[4] .

في هذه الآية توجيه لأنظار المكذبين بالبعث والمنكرين لقدرة الله على إحياء الموتى ، إلى السماء وكيفية بنائها وكونها سقفاً محفوظاً ومزينة بالنجوم وليس فيه صدع ولا فتق ، وإلى الأرض كيف بسطها الله وجعل فيها الجبال الثوابت ، وأنبت فيها النبات النظر

(١) الأعراف: ١٨٥ .
(٢) تفسير الطبري ، ٩/١٣٦ .
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ، ٣/٦٩١.
(٤) ق: ٦-٨.

الحسن ، فكل هذا تبصرة من الله لكل عبد رجع إلى الإيمان بالله و العمل بطاعته[١] .

وفي هذه الآية صلة يقيمها القرآن بين المعرفة و العلم وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم، وهذه الصلة تهملها مناهج البحث التي يسمونها علمية في هذا الزمان ، وهي التي تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه ، ولكن في حقيقة الأمر أن المنهج الرباني لا ينقص شيئاً من ثمار المنهج العلمي في إدراك الحقائق المفردة ، بل إنه يزيدها ربطاً ويردها إلى الحقائق الكبرى ، ويصل القلب البشري بها[٢] .

قال تعالى ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] .

وقال سبحانه ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] .

وقال سبحانه ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[٥] .

- الأمر بالنظر في خلق الإنسان وقد ورد مرة واحدة في القرآن وذلك في قوله تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[٦] .

أي فلينظر الإنسان المكذب بالبعث بعد الممات المنكر قدرة الله على إحيائه بعد مماته نظر الفكر و الاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته ، ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق و الدفق : صب الماء ، يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق ، ونبه سبحانه بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك ، ثم ذكر محله

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٢٦/ ١٥١ - ١٥٢ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٧/ ٥٥٢ _ ٥٥٣ .
(٣) الروم: ٥٠.
(٤) يونس: ١٠١.
(٥) الغاشية: ١٧.
(٦) الطارق : ٥ _ ٧ .

الذي يخرج منه وهو بين الصلب و الترائب ، قال ابن عباس : صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو موضع القلادة من صدرها[(١)] .

وهذا القول اختاره الطبري في تفسيره[(٢)] .

وقد ظهر من الدراسات الطبية الحديثة أن الصلب هو منطقة العمود الفقري للرجل وأن الترائب هي عظام الصدر للمرأة ، كما أظهرت التحاليل الكيميائية أن الماء الدافق هو سائل الرجل المنوي الذي يحتوي على الحيوانات الحية في النطفة ، وقد سمي دافقاً لأنه يندفع وقت الملامسة الجنسية من ذكر الرجل وحده دون الأنثى التي لا يتدفق منها سوى إفرازات تسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلي وترطيبه[(٣)] .

قال سيد قطب : (والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير ، بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ، هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحي بأن هنالك يداً خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة ، في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهي به إلى النهاية الماثلة ، وتشي بأن هنالك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل و العقل ، ومن الإرادة و القدرة ، في رحلتها الطويلة العجيبة ، وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته)[(٤)] .

• الأمر بالنظر في النبات وقد ورد مرتين في القرآن ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ

---

(١) انظر : بدائع التفسير ، ابن القيم ، ٥/ ١٨٢ _ ١٨٣ ، ت يسري السيد محمد ، دار ابن الجوزي ، الرياض - جدة ، ط ١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٤٣/٣٠ .

(٣) القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، ٩٤ ، دار الفكر العربي .

(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٥٣٥/٨_٥٣٦.

انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

في هذه الآية يبين الله سبحانه الذي له العبادة الخالصة لا شريك له فيها ، أنه هو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرج به نبات كل شيء من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش، وأرزاق بني آدم وأقواتهم وما يتغذون به و يأكلونه فينبتون عليه وينمون وهذا معنى قوله ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

فالله سبحانه أخرج من الخضر حباً متراكباً ، وهو السنبل ، وكذلك النخل ومنه القنوان الدانية ، وهي النخل القصار الملتزقة بالأرض المتهدلة عذوقها من الطلع ، وأخرج بها بساتين من أعناب ، وكذلك الزيتون والرمان المتشابه الورق المختلف الثمر ، فهو متشابه في الخلق مختلف في الطعم .

وأنزل من السماء ماءً ، فأخرج به نبات كل شيء ، وأخرج الخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب وسائر ما عدد في هذه الآية من صنوف خلقه ، إذا نظرتم أيها الناس إلى ثمره وعند ينعه وانتهائه نظر اعتبار وإبصار لا النظر المجرد عن التفكر ، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه ، علمتم أن له مدبراً ليس كمثله شيء ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد وكان فيه حجج وبرهان وبيان لقوم يؤمنون .

أي يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء وخص بذلك تعالى ذكره القوم الذين يؤمنون ، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله المعتبرون بها دون من قد طبع على قلبه فلا يعرف حقاً من باطل ولا يتبين هدى من ضلال[2] .

﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ انظروا بالحس البصير و القلب اليقظ انظروا إليه في ازدهاره، وازدهائه ، عند كمال نضجه، انظروا إليه واستمتعوا بجماله، لا يقول هنا ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، ولكن يقول ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر في آيات الله ، وبدائع صنعته في مجال الحياة[3] .

---

(١) الأنعام: ٩٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري ، ٢٩٦/٧ .

(٣) في ظلال القرآن ،سيد قطب، ٣٢٥/٣.

والآية الثانية هي قوله تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[(١)] .

يأمر الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الآيات بالنظر إلى طعامه الذي يخرج من الأرض ، لأن الله جعل نظر الإنسان في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته استدلالاً بالنظير على النظير[(٢)] .

ثم أننا إذا نظرنا في هذه الآيات والتي قبلها سنجد فيها تنوع الطعام الطيب الذي خلقه الله لعباده ، بعد صب الماء على الأرض الصلبة اليابسة ثم انشقاقها بقدرة الواحد الأحد وخروج هذه الأنواع منها ، يقول سيد قطب : (هذه هي قصة الطعام كلها من إبداع اليد التي أبدعت الإنسان ، وليس فيها للإنسان يد يدعيها في أية مرحلة من مراحلها، حتى الحبوب و البذور التي يلقيها هو في الأرض ، إنه لم يبدعها ، ولم يبتدعها، والمعجزة في إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه ، والتربة واحدة بين يديه ، ولكن البذور والحبوب منوعة وكل منها يؤتي أكله في القطع المتجاورات من الأرض وكلها تسقى بماء واحد ، ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار وتحفظ في البذرة الصغيرة خصائص أمها التي ولدتها فتنقلها إلى بنتها التي تلدها ، كل أولئك في خفية عن الإنسان ، لا يعلم سرها ولا يقضي أمرها ، ولا يستشار في شأن من شؤونها)[(٣)] .

ويقرر علماء الجيولوجيا وهو علم طبقات الأرض أن تربة القشرة الأرضية التي تحطمت وتفتتت بفعل عوامل التعرية من رياح وعواصف وأمطار جعلتها لا تتحد في عناصرها بل صار لكل تربة طبيعتها وخواصها الذاتية ، ويقرر علماء النبات أن جذور النباتات تمتد في بالتربة لتمتص الغذاء من عناصرها الملائمة لها وتحولها إلى ثمار يتميز

(١) عبس : ٢٤-٣٢.

(٢) انظر : بدائع التفسير ، ابن القيم، ١٢٧/٥.

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٤٧١/٨_٤٧٢.

بعضها عن بعض في الشكل و الطعم و الرائحة[(١)] .

ولعل المعنى العلمي – والله أعلم – الذي يشير إليه قول الله تعالى ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[(٢)] .

فهذه الآية تبين أن قطعة الأرض الواحدة تتكون من عدة أجزاء متجاورة ومتلاصقة ولكنها تشمل في تكوينها مواد معدنية أو عضوية أو بكتيرية مختلفة ، وعندما تسقى قطعة الأرض الواحدة نجد أن ثمارها متنوعة لأن بها أجزاء طينية وأخرى رملية إلى ثالثة كلسية وأن كلاً منها يختلف عن الآخر اختلافاً تاماً مع أن كلها سقيت بماء واحد[(٣)] .

- الأمر بالنظر في الإبل وقد ورد مرة واحدة وذلك في قوله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾[(٤)] .

وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل في الإبل عجائباً لم يجعلها في حيوان آخر ، منها أنه جعل فيه جميع المنافع التي يتوخاها العربي من الحيوان ، فالإبل يقتنى ليؤكل لحمه وليشرب لبنه وليحمل الإنسان في أسفاره ولينقل أمتعته من بلد إلى بلد وهو في نفس الوقت زينة[(٥)] .

ولو نظرنا في كل منفعة من هذه المنافع لرأينا أن الإبل أفضل الحيوانات فيها ، فهي إن سقت أروت ، وإن أُكلت أشبعت ، وإن رُكبت قطعت المسافات البعيدة التي لا يمكن لأي حيوان أن يقطعها ، وذلك لما أعطاها الله سبحانه من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر ، وإن حمّلت كانت أفضل الحيوانات حملاً للأثقال ، و الإبل على قوتها وعظمها تنقاد للصبي

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، ١٤٥.
(٢) الرعد: ٤.
(٣) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، ١٤٥.
(٤) الغاشية: ١٧.
(٥) انظر : تفسير الرازي ، ٣١/ ١٥٧ – ١٥٨ .

الصغير، ويُحمل عليها وهي باركة ثم تقوم[1] .

والإبل من أعظم الحيوانات وقعاً في قلوب العرب لذلك فقد جعلوا دية قتل الإنسان إبلاً ، وكان الملوك إذا أرادوا أن يبالغوا في إعطاء الشاعر الذي جاءه من مكان بعيد أعطاه مئة بعير لأن امتلاء العين منه أكثر من امتلائها من غيره[2] .

ويروي لنا الرازي في تفسيره قصة يدلل بها على قوة تخيل هذا الحيوان فيقول : (كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملاً وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب و الجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك الحيوان أنه بالمرة الواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف حتى أن الذي عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه فإن ذلك الحيوان اهتدى إليه)[3] .

فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

- الأمر بالنظر في عواقب الأمم الهالكة وقد ورد في القرآن (٢١) مرة ، قال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[4] .

وقال سبحانه ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[5] .

وقال سبحانه ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[6] .

وقال سبحانه ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[7] .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٥٨/٣١ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١٥٨/٣١ .
(٣) المصدر السابق ، ١٥٨/٣١ .
(٤) آل عمران : ١٣٧.
(٥) النمل: ٦٩.
(٦) يونس: ٣٩.
(٧) الأعراف: ٨٦.

هذه الآيات تحتوي على قياس إضماري ، وذلك في أمر الله لعبادة عامة ، والكفار منهم خاصة بالنظر إلى العواقب السيئة في الأمم الخالية ، وأعلمهم أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسوله ، وهم الأصل ، وأنتم الفرع ، والعلة الجامعة التكذيب ، والحكم الهلاك[١] .

ففي هذه الآيات إشارة مجملة إلى نتيجة مجملة : إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً ، ذلك كي تطمئن قلوب المؤمنين من جهة ، ومن جهة أخرى يحذروا من الانزلاق مع المكذبين[٢] .

وهذه الآيات تأتي كثيراً بعد حكاية قصة من قصص الأمم الغابرة الهالكة ، وذلك لأن العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولا معارفهم ولا تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة ، فلولا الإسلام و القرآن الذي أنشأهم الله به نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا ، لما وجدوا شيئاً يربط ماضيهم بحاضرهم وينبههم لمستقبلهم[٣] .

ويقرر العلم أنه لا يكفي لتحصيل العلم قراءته ودراسته بل يختط لنا منهجاً علمياً للوصول إلى العلم الصحيح هو منهج (السير و النظر) ففي السير مشاهد مختلفة يراها السائر ، وفي تأملها تبدو له ملاحظات هامة يجمعها ثم يستقرئها ليستنبط منها القوانين العامة التي تربط بعضها ببعض وهذا هو المنهج الاستقرائي الذي توصل إليه بيكون أحد العلماء الإنجليز بعد نزول القرآن بألف سنة[٤] .

ولكن الاكتشاف الذي توصل إليه الغرب بعد عشرة قرون من نزول القرآن ، لم ينفعهم كما نفع المؤمنين المصدقين بالقرآن لأن الغرب نسي أن مع هذا الاكتشاف مشيئة الله سبحانه وتعالى ، الذي يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد وإليه يرجع الأمر كله .

---

(١) انظر : بدائع التفسير ، ابن القيم ، ١/٥٣٠ .
(٢) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢/٨٤.
(٣) انظر المرجع السابق، ٢/٨٣.
(٤) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ،٦٦.

والنظر هو تأمل الشيء بالعين[1] ، والعين من الآلات المساعدة على الفهم و البصيرة مثل السمع ، قال تعالى ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآية[2] .

لذلك نجد أن الله تعالى أمر عباده بالسمع فقال ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[4] وقد ورد الأمر بالسمع في كتاب الله (١١) مرة.

وأمرهم الله بالفقه وهو الفهم ، ولم يأت الأمر بالفقه في كتاب الله إلا مرتين ، منها قوله سبحانه ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[5] وقوله سبحانه ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾[6] أي لعلهم يفهمون ما يسوقه الله لهم من الآيات و المواعظ و الزجر و الترغيب و الترهيب فينتهوا عما يفعلوا .

وكذلك أمرهم بالعقل فقال سبحانه ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[7] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[8] وقد ورد هذا الأمر في كتاب الله (٣٤) مرة .

ومن الألفاظ المرادفة للفظ (البصر) في القرآن لفظ (الرؤية) بالعين والذي يتعدى إلى مفعول واحد ، وقد ورد الأمر بالرؤية البصرية في مواضع كثيرة في القرآن ، ومن خلال تتبعي للآيات وجدت أن الأمر بالرؤية كان أكثر وروداً في القرآن من الأمر بلفظ النظر ، فقد ورد في القرآن (٧٩) مرة .

- فقد أمر الله برؤية السموات و الأرض و الماء وهو أهم عنصر في هذه الحياة فقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ

(١) انظر: مختار الصحاح، مادة نظر.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) القصص: ٥٣.
(٤) يونس: ٦٧.
(٥) الأنعام: ٦٥.
(٦) التوبة: ٨١.
(٧) البقرة: ٤٤.
(٨) الحديد: ١٧.

شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ، وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾(1) .

قيل في تفسير هذه الآية أن السموات و الأرض كانتا ملتزقتين ففصل بينهما بالهواء وقيل أن السموات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر و الأرض بالنبات ، و اختار هذا القول الإمام الطبري في تفسيره ، لأن الله سبحانه قال بعدها ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾(2) .

وكذلك تبين أن أصل الموجودات الحية هو الماء وهذه إشارة إلى أهمية الماء في الحياة فمعظم العمليات الكيميائية اللازمة للحياة و النمو تحتاج إلى الماء وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات ، وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد دبره بما يحقق مصلحة مخلوقاته ، فالماء هو المادة الوحيدة التي تقل كثافتها ويزيد حجمها عندما تتجمد ، ولهذه الخاصية أهميتها الكبرى بالنسبة لحياة الأحياء المائية ، إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد ، بدلاً من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات ، ويكون الثلج طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق التجمد ، والماء يمتص كمية كبيرة من الأكسجين عندما تكون درجة الحرارة منخفضة، وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها ، فما أعجب القرآن الذي بيَّن بكلمات قليلة العدد سر الحياة على هذه الأرض(3) .

• وأمر برؤية خلق الإنسان من نطفة وشدة خصامه فقال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾(4) .

قال الزمخشري : (قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحاً لا ترى أعجب منه

---

(1) الأنبياء ٣٠-٣٢.

(2) انظر : تفسير الطبري ، ١٨/١٧ ، و تفسير القرطبي ، ٢٨٣/١١ .

(3) انظر : إعجاز القرآن العلمي ، محمود مهدي الاستانبولي ، ٢٤ — ٢٥ ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

(4) يس : ٧٧ .

وأبلغ، ودل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي ، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة ، حيث قرر بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار ، وشرر صفحته لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ، ويمحك ويقول : من يقدر على إحياء الميت بعدما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به ، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها)[1] .

وهو كما في قول الله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾[2] وقوله ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[3].

وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ بزق يوماً في كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : ((قال الله : ابن آدم ، أنَّى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي ، قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة))[4].

وقد ذكر الرازي تفسيراً آخر لهذه الآية بيَّن فيه أن المراد في هذه الآية التفكر في الفرق الشاسع في الخلق بين النطفة والإنسان الكامل الناطق العاقل ، فقال : (وقوله ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ فيه لطيفة غريبة وهي أنه تعالى قال : اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه ، وذلك لأن النطفة جسم ، فهب أن جاهلاً يقول إنه استحال وتكون جسماً آخر ، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيها النطفة ؟ فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والاختيار منه أقرب ، فقوله ﴿ خصيم ﴾ أي ناطق

---

(١) تفسير الكشاف ، الزمخشري ، ٣٣١/٣ ، ط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦م .
(٢) المرسلات : ٢٠ .
(٣) الإنسان : ٢ .
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ٢١٠/٤ ، إسناده حسن ، انظر : النسخة المحققة ، ٣٨٥/٢٩ .

وإنما ذكر الخصيم مكان النطق لأنه أعلى أحوال الناطق فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه ، وقوله ﴿ مبين ﴾ إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لأن المبين بأن عنده الشيء ثم أبانه ، فقوله تعالى ﴿ من نطفة ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه ، وقوله ﴿ خصيم مبين ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه)[1] .

- وأمر برؤية الطير في السماء ، فقال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

في هذه الآية لفت للأنظار والعقول إلى أمر واضح أمامهم وهو الطير ، الطير المسخر في هواء السماء بينها وبين الأرض ، من الذي سخرها ؟ الله سبحانه هو الذي سخرها ، ولو سلبها ما أعطاها من الطيران لم تقدر النهوض ارتفاعاً ، وهذا فيه علامات ودلالات على أن لا إله وحده لا شريك له ، وهذا الأمر لا يعلمه ولا يشعر به إلا المقرون بوحدانية الله المؤمنون لأنهم يقرون بوجدان ما تعاينه أبصارهم وتحسه حواسهم[3] .

لأن الله وحده هو الذي أمسكهن في جو السماء من أن يسقطن ، وهذا دليل على قدرته وآية لخلقه ، وقد جاء في آيات أخرى أنه هو الذي يمسك السموات والأرض بقدرته، قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[4] وقال تعالى ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾[5][6] .

---

(١) تفسير الرازي المشتهر بـ (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب) ، ١٠٨/٢٦ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ط ١ ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(٢) النحل : ٧٩ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ١٥٣/١٤ .

(٤) فاطر : ٤١ .

(٥) الحج : ٦٥ .

(٦) انظر : أضواء البيان في تفسير القرآن ، الشنقيطي ، ٤٢٥/٥ .

وقد حبى الله الطير بخواص عجيبة ، منها خاصية البسط والقبض في الطيران ، قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[(١)] أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .

وقد طرح الرازي سؤالاً ثم أجاب عليه ، فقال : (لم قال ((ويقبضن)) ولم يقل قابضات ؟ قلنا : لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارئ غير أصلي بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح)[(٢)] .

وهناك قاعدة تقول : أن (الاسم للدوام والثبوت ، والفعل للتجدد والحدوث)[(٣)] .

وقد حبى الله سبحانه بعض الطيور خواص أخرى عجيبة ، مثل الهدهد الذي حباه بمعرفة أماكن المياه تحت الأرض ، يقول ابن القيم : (وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواقع الماء تحت الأرض لا يراه غيره)[(٤)] .

وقد علل رحمه الله قول الهدهد لسليمان عليه السلام ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[(٥)] بأن في ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه – وهو إخراج الخبء في السموات والأرض – إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض[(٦)] .

- وأمر برؤية آيتي الليل والنهار ، فقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا

---

(١) الملك : ١٩ .

(٢) تفسير الرازي ، ٧١/٣٠ .

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن ، الشنقيطي ، ٤٢٥/٥ .

(٤) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١٩٢/١ ، ت مصطفى الشلبي ، مكتبة السوادي ، جدة ، ط ٢ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م . وبدائع التفسير ، ابن القيم ، ٣٣٨/٣ .

(٥) النمل : ٢٥ .

(٦) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١٩٣/١ ، وبدائع التفسير ، ابن القيم ، ٣٣٨/٣ .

فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾[(١)] .

ذكر الرازي أن في هذه الآية دليل على التوحيد وآخر على الحشر وآخر على النبوة ، وذلك مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر ، أما وجه دلالتها على التوحيد فلما ظهر في العقول أن التقليب من النور إلى الظلمة ، ومن الظلمة إلى النور ، لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية ، وأما وجه دلالتها على الحشر فلأنه لما أثبت قدرته تعالى في هذه الصورة على القلب من النور إلى الظلمة وبالعكس ، فأي امتناع في ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة ، ومن الموت إلى الحياة أخرى ، وأما وجه دلالتها على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين ، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الخلق منافع عظيمة ، فما المانع من بعثتهم إلى الخلق لأجل تحصيل المنافع ؟[(٢)] .

والليل والنهار آيتان من آيات الله سبحانه وتعالى ، أمر عباده بالتفكر فيهما وبتدبر الآيات الواردة بشأنهما في القرآن ، فقد ذكر سبحانه عدة فوائد وصفات لِلَّيل والنهار في القرآن :

منها : ما ورد في هذه الآية من جعل الليل للسكن والنهار مبصراً لجلب المنافع الدينية والدنيوية .

ومنها : أنهما مسخران للناس ، هذا لتصرفهم في معاشهم ، وهذا لسكنهم فيه ، قال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾[(٣)] .

ومنها : أن الله سبحانه جعلهما ﴿ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾[(٤)] أي إن الله جعل كل واحد منهما خلفاً من الآخر في أن من فاته عمل في أحدهما أدركه في الآخر ، ففي ذلك ذكرى للعبد ليعلم أن الله لم يجعلهما كذلك عبثاً ، فيعتبر في مصنوعات الله ويشكره على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم ، وورد عن عمر بن

---

(١) النمل : ٨٦ .
(٢) انظر : تفسير الرازي ، ٢١٩/٢٤ .
(٣) النحل : ١٢ ، وانظر : تفسير الطبري ، ٨٧/١٤ .
(٤) الفرقان : ٦٢ .

الخطاب وابن عباس والحسن رضي الله عنهم بأن من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل ، وقد قال رسول الله ﷺ : ((ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة))[1] .

وقد وصف الله سبحانه الليل والنهار بالاختلاف فقال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[2] وهذا ما قرره العلم الحديث من أن طول كل من الليل والنهار يختلف باستمرار على مدار السنة ، وأن هذا الاختلاف في التوقيت يرجع إلى دوران الأرض حول الشمس وحول محورها المائل على مداره بمقدار ثلاث وعشرين ونصف درجه مما يجعل الليل يطول أو يقصر بحسب تعامد الشمس على المكان أو ميلها عنه ، وهذه حقائق كونية تكون في حكم البدهيات لمن يدرس مبادئ الجغرافيا[3] .

وهذا – والله أعلم – هو معنى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[4] أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا ، وهذا شيء لا يقدر عليه إلا الله[5] .

والله سبحانه بيَّن أنه هو وحده الذي ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[6] والإيلاج بمعنى الإدخال ، أي يدخل ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار فتزيد من نقصان هذا بزيادة هذا ، وهكذا بالعكس ، وهذا هو معنى اختلافهما[7] .

والمتدبر في آيات الليل والنهار التي وردت في القرآن خاصة فإنه سيجد كثيراً من

---

(١) رواه أبو داوود ، كتاب الصلاة ، باب من نوى القيام فنام ، رقم الحديث ١٣١٤ ، صححه الألباني ، انظر: صحيح سنن أبي داوود ، ١/ ٢٤٤ .

(٢) يونس : ٦ .

(٣) انظر : القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، ٨٠ .

(٤) المزمل : ٢٠ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٥٧ ، ٤٣٩ ، ٤/٤٣٩ .

(٦) الحج :٦١ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ، ٣/٢٢٣ ، وتفسير الرازي ، ٢٣/٦١ .

الحقائق والعلوم التي غفل عنها أغلب الناس ، ولكن المقام لا يسمح في الاسترسال ، لأن المقصود هو بيان أن الله سبحانه وتعالى نبهنا ولفت أنظارنا وعقولنا وتفكيرنا إلى دلائل قدرته في القرآن وفي الكون ، وأنهما متطابقان تمام التطابق .

وأمر برؤية قدرة الله سبحانه على بسط الرزق لمن يشاء سبحانه فقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

يتصرف بعض الناس في حياتهم اليومية على أساس غير صحيح ، هذا الأساس أو هذا الاعتقاد هو ما لديهم من أموال إنما هو من عند أنفسهم ، لذلك ترى صاحب الأموال يختال ويبطر ويتكبر بناءً على هذا الاعتقاد ، وترى من ليس له مال ييأس ويحزن ويقنط من رحمة الله ، لظنه أن الله لا يقدر على إعطائه ولا إغنائه – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وهذا الأمر أو الذي قبله لا يصدر من إنسان يؤمن بعقيدة القضاء والقدر ، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، وفي هذه الآية بيان لهذه القضية وهي قضية الرزق .

فإن هؤلاء الذين يفرحون عند الرخاء والخصب إذا أصابهم ، وييأسون من الفرج عند الشدة إذا نالتهم ، يجب عليهم أن يروا بعيون قلوبهم فيعلموا أن الشدة والرخاء بيد الله وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسعه عليه ، ويقدِّر على من أراد فيضيقه عليه ، ففي هذا البسط والتضييق ، وهذا الغنى والفقر ، لدلالة واضحة لمن صدق حجج الله وأقر بها إذا عاينها ورآها[2] .

وعلى ذلك فالكل من الله ، لذلك ينبغي من المحقق ألا يكون نظره على ما يوجد ، بل إلى من يوجِد ، وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق[3] .

ومن الألفاظ المرادفة للفظ (النظر) و (الرؤية) في القرآن لفظ (البصر) فقد أمر الله

---

(١) الروم : ٣٧ .
(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٢/٢١ .
(٣) انظر : تفسير الرازي ، ١٢٥/٢٥ .

سبحانه بالبصر في كتابه (٥) مرات ، وأمر بالتبصر في خلقه الذي جعله آية على وجوده ووحدانيته وألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، فالتبصر هو التأمل والتعرف[(١)] .

قال تعالى ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[(٢)] .

هذه الآية تحدث عنها ابن القيم فأجاد وأفاد ، فقد ذكر رحمه الله بعض آيات الأرض، وأنها أنواع كثيرة :

منها : خلقها وحدوثها بعد عدمها ، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد ، فإنها شواهد قائمة بها .

ومنها : بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع أن كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به .

ومنها : سعتها وكبير خلقها .

ومنها : تسطيحها ، كما قال تعالى ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[(٣)] .

ومنها : أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه ، وجعلها قراراً وجعلها مهاداً، وجعلها ذلولاً توطأ بالأقدام . . . الخ .

ومنها : أنه جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات ، والمنافع ، مع إنها قطع متجاورات، متلاصقة ، فهذه سهلة ، وهذه حزنة تجاورها وتلاصقها ، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهكذا .

ومنها : أنه جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد ، فإذا حصل الحب في الأرض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانها السخونة المختفية في باطن الأرض ، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت وانفلقت عن ساقين ، ساق من فوقها وهو الشجرة ، وساق من تحتها وهو العرق[(٤)] .

---

(١) انظر : مختار الصحاح ، مادة بصر .

(٢) الذاريات : ٢٠ – ٢١ .

(٣) الغاشية : ٢٠ .

(٤) انظر : بدائع التفسير ، ابن القيم ، ٤/ ٢٢٥ – ٢٣٣ .

وقد علّق رحمه الله على هذه الآية قائلاً : (فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله وأفعاله ، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور)[1] .

ومنها : وقائعه سبحانه التي أوقعها في الأرض بالأمم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم ، قال تعالى ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾[2] .

ومنها : ما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهده الأولون أو نظيره ، كما قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[3] .

أما قوله تعالى ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[4] .

قال ابن القيم : (لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والتفكر في نفسه ، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل ، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبرة دالة عليه مرشدة إليه ، إذ يجده مكوناً من قطرة ماء ، لحوماً منضدة ، وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب قد قمطت وشددت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ،

---

(١) المصدر السابق ، ٤/٢٢٩ .
(٢) العنكبوت : ٣٨ .
(٣) فصلت : ٥٣ .
(٤) الذاريات : ٢١ .

والمد والضم ، والصنائع والكتابة)[1] .

كل هذه الآيات فيها دعوة من الله عز وجل لعباده بإعمال عقولهم في هذا الكون ، ليكون هذا الإعمال موصلاً لهم للنتيجة ومنجياً لهم من عذاب السعير ، وهذا فيه دلالة قوية على اهتمام القرآن بالعقل البشري وأنه لم يهمل العقل كما يدعي ذلك أناس تركوا القرآن وذهبوا يبحثون عن أدلة لإثبات العقائد الإسلامية من غير منبعها ، فلجأوا إلى أقوال الفلاسفة اليونان وأذنابهم من الفلاسفة الذين كانوا في الإسلام ، وإلى يومنا هذا نجد نماذج كثيرة من هؤلاء الفلاسفة الذين يدعون الإسلام وينتسبون إليه بالاسم .

وكل هذه الآيات أيضاً وأشباهها فيها دعوة من الله سبحانه وتعالى لعباده بالنظر والتأمل والتبصر في هذا الكون ليدفعه هذا النظر إلى الإيمان بالله سبحانه ، وإلى تخليص أنفسهم من ذل الكفر إلى عزة الإسلام والإيمان ، ولا يقدر على ذلك إلا من قدره الله سبحانه ووهب له عقلاً سليماً يميز به بين صالح الأمور وفاسدها ، ويعمل على أساس هذا التمييز لينجو من عذاب الله عز وجل .

ثالثاً : التفكر في آيات الله :

الفكر هو إحضار معرفتين في القلب لِيُسْتَثْمر منهما معرفة ثالثة ، والتفكر هو استعمال الفكرة في الشيء وإحضاره عنده[2] .

والفرق بين التفكر والنظر في رأيي هو أن في التفكر أمر زائد على النظر ، فليس كل ناظر متفكر ، ولكن كل متفكر فهو ناظر ، فقد ينظر الإنسان في الشيء ولكن عقله يفكر بأمر آخر غير الذي ينظر إليه ، ولكن التفكر في الشيء يستلزم النظر فيه أولاً ثم تأمله وتدبره ، فالنظر وسيلة والفكر ثمرة .

ومن الأوامر التي وجهها الله سبحانه وتعالى لعبادة في القرآن التفكر في آياته ، ولو أن

---

(١) بدائع التفسير ، ابن القيم ، ٤/٢٣١ .

(٢) انظر : مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، ١/ ٥٤٢ — ٥٤٤ .

في هذا الكون دليلاً واحداً على عدم قدرة الله ووحدانيته ، ما أمرنا الله أن نتدبر في الكون ولا في أنفسنا ، لأن الذي يعرض عليك شيئاً فيه أدنى شك لا يقول : افحصه جيداً ، وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن هذا الشيء الذي تنظر إليه حتى لا تنكشف لك عيوبه ، أما الذي يقول لك تدبر وتفكر وانظر فهو موقن من إتقان عمله ، لترى الإبداع والإتقان الموجود وتشهده لتعرف قيمة وروعة الخلق ، والله سبحانه وتعالى يطلب منا في كتابه الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون حيث يقول سبحانه ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1][2].

وقد وردت آيات كثيرة فيها أمر من الله عز وجل بالتفكر ، منها :

• أمره بالتفكر في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[3].

إن الله سبحانه وتعالى يبين للناس في سائر كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ آياته وحججه الواضحة ، ليتفكروا في وعده ووعيده وثوابه وعقابه ، فيعملوا بطاعته التي ينالون بها ثوابه في الدار الآخرة ، ويفوزون بالنعيم الأبدي على القليل من اللذات ، واليسير من الشهوات ، ويبتعدون عن المعصية في الدنيا الفانية التي من ركبها ، كان مصيره إلى النار ، التي لا قبل لأحد بها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : تتفكرون (في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها) وقال قتادة[4] : (لعلكم تتفكرون

---

(١) فصلت : ٥٣ .

(٢) انظر : الإعجاز العلمي في القرآن ، محمد أرناؤوط ، ١٧١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .

(٣) البقرة : ٢١٩ – ٢٢٠ .

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز ، وقيل قتادة بن دعامة بن عكابة ، حافظ حافظ عصره وقدوة المفسرين والمحدثين ، أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه ، كان صادقاً عدلاً حافظاً ، قال هو عن نفسه : ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، وقال عنه محمد بن سيرين : قتادة أحفظ الناس ، توفي سنة ١١٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٥/ ٢٦٩ – ٢٨٣ .

في الدنيا والآخرة ، فتعرفون فضل الآخرة على الدنيا) وقال ابن جريج[(١)] : (أما الدنيا فتعلمون أنها دار بلاء ثم فناء ، والآخرة دار جزاء ثم بقاء ، فتتفكرون ، فتعملوا للباقية منهما)[(٢)] .

• أمره بالتفكر في ضرب الأمثال ، قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٣)] .

وقد سبقت الإشارة إلى هذه النقطة في هذا المبحث في موضوع (تدبر القرآن)[(٤)] ، وسأكتفي بذكر بعض الأمثال التي ذكرها الله سبحانه في كتابه العزيز :

قال تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٥)] .

وقال سبحانه ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٦)] .

وقال سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[(٧)] .

---

(١) هو عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج ، الإمام العلامة الحافظ ، شيخ الحرم ، أبو خالد وأبو الوليد ، القرشي الأموي المكي ، صاحب التصانيف وأول من دون العلم بمكة ، قال عبدالله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبي : من أول من صنف الكتب ؟ قال : ابن جريج وابن أبي عروبة ، وهو ثقة حافظ وكان صاحب تعبد وتهجد وطلب علم ، قال أب عاصم النبيل : كان ابن جريج من العباد ، كان يصوم الدهر سوى ثلاثة أيام من الشهر ، وكان له امرأة عابدة ، توفي سنة ١٤٩هـ وقيل ١٥٠هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان، ٣/ ١٦٣ — ١٦٤ ، سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/ ٣٢٥ — ٣٣٦ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ٣٦٩/٢ .

(٣) الحشر : ٢١ .

(٤) انظر : ص ١١٠ .

(٥) البقرة : ٢٦٦ .

(٦) الأنعام : ٥٠ .

(٧) الأعراف : ١٧٥ .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) .

- أمره بالتفكر في حال الرسول ﷺ لمعرفة صدقه ، قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾(٢) .

وسبب نـزول هذه الآيـة ما كان من كفار قريش عندما صعد الرسول ﷺ على الصفـا ، فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً : يا بني فلان ، يا بني فلان ، فحذرهم بـأس الله، ووقائـع الله ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح(٣) .

فهذه الآية فيها دعوة لكفار قريش إلى التفكر والتدبر في أمر صاحبهم الذي عرفوه من قبل وخبروه ، فلم يعرفوا عنه من قبل خللاً عن السواء ، وشهدوا له بالأمانة والصدق ، كما شهدوا له بالحكمة ، وحكموه في الحجر الأسود وارتضوا حكمه واتقوا بهذا الحكم الحكيم فتنة بينهم كادت تثور ، واستأمنوه على ودائعهم وظلت عنده حتى خرج مهاجراً فردها لهم عنه ابن عمه علي ﷺ ، فالقرآن يدعوهم إلى التفكر والتدبر في أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ما ضيه كله ، فإذا فعلوا ذلك علموا أنه لا اختلاط في عقله ولا في قوله إنما هو منذر مفصح مبين(٤) ، وقد أتاهم بهذا القرآن المبين وما احتوى من قصص وعبر وأمثال وحسن بيان يعجز عنه أعقلْ العقلاء .

- أمره بالتفكر في نوم الإنسان وموته ، قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

---

(١) يونس : ٢٤ .
(٢) الأعراف : ١٨٤ .
(٣) انظر : تفسير الطبري ، ١٣٦/٩ .
(٤) انظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦٩٠/٣ .

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) .

حري بمن قرأ هذه الآية أن يتفكر فيها ويتدبر ، ويعلم أن الله على كل شيء قدير ، فالأنفس في يده وقبضته دائماً ، فيرسل من يشاء ويمسك من يشاء ، فمن تفكر في هذه الآية وفي أحوال الإنسان وهو نائم ، وجب عليه أن يراجع نفسه ويحاسبها قبل أن ينام ويسلم نفسه إلى بارئها لأنه لا يعلم متى يمسكها .

ولو تدبرنا هذه الآية لوجدنا فيها معاني كثيرة ، مثل الدعوة إلى الإصلاح ، إصلاح الفرد نفسه ، وإصلاح ما بينه وبين ربه ، وإصلاح ما بينه وبين الآخرين ، كذلك فيها دعوة لحسن الخلق ، فيضع الإنسان جنبه على فراشه وهو مطمئن بأنه لا يجد في نفسه شيئاً يقض مضجعه ، ينام وليس في قلبه حقد ولا ضغينة ، فهذه هي نتيجة التفكر ، لأن التفكر بلا عمل لا فائدة ولا جدوى .

• أمره سبحانه بالتفكر بالنحل وما يخرج من بطونه ، قال تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢) .

وقف بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات على حقائق عجيبة تقول : أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكناً بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتاً تأوي إليها ، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب يعيش فيها ، وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوي إلى مساكنها المختلفة منذ القدم(٣) .

(١) الزمر : ٤٢ .
(٢) النحل : ٦٨ — ٦٩ .
(٣) انظر : القرآن وإعجازه العلمي ، محمد اسماعيل إبراهيم ، ١٥١- ١٥٢ .

وأيضاً تدل الدراسات المستفيضة لمملكة النحل أن إلهام الله لها يجعلها تطير لارتشاف رحيق الأزهار فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها وتدخل خلية أخرى غير خليتها ، علماً بأن الخلايا في المناحل تكون مرصوصة بعضها إلى جوار بعض ، وذلك لأن الله سبحانه سهل أمامها طرقها وذللها لها بنوع من الإحساس الكهربي المغناطيسي في جسمها ، وبعد أن يجمع النحل رحيق الأزهار في جوفه يتحول هذا الجوف إلى مصنع يجعل من هذا الرحيق شراباً فيه شفاء للناس ، وتلفظ النحلة عسلها عن طريق فمها لا عن شرجها ، وفي قوله تعالى ﴿ شراب مختلف ألوانه ﴾ إشارة إلى أن لون العسل يختلف بحسب لون الأزهار التي يرتشف النحل رحيقها ، فالعسل الناتج من رحيق أزهار القطن يكون قاتم اللون بخلاف عسل أزهار البرسيم فهو فاتح اللون ، ثم أن وصف القرآن لعسل النحل بأن فيه شفاء للناس هو حقيقة علمية أثبتتها التحاليل لهذه المادة لأنها تجمع عدة عناصر متنوعة الأهمية في التغذية والعلاج فضلاً عن أنه الغذاء الوحيد المعقم طبياً وأنه قاتل للميكروبات ومبيد للجراثيم بسبب احتوائه على مواد داخلة في تركيبه للقضاء عليها(١) .

ومن فوائد العسل أيضاً أنه يحتوي على سكر العنب (غليكوز) وسكر الفواكه (فركتوز) وسكر القصب (سكروز) وديكسترين وبروتين ونتروجين وحمض النمل والحديد والبوتاسيوم والصوديوم والكبريت والمغنيزيوم وحمض الفسفور وحبوب اللقاح والمواد العطرية ومواد أخرى مجهولة ، وهو يعطى ضد التسمم الناشئ من أمراض الكبد والاضطرابات المعدية أو المعوية ، وضد التسمم والحميات وغير ذلك من الأمراض الخطرة ، وفي حالات ضعف القلب والتهاب الكلى واحتقان المخ والأورام المخية وتصلب الشرايين وأمراض الروماتزم والعصاب المزمن (عرق النسا) بالسم الذي يفرزه النحل(٢) .

- أمره سبحانه بالتفكر في خلق المرأة من جنس الذكر ليسكن إليها ، قال تعالى

---

(١) القرآن وإعجازة العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) إعجاز القرآن العلمي ، محمود مهدي الاستانبولي ، ٥٦ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(١)] .

وهذه من نعم الله على خلقه أن جعل لهم من أنفسهم أي من جنسهم أزواجاً ليسكنوا إليها ، وجعل بينهم مودة ورحمة ، فهذه آية من آيات الله أمر عباده بالتفكر فيها والتدبر ليدركوا حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر ، ملبياً لحاجته الفطرية ، نفسية وعقلية وجسدية ، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد[(٢)] .

ثمار الإعمال العقلي في القرآن :

وفي نهاية هذا المبحث أود أن أبين أن الله سبحانه وتعالى عندما أمر عباده بالتدبر والنظر والتفكر وغير ذلك ، بين سبحانه أن هذه الأمور لا بد لها من ثمرة تعود على العبد، فما هي هذه الثمرة ؟.

وردت آيات في كتاب الله تبين هذه الثمار ، منها :

أولاً : الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبما أخبر به ، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[(٣)] .

الشاهد : قوله ﴿ لتؤمنوا بالله ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ

(١) الروم : ٢١ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦/٤٤٨ .
(٣) الفتح : ٨ – ٩ .

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)] . أي يؤمنون بربهم وبما أخبر به .

وقال تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[(٢)] أي يؤمنون بما أخبر الله به من اليوم الآخر .

وقال سبحانه حكاية عن رسول ﷺ ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(٣)] .

ثانياً : اليقين وزيادة الطمأنينة ، قال تعالى ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[(٤)] .

وقال سبحانه ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[(٥)] .

وقال سبحانه ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[(٦)] .

وقال سبحانه ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[(٧)] .

ثالثاً : تذكير المؤمنين وإحياء باعث الإيمان في قلوبهم ، قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[(٨)] .

وقال سبحانه ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[(٩)] .

وقال تعالى ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[(١٠)] .

وقال سبحانه ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[(١١)] .

---

(١) الأنعام : ٩٩ .
(٢) الأنعام : ١٥٤ .
(٣) الأعراف : ١٨٨ .
(٤) الرعد : ٢ .
(٥) البقرة : ١١٨ .
(٦) الجاثية : ٤ .
(٧) الجاثية : ٢٠ .
(٨) الأعراف : ٥٧ .
(٩) الأنعام : ٨٠ .
(١٠) هود : ٢٤ .
(١١) البقرة : ٢٢١ .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[1] .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2] .

رابعاً : توبة المذنبين ورجوع الغافلين إلى الله ، قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3] .

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] .

خامساً : العلم ، قال تعالى ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[5] .

وقال سبحانه ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[6] .

وقال سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[7] .

وقال تعالى ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[8] .

قال الزركشي : (كل من كان حظه من العلوم أوفر كان نصيبه من العلم أكثر ، ولذلك إذا ذكر الله تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقول، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المتفكرين ، ومرة إلى المتذكرين ، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقته منها ، وذلك نحو قوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[9])[10] .

---

(١) الزمر : ٢١ .
(٢) ق : ٣٧ .
(٣) الأعراف : ١٧٤ .
(٤) الأحقاف : ٢٧ .
(٥) الأنعام : ٩٧ .
(٦) العنكبوت : ٤٣ .
(٧) الأنعام : ١٠٥ .
(٨) النحل : ٥٢ .
(٩) الرعد : ٤ .
(١٠) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ٢٥/٢ .

سادساً : التقوى ، قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾(٢) .

وقد مدح الله عباده المؤمنين المتفكرين في خلق السموات والأرض ، وبين سبحانه أن هذا التفكر أورثهم الإيمان بالله والخشية منه والخضوع والتضرع والانكسار بين يديه سبحانه ، والدعاء والرجاء بأن لا يوردهم موارد أهل النار ، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٣) .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ ويتفكرون في خلق ﴾ : (أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . . . وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال ﴿ وكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ، وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾(٤) ومدح عباده المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قائلين ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق ، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى)(٥) .

---

(١) يونس : ٣١ .
(٢) المؤمنون : ٨٦ — ٨٧ .
(٣) آل عمران : ١٩٠ — ١٩٤ .
(٤) يوسف : ١٠٥ — ١٠٦ .
(٥) تفسير ابن كثير ، ١/٤٣٩ .

وقال ابن القيم : (أصل الخير والشر من قبل التفكر فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض ، وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها ، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار ، ويليها أربعة : فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها ، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها ، ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما ، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة ، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجهد والاجتهاد وبذل الجهد في اغتنام الوقت ، وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها وتجعله في واد والناس في واد)[1] .

وقال أيضاً : (فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر ، فإنه لا بد من تفكر وعلم يكون نتيجة للتفكر ، وحال يُحْدِثُ للقلب من ذلك العلم ، فإن كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه ، وتلك الحال توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل . . . وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

فالفكر هو الذي ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور .

وبالجملة ، فأصل كل طاعة إنما هي الفكر)[2] .

---

(١) الفوائد ، ابن القيم ، ١٩٨ .

(٢) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، ١/ ٥٤٥ — ٥٤٦ .

المبحث الثالث

دعوة الرسل لأقوامهم بإعمال عقولهم في هذا الكون

أرسل الله سبحانه وتعالى رسله إلى الأمم تترى ، فلم تخل أمة من الأمم من رسول أو نبي يبين لها أمور عقيدتها وشريعتها ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1] .

وكل الأنبياء كانت دعوتهم واحدة ، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة ما سواه ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2] .

لذلك فإن هؤلاء الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين اتخذوا وسائل شتى في دعوة أقوامهم ، فتارة يرغبونهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم ويشوقونهم لما أعد الله لهم في الدنيا والآخرة إن هم آمنوا واتقوا ، وتارة أخرى يخوفونهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة إن هم كفروا وكذبوا وصدوا عن سبيل الله ، وفي أثناء ذلك يطلبون منهم أن ينظروا في هذا الكون الفسيح من سموات وأرض وجبال ومطر ونبات وحيوانات وفي كل شيء ، حتى في أنفسهم وأرواحهم التي بين جنبيهم ، وذلك ليروا دقيق صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ويتفكروا فيه ليورثهم هذا التفكر النجاة في الدنيا والآخرة .

وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم أن جميع الأنبياء خاطبوا أقوامهم بحجة العقل وحاولوا توجيه أنظارهم إلى التفكر في هذا الكون وما يوجد فيه ، وهذا فيه دليل واضح على احترام القرآن للعقل البشري واعتباره من أهم العوامل المساعدة في الدعوة

---

(١) فاطر : ٢٤ .

(٢) النحل : ٣٦ .

إلى الله ، لأنه من أوتي عقلاً سليماً صحيحاً خالياً من الشوائب والمفسدات ، فإنه سيستجيب لهذه الدعوة التي تهديه إلى طريق الحق والصواب .

قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[١] .

وسوف يتم – إن شاء الله – عرض بعض المواقف الدعوية للأنبياء في القرآن الكريم مع أقوامهم وكان فيها حوار وجدل :

أولاً : نوح عليه السلام :

كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلها على الإسلام[٢] ، ثم ظهر الشرك بعد ذلك في قوم نوح ، فأرسل الله نوحاً ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم .

ولكن قومه كذبوه وكفروا بدعوته وحاربوه واستهزءوا به وبمن آمن معه ، ولم يؤمن به إلا قليل ، فأخذ نوح عليه السلام يخاطب الذين كفروا من قومه ويبين لهم طريق الرشاد عن طريق لفت أنظارهم إلى هذا الكون وما فيه من موجودات ، ولكن لا مجيب ، فأخذ عليه السلام يشتكي إلى ربه – وهو به أعلم – ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ، ثُمَّ إِنِّي

---

(١) إبراهيم : ٩ – ١١ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ٢/٣٣٤ ، ٢٩/٩٩ .

أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾[1] .

ثم أخذ نوح عليه السلام يبين طريقته في دعوته لقومه فقال ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ، مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾[2] .

ففي هذه الآيات نجد أن نوحاً عليه السلام خاطب قومه ودعاهم إلى عبادة الله وحده دون سواه ، واتخذ في خطابه لهم جميع الوسائل الممكنة في الإقناع والقبول ، فاتبع أسلوب الترغيب أولاً ، وذلك في قوله ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾[3] فهو يطَمِّعُهُم بمغفرة الله الواسعة إن هم تابوا وأنابوا ، وبين لهم أنهم إذا فعلوا ذلك ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾[4] .

وقد قيل في سبب قول نوح لهم ذلك ، أنهم كانوا فيما ذكر قوم يحبون الأموال والأولاد[5] .

وقيل أنهم لما كذبوه زماناً طويلاً ، حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فهلكت أموالهم ومواشيهم ، فصاروا إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به ، فقال ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ ، أي لم يزل كذلك لمن أناب إليه ، ثم قال ترغيباً في الإيمان ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ

(١) نوح : ٥ — ٩ .
(٢) نوح : ١٠ — ٢٠ .
(٣) نوح : ١٠ .
(٤) نوح : ١١ — ١٢ .
(٥) انظر : تفسير الطبري ، ٢٩/٩٤ .

وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ وذلك أن نوح عليه السلام عَلِمَ أنهم أهل حرص على الدنيا فقال: هلموا إلى طاعة الله ففي طاعة الله درك الدنيا والآخرة[1] .

ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾[2] أي لا توقرون ربكم ولا تعظمونه ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾[3] وهنا بدأ نوح عليه السلام ينبه عقولهم وأذهانهم إلى عظمة الله وقدرته وذلك بالنظر إلى خلق الإنسان وأن الله خلقه طوراً بعد طور .

قال الرازي : (واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلالة الأنفس ، وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه الآية ، وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه ، فلا جرم بدأ بالأقرب ، وتارة يبدأ بدلائل الأفاق ، ثم بدلائل الأنفس إما لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم ، فوقعت البداية بها لهذا السبب ، أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة ، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها ، إنما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق ، لأن الشُبَه فيها أكثر ، فلا جرم تقع البداية بها)[4] .

وقد قيل في معنى أطواراً عدة أقوال ، منها :

قيل : المقصود نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى تمام الخلق[5] .

وقيل : المقصود صبياناً ثم شباناً ثم شيوخاً .

وقيل : الأطوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق .

وقيل : أطواراً أي أنواعاً ، صحيحاً وسقيماً ، وبصيراً وضريراً ، وغنياً وفقيراً[6] .

والأقوال الثلاثة الأخيرة هي الصواب والله تعالى أعلم ، لأن القول الأول لم يستطع

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ٣٠٢/١٨ ، وتفسير ابن كثير ، ٤٢٦/٤ ، وتفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) ٣٩٨/٤ ، ت خالد العك ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

(٢) نوح : ١٣ .

(٣) نوح : ١٤ .

(٤) تفسير الرازي ، ٣٠/ ١٣٩ - ١٤٠ ، وانظر : تفسير الكشاف ، الزمخشري ، ١٦٣/٤ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ، ٩٥/٢٩ ، وتفسير القرطبي ، ٣٠٣/١٨ .

(٦) انظر : تفسير القرطبي ، ٣٠٣/١٨ ، وفتح القدير ، الشوكاني ، ٢٩٨/٥ .

الإنسان إدراكه إلا بعد تَنَزُّل القرآن العظيم به ، والقرآن هو الذي أيد العلم الحديث الذي أثبت أن الإنسان خلق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة .

وقوم نوح لم يكن لديهم القرآن ، ولم يكن لديهم وسائل العلم الحديث لرؤية أطوار خلق الإنسان وهو في رحم أمه .

وإنما كانوا يرون رؤية واضحة كل إنسان وهو ينتقل بعد ولادته من طور إلى طور ، وكذلك كانوا يرون اختلاف الناس في الأفعال والأقوال والأخلاق ، حتى أن التوأمين اللذان يتشابهان في الخلق تمام التشابه ، نجدهما يختلفان تمام الاختلاف في الأفعال والأقوال والأخلاق ، وكذلك كانوا يرون انتقال كل إنسان من حال إلى حال ، من الصحة إلى السقم ، أو العكس ، ومن الغنى إلى الفقر ، أو العكس .

وكذلك من الأمور التي نبه نوح عليه السلام قومه عليها ، خلق السموات سبعاً طباقاً ، قال الرازي : (ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد ، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة في كل القرآن)[(١)] .

والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبق على الأخرى كالقباب ، وجعل في هذه السبع الطباق القمر نوراً أي منوراً لوجه الأرض ، وجعل الشمس سراجاً أي كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك إلى التصرف فيما يحتاجون إليه من المعاش[(٢)] .

وبين لهم أن الله سبحانه وتعالى فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة ليُعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر للقمر منازل وبروجاً وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستتر ليدل على مضي الشهور والأعوام[(٣)] .

ثم نبههم على إنبات الله سبحانه لهم من الأرض ، أي أنه أنشأهم منها ، قال الزمخشري : (واستعير الإنبات للإنشاء ، يقال : زرعك الله للخير ، وكانت هذه

(١) تفسير الرازي ، ٣٠/١٣٩ .
(٢) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨/٣٠٤ ، وفتح القدير ، الشوكاني ، ٥/٢٩٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ٤/٤٢٦ .

الاستعارة أدل على الحدوث ، لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات)[1] .

ثم أخبر أن الله يعيدهم بعد الموت إلى الأرض التي أنشأهم منها ثم يخرجهم منها بالبعث يوم القيامة .

ويقرر العلم أن الإنسان هو ابن الأرض ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[2] وأكثر من ذلك يحدثنا القرآن في صراحة أن الإنسان نبتة من نبات الأرض ، وقد أكد القرآن الكريم حقيقة معدن آدم عليه السلام وهو الطين في أشكاله التي ذكرها القرآن في قوله أنه من طين ، أو من حمأ مسنون ، أو من طين لازب ، أو من سلالة من طين ، أو من صلصال كالفخار ، وأن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام بعد خلقه من الطين صار جسماً حياً من جسم وعظم ودم وأعصاب ثم صار تكوينه بعد ذلك عن طريق آخر هو من ﴿ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[3][4] .

ثم وجه أنظارهم إلى الأرض التي جعلها الله سبحانه وتعالى لهم بساطاً ممهداً يتقلبون عليه كتقلبهم على بسطهم في بيوتهم ، وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ، ليستقروا عليها ويسلكوا فيها طرقاً واسعة أين ما شاءوا من نواحيها وأرجائها وأقطارها[5] .

ومن خلال هذا الحوار بين نوح عليه السلام وقومه يتبين لنا أن نوحاً عليه السلام كان يخاطب عقول قومه وقلوبهم وينبههم إلى قدرة الله وعظمته في خلق الإنسان والسموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق، الذي جعل السماء بناءً والأرض مهاداً وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذي

---

(١) تفسير الكشاف ، الزمخشري ، ٤/١٦٣ ، وانظر : فتح القدير ، الشوكاني ، ٥/٢٩٩ .
(٢) طه : ٥٥ .
(٣) القيامة : ٣٧ .
(٤) انظر : القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، ٩٣ .
(٥) انظر : تفسير الطبري ، ٢٩/٩٧ ، وتفسير ابن كثير ، ٤/٤٢٦ ، وفتح القدير ، الشوكاني ، ٥/٢٩٩ .

يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ، لأنه لا نظير له ولا عديل ولا ند ولا كفء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير .

ثانياً : هود عليه السلام :

أرسل الله سبحانه وتعالى هوداً عليه السلام إلى قوم عاد ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة ما سواه ، ولكن عاداً اتبعت سنة قوم نوح في التكذيب والكفر ، فأخذ هود عليه السلام يخاطب عقولهم ترغيباً وترهيباً ، ودعاهم إلى التفكر بما أنعم الله عليهم من القوة الجسمية ، والزروع والثمار والأنعام ، وأن الله سبحانه وتعالى جعلهم خلفاء بعد قوم نوح ، وأورثهم الأرض يتبوءون منها حيث يشاؤون وأمرهم أن يأخذوا العظة والعبرة مما حدث لقوم نوح عليه السلام بسبب تكذيبهم لرسولهم .

فمن ما قصه الله سبحانه وتعالى علينا من خبر هود عليه السلام وقومه قول هود لقومه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١) .

ففي هذه الآية يخاطبهم نبيهم هود عليه السلام فيقول لهم : هل عجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة ، على رجل منكم ، لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه ، فاتقوا الله في أنفسكم ، واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم وكفروا بربهم ، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم ، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها ، فاتقوا الله أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سنته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به ، وزاد في أجسامكم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح ، وفي قوامكم على قوامهم ، نعمة بذلك منه عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقوامكم ، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به

---

(١) الأعراف : ٦٩ .

وهجر الأوثان والأنداد ، كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة ، وتنجحوا في طلباتكم عنده[1] .

وقال لهم أيضاً ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ، وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[2] .

وهود عليه السلام يوجه عقول قومه إلى نقطة هامة في الدعوة ، وهو أنه لا يطلب من وراء دعوتهم إلى الله وإخلاص العبادة له جزاء أو ثواباً ، لأن هذا الأمر فيه إنقاص من شأن الدعوة ، ولا يكون لها تأثيراً قوياً في النفوس ، لذلك خاطبهم بقول ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تعقلون أني لو كنت أبتغي بدعايتكم إلى الله غير النصيحة لكم وطلب الحظ لكم في الدنيا والآخرة لالتمست منكم على ذلك بعض أعراض الدنيا وطلبت منكم الأجر والثواب ؟!‏[3] .

قال الرازي : (وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرة من دنس الطمع ، قوي تأثيرها في القلب)[4] .

ثم أنه أمرهم بالاستغفار ، والاستغفار هنا بمعنى الإيمان بالله وترك عبادة ما سواه ثم بعد الإيمان توبوا إليه من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره ، فإن فعلتم أرسل عليكم السماء بالمطر المدرار ، وفي هذا ترغيباً لهم لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، وكانوا حريصين عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء[5] .

وزيادة على ذلك وعدهم بالقوة المضافة إلى قوتهم وذلك بزيادة المال والولد ، وقيل أن قوم هود عليه السلام كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال ، الأول : أن

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٨/ ٢١٥ – ٢١٦ ، وتفسير القرطبي ، ٢٣٦/٧ ، وتفسير الرازي ، ١٤/ ١٦٣ – ١٦٤ ، وتفسير الكشاف ، الزمخشري ، ٨٧/٢ .

(٢) هود : ٥١ – ٥٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ٥٧/١٢ ، وتفسير القرطبي ، ٥١/٩ .

(٤) تفسير الرازي ، ١١/١٨ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ، ٥٧/١٢ ، وتفسير الكشاف ، الزمخشري ، ٢٧٥/٢ .

بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة ، والدليل ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾(١) والثاني : أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾(٢) ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبه فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة(٣) .

كل هذا فيه ترغيب من الله لهم على لسان هود عليه السلام ، ولكن في سورة الشعراء أمره الله سبحانه وتعالى بترهيبهم وتخويفهم مما يعملون من أعمال تغضب الله عز وجل وتوجب عذابه ، وهو إذ يخاطبهم إنما كان يخاطب عقولهم لكي يعتبروا ويخافوا ويكفوا عما هم عليه من فساد ، فقال لهم ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾(٤) أي (معلماً بناءً مشهوراً ، تعبثون أي إنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة)(٥) .

وقيل أنهم كانوا يتخذون بكل طريق مكاناً مرتفعاً ليشرفوا فيه على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم ، وقيل أنهم كانوا يتخذونها للعب بالحمام ، والريع هو المكان المرتفع(٦) .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾(٧) وذلك أن قوم هود كانوا يتخذون البروج المشيدة لكي يقيموا فيها أبداً ، فبين لهم هود أن هذا ليس بحاصل لهم بل زائل عنهم كما

---

(١) الفجر : ٧ – ٨ .
(٢) فصلت : ١٥ .
(٣) انظر : تفسير الرازي ، ١٢/١٨ ، وتفسير الطبري ، ٥٧/١٢ ، وتفسير القرطبي ، ٥١/٩ .
(٤) الشعراء : ١٢٨ .
(٥) تفسير ابن كثير ، ٣٤٢/٣ .
(٦) انظر : تفسير البغوي ، ٣٩٣/٣ .
(٧) الشعراء : ١٢٩ .

زال عمن قبلهم ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[1] وذلك أنهم كانوا يتصفون بالقوة والغلظة والجبروت[2] .

ثم انتقل بهم من الترهيب إلى الترغيب مرة أخرى ، فذكرهم بنعم الله عليهم فقال ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[3] .

ولكن مع هذا كله لم تجد دعوة هود عليه السلام قلوباً ولا عقولاً سليمة تسمع وتبصر وتعي ما يقال لها ، فكفروا وتولوا واستغنى الله وأهلكهم كما أهلك قوم نوح قبلهم ولم يضروه شيئاً والله على كل شيء قدير .

ثالثاً : صالح عليه السلام :

أرسل الله سبحانه وتعالى صالحاً عليه السلام إلى قوم ثمود أصحاب الحجر ، يدعوهم بدعوة الرسل قبله ، وأيده الله سبحانه وتعالى بمعجزة الناقة التي أخرجها لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة وطلبوا أن تخرج وهي عشراء تمخض[4] .

قال تعالى ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] .

وكانت هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وكان من عجيب أمرها أنها كانت ترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، وكانوا يشربون من لبنها في ذلك اليوم وكانت تكفيهم مؤونتهم[6] .

---

(١) الشعراء : ١٣٠ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، ٣/٣٤٢ .
(٣) الشعراء : ١٣١ – ١٣٤ .
(٤) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢/٢٢٩ .
(٥) الأعراف : ٧٣ .
(٦) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١/٣١٢ .

ولهذا قال تعالى ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[(1)] .

وقال تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾[(2)] .

هذا ما كان من أمر الناقة ، لذلك فقد كان صالح عليه السلام يأمرهم بالتفكر في هذه الناقة ويقول لهم ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾[(3)] أي علامة على صدق ما أدعوكم إليه .

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم فقال ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[(4)] وهذا القول فيه طلب بأخذ العظة والعبرة من ما حدث لقوم عاد قبلهم ، وأن الله أهلكهم لما كذبوا رسولهم ، وأن ثمود سوف يكون لها نفس المصير إن فعلت كما فعل قوم عاد .

﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾[(5)] .

وذلك أنهم كانوا متنعمين مترفهين ، فكانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء ، وقيل أنهم كانوا يبنون من سهولة الأرض قصوراً لأنها لا تبنى إلا من الطين واللبن والآجر ، ويبنونها في كل موضع ، وكانوا يتخذون البيوت في الجبال لطول أعمارهم ، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، لذلك كانوا ينقبون الصخر مساكن[(6)] .

وهو عليه السلام بهذا التذكير بنعم الله عليه كأنه يسألهم : من الذي أعطاكم هذه النعم وهذه القوة وسخر لكم الأرض هذا التسخير العظيم ؟ وهو يريد منهم أن يعلموا أن من أعطاهم هذه النعم هو المستحق للعبادة وحده دون سواه .

---

(1) الشعراء : ١٥٥ .
(2) القمر : ٢٨ .
(3) الأعراف : ٧٣ .
(4) الأعراف : ٧٤ .
(5) الأعراف : ٧٤ .
(6) انظر : تفسير الطبري ، ٢٣١/٨ ، وتفسير القرطبي ، ٢٣٩/٧ ، وتفسير الرازي ، ١٤/ ١٧١ ، وتفسير الكشاف ، الزمخشري ، ٩٠/٢ .

وقال لهم في موضع آخر ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾[1] .

وقال أيضاً ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾[2] .

رابعاً : إبراهيم عليه السلام :

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، كانت دعوته متضمنة لثلاث مقامات :

الأول : دعوته لأبيه خاصة .

الثاني : دعوته لأبيه وقومه معاً .

الثالث : دعوته للنمرود .

فأما المقام الأول فقد كان مع أبيه آزر[3] خاصة لأنه كان يعبد الأصنام ، فبدأ به أولاً لقربه منه وشفقته عليه ولأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له[4] ، قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ، يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾[5] .

قال البيضاوي[6] : (دعاه إلى الهدى وبين ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاجه

---

(١) هود : ٦١ .

(٢) الشعراء : ١٤٦ – ١٤٩ .

(٣) هو تارح بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وورد في القرآن أن اسمه آزر ، وورد عن ابن عباس أن اسمه تارح ، وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة ، فقيل أنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر ، عاش مائتين وخمسين سنة (٢٥٠) ، انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١/ ٣٢٤ – ٣٢٩ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٣٢٧/١ .

(٥) مريم : ٤٢ – ٤٥ .

(٦) هو القاضي ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشافعي البيضاوي ، نسبة إلى بيضاء من بلاد فارس ، صاحب المصنفات وعالم أذربيجان ، ولي قضاء شيراز ، كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً صالحاً متعبداً ، وقد تكلم الأئمة بالثناء على مصنفاته ، منها (المنهاج الوجيز) (الطوالع) (المصباح) (مختصر الكشاف) الغاية القصوى في رواية الفتوى) ، توفي سنة ٦٨٥هـ وقيل ٦٩١هـ . انظر : شذرات الذهب ، عبد الحي الدمشقي ، ٣/ ٣٩٢ – ٣٩٣ .

وأرشقه برفق وحسن أدب حيث لم يصرح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم ، ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام وهو الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب المثيب ، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح ، والشيء لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضر ولكن كان ممكناً لاستنكف العقل القويم عن عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين ، لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة ، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر)[1] .

وأما المقام الثاني فكان شاملاً لأبيه وقومه على السواء ، وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر[2] فأراد إبراهيم عليه السلام أن يبين لهم بطلان عبادتهم لهذه المخلوقات التي تكون وتفسد وتزول بأمر الله سبحانه خالقها ومنشؤها من العدم .

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[3] أي تائهين لا تهتدون بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بيِّنٌ واضح لكل ذي عقل سليم[4] .

ثم قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[5] أي كما أريناه ضلال أبيه وقومه ، كذلك نريه ملكوت السموات والأرض وعظمتهما ليزداد يقيناً على يقين .

ثم قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) تفسير البيضاوي ، ٤/١٨ .
(٢) انظر : فتح القدير ، الشوكاني ، ٢/١٣٣ .
(٣) الأنعام : ٧٤ .
(٤) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢/١٥١ .
(٥) الأنعام : ٧٥ .

الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[١] .

قوم إبراهيم عليه السلام كانوا مقرين بوجود الله سبحانه وتعالى وأنه هو الصانع ، ولكنهم عبدوا الكواكب السماوية واتخذوا لها أصناماً أرضية[٢] ، لذلك قامت هذه المناظرة بينه وبين قومه ، فهو يناظرهم ليثبت إلهية الله سبحانه واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

فاستدل بالأفول على عدم أحقيتها بالعبادة ، وذلك أن الأفول باتفاق أهل اللغة والتفسير هو المغيب والاحتجاب ، بل إن هذا معلوم بالاضطرار من لغة العرب التي نزل بها القرآن ، والمراد باتفاق العلماء[٣] .

والأفول يقتضي الضعف والعجز والنقص ، فبيَّن عليه السلام لهم أن عبادتهم لهذه الكواكب باطلة ، لأن أفولها يدل على ضعفها وعجزها ونقصها وحاجتها لغيرها[٤] .

وإبراهيم عليه السلام كان يناظر قوماً منجمين ، والمنجم يعلم كل العلم أن الكوكب إذا تحول إلى جهة الغرب ضعفت قوته ونقص تأثيره بعكس الطلوع ، لذلك استدل إبراهيم عليه السلام بالأفول ولم يستدل بالطلوع ، ليثبت لهم عجز الكواكب وضعفها ونقصها واحتياجها إلى مدبر يدبرها ، فلما أبطل عليه السلام عبادة الكواكب وبين أنها غير مستحقة للعبادة من دون الله الخالق المدبر ، قال بعد هذه المناظرة ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا

---

(١) الأنعام : ٧٦ – ٧٨ .

(٢) انظر : جامع الرسائل ، ابن تيمية ، ٥٢/٢ – ٥٣ ، محمد رشاد سالم ، دار المدني ، جدة . ومجموع الفتاوى، ابن تيمية ، ٢٥٥/٦ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ٥٠/٢ ، ومجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢٥٤/٦ ، وقد ذكر في الفتاوى (الغيب) بدلاً عن (المغيب) .

(٤) انظر : تفسير الرازي ، ١٣/ ٥٥ - ٥٦ .

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْمَنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

أما الكلام الذي قيل فيه بأن إبراهيم عليه السلام لم يكن يعرف ربه قبل هذه المناظرة، وأنه عرفه بعدها ، فهذا غير صحيح ، لأنه عليه السلام عندما ناظر قومه كان يناظرهم عن علم وبصيرة لأنه كان نبياً مرسلاً موحى إليه من ربه ، وقد أبطل الرازي في تفسيره القول بأنه لم يكن يعلم الحق ثم علمه وأورد عدة أدلة على ذلك :

منها : أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر ﴿ تَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ .

ومنها : أنه تعالى حكى عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق حيث قال ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾[2] وحكى في هذا الموضع أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش، ومن المعلوم أن من دعا غيره إلى الله تعالى فإنه يقدم الرفق على العنف واللين على الغلط ولا يخوض في التعنيف والتغليظ إلا بعد المدة المديدة واليأس التام ، فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دل أباه على التوحيد مراراً وأطواراً ، ولا شك أنه إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من مهم نفسه ، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة[3] .

أما في سورة الأنبياء ، فقد ذكر الله عز وجل لنا قصة محاجته لقومه بشأن عبادتهم للأصنام ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ، قَالَ بَلْ

(١) الأنعام : ٧٨ – ٨٣ .
(٢) مريم : ٤٢ .
(٣) انظر : تفسير الرازي ، ١٣/ ٥٠ ، وقد ذكر الرازي أدلة أخرى ولكني رأيت أن في هذين الدليلين الكفاية .

رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[١] .

ثم بعد ذهاب قومه أخذ إبراهيم عليه السلام بتكسير أصنامهم إلا أكبرهم تركه لم يكسره ، فلما جاءوا بإبراهيم وسألوه عن ذلك ، أجابهم إجابة أفحمتهم وأسكتتهم في بداية أمرهم ، ولكن العناد والمكابرة جعلتهم يحاجون بغير علم ولا هدى .

قال لهم إبراهيم ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ﴾[٢] وهنا بدأ إبراهيم عليه السلام يوجه أنظارهم وعقولهم وقلوبهم إلى التفكر في عبادتهم هذه وتفاهتها وسخافتها وأنها لا تنفعهم شيئاً ولا تضرهم ، فقال ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[٣] وهنا طلب إبراهيم من قومه أن يعملوا عقولهم في أصنامهم هذه وأن لا تكون حجتهم التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، قال تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[٤] قال ابن كثير : (وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرت فيه)[٥] .

ثم أخذ يبين لهم أن الله سبحانه وتعالى هو الرب المتكفل بعباده فهو الذي خلقهم وهداهم وأطعمهم وسقاهم وعافاهم ، وهو المحيي المميت ، وهو الغفور الرحيم ، فقال ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي

---

(١) الأنبياء : ٥١ – ٥٦ .
(٢) الأنبياء : ٦٣ – ٦٥ .
(٣) الأنبياء : ٦٦ – ٦٧ .
(٤) الشعراء : ٦٩ – ٧٧ .
(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١/٣٣٤ .

وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾[١] .

أما في سورة العنكبوت فقد قال تعالى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ، أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[٢] .

وفي سورة الصافات قال سبحانه ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ، أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٣] .

ومن هذا نخلص إلى أن إبراهيم عليه السلام كانت له عدة مناظرات مع أبيه وقومه بشأن عبادتهم للأصنام والكواكب ، وكان دائماً في هذه المناظرات يطلب منهم إعمال عقولهم في هذا الأمر ، ليروا الفائدة المرجوة من ورائه ، فإذا علموا أنه لا فائدة من وراء عبادتهم تلك توجهوا إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فيعبدوه ويعظموه ويوحدوه .

وأما المقام الثالث والأخير فهو دعوته عليه السلام للنمرود الطاغية[٤] المتجبر غليظ الكفر شديد العناد ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصته مع إبراهيم عليه السلام ، فقال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

---

(١) الشعراء : ٧٧ — ٨٢ .
(٢) العنكبوت : ١٦ — ١٩ .
(٣) الصافات : ٨٤ — ٨٧ .
(٤) هو النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، كان أحد ملوك الدنيا ، دام ملكه أربعمائة سنة ، وكان قد طغى وبغى ، وتجبر وعتى ، وآثر الحياة الدنيا ، وادعى الألوهية والربوبية ، ولكن الله عاجله بالعقوبة ، وذلك أن بعوضة دخلت في منخريه ، ومكثت أربعمائة سنة ، فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها ، حتى أهلكه الله عز وجل بها . انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١/ ٢٤٢ — ٢٤٥ .

فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية سبب تجبر النمرود وطغيانه ، وهو ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أي بسبب إعطاء الله له الملك ، خاصة وأنه مكث في الملك مدة طويلة جداً ، وقد التقى هذا الطاغية مع إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من النار ، وقيل أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، فكانت بينهما هذه المناظرة[2] .

طلب هذا الطاغية من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الله ، فقال إبراهيم ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي إن الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد من موجد أوجدها وهو الله[3] .

وهذا القول من إبراهيم فيه دعوة للنمرود بالتفكر في هذا الكون وليس فقط في الإحياء والإماته ، ولكن النمرود كان قد ألغى عقله وتفكيره وقلبه ، فلا يتأثر بتذكير ولا موعظة .

بل إنه تمادى في الكفر وادعى أنه يحيي ويميت ، وذلك أنه جاء برجلين قد حكم عليهما بالموت ، فأمر بقتل أحدهما ، وأمر بالعفو عن الآخر .

ومع أن جواب النمرود هذا لا يعتبر رداً على قول إبراهيم ، إلا أن إبراهيم ترك هذا الطريق لعلمه بعناده وتكبره ، وأتاه من طريق آخر وهو مطالبته له بأن يأتي بالشمس من المغرب ، فعند ذلك بهت هذا الكافر المعاند وسكت عن الكلام والمحاجة من غير علم ، لأنه يعلم في نفسه علماً يقينياً أنه لا يقدر على ذلك إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، فقامت عليه الحجة واستمر على عناده وغيه حتى أهلكه الله بأصغر المخلوقات وهي البعوضة ، ليثبت عجزه وضعفه لمن عبده من قومه .

---

(١) البقرة : ٢٥٨ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١/ ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ١/٣١٤ .

خامساً : لوط عليه السلام :

أرسل الله سبحانه وتعالى لوطاً عليه السلام إلى قوم فاسقين غيروا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وخلق منه زوجه لتكون سكناً له ، وليكثر النسل الإنساني على وجه الأرض ، ثم كانت بعد ذلك سنَّة عامة في جميع البشر ، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [(١)] وقال ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [(٢)] .

وقد ذكر ابن القيم أن من مصالح النكاح (قضاء الوطر ، ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبيها وتذكر بعلها ، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات ، وتحصين المرأة وقضاء وطرها ، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح) [(٣)] .

إلا أن قوم لوط عليه السلام عكسوا هذه الفطرة وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الرجال ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، قال تعالى ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [(٤)] .

عندما ذكر الله سبحانه وتعالى جريمة الزنى قال عنها ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ

---

(١) النحل : ٧٢ .
(٢) الروم : ٢١ .
(٣) الداء والدواء ، ابن القيم ، ٢٩٦ ، ت يوسف علي بدوي ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، ط ٣ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
(٤) الأعراف : ٨٠ – ٨١ .

فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[1] فجعل كلمة ﴿ فاحشة ﴾ نكرة ليبين أنها فاحشة من الفواحش، أما في اللواط فقد عرفه فقال ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ وهذا يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة ، أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد ، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ، ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأن لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال ﴿ ما سبقكم ﴾ ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه الطباع أشد نفرة وهو إتيان الرجل رجلاً مثله كما ينكح الأنثى فقال ﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾[2] .

فلوط عليه السلام في خطابه مع قومه ونهيه لهم عن هذه الفاحشة العظمى ، كان دائماً ينكر عليهم ما يفعلونه ويخاطب عقولهم ، ويبين لهم أن الله إنما خلق النساء للرجال ولم يخلق الرجال للرجال ، فيجب عليهم التفكر في هذا الأمر ومعرفة فوائده ، ومعرفة مفاسد ما يفعلونه وما هم مقيمين عليه في ليلهم ونهارهم ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[3] .

سادساً : شعيب عليه السلام :

شعيب عليه السلام أرسل إلى قوم مدين ليدعوهم إلى عبادة الله وحده دون سواه ، ولكنهم كانوا قوماً مشركين بالله ومطففين في الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ومفسدين في الأرض .

كان شعيب عليه السلام يذكرهم بالله ويخوفهم من عقابه ونقمته ، ويلومهم على ما يفعلونه من قطع الطريق وإيذاء المؤمنين ، وكانوا فيما ذكر يقعدون على طريق من قصد شعيباً وأراده ليؤمن به فيتوعدونه ويخوفونه ويقولون أنه كذاب ، فكان شعيب عليه السلام يذكرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا قليلاً فكثرهم الله ، وقيل أنهم كانوا فقراء

(١) الإسراء : ٣٢ .
(٢) انظر : بدائع التفسير ، ابن القيم ، ٢/٢٥٩ – ٢٦٠ .
(٣) الشعراء : ١٦٥ – ١٦٦ .

فأغناهم الله ، وقيل كثرهم بالقـدرة بعد الضعف[1] ، وأمرهم بأخذ العظة والعبرة ممن كان قبلهم ، فقال ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِـهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

فشعيب عليه السلام في هذه الآية يأمرهم بالتفكر في أحوالهم وأحوال الأمم قبلهم ، وماذا كان مصيرهم ليورثهم هذا التفكير الإيمان بالله وتوحيده ، والنجاة في الدارين ، وقال لهم في موضع آخر ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾[3] .

وفي سورة الشعراء طلب منهم شعيب عليه السلام أن يتفكروا في أنفسهم فيعرفوا أن الله هو الذي خلقهم وخلق من كان قبلهم ، وأنه قادر على إهلاكهم ، فيجب عليهم أن يتقوه ويطيعوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، فقال ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾[4] .

إذن هذا هو شعيب عليه السلام يسـلك نفس الطريق الذي سلكه الأنبياء من قبله ومن بعـده ، وهو توجيه أنظار المدعوين إلى التفكر والتدبر الموصل إلى الإيمان بالله وتوحيده .

سابعاً : موسى عليه السلام :

موسى عليه السلام مر في دعوته بمرحلتين :

الأولى : مع فرعون .

الثانية : مع قومه بعد خروجهم من مصر .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٢٣٩/٨ ، وتفسير القرطبي ، ٢٤٩/٧، وتفسير الرازي ، ١٨٢/١٤ ، وفتح القدير، الشوكاني ، ٢٢٤/٢ .

(٢) الأعراف : ٨٦ .

(٣) هود : ٨٩ .

(٤) الشعراء : ١٨٤ .

أما عن موقفه مع فرعون مصر ، فقد كان يدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ ما يدعيه من الألوهية والربوبية ، فقد كان فرعون يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(1) وكان يقول أيضاً ﴿ يَاْ قَوْمِ أَلَيْسَ لِيْ مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُوْن ﴾(2) ويقول ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾(3) .

فكان موسى عليه السلام يدعوه ويحاجه ويبين لـه أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق السموات والأرض وهو الخالق الرازق المحيي المميت ، وقد أيد الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بتسع معجزات لكي يصدق فرعون بدعوة موسى ويؤمن ، منها العصا التي تنقلب ثعباناً عظيماً ، ومنها يده التي يجعلها في جناحه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء وغيرهما ، ولكن فرعون أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وادعى أن موسى ساحر عليم بالسحر ، ولكن موسى عليه السلام بيَّن لـه أن هذه المعجزات إنما أنزلها الله رب السموات والأرض لتكون دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته وعظمته ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾(4) وقيل أن الثبور هو الهلاك والخسران ، وقيل هو اللعن ، وقيل هو الخبل أي نقصان العقل ، وقيل هو الممنوع من الخير ، وقيل هو الغُلب ، وقيل هو التبديل(5) ، وكل هذه المعاني تنطبق على فرعون فهو هالك خاسر ملعون مخبول ناقص العقل ممنوع من الخير مغلوب مُبَدَّل .

(1) القصص : ٣٨ .
(2) الزخرف : ٥١ .
(3) النازعات : ٢٤ .
(4) الإسراء : ١٠١ — ١٠٢ .
(5) انظر : تفسير الطبري ، ١٥/ ١٧٤ - ١٧٦ ، وتفسير القرطبي ، ١٠/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وفتح القدير ، الشوكاني ، ٣/٢٦٣ .

وعندما جاء موسى وهارون عليهما السلام لدعوة فرعون بأمر من الله سبحانه ، سألهما فرعون ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ، قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾[1] أي ما حال القرون الأولى التي لم تقر بالرب الذي تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوهما من المخلوقات[2] .

قال موسى ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ، مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[3] ففي هذه الآيات لفت لأنظار فرعون وقومه للتفكر بما خلق الله سبحانه لهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، فمنها الأرض التي ذللها لهم ومهدها وجعلها سهلة لممارسة المعيشة عليها ، وجعل فيها طرقاً واضحة ميسرة ليسلكها الناس بلا تعب ونصب ، وأنزل الغيث من السماء على الأرض فأخرج به ألواناً من نبات مختلف الطعوم والرائحة والمنظر[4] .

ونلاحظ في الآيات السابقة أن الضمير كان في البداية للغيبة أي أن موسى كان يتحدث عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تحول الضمير إلى التكلم أي إن الله سبحانه هو الذي يتكلم ، وذلك عند قوله ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ الآيات ، فما هو سبب ذلك ؟

ذكر المفسرون أن موسى عليه السلام عدل بالضمير عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى ، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته[5] .

---

(١) طه : ٤٩ – ٥١ .
(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٦/١٧٣ ، وتفسير القرطبي ، ١١/٢٠٥ ، وتفسير ابن كثير ، ٣/٦٨ و ٢١٢ ، وفتح القدير ، الشوكاني ، ٣/٣٦٩ .
(٣) طه : ٥٢ – ٥٥ .
(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١٦/١٧٤ .
(٥) انظر : تفسير الكشاف ، الزمخشري ، ٢/٥٤٠ ، وتفسير الرازي ، ٢٢/٦٨ ، وتفسير البيضاوي ، ٤/٥٥ .

وقيل أن كلام موسى عليه السلام انتهى عند قوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ ثم ابتدأ كلام الله تعالى من قوله ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ وذلك لوجود الفاء في قوله ﴿ فأخرجنا ﴾ لأنها متعلقة بما قبلها فلا تجوز جعل هذا كلام الله وما قبله كلام موسى[١] ، وقد يكون هذا القول هو الصواب لوجود الدليل والله تعالى أعلم .

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢] .

أما عن المرحلة الثانية في دعوة موسى عليه السلام فقد كانت مع قومه من بني إسرائيل الذين جبلوا على العناد والمكابرة والتعنت وطلب الآيات بلا مبرر والعصيان والكفر بالآيات وغير ذلك من الأخلاق الذميمة التي وصفهم الله بها في القرآن الكريم[٣] .

فكان موسى عليه السلام يوجه أنظارهم دائماً إلى ما أنعم الله به عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، فعندما أخبرهم موسى بأن الله يأمرهم بدخول الأرض المقدسة ، بدأ بتذكيرهم بنعم الله عليهم ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[٤] .

وكذلك ذكرهم بإنقاذ الله لهم من يد فرعون الطاغية المتجبر ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[٥] .

وموسى عليه السلام يخاطب عقولهم وقلوبهم ، ليعودوا إلى ربهم بارئهم ويعبدوه

---

(١) انظر : تفسير الرازي ، ٦٩/٢٢ .
(٢) الشعراء : ٢٣ – ٢٨ .
(٣) انظر : العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ، سعد الدين السيد صالح ، ٦٢ – ٦٩ ، مكتبة الصحابة ، جدة – الدمام ، مكتبة التابعين ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٦هـ .
(٤) المائدة : ٢٠ .
(٥) إبراهيم : ٦ .

لا يشركوا به شيئاً ويأتمروا بأوامره وينزجروا عن نواهيه .

ثامناً : محمد صلى الله عليه وسلم :

محمد ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين ، بل سيد ولد آدم أجمعين ، أرسله الله سبحانه إلى الثقلين الإنس والجن ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة وشفاء لما في الصدور .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى الإيمان بالله والتفكر في خلقه ليتيقنوا عظمة الله وقدرته ، وأن ينهاهم عن كل أمر منكر يغضب الله ويستدعي عذابه ونقمته، لذلك كانت كثير من آيات القرآن الكريم تبدأ بلفظ ((قل))[3] .

فمن الأوامر التي وجهت للنبي ﷺ في القرآن ، الأمر بلفت أنظار المدعوين إلى ما في هذا الكون من سموات وأرض وشمس وقمر ونجوم وبحار وأنهار ورياح وزروع وحيوانات وطيور ، وإلى خلق الإنسان وتركيبه الدال على عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى، والتفكر في ذلك لتكون العاقبة هي التوجه إلى الله بالعبادة الخالصة من الشرك .

قال تعالى ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ

---

(١) سبأ : ٢٨ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) وردت لفظة ((قل)) في المصحف ٣٣٢ مرة . انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ٧٢٥ .

يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

وقال سبحانه ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

وأيضاً لفت أنظارهم إلى عواقب الأمم السابقة وما حل بهم من دمار وهلاك وخسران بسبب تكذيبهم وكفرهم ، قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[4] .

وكما هو واضح في الآيات السابقة أن الرسول ﷺ كان حاله مع قومه كحال الأنبياء والرسل قبله ، فقد كان يأتيهم تارة بالترغيب ، وتارة بالترهيب ، وفي هذا وهذا كان يخاطب عقولهم وقلوبهم ليرغبهم ويشوقهم ، أو ليخوفهم ويرهبهم ، ففي أثناء ترهيبه لهم أمره ربه أن يقول لهم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾[6] .

أيضاً في معرض تذكيره لهم بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم ، كان دائماً يصور لهم لو أن الله أخذ منهم هذه النعم فماذا يفعلون ؟ ويترك الجواب لهم ليتفكروا في السؤال وإجابته ، قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[7] وقال سبحانه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ

---

(١) النمل : ٥٩ — ٦٤ .
(٢) يونس : ١٠١ .
(٣) الأنعام : ١١ .
(٤) النمل : ٦٩ .
(٥) الأنعام : ٤٠ .
(٦) الأنعام : ٤٧ .
(٧) الأنعام : ٤٦ .

بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾(٢) .

وكذلك أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يسوي لقومه بين أمرين متغايرين تمام التغاير ، ثم يسألهم : هل هذه التسوية صحيحة أم لا ؟ لكي يتوصل معهم من خلال تلك الأسئلة إلى النتيجة المطلوبة من الدعوة ، قال تعالى ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣) وقال سبحانه ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٤) وقال سبحانه ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾(٥) .

والمشركون الذين كان الرسول ﷺ يدعوهم إلى التوحيد كانوا مقرين بالربوبية ، لذلك كان الرسول ﷺ يأتيهم من هذا الباب ، ويذكرهم بما هم معترفين به من نعم الله عليهم من الرزق والإحياء والإماتة ، وأن الخلق والملك كله لله ، فيأمرهم أن يعبدوا هذا الإله الحق عبادة خالصة من الشرك ، لأنهم اعترفوا بأنه لا خالق ولا رازق إلا هو ، فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه ، قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(١) القصص : ٧١ – ٧٣ .
(٢) الملك : ٣٠ .
(٣) الأنعام : ٥٠ .
(٤) الرعد : ١٦ .
(٥) الزمر : ٩ .

تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ، قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾[4] وقال سبحانه ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[6] .

وكذلك كان يحاجهم ﷺ على اتخاذهم الشركاء مع الله في العبادة ويبين لهم نتيجة وجود إله آخر مع الله ، ما الذي يحدث في هذا الكون ؟ قال تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾[7] .

ولو استرسلت في ذكر الآيات والأساليب التي كان يدعو بها الرسول ﷺ قومه لأخذ هذا الأمر الشيء الكثير ، لأن الرسول ﷺ كان يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وكان يأتيهم بالحجة البالغة المقنعة لعقولهم ، وبالفعل دخل كثير منهم في الإسلام عن قناعة ورضا

---

(١) الأنعام : ٦٣ — ٦٥ .

(٢) يونس : ٣١ .

(٣) يونس : ٣٤ .

(٤) الأنبياء : ٤٢ .

(٥) سبأ : ٢٤ .

(٦) الزمر : ٣٨ .

(٧) الإسراء : ٤٢ .

تامين ، لأن هؤلاء آتاهم الله عقولاً نيرة سليمة حفظها لهم من الكفر والشرك والطغيان والتجبر.

فعندما ذهب أبو سفيان إلى هرقل ، وسأله هرقل أسئلة كثيرة عن النبي ﷺ ، منها قوله : هل يرتد أحد منهم – أي ممن يدخل في الإسلام – سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي ، ثم علل هرقل سؤاله هذا بقوله : وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت : أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب[(١)] .

نماذج أخرى :

وفي نهاية هذا المبحث أشير إلى بعض الذين ذكروا في القرآن الكريم ، وكانوا يدعون إلى الله ويأمرون بالتفكر في هذا الكون وإعمال العقل فيه ليتوصل الإنسان إلى أن الله هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه ، وهؤلاء ليسوا بأنبياء ولا رسل ولكن الله سخرهم للدعوة إليه وأكرمهم بذلك .

منهم هدهد سليمان عليه السلام ، الذي اكتشف أثناء تجواله بأن هناك قوم[(٢)] يعبدون غير الله سبحانه وتعالى ، فجاء إلى سليمان منكراً على هؤلاء ما يصنعونه ، وقص عليه الخبر فقال ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ، أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[(٣)] .

ومنهم أيضاً لقمان الحكيم الذي كان يوجه وصاياه لابنه فيقول ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ

(١) رواه البخاري ، كتاب الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، رقم الحديث ٧ .
(٢) وهم قوم بلقيس في سبأ .
(٣) النمل : ٢٢ – ٢٦ .

لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

ومنهم كذلك مؤمن آل فرعون الذي أعلن إسلامه لله لما رأى القوم يأتمرون بموسى عليه السلام ومن معه قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ، يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ، وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[2] ثم قال ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ، تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ، فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[3].

---

(١) لقمان : ١٦ .

(٢) غافر : ٢٨ – ٣٣ .

(٣) غافر : ٣٨ – ٤٤ .

الفصل الثاني

موقف أهل السنة من العقل

ويشمل :

المبحث الأول : موقف الصحابة – رضوان الله عليهم– .

المبحث الثاني : موقف التابعين – رحمهم الله–.

المبحث الثالث : موقف علماء أهل السنة بعد الصحابة والتابعين .

المبحث الأول

موقف الصحابة – رضوان الله عليهم – من العقل

الصحابي هو من صحب الرسول ﷺ مطلق الصحبة ولو ساعة أو لحظة ، ورآه مع الإيمان به ، لأن الإيمان شرط في إطلاق اسم الصحابي[1] .

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على صحابة رسوله ﷺ ثناءً مجّد ذكرهم وعطّر سيرتهم ، وجعلهم مشعلاً يقتدى به بعد رسوله ﷺ ، قال تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] .

وقال ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[3] .

وقال ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[4] .

وكذلك أثنى عليهم رسول الله ﷺ لِمَا رأى منهم من صدق الصحبة ، وعظم التضحية بالمال والأهل من أجل نصرته ونصرة دعوته ، ومن أقواله ﷺ في مدحهم والثناء

---

(١) انظر : شرح مختصر الروضة ، الطوفي ، ٢/١٨٥ .
(٢) التوبة : ١٠٠ .
(٣) الفتح : ٢٩ .
(٤) الفتح : ١٨ .

عليهم ما يلي :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ((لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثلَ أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))[1] .

وعن عمران بن حصين ﷺ قال : قال النبي ﷺ : ((خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم))[2] .

وعن جابر بن عبدالله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة))[3] .

هذا من ثناء الله ورسوله على الصحابة الكرام ، وهذا يدل على سلامة قلوبهم وعقولهم وفطرهم من المفسدات المؤثرة على العقل والفطرة والتي تؤدي إلى فساد العقيدة والأخلاق .

قال ابن مسعود ﷺ : ((إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ...))[4] .

فلا بد أن للصحابة رضوان الله عليهم موقفاً سليماً وصحيحاً من العقل البشري الذي صنعه الله وأتقنه ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[5] فما هو موقف الصحابة من العقل ؟ هل امتدحوه ؟ أم ذموه ؟ وإن كانوا قد امتدحوه فهل استخدموه ؟ أم أهملوه؟ وإن كانوا قد استخدموه فهل أسرفوا في استخدامه ؟ أم أنهم جعلوا حدوداً لاستخدامه ؟

---

(١) رواه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي ﷺ : ((لو كنت متخذاً خليلاً)) ، رقم الحديث ٣٦٧٣ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ، رقم الحديث ٢٦٥١-٢٦٥٢ .

(٣) رواه الترمذي ، كتاب المناقب عن الرسول ﷺ ، باب في فضل من بايع تحت الشجرة ، رقم الحديث ٣٨٦٠ وصححه الألباني ، انظر ، صحيح سنن الترمذي ، الألباني ، ٥٦٨/٣ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ، ٣٧٩/١ ، إسناده حسن ، انظر : النسخة المحققة ، ٨٤/٦ .

(٥) النمل : ٨٨ .

للإجابة عن هذه التساؤلات أقول وبالله التوفيق :

أثنى الصحابة رضوان الله عليهم على صاحب العقل السليم ، ولم يحقروا من شأن العقل ، لأنه مناط التكليف في الإسلام ، ولو عرضنا بعض أقوالهم في العقل والعقلاء ، وما هي الأمور التي يستحب لصاحب العقل التحلي بها ، لوجدنا أنهم يحترمون العقل الصحيح السليم وصاحبه .

فمن أقوالهم في ذلك ما يلي :

قال أبو بكر الصديق ﷺ عندما أراد جمع القرآن لزيد بن ثابت ﷺ: (إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه)[(١)] .

في هذا الأثر دلالة على إجلال الصحابة رضوان الله عليهم لصاحب العقل ، ذلك لأن المهمة التي أسندها أبو بكر الصديق ﷺ لزيد ﷺلم تكن مهمة سهلة ، وقد أشار زيد ﷺ إلى ذلك فقال : (فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن)[(٢)] .

فمن هذا أن الصحابة كانوا يجلون المرء العاقل ويكلون إليه المهمات الصعبة لعلمهم أنها لا تنجز إلا على أيديهم وثقتهم بذلك تمام الثقة .

فكون زيد ﷺ عاقلاً فإن هذا يعني أنه يكون أوعى لجمع القرآن ، وهذا يدل على أن العقل أصل الخصال المحمودة لأنه لم يصف زيداً بأكثر من العقل وجعله سبباً لائتمانه ورفع التهمة عنه[(٣)] .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما : (سلام عليك ، أما بعد ، فإنه لم يُقِم أمر الله في الناس إلا حصيف العقل بعيد القوة ، لا يطلع الناس منه على

---

(١) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ... ﴾ ، رقم الحديث ٤٦٧٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ١٣/٩ .

عورة ، ولا يحس في الحق على حرة ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، والسلام عليك)[(١)] .

في هذا الأثر يعدد عمر بن الخطاب ﷺ صفات الشخصية القيادية الإسلامية الناجحة ، فذكر من هذه الصفات حصافة العقل ، والحصافة : هي ثخانة العقل فإذا كان الرجل جيد الرأي محكم العقل سُمِّيَ حصيفاً[(٢)] .

وكذلك قول علي بن أبي طالب ﷺ : (إن للنكبات نهايات ولا بد لأحد إذا نكب من أن ينتهي إليها فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها فإن في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها)[(٣)] .

هذا القول من علي بن أبي طالب ﷺ فيه دعوة للصبر على المصائب وجعل هذه الخصلة من صفات العقلاء الذين إذا أصابتهم نازلة من نوازل الدهر صبر على ما أصابه واحتسب ووكل أمره إلى الله ، وهذا معنى قوله (أن ينام لها) أي يصبر عليها .

ومن أقواله ﷺ في مدح العقل ، قوله : (والعقل خير صاحب)[(٤)] ، وقوله (وأغنى الغنى العقل)[(٥)] .

وكذلك قول أنس بن مالك ﷺ : (كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع)[(٦)] .

وفي رواية : (كنا نتمنى أن يأتي الأعرابي العاقل فيسأل النبي ﷺ ونحن عنده)[(٧)] .

قال ابن حجر : (وتمنوه عاقلاً ليكون عارفاً بما يسأل عنه)[(٨)] .

وقال النووي في شرحه للحديث : [قوله (الرجل من أهل البادية) يعني من لم

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ، ١١/٧ ، ت كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ .
(٢) انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ٤٨/٩ .
(٣) تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، ١٤٢ ، ت قاسم الرفاعي ، دار الأرقم ، ودار القلم ، بيروت – لبنان .
(٤) المصدر السابق ، ١٤١ .
(٥) المصدر السابق ، ١٤٣ .
(٦) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام ، رقم الحديث ١٢ .
(٧) رواه الترمذي ، كتاب الزكاة ، باب ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ، رقم الحديث ٦١٩ ، صححه الألباني ، انظر : صحيح سنن الترمذي ، الألباني ، ٣٤٠/١ .
(٨) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٥١/١ .

يكن بلغه النهي عن السؤال ، وقوله (العاقل) كونه أعرف بكيفية السؤال وآدابه والمهم منه ، وحسن المراجعة ، فإن هذه أسباب عظم الانتفاع بالجواب ، لأن أهل البادية هم الأعراب ويغلب فيهم الجهل والجفاء][1] .

فتبين من ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ينتفعون من الرجل العاقل ، لأنهم يعرفون أنه لا يسأل إلا عما يفيده في دينه ودنياه ، فكانوا يستمعون إلى سؤاله بأذن صاغية واعية .

كذلك فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعلمون كل العلم بأن من يتصف بالعقل الصحيح لا يرتكب المحرمات ولا المكروهات ولا القبائح ، وذلك أنه عندما تحدث الرسول ﷺ عن الفتن التي ستقع في آخر الزمان قال : ((إن بين الساعة لهرجاً)) فقال أبو موسى الأشعري ﷺ – راوي الحديث –: ما الهرج ؟ فقال الرسول ﷺ : ((القتل)) فقال بعض المسلمين : يا رسول الله إنّا نقتل في العام الواحد من المشركين كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : ((ليس بقتل المشركين ولكن يقتل بعضكم بعضاً حتى يقتل الرجل جاره وابن عمه وذا قرابته)) فقال بعض القوم : يا رسول الله ومعنا عقولنا ذلك اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((لا ، تنزع عقول أكثر ذلك الزمان ويخلف له هباء من الناس لا عقول لهم))[2] .

الشاهد من هذا الحديث : قول الصحابة رضوان الله عليهم : (ومعنا عقولنا ؟) فإن فيه دلالة على أنهم كانوا يرون أن صاحب العقل لا يفعل هذه الأمور التي ذكرها الرسول ﷺ في حديثه وهو نفس ما عناه الشعراء الجاهليون في أشعارهم بخصوص مدح العقل والعقلاء .

نخلص مما تقدم أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرون أن للعقل وصاحبه منزلة كبيرة ، وأن العقل نعمة عظيمة يهبها الله لمن يشاء وينزعها عمن يشاء ، وأن صاحب

---

(١) شرح صحيح مسلم ، النووي ، ١٦٩/١ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ .

(٢) رواه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب التثبت في الفتنة ، رقم الحديث ٣٩٤٩ ، صححه الألباني ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، ٣/ ٢٩٧ – ٢٩٨ .

العقل يعلم كيف يتصرف في الأمور الصعبة ، لأنه يزن الأمور في عقله وزناً دقيقاً بعيداً عن الهوى والتعصب ، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة .

ولكن لو تساءلنا : ما هو العقل الذي عناه الصحابة في ثنائهم هذا ؟

إن العقل الذي عناه الصحابة (هو البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة ومنه العقل عن الله تعالى)[1] .

ففي حديث أبي رزين العقيلي[2] الذي رواه عن النبي ﷺ : ((ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِهِ)) قال أبو رَزين : أو يضحك الرب ؟ قال : ((نعم)) قال : لن نَعْدَمَ من رب يضحك خيراً[3] .

علق ابن تيمية – رحمه الله - على هذا الحديث فقال : (فجعل الأعرابي العاقل بصحة فطرته ضحكه دليلاً على إحسانه وإنعامه)[4] .

اجتهاد الصحابة في الأمور الشرعية :

والصحابة رضي الله عنهم استعملوا عقولهم في كثير من الأمور التي جدّت عليهم ولم يكن لهم فيها مرجع ، وذلك أن وقوع هذه الأمور كان بعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع وحي السماء عن الأرض .

وهذا ما يسمى عند علماء أصول الفقه بالاجتهاد والقياس ، أي اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم في بعض الحوادث التي لم ينزل فيها حكم ، فقاسوا الأشباه بالأشباه ،

---

(١) مائية العقل ، المحاسبي ، ٢١٠ ، ت حسين القوتلي ، دار الكندي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ .

(٢) هو لقيط بن عامر بن المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري ، أبو رزين العقيلي ، وافد بني المنتفق ، ذهب بعض العلماء إلى أنه غير لقيط بن صبرة ، وذهب آخرون إلى أنهما واحد ، وقد رجح ابن حجر رحمه الله أنهما اثنان لأن لقيط بن عامر معروف بكنيته ، ولقيط بن صبرة لم يذكر كنيته . انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ٦٨٦/٥ ، ت علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(٣) رواه ابن ماجة ، المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ، رقم الحديث ١٧٧ ، حسنه الألباني ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، ٧٨/١ .

(٤) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ، ١٢١/٦ .

وناظروا الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك[1] .

قال ابن القيم – رحمه الله - : (وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض ويعتبرون النظير بنظيره . . . وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم يعنّفهم)[2] .

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت له اجتهادات وافق ربه سبحانه وتعالى فيها ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [وافقت ربي في ثلاث ، فقلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً ﴾[3] وآية الحجاب قلت : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ ﴾[4] فنزلت هذه الآية][5] .

وقد ذكر ابن القيم عدة اجتهادات للصحابة في زمن الرسول ﷺ:
منها : اجتهادهم رضي الله عنهم في صلاة العصر في بني قريظة فقد قال رسول الله ﷺ : ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)) فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي ، لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم[6] .

ومنها ما حدث مع علي رضي الله عنه عندما أُتي بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة في طهر واحد ، فسأل اثنين : أتقران لهذا بالولد ؟ قالا : لا ، حتى سألهم جميعاً ، فجعل كلما سأل اثنين قالا : لا ، فأقرع بينهم فألحق الولد بالذي صارت عليه القرعة وجعل عليه

---

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ، ٥٥١/٢ ، مكتبة ودار المدينة المنورة ، والدار التونسية ، ١٩٨٤م .
(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، ٢٠٣/١ .
(٣) البقرة : ١٢٥ .
(٤) التحريم : ٥ .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في القبلة ومن لم ير الإعادة على من سها ، رقم الحديث ٤٠٢ .
(٦) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب مرجع الرسول ﷺ من الأحزاب ، ٤١١٩ .

ثلثي الدية ، قال : فذكر ذلك للنبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه[(١)] .

ومنها قضاء سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة وحكمه فيهم باجتهاده ، فصوبه النبي ﷺ وقال : ((حكمت بحكم الله – أو بحكم الملك -))[(٢)] .

ومنها اجتهاد الصحابيين اللذين خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر ، فصوبهما الرسول ﷺ وقال للذي لم يعد : ((أصبت السنة وأجزأتك صلاتك)) وقال للآخر : ((لك الأجر مرتين))[(٣)] .

كانت هذه بعض الاجتهادات من الصحابة رضي الله عنهم في زمن الرسول ﷺ والتي أقرهم عليها ولم ينكر عليهم فيها ، فكان من الأولى أن يستعملوا عقولهم ويجتهدوا بعد موته ﷺ .

ومن أمثلة اجتهادهم رضوان الله عليهم بعد موته ﷺ ما يلي :

اجتهاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الكلالة عندما سئل عنها ، فقال : إني سأقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد[(٤)] .

وكذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب القضاء الذي بعث به إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : (ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق)[(٥)] .

---

(١) رواه أبو داوود ، كتاب الطلاق ، باب ما جاء في القرعة إذا تنازعوا في الولد ، رقم الحديث ١٩٣٣ ، صححه الألباني ، انظر : صحيح سنن أبي داوود ، ٤٢٨/٢ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه ، رقم الحديث ٣٨٠ .

(٣) رواه أبو داوود ، كتاب الطهارة ، باب في المتيمم يجد الماء بعدما يصلي في الوقت ، رقم الحديث ٤٨٦ ، صححه الألباني ، صحيح سنن أبي داوود ، ٦٩/١ .

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، ٨٢/١ .

(٥) المرجع السابق ، ٨٦/١ .

وعمر بن الخطاب ﷺ هو الذي أشار على أبي بكر الصديق ﷺ بجمع القرآن[1] .

وكذلك رأي عثمان بن عفان ﷺ في إفراد الحج عن العمرة ثم قال : (أنهيتُ الناس؟ إني لم أنه عنها – أي العمرة – إنما كان رأياً أشرت به ، فمن شاء أخذه ومن شاء تركه)[2] .

وكذلك اجتهاد عبدالله بن مسعود ﷺ في المفوضة[3] حيث قال : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريء منه ، أرى أن لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط ، ولها الميراث ، وعليها العدة ، فقام ناس من أشجع ، فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ قضى في امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق مثل ما قضيت به ، فما فرح ابن مسعود بشيء بعد الإسلام فرحه بذلك[4] .

وكذلك اجتهاد زيد بن ثابت ﷺ عندما سأله ابن عباس رضي الله عنهما عن زوج وأبوين ، فقال زيد : للزوج النصف وللأم ثلث ما بقي وللأب بقية المال ، فقال له ابن عباس : تجده في كتاب الله أو تقوله برأيك ، قال : أقوله برأيي ولا أفضل أماً على أب[5] .

وكذلك اجتهاد ابن عباس رضي الله عنهما في الأضراس حيث قاسها بالأصابع ، وقال : عقلها سواء ، اعتبروها بها[6] .

هذه بعض الأمثلة من اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم ، والتي جعلها العلماء فيما بعد عمدة لهم في أقضيتهم وأحكامهم .

وهذا يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم أعملوا عقولهم في بعض المسائل ولم يهملوها كما يزعم أعداؤهم ، فقد قايسوا واجتهدوا وحكموا في القضايا التي لم يأت فيها نص صريح من الكتاب أو السنة .

---

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ... ﴾ ، رقم الحديث ٤٦٧٩ .

(٢) أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٥٨/١ .

(٣) المفوضة : هي التي نكحت بلا مهر ، أو على أن لا مهر لها . التعريفات ، للجرجاني ، ٢٨٩ .

(٤) أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٨١/١ .

(٥) المرجع السابق ، ٢٠٥/١ .

(٦) المرجع السابق ، ٢٠٥/١ .

ولكن اجتهادهم هذا كان له قواعد أساسية وأركان ثابتة يسيرون عليها ، وهي أنهم كانوا يقيسون على غرار الكتاب والسنة ، ولم يكن أحدهم متبعاً لهواه في اجتهاد أبداً ، بدليل أنهم ذموا الرأي والقول على الله بلا علم ، فقد كانوا يرون استعمال العقل لكن دون إفراط ولا تفريط ، لذلك وردت لهم أقوال كثيرة في ذم الرأي منها :

قول أبي بكر الصديق ﷺ عندما سئل عن الأبّ في قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبّاً ﴾[(١)] قال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم[(٢)] .

وقول عمر بن الخطاب ﷺ : أصبح أهل الرأي أعداء السنن ، أعيتهم أن يعوها وتفلتت منهم أن يرووها فاستبقوها بالرأي[(٣)] .

وقول ابن مسعود ﷺ : لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي قبله ، أما إني لا أقول أمير خير من أمير ، ولا عام أخصب من عام ، ولكن فقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفاً ، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم[(٤)] .

وقول ابن عباس رضي الله عنهما : من أحدث رأياً في كتاب الله ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ لم يدر على ما هو منه إذا لقي الله عز وجل[(٥)] .

والآن نأتي إلى مناقشة سؤال قد يعرض للقارئ بعد قراءته لهذه النصوص الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم في ثنائهم على العقل وصاحبه واستعمالهم لعقولهم وآرائهم في بعض الأقضية ثم بعد ذلك يجدهم يذمون الرأي والأخذ به ، فيقول : ألا يكون هذا تعارضاً بين هذه النصوص ؟

أقول : إن ابن القيم رحمه الله قد رد هذا التعارض في (أعلام الموقعين)[(٦)] وبيّن أنه ليس هناك أي تعارض ، بسبب وجود الفرق بين الرأي الباطل الذي ليس من الدين ،

---

(١) عبس : ٣١ .
(٢) شرح الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ٢١٩ .
(٣) أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ١/٥٥ .
(٤) المرجع السابق ، ١/٥٧ .
(٥) المرجع السابق ، ١/٥٨ .
(٦) ١/٦٧ .

والرأي الحق الذي لا مندوحة عنه لأحد من المجتهدين .

وقد قسم رحمه الله الرأي إلى ثلاثة أقسام :

١- رأي باطل لا ريب فيه .

٢- رأي صحيح .

٣- رأي هو موضع الاشتباه .

فالصحابة رضي الله عنهم استعملوا الرأي الصحيح ، وعملوا به ، وأفتوا به ، وسوّغوا القول به ، وذموا الباطل من العمل والفتيا والقضاء به ، وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله ، والقسم الثالث سوّغوا العمل والفتيا به عند الاضطرار .

وبهذا يتبين لنا أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أثنوا على العقل السليم وصاحبه ، وأن للعقل عندهم مكانة كبيرة لأنه شرط في الأحكام التكليفية العلمية والعملية ، وأنهم يرون أن العاقل هو الذي يستطيع أن يتصرف بحكمة ويدير الأمور بحكمة ، لذلك فهم يجلونه ويحترمونه لرجاحة عقله ويكلون إليه ما صعب من المهمات ، لأنهم يعلمون أن الناس سينتفعون بعلمه وجهوده ، وأنه لا يصدر منه ما يشين أو يعيب .

وتبين لنا كذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يهملوا عقولهم فيما جدّ عليهم من أمور والتي كانت محتاجة إلى حكم ، وهذا لا يعني أن القرآن والسنة لم يفيا بمتطلبات المسلم ، كلا ، ولكن القرآن والسنة فصّلا في بعض الأحكام ، أما البعض الآخر فقد جاءا بالقواعد العامة الكلية لها ومن هذه القواعد تستنبط الأحكام ، واستنباط الأحكام يحتاج إلى عقلية واعية فذة تستطيع الاجتهاد وقياس الأمور بشبهها .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتمتعون بهذه العقلية ، مع أنهم كانوا يتفاوتون في درجة الذكاء إلا أن أكثرهم كان يصيب في اجتهاده وحكمه ، لذلك أخذوا بآرائهم في بعض المسائل ، مع أن هذه الآراء كان أصلها الكتاب والسنة .

وتبين لنا من خلال أخذهم بالرأي أنهم لم يسرفوا فيه بل إنهم ذموه لّما علموا أن الرأي قد يجعل المرء يستند إلى عقله في جميع أموره ويترك الكتاب والسنة ، وأنه ليس كل

الآراء صواب ، بل منها ما يخطئ لأنها صادرة من المخلوق لا من الخالق عز وجل، وفي هذا حل للإشكال الذي يرد على القارئ من وجود تعارض بين أقوال الصحابة في أخذهم بالرأي وذمهم له .

ويجب أن أذكر نقطة مهمة ، وهي أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يعملوا عقولهم في الأمور الغيبية التوقيفية ، فلم تكن آرائهم في تعطيل أسماء وصفات الله سبحانه وتعالى أو في نفي القدر أو في نفي عذاب القبر ونعيمه أو في اليوم الآخر وعلاماته، أو أن آرائهم كانت مخالفة للنصوص ولما علم بالاضطرار من دين الإسلام ، أو أنها كانت مبنية على الخرص أو الظن ، أو أنها أحدثت بدعاً في دين الإسلام .

اجتهاد الصحابة في الأمور الأخرى :

كذلك كان للصحابة اجتهادات في أمور أخرى كالأمور السياسية و الحربية والإدارية، فلو بدأنا بالخلفاء الراشدين وعرضنا بعض اجتهاداتهم لرأينا أن هذه الاجتهادات صارت فيما بعد أساساً لبناء قوي قامت عليه الدولة الإسلامية .

بدأ اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم في مسألة الخلافة من حين وفاة النبي ﷺ ، فقد حاز أبو بكر الصديق ؓ قصب السبق في ذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعله سبباً في نزول السكينة والطمأنينة على المسلمين الذين صدموا صدمة قوية بسبب وفاته ﷺ ، فقد استطاع برجاحة عقله أن يخطب في الناس فيقول قولته الشهيرة الخالدة بعد أن ذكر الله وأثنى عليه : [ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[1] وقال ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[2]][3].

هذه المقالة من أبي بكر ؓ بمثابة الدواء الشافي لجميع المسلمين اللذين أفقدتهم

(١) الزمر : ٣٠ .
(٢) آل عمران : ١٤٤ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (لو كنت متخذاً خليلاً) ، رقم الحديث ٣٦٦٧ .

الصدمة صوابهم فلم يصدقوا بالخبر ، وقد وصف هذا الموقف الصحابي الجليل عبدالله بن عباس ﷺ فقال : (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها)[1] .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقِرت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات)[2] .

وقد عدَّد القاضي الباقلاني[3] مناقب أبي بكر ﷺ قبل وفاة النبي ﷺ ثم قال : (على أنه لو يعلم جميع هذا من حاله ولم يتقدم له شيء مما ذكرنا من فضائله ومناقبه لكان ما ظهر منه بعد موت النبي ﷺ العلم والفضل والشدة في القول والفعل وتحصيل ما ذهب على غيره دلالة على اجتماع خلال الفضل والإمامة فيه ، . . . فأول ما ظهر من فضله وتسديد رأيه إعلام الناس موت رسول الله عمر وغيره ممن تشتت آراؤهم في موته وفجأتهم المصيبة بموته وما كان من قوله وفعله في ذلك . . . وهو في ذلك جلد العقل والمقالة)[4] .

ثم حدث الخلاف في مسألة الخلافة في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار ، فكان أبو بكر ﷺ سيد الموقف حيث خطب في الناس وبين فضل الأنصار وأنهم هم الوزراء والمهاجرين هم الأمراء ، وأمرهم بمبايعة عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهما ، فقال عمر ﷺ : بل نبايعك فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى

---

(١) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، رقم الحديث ٤٤٥٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هو القاضي أبو بكر ، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري ، ثم البغدادي ، ابن الباقلاني ، صاحب التصانيف ، وكان يضرب المثل بفهمه وذكائه ، وكان ثقة إماماً بارعاً ، صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرامية ، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري ، وقد سار إلى طاغية الروم رسولاً عن أمير المؤمنين وناظر النصارى هناك وأفحمهم ، من مؤلفاته : (الإبانة) (التمهيد) ، توفي سنة ٤٠٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٧/ ١٩٠ – ١٩٣ ، وشذرات الذهب ، عبد الحي الدمشقي ، ٢/ ١٦٨ – ١٧٠ .

(٤) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، الباقلاني ، ٤٨٧/١ ، ٤٨٨ .

رسول الله ﷺ ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس[1] .

ففي هذا الموقف تتبين حنكة أبي بكر السياسية وحكمته في إدارة الموقف وحل النزاع ، فكما بيّن الباقلاني فضله في المرة الأولى بعد وفاة النبي ﷺ بإدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين وذلك بتأكيده لموت الرسول ﷺ ، فقد ظهر فضله للمرة الثانية في حسم الخلاف بين المهاجرين والأنصار .

ويصف أحد الباحثين هذا الخلاف بأنه كان سياسياً محضاً وليس دينياً ، ولكن سرعان ما عاد عامل الدين بسلطانه القوي فأدى دوره في تهيئة النفوس والمبايعة لأبي بكر[2] .

وكانت لأبي بكر ﷺ اجتهادات قوية أثناء خلافته تدل على قوة عقله وعمق تفكيره حتى أنه خالف بآرائه الصائبة جماعة المسلمين ثم أقروا بفضله وبصواب رأيه ، وذلك مثل إصراره على إنفاذه جيش أسامة بن زيد ﷺ ، وعلل ذلك بأنه لا ينقض عقداً عقده رسول الله ﷺ .

وكذلك حربه لأهل الردة الذين امتنعوا عن دفع الزكاة بمجرد موت الرسول ﷺ ، وكلا هذين الأمرين كان يعترض عليه عمر بن الخطاب ﷺ ثم يعلم أن الحق مع أبي بكر فيسلّم له[3] .

ولو استرسلت في ذكر مآثر أبي بكر ﷺ وحسن تصرفه وتدبيره للأمور لأخذ ذلك منا الوقت الكثير ، ولكن الهدف هو إثبات حنكته ﷺ في الأمور السياسية واجتهاده فيها ، وأن هذه الاجتهادات كانت صائبة موفقة بتوفيق الله له .

وقبل أن يموت أوصى لعمر بن الخطاب ﷺ بالخلافة وهذا من أفضل أعماله التي عملها وأصوب آرائه التي رآها .

ويعلل الدكتور مصطفى حلمي ذلك بأن الصديق تذكر ما حدث في اجتماع السقيفة

---

(١) رواه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبي ﷺ : ((لو كنت متخذاً خليلاً)) ، رقم الحديث ٣٦٦٧ .

(٢) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، مصطفى حلمي ، ٢٨ ، دار الأنصار ، مصر .

(٣) انظر : تمهيد الأوائل ، الباقلاني ، ١/٤٩٠ ، ٤٩١ .

وخشي على المسلمين إذا تركهم دون ولي من أن ينفرط عقد الجماعة بصورة أخطر مما تمت عقب وفاة الرسول ﷺ ، لأن الاختلاف حينئذ كان محصوراً بين المهاجرين والأنصار ولكن المسلمين في عهده انتشروا يجاهدون في العراق والشام ويواجهون فارس والروم فإذا استخلف وجمع كلمة المسلمين على من استخلفه فقد اتقى ما يخشى[(١)] .

ثم إذا نظرنا في حال عمر بن الخطاب ﷺ وهو الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين المهديين ، والذي أوصى الرسول ﷺ باتباع سنتهم بعد سنته والعض عليها بالنواجذ ، لوجدنا له مواقف مشرفة تنبئ عن عقلية فذة قوية متصفة بعمق التفكير وصوابه والنظر إلى عواقب الأمور .

فهو أول من أرخ بالتاريخ الهجري حيث كان الناس يؤرخون بعام الفيل[(٢)] ، وهو أول من دوَّن الدواوين وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم العطاء[(٣)] .

قال عنه أحد الباحثين : وندر في الدولة الإسلامية من نظام لم تكن له أولية فيه فافتتح تاريخاً ، واستهل حضارةً ، وأنشأ حكومةً ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة ، واتخذ لها بيت مال ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شيء في الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذي يحسن به الابتداء ،فأوجز ما يقال فيه أنه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبني عليه[(٤)] .

ثم إنه أقام نظاماً للشورى ، جمع له نخبة من الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، ولم يجعلهم عمالاً على أطراف الدولة ، خوفاً عليهم وتنزيهاً لأقدارهم وانتفاعاً برأيهم[(٥)] .

وعندما حضرته الوفاة جمعهم ليجعل أمر الخلافة بعده شورى بينهم ، وأمرهم بأن

---

(١) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، مصطفى حلمي ، ٤٦ .
(٢) انظر : تاريخ الطبري ، ١/١٢٠ ، ٢/ ٤-٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ٣/٥٣٣ .
(٤) عبقرية عمر ، عباس محمود العقاد ، ١٠١ ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
(٥) انظر : المرجع السابق ، ١٠٢ .

يجعلوا من يلي الأمر بعده أن يستعين بسعد ابن أبي وقاص ﷺ – وكان أحدهم- في ولايته إن لم يؤمر سعد[1] .

ويكفينا في الدلالة على قوة وصواب رأيه وعقله ما كان منه في قصة البطاقة التي أرسلها إلى نيل أهل مصر يتحداه فيها بقدرة الله سبحانه وتعالى عليه ، وقد كانت لهذا النيل سنَّة لا يجري إلا بها ، وهي أنهم كانوا يأخذون جاريةً بكراً بين أبويها ويجعلون عليها شيئاً من الحلي والثياب ثم يلقونها فيه ، فلما علم عمر بن الخطاب بذلك أبطل هذه السنة وأرسل إلى النيل ببطاقة كتب فيها (من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد ، فإن كنت تجري من قِبَلِك فلا تجر ، وإن كان الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك) فأجراه الله ستة عشر ذراعاً ، وقطع تلك السنَّة السوء عن أهل مصر[2] .

ولو نظرنا إلى الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ وما كان من جمعه للمصحف الشريف على قراءة واحدة ولغة واحدة وهي لغة قريش ، وقد كان سبب هذا الجمع هو ما شهده الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ من نزاع بين أهل الشام في قراءاتهم للقرآن ، فأرسل عثمان رضي الله عنه إلى زوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر رضي الله عنهما لترسل إليه بالصحف التي عندها ففعلت ، فنسخوا المصاحف وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أن يحرق وهذا من أعظم أعماله[3] .

وهو أول خليفة أذن للمسلمين بركوب البحر للجهاد في سبيل الله ، بقيادة معاوية بن

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان ، رقم الحديث ٣٧٠٠ .

(٢) انظر : شرح أصــول اعتقاد أهل السنــة ، اللالكائي ، ٩/ ١٢٦ - ١٢٧ ، والبداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٠ / ٩٦ - ٩٧ ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، البشاري ، ١٧٦ ، ت محمد مخزوم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م . وجامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل ، السيوطي ، ١/ ٤٤٤ - ٤٤٥ ، ت صقر أحمد عباس ، ط محمد هاشم الكتبي بدمشق .

(٣) انظر : صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ، رقم الحديث ٤٩٨٧ .

أبي سفيان ﷺ ، وقد أمره عثمان ﷺ أن لا ينتخب أحداً ولا يقرع بين الناس ، وأنه يجب عليه أن يخيِّرهم فمن اختار طائعاً فيجب إعانته وحمله ، وبذلك ازدادت رقعة الفتوح الإسلامية في عهده ﷺ (١) .

أما علي بن أبي طالب ﷺ وهو الخليفة الراشد الرابع فقد كانت له أقوال خالدة في مدح العقل والعقلاء ، ولو نظرنا في أموره واستعماله لعقله لكان يكفينا على ذلك شاهداً مناظرته للخوارج مع ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد كانت نتيجة هذه المناظرة رجوع كثير من الخوارج عن آرائهم ، فأمرهم علي ﷺ باعتزاله في حرب من بقي منهم على رأيه (٢) .

وعلي بن أبي طالب ﷺ هو أول واضع لعلم النحو ، وذلك أنه لما دخل عليه أبو الأسود الدؤلي رآه مفكراً فسأله : فيم تفكر ؟ قال : إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية ، قال أبو الأسود : إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة .

ثم رجع أبو الأسود إلى علي ﷺ بعد ثلاثة أيام فألقى إليه صحيفة فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل) ثم قال : واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، ثم قال : تتبعه وانح نحوه وزد فيه (٣) .

---

(١) تاريخ الطبري ، ٦٠١/٢ .

(٢) انظر : خصائص علي ، أحمد بن شعيب النسائي ، ١٩٦ — ٢٠٠ ، ت أحمد البلوشي ، مكتبة المعلا ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ . وتاريخ الطبري ، ٣/ ١٠٩ — ١٢٠ . انظر : لوامع الأنوار البهية ، السفاريني، ٣٥٣/٢ .

(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية ، السفاريني ، ٣٥٣/٢ ، وذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، الأكفاني ، ٥٨ - ٥٩ ، ت عبدالله الحمد ، دار العاصمة الرياض ط ١ ، ١٤٠٩هـ . وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٨٢/٤ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٧٦/١ . وقيل أن أول من وضع علم النحو أبو الأسود نفسه، انظر : انظر : أخبار النحويين ، عبدالواحد بن أبي هاشم ، ٢٠ ، ٢٣ ، ت مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط ١ ، ١٤١٠هـ .

ثم إنه لو استعرضت مواقف للصحابة رضوان الله عليهم أعملوا فيها عقولهم، فخرجوا من وراء ذلك بآراء صائبة موفقة لوجد منها الكثير ، ولكن أكتفي بذكر بعضها للدلالة على عمق تفكيرهم وحسن تصرفهم في الأمور :

أولاً : موقف الحباب بن المنذر ﷺ في غزوة بدر الكبرى ، حيث أن الرسول ﷺ اتخذ موقعاً ليعسكر فيه هو وجيشه ، فقال له الحباب ﷺ : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره أم هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال رسول الله ﷺ : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) ، فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما سواه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فتملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : (لقد أشرت بالرأي)[(١)] .

ثانياً : ما أشار به سعد بن معاذ ﷺ في تلك الغزوة بأن يتخذ الرسول ﷺ عريشاً ليحميه ، فقال : يا رسول الله نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك مما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد حباً لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيراً ودعا له بخير ، ثم بُنِيَ لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه[(٢)] .

ثالثاً : ما أشار به سلمان الفارسي ﷺ في غزوة الأحزاب من خندق يحصن المدينة من جهتها المكشوفة[(٣)] .

رابعاً : ما كان من نُعَيم بن مسعود ﷺ من خداعه للمشركين في هذه الغزوة وتشتيته

---

(١) سيرة ابن هشام ، ٣/ ١٦٧ – ١٦٨ ، ت طه عبدالرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ . وانظر : تاريخ الطبري ، ٢/ ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٦٨ ، وانظر : تاريخ الطبري ، ٢/ ٢٩ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ٤/ ١٨٢ .

لجموعهم ، وهم لم يعلموا بإسلامه أثناء المعركة[1] .

خامساً : كذلك ما كان من أم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية ، وذلك أنه بعد انعقاد الصلح بين الرسول ﷺ ومشركي مكة ، أمر الرسول أصحابه بأن ينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم وكرر ذلك ثلاثاً ، فلم يقم منهم أحد ، فدخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها وهو مغتمٌّ بذلك ، فقالت له : يا نبي الله أتحب ذلك ، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فأخذ بمشورتها ﷺ ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً[2] .

سادساً : حسن تصرف خالد بن الوليد ﷺ في غزوة مؤته عندما اشتد القتل في المسلمين وخاصة الأمراء الذين أمَّرهم الرسول ﷺ على هذه الغزوة ، ولم يكن خالد بن الوليد ﷺ منهم ، فاصطلح الناس عليه ، فأخذ الراية ودافع القوم حتى سحب الجيش وانصرف به إلى المدينة ، فقابلهم الناس فقالوا : يا فرار في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله)[3] .

وكذلك حسن تصرفه ﷺ في فتح دمشق في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، وذلك عندما اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً[4] لتسلق الحصن ، ثم أنه رمى بالأوهاق الشرف فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي[5] رضي الله عنهما فثبّتا

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٩٠/٤ .

(٢) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، رقم الحديث ٢٥٢٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ٥/ ٣٢ – ٣٣ ، وتاريخ الطبري ، ١٥٢/٢ .

(٤) الأوهاق : جمع وهق وهو الحبل المغار يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان ، والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها مثل عقدة التكة . انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ٣/ ٩٩٣ و ٦٣٩ .

(٥) هو مذعور بن عدي العجلي ، شهد اليرموك بالشام وفتوح العراق ، وله وفادة على النبي ﷺ وصحبة ، وقدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته هو والمثنى بن حارثة ، واستأذناه في غزو أهل فارس وقتالهم ، وأن يتأمرا على من لحق بهما من قومهما ، فأذن لهما . انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ٦٣/٦ .

الجبال ، وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق فقد كان كثير الماء ومدخله شديد ، ولكن بذكاء خالد بن الوليد وحنكته الحربية استطاع المسلمون فتح دمشق بهذه المكيدة(١) .

سابعاً : ما كان من عمرو بن العاص ﷺ من خديعة لأرطبون الروم في أجنادين وقد كان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً ، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً وبإيلياء كذلك ، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالخبر ، فردَّ عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمن تنفرج ، فأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، وقال أرطبون في نفسه : والله إن هذا لعمرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ، ثم دعا حرسياً فساره بقتله إذا خرج ، ففطن عمرو لذلك فقال : قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلتَه فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك ، فأمر الأرطبون أحد رجاله سراً بعدم قتل عمرو طمعاً فيمن ذكرهم له ، فخرج من عنده عمرو سالماً وقد عرف مأخذه وعاقبته فحاربه فهزمه(٢) .

وبهذا يتبين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتحلون بالعقل والذكاء وحسن تدبير الأمور والتصرف فيها ليقينهم بحسن العواقب والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر : تاريخ الطبري ، ٣٥٨/٢ .

(٢) انظر : تاريخ الطبري : ٤٤٧/٢ .

المبحث الثاني

موقف التابعين وتابعيهم من العقل

التابعون هم تلامذة الصحابة رضوان الله عليهم الذين حملوا مشكاة الهدى بعدهم، وبلّغوا هذا الدين للناس أحسن تبليغ ، وبنفس المنهج الذي سار عليه الصحابة بعد رسول الله ﷺ .

فالتابعي هو كل من صحب الصحابي ومطلقه مخصوص بالتابعي بإحسان ، ولهم طبقات بالنسبة إلى من اجتمع بعشرة أو ثلاثة من الصحابة وبالعلم والزهد وغير ذلك[(١)] .

قال ابن القيم : (وألقوا – أي الصحابة – إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصاً صافياً ، وكان سندهم فيه عن نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً ، وقالوا هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدناه إليكم ، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم ، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهجهم القويم ، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم)[(٢)] .

وذلك أنهم لازموا الصحابة في كل الأمصار التي نزحوا إليها فتعلموا منهم ، فكانوا أخير الأمة بعد الصحابة رضوان الله عليهم وأكثرها علماً وعملاً وعقلاً ، وأشدها تمسكاً بالدين لأنهم ساروا على قواعده ونصوصه ، فكانت نتيجة ذلك عقولاً نيرة تعلم الأحكام وعلى من تنطبق ومتى تطبق .

وتابع التابعي هو الذي رأى التابعي بإحسان واقتدى به ولم ير الصحابي .

وقد مدح الله سبحانه في كتابه الكريم هؤلاء التابعين وتابعيهم ووعدهم بالجنة ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ

---

(١) انظر :لوامع الأنوار البهية ، السفاريني ، ٣٨٩/٢ .

(٢) أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٦ / ١ .

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] فهذه الآية تبين فضلهم الكبير ، وتشير إلى أنهم يأتون بعد مرتبة الصحابة في الفضل والرسوخ في العلم والعمل والعقل .

قال الطبري في معنى هذه الآية : (رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه وإيمانهم به وبنبيه عليه الصلاة والسلام وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ويدخلونها خالدين فيها لابثين فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ذلك الفوز العظيم)[2] .

وكذلك قال سبحانه في مدحهم والثناء عليهم ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾[3] .

وقال ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[4] .

وقال ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[5] .

وهذه الآيات تشمل التابعين بإحسان وتابعيهم ومن أتى بعدهم متبعاً منهجهم إلى يوم الدين .

وقال رسول الله ﷺ : ((خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم))[6] .

فيتبين مما سبق أن للتابعين رحمهم الله مكانة كبيرة وعالية ، وعلى هذا فإنه لا بد لهم من موقف صائب صحيح من العقل يتحلون به ، فلنستمع أولاً إلى أقوالهم عن العقل :

---

(١) التوبة : ١٠٠ .
(٢) تفسير الطبري ، ١١/٩ .
(٣) الأنفال : ٧٥ .
(٤) الحشر : ١٠ .
(٥) الجمعة : ٣-٤ .
(٦) رواه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على جواز إذا أشهد ، رقم الحديث ٢٦٥٢ – ٢٦٥١ .

أقوالهم عن العقل :

للتابعين أقوال في الثناء على العقل وصاحبه تدل على أهميته ومكانة صاحبه ، منها:

قول الأحنف بن قيس(١) : (أنا للعاقل المُدْبِر أرجى مني للأحمق المُقْبِل)(٢) .

وقول الشعبي(٣) : (إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خصلتان العقل والنسك فإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً قال : هذا أمر لا يناله إلا العقلاء ، فلم يطلبه ، وإن كان عاقلاً ولم يكن ناسكاً قال : هذا أمر لا يناله إلا النساك ، فلم يطلبه ، ولقد رهبت أن يكون يطلبه اليوم من ليست فيه واحدة منهما لا عقل ولا نسك)(٤) .

وقيل للقاسم بن محمد بن أبي بكر(٥) : إنه قبيح على مثلك عظيم أن تسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج أو علم ولا مخرج ، قال القاسم : (أقبح من ذلك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة)(٦) .

وقال الحسن البصري : (لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكر ،

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين الأمير الكبير والعالم النبيل أبو بحر التميمي أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل ، اسمه الضحاك وقيل صخر واشتهر بالأحنف لحنف رجليه وهو العوج والميل ، كان سيد تميم أسلم في حياة النبي ﷺ ، ووفد على عمر ، كان ثقة مأموناً قليل الحديث ، توفي سنة ٦٧هـ وقيل ٧١هـ .انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤ / ٨٦ – ٩٧ .

(٢) المنتقى المفيد من العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، صالح بن علي السلمي التميمي ، ١/ ٣١٠ ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(٣) هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار – وذوكبار : قيل من أقيال اليمن – الإمام علامة عصره أبو عمرو الهمداني ثم الشعبي ، ويقال : هو عامر بن عبدالله ، قال عنه مكحول : ما رأيت أحداً أعلم من الشعبي ، وقال أبو الحصين : ما رأيت أحداً قط كان أفقه من الشعبي ، وكان حافظاً ، قال العجلي : سمع الشعبي من ثمانية وأربعين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقال : ولا يكاد يرسل إلا صحيحاً ، توفي ما بين عام ١٠٣هـ وعام ١٠٦هـ . سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ٢٩٤ – ٣١٩ .

(٤) سنن الدارمي ، كتاب المقدمة ، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله ، رقم الأثر ٣٧١ ، ت فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ .

(٥) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، أبو محمد أو أبو عبدالرحمن المدني ، من سادات التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكان أفضل أهل زمانه ، وكان ثقةً رفيعاً عاليا فقيهاً إماماً كثير الحديث ورعاً ، توفي سنة ١٠٨هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٤/ ٥٩ – ٦٠ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٤٤/١ والطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٩٣/٥ .

(٦) رواه مسلم ، المقدمة ، باب بيان أن الإسناد من الدين وإن الرواية لا تكون إلا عن الثقات ، ص ١١ .

فإن كان له قال ، وإن كان عليه سكت ، وقلب الأحمق من وراء لسانه فإذا أراد أن يقول قال ، فإن كان له سكت ، وإن كان عليه قال)[1] .

قال عباد بن عباد الخواص الشامي[2] في رسالته : (أما بعد اعقلوا ، والعقل نعمة ، فربَّ ذي عقل قد شغل قلبه بالتعمق عما هو عليه ضرر عن الانتفاع بما يحتاج إليه حتى صار عن ذلك ساهياً ، ومن فضل عقل المرء ترك النظر فيما لا نظر فيه حتى لا يكون فضل عقله وبالاً عليه في ترك منافسة من هو دونه في الأعمال الصالحة)[3] .

وقال الشافعي : (لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس ، صرف إلى الزهاد)[4] .

وقال : (العاقل من عَقَلَهُ عَقْلُهُ عن كل مذموم)[5] .

هذه الأقوال من التابعين تدل على أنهم كانوا يعتبرون العقل أحد وسائل العلم والمعرفة ، ويرون أن صاحب العقل له مكانة كبيرة لذلك فهم يرجون منه ما لا يرجون من غيره ، ويرون أنه يتحلى بصفات حميدة منها : التقوى التي لا تكون إلا من عاقل واعٍ متوهج بنور الإيمان ، وأنه لا يقول على الله بلا علم مهما كانت الظروف والأحوال ، ولا يأخذ إلا عن ثقة ، ولايتكلم إلا بعد تفكير بما سيخرج من فمه ، مع علمه بالوقت الذي يتكلم فيه .

ومن هذه الأقوال أيضاً يتضح لنا أن التابعين يحثون الناس على التحلي بخصلة العقل لأنها خصلة حميدة ترشد الإنسان إلى حسن العاقبة إذا استخدمت على المنهج الصحيح .

موقف التابعين وتابعيهم من الرأي :

عندما انتشر الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار بعد الفتوحات الإسلامية ، تبعهم تلامذتهم من التابعين وتعلموا منهم ، فتباعدت بسبب ذلك العلوم والآراء بتباعد

(١) المنتقى المفيد من العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ، ت صالح التميمي ، ٣٠٨/١ .

(٢) هو عباد بن عباد الخواص الشامي ، كان صاحب أحوال وكرامات ، توفي سنة ١٦٢هـ .انظر : النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، ٤٣/٢ .

(٣) سنن الدارمي ، كتاب المقدمة ، باب رسالة عباد بن عباد الخواص الشامي ، رقم الأثر ٦٤٩ .

(٤) سير الأعلام ، الذهبي ، ٩٨/١٠ .

(٥) المصدر السابق ، ٩٨/١٠ .

الأمصار واختلافها في العادات والمسائل والمشاكل السائدة في بيئاتها وظهرت من جراء ذلك ألوان مختلفة من الاجتهاد في الفكر الفقهي الذي يتحرى العمل بما يوافق الكتاب والسنة ، ولكن مع هذا ظهرت بعض العناصر التي تقدم آراءها على الكتاب والسنة بحجة أن العقل لا يقبل إلا ما يفهمه .

لذلك فإن التابعين ذموا الرأي المخالف للكتاب والسنة كثيراً في أقوالهم ، منها : قول مسروق[(١)] : (من يرغب برأيه عن أمر الله يضل)[(٢)] .

وقال أبو وائل شقيق بن سلمة[(٣)] : (إياك ومجالسة من يقول : أرأيت أرأيت)[(٤)] .

وقال عروة بن الزبير : (مازال أمر بني إسرائيل معتدلاً حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم ، فأخذوا فيهم بالرأي ، فأضلوهم)[(٥)] .

وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن[(٦)] للحسن البصري : (بلغني أنك تفتي برأيك ، فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ)[(٧)] .

---

(١) هو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبدالله بن مر بن سلمان بن معمر بن الحارث بن سعد بن عبدالله بن وداعة بن عمر بن عامر بن ناشج بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان ، الإمام القدوة العلم أبو عائشة الوادعي الهمداني الكوفي ، وعداده في كبار التابعين وفي الخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ ، كان ثقة وله أحاديث صالحة ، توفي سنة ٦٣هـ .انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٨٣/٦ ، شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٧١/١ ، سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ٦٣ – ٦٩ ، طبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٢١/١ .

(٢) أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٧٨/١ ، ورواته كلهم ثقات .

(٣) هو شقيق بن سلمة الإمام الكبير شيخ الكوفة ، أبو وائل الأسدي أسد خزيمة الكوفي ، مخضرم أدرك النبي ﷺ ولم يره ، وكان أعلم أهل الكوفة بحديث ابن مسعود ، ولم يسب إنساناً قط ولابهيمة وكان رأساً في العلم والعمل ، توفي سنة ٨٢هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ١٦١ – ١٦٦ .

(٤) أعلام الموقعين ، ابن القيم ،٧٤/١ .

(٥) أعلام الموقعين ، ٧٤/١ ، ورواته كلهم ثقات .

(٦) هو أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف بن عبدعوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب القرشي الزهري ، الحافظ أحد الأعلام بالمدينة ، قيل اسمه عبدالله ، وقيل إسماعيل ، كان إماماً ثقة فقيهاً كثير الحديث ، وكان رجلاً صبيحاً ، توفي سنة ٩٤هـ . سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ٢٨٧ – ٢٩٢ .

(٧) أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٧٤/١ .

وقال أبو الزناد[1] : (إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيراً على خلاف الرأي فما يجد المسلمون بداً من اتباعها من ذلك أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة)[2] .

وعندما روى وكيع بن الجراح[3] حديث إشعار الرسول ﷺ للهدي قال : (لا تنظروا إلى قول إهل الرأي في هذا فإن الإشعار سنَّة وقولهم بدعة) وذلك أن أهل الرأي قالوا : أن الإشعار مُثْلة[4] .

وقد بيَّن ابن القيم رحمه الله أن الأئمة الأربعة كانوا يقدمون الحديث المرسل والضعيف على الرأي والقياس ، فعندما ذكر الأصل الرابع من أصول فتاوى الإمام أحمد في (أعلام الموقعين) ، قال : (الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف[5] ، إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه ، وهو الذي رجحه على القياس ، . . . وليس أحد من الأئمة إلا وهو موافِقُهُ على هذا الأصل من حيث الجملة ، فإنه ما منهم أحد إلا وقدم الحديث الضعيف على القياس ، فقدم أبو حنيفة حديث القهقهة في الصلاة على محض القياس ، وأجمع

---

(١) هو أبو الزناد عبدالله بن ذكوان الإمام الفقيه الحافظ المفتي أبو عبدالرحمن القرشي المدني ، ويلقب بأبي الزناد ، كان من علماء الإسلام ومن أئمة الاجتهاد ، قال عنه أبو حاتم : ثقة فقيه صالح الحديث ، صاحب سنة ، وهو ممن تقوم به الحجة إذا روى عنه الثقات ، توفي سنة ١٣٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، ٥/ ٤٤٥ – ٤٥١ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الصوم ، باب الحائض تترك الصلاة والصوم ، ص ٣١٤ .

(٣) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس الؤاسي الكوفي أبو سفيان ، محدث العراق ، ثقة متقن ورع ، كان يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليلة ، قال عنه أحمد : ما رأيت رجلاً قط مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد والأموات مع خشوع وورع ، توفي سنة ١٩٧هـ . انظر : طبقات الحنابلة ، أبو يعلى ، ١/ ٣٩١ – ٣٩٢ ، ت محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت ، والنجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، ١٥٣/٢ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٤٩/١ – ٣٥٠ .

(٤) رواه الترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء في إشعار البدن ، رقم الحديث ٨٣٠ ، وهو صحيح ، انظر : صحيح سنن الترمذي ، الألباني ، ٤٦٧/١ .

(٥) ليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا ما في روايته متهم بحيث لا يسوغ الذهاب إليه فالعمل به ، بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحسن ، ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف ، بل إلى صحيح وضعيف ، وللضعيف عنده مراتب ، فإذا لم يجد في الباب أثراً يدفعه ولا قول صاحب ، ولا إجماع على خلافه كان العمل به عنده أولى من القياس . أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٣١/١ .

أهل الحديث على ضعفه . . . وقدم الشافعي تحريم صيد وجٍ [1] مع ضعفه على القياس . . . وأما مالك فإنه يقدم الحديث المرسل والمنقطع والبلاغات وقول الصحابي على القياس) [2] .

وقال في موضع آخر : (وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي ، وعلى ذلك بنى مذهبه) [3] .

ومع ذلك فقد كانوا يعملون عقولهم ويجتهدون في المسائل التي جدت على الأمة ولم يرد فيها نص مباشر بشرط أن يكون هذا الاجتهاد موافق للكتاب والسنة ، فإعمالهم للعقل وذمهم للرأي ليس تناقضاً منهم ، وذلك أن ذمهم إنما كان للرأي الباطل الذي لا يستند إلى كتاب ولا سنة ، كذلك كان ذمهم للرأي في الأمور التوقيفية التي يجب أن يُسَلِّم فيها العقل للوحي ولا مجال للاجتهاد فيها أبداً وهي الأمور العقدية الغيبية ، وذلك أنهم كانوا يحاربون البدع وينهون عنها ولم يصدر عن أحدهم بدعة أو إحداث في دين الله أبداً ، أي إن التابعين رحمهم الله كانوا يقفون تجاه العقل موقفاً سليماً محايداً فهم لا يقدمونه على النصوص ولا يجعلونه حاكماً عليها أبداً .

شخصيات من التابعين :

كثير من التابعين وتابعيهم رحمهم الله أجمعين وُصفوا بالعقل وكانت لهم مواقف وأقوال تدل على رجاحة عقولهم وقوة تفكيرهم ، وتدل كذلك على أنهم أعملوا عقولهم فيما أمرهم الله ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، وأنهم لم يهملوا الكتاب والسنة ولم يجعلوا العقل في منزلة أعلى منهما ، من هذه الشخصيات :

أولاً : سعيد بن المسيب: (٩٤هـ)

هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب ، الإمام العلم ، أبو محمد القرشي

---

(١) وج : وهي وادٍ قبل الطائف . انظر تخريجه في مسند الإمام أحمد ، ١/١٦٥ ، وهو ضعيف الإسناد . انظر : النسخة المحققة ، ٣/٣٢ .

(٢) إعلام الموقعين ، ابن القيم ، ١/٣١ ، ٣٢ .

(٣) المرجع السابق : ١/٧٧ .

المخزومي ، عالم أهل المدينة ، وسيد التابعين في زمانه[(١)] ومن أفضلهم[(٢)] ، وهذه الأفضلية كانت في علومه الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ، ونفع الأمة بذلك وبما بلغه عن الصحابة الكرام عن النبي ﷺ ، فإنه الإمام الحافظ الثقة المأمون[(٣)] .

فقد كان رحمه الله غزير العلم راجح العقل ، وكان يقال ليس أحد أعلم بكل ما قضى به عمر وعثمان منه ، بل قيل فيه أنه راوية عمر لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته ، وهذا يدل على ذكائه وفطنته وقوة حفظه ، فإنه من غزارة علمه كان يفتي وأصحاب رسول الله أحياء ، وكان رأس من بالمدينة في دهره المقدم عليهم في الفتوى ، وكان فقيه الفقهاء ، وعالم العلماء[(٤)] .

وكان عبدالله بن عمر إذا سئل عن الشيء يشكل عليه قال : (سلوا سعيد بن المسيب فإنه قد جالس الصالحين)[(٥)] . وكان عمر بن عبدالعزيز لا يقضي بقضاء حتى يسأله)[(٦)] .

وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجريء ، وذلك لجرأته على الفتوى وأصحاب رسول الله ﷺ حاضرون ، وهذه الجرأة محمودة لأنها تنبع من غزارة العلم وسعته كما ذكر ذلك ابن القيم ، فقد كان الرجل في زمانه إذا دخل يسأل يدفع عن مجلس إلى مجلس حتى يصل إلى مجلس سعيد[(٧)] .

وقد كانت له ذاكرة قوية ، فقد سأل سعيد رجلاً عن نسبه فانتسب له فقال سعيد : (لقد جلس أبوك إليَّ في خلافة معاوية فسألني عن كذا وكذا ، وفعلت كذا وكذا) قال الرجل : (والله ما أراه مر على أذنه شيء قط إلا وعاه قلبه يعني سعيد بن المسيب)[(٨)] .

---

(١) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٤/ ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٥ .و الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١١٩/٥ .
(٢) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٢١٨/٤ ، البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤٧١/١٢ .
(٣) لوامع الأنوار البهية ، السفاريني ، ٣٩٠/٢ .
(٤) انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٢٠/٥ - ١٢١ ، سير الأعلام ، الذهبي ، ٢٢٢/٤ .
(٥) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٤١/٥ .
(٦) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٢٢/٥ ، والبداية والنهاية ، ٤٧٣/١٢ .
(٧) انظر : أعلام الموقعين ، ابن القيم ، ٣٥/١ .
(٨) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٢٢/٥ .

ومن علمه أنه كان أعبر الناس للرؤيا ، وكان يرى أن آخر الرؤيا أربعون سنة ، يعني في تأويلها[1] .

وقد كان له رأي في الإمامة ، وهو أن الخليفة ليس له حق في الخلافة إلا بعد اجتماع الناس على ذلك ورضاهم ، ووقف موقفاً صلباً ثابتاً نحو هذه القضية ، وقد واجه بسبب موقفه هذا العنت الشديد ، ولكنه ثبت على آرائه .

فعندما بويع عبدالله بن الزبير ﷺ استعمل جابر بن الأسود بن عوف الزهري[2] على المدينة فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير ، فقال سعيد بن المسيب : لا حتى يجتمع الناس[3] .

وكما كان له رأي في كيفية تولي الإمام للإمامة ، كذلك كان له رأي في أخذ البيعة لولاية العهد ، فعندما عقد عبدالملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان ، وعامله يومئذ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي[4] ، فدعا الناس إلى البيعة لهما فبايع الناس ، ودعا سعيد بن المسيب أن يبايع لهما ، فأبى وقال : حتى أنظر[5] .

وهذا الموقف السياسي للإمام لم يكن منطلقه عداء شخصي ، أو منازعة على سلطة، وإنما كان منطلقه شرعي بحت ، فهو يرى عدم جواز البيعة لأحد ما دام الخليفة

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٢٤/٥ — ١٢٥ .

(٢) هو جابر بن الأسود بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشي الزهري ، عمه عبدالرحمن بن عوف بن عبدالحارث ، ولي المدينة لابن الزبير ، وجلد سعيد بن المسيب في بيعة الزبير ، فنهاه الزبير عن ذلك ، وجابر هذا تزوج الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، فوبخه سعيد بن المسيب على ذلك، ثم مكث يسيراً حتى قتل ابن الزبير . انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير ، ٨٧/١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان . والطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٥/ ١٢٢ — ١٢٣ .

(٣) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٢٢/٥ .

(٤) هو هشام بن إسماعيل بن الوليد المخزومي ، وقيل بن المغيرة المخزومي ، وكان حما عبدالملك بن مروان ونائبه على المدينة ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب لأنه لم يبايع ، ثم قدم دمشق فمات بها ، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق ، توفي سنة ٨٨هـ . انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤١٧/١٢ .

(٥) انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٢٦/٥ .

حياً ، واستدل على ذلك بحديث لرسول الله ﷺ قال فيه : ((إذا كانتا بيعتين في الإسلام ، فاقتلوا الأحدث منهما))[(١)(٢)] .

وكان يصدع بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم ، قيل له ذات مرة : ما شأن الحجاج لا يبعث إليك ولا يحركك ولا يؤذيك ؟ قال : (والله لا أدري إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد فصلى صلاة فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها فأخذت كفاً من حصىفحصبته بها) فقيل أن الحجاج قال : ما زلت بعد ذلك أحسن الصلاة[(٣)] .

ثانياً : عمر بن عبد العزيز: (١٠١ هـ)

هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد أمير المؤمنين الخليفة الراشد[(٤)] .

قال عنه الذهبي : (قد كان هذا الرجل حسن الخَلْقِ والخُلُق ، كامل العقل ، حسن السمت ، جيد السياسة ، حريصاً على العدل بكل ممكن ، وافر العلم ، فقيه النفس ، ظاهر الذكاء والفهم ، أواهاً منيباً ، قانتاً لله ، حنيفاً زاهداً مع الخلافة ، ناطقاً بالحق مع قلة المعين ، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوه وكرهوا محاققته لهم ، ونقصه أعطياتهم ، وأخذه كثيراً مما في أيديهم ، مما أخذوه بغير حق ، فما زالوا به حتى سقوه السم ، فحصلت له الشهادة والسعادة ، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين ، والعلماء العاملين)[(٥)] .

---

(١) انظر : مجمع الزوائد ، للهيثمي ، كتاب الخلافة ، باب النهي عن مبايعة خليفتين ، رقم الحديث ١٠٩ ، بلفظ : ((إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)) ، ١٩٨/٥ ، دار الريان للتراث ، ودار الكتاب العربي ، القاهرة - بيروت ، ١٤٠٧هـ . وهو صحيح ، انظر : السلسلة الصحيحة ، الألباني ، ٧/ ٢٣٥ — ٢٣٩ .

(٢) انظر : فقه الإمام سعيد بن المسيب ، هاشم جميل عبدالله ، ٩٧/١ ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ١٢٩/٥ .

(٤) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٥/ ١١٤ ، ١١٥ ، ١٤٤ ، و الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٣٠/٥ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٢/ ٦٧٦ .

(٥) سير الأعلام ، الذهبي ، ١٢٠/٥ .

جميع هذا الثناء من الإمام الذهبي على عمر بن عبدالعزيز إنما كان نابعاً من مواقف مشرفة صدرت منه رحمه الله تنم عن شخصية جديرة بالاحترام ، وعن عقلية فذة لا تشوبها الأنانية والأثرة .

فقد كان حريصاً على أمة الإسلام ، وعلى جمع كلمتها ، وأن لا يفرض هو حاكم عليهم وهم كارهون ، فعندما تولى الخلافة قام فحمد الله وأثنى عليه وقال : (أيها الناس، إني لست بفارض ، ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ، ولكني متبع ، وإن من حولكم من الأمصار إن أطاعوا كما أطعتم ، فأنا واليكم ، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ)[1] .

وهذا من علمه وفقهه رحمه الله ، وذلك أنه لما جاءه عبدالعزيز بن الوليد مبايعاً وأخبره بأنه أخذ لنفسه البيعة بعد سماعه بموت سليمان بن عبدالملك لخوفه على الأموال، قال له عمر : (والله لو بويعت وقمت بالأمر ما نازعتك ذلك ولقعدت في بيتي)[2] .

ثم أنه رحمه الله بدأ من حين توليه الخلافة بعزل الولاة الظلمة ، وتعيين من رأى أنه أهل لولاية أمر المسلمين في الأمصار ، وأخذ يرسل إليهم بالكتب يأمر فيها بإصلاح أمور الرعية ، فقد روي عن أبي بكر بن محمد بن حزم – وكان والياً على المدينة – أنه ما كان يقدم عليه كتاب من عمر إلا وفيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسم أو تقدير عطاء أو خير حتى خرج من الدنيا[3] .

وهذا يبين مدى حرصه الشديد على سنَّة رسول الله ﷺ وإماتته للبدعة ، حتى قال في ذلك : (فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً)[4] .

وعندما خرجت حرورية بالعراق في خلافته أرسل إلى عامله يأمره أن يدعوهم إلى

---

(١) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٨٦/٥ ، وسير الأعلام ، الذهبي ، ١٢٠/٥ .
(٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٣٨/٥ .
(٣) المصدر السابق ، ٣٤١/٥ – ٣٤٢ .
(٤) المصدر السابق ، ٣٤٣/٥ .

العمل بكتاب الله وسنة نبيه فلما أعذر في دعائهم كتب إليه : (أن قاتلهم فإن الله وله الحمد لم يجعل لهم سلفاً يحتجون به علينا)[١] .

وكان رحمه الله حكيماً في إدارة الأعمال موفقاً فيها ، يعطي كل ذي حق حقه ، حتى عم عدله وكثر الخير في زمنه ، قال محمد بن قيس : (. . . فلقد رأيت من يتصدق عليه في العام القابل له إبل فيها صدقة)[٢] .

وقد حدَّث أحد الرعاة أنه في عهد عمر كانت الغنم والأسد والوحش ترعى في موضع واحد ، فعرض لشاة منها ذئب فقال الراعي : إنا لله ماأرى الرجل الصالح إلا هلك[٣] .

وكان محافظاً على أموال الدولة ، ويعمل على نموها ، من غير إضرار بأحد من المسلمين ، قيل له ذات مرة أنه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الفدان خمسة دراهم وإنك طرحت ذلك كله ، قال : (لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه)[٤] .

وقد أُتي بأسير أسره مسلمة بن عبدالملك وأن أهله سألوه أن يفتدوه بمائة مثقال ، فرده عمر إليهم وفداه بمائة مثقال[٥] .

وكان فقيهاً مجتهداً رحمه الله ، فمن فقهه أنه رأى أن لا يقاد[٦] بالقسامة[٧] ولكن بشهادة شاهدين ذوي عدل ، ومن حلف في القسامة فإنه يعزر بضعة عشر سوطاً ، وكان ينهى عن كراء بيوت مكة وأن لا يبنى بمنى بناء[٨] .

---

(١) المصدر السابق ، ٣٥٧/٥ – ٣٥٨ .
(٢) المصدر السابق ، ٣٤٧/٥ .
(٣) انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٨٧/٥ ، وسير الأعلام ، الذهبي ، ١٣١/٥ ، والبداية والنهاية ، ابن كثير ، ٧٠٢/١٢ .
(٤) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٧٦/٥ .
(٥) المصدر السابق ، ٣٥٤/٥ .
(٦) القود : القصاص . انظر : مختار الصحاح ، مادة قود .
(٧) القسامة : هي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم . انظر : مختار الصحاح ، مادة قسم . والمقصود بالأولياء هم أولياء القتيل إذا ادعوا الدم . التعاريف ، المناوي ، ٥٨١ .
(٨) انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٦٤/٥ .

وكان فقيهاً في كتاب الله ، فعندما أشاروا عليه بتطييب مطعمه ، لأنه كان يأكل الحمص والعدس فيتأذى به ، وذكروا له قول الله تعالى ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[1] ، قال لهم : (هيهات ذهبت به إلى غير مذهبه ، إنما يريد به طيب الكسب ولا يريد به طيب الطعام) . لذلك قال عنه ميمون بن مهران : كان عمر بن عبدالعزيز معلم العلماء . وقال عمرو بن ميمون : كانت العلماء مع عمر بن عبدالعزيز تلامذة[2] .

وكان يرى الشورى في جميع الأمور ، فقد كان له صحابة يحضرونه يعينوه برأيهم ويسمع منهم وينظرون في أمور الناس[3] .

أما من ناحية القضاء فإنه رحمه الله كان يرى وجوب توفر عدة خصال في القاضي ، منها الفهم ، والحلم ، والعفة ، والصلابة ، والعلم ، وإذا سئل عن شيء لا يعلمه وجب عليه السؤال فيه ، وأن يستشير ذوي الرأي ، ولا يبالي ملامة الناس[4] .

وقد كانت له أقوال تدل على حكمته وسداد تفكيره وفذاذة عقله ، وهذه بعضها :

(من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقل)[5] .

(إني وجدت لُقِيّ الرجال تلقيحاً لألبابهم)[6] .

(ما أصبح لي اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها)[7] .

(أكثر ذكر الموت فإنك لا تكون في ضيق من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك ، ولا تكون في سرور من أمرك وغبطة فتذكر الموت إلا ضيق ذلك عليه)[8] .

(إن أفضل القصد عند الحدّة ، وأفضل العفو عند القدرة)[9] .

---

(١) البقرة : ٥٧ و ١٧٢ ، الأعراف : ١٦٠ ، طه : ٨١ .
(٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٦٧/٥ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ٣٦٧/٥ و ٣٨٣ .
(٤) انظر : المصدر السابق ، ٣٦٩/٥ — ٣٧٠ .
(٥) المصدر السابق ، ٣٧١/٥ .
(٦) المصدر السابق ، ٣٧١/٥ .
(٧) المصدر السابق ، ٣٧٢/٥ .
(٨) المصدر السابق ، ٣٧٢/٥ .
(٩) المصدر السابق ، ٤٠٢/٥ .

(من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومعول المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه مما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1][2] .

وعمر بن عبد العزيز هو أول من أمر بتدوين الحديث الشريف خوفاً عليه من الضياع ، وكان ذلك على رأس المائة الأولى من الهجرة[3] .

ثالثاً : ربيعة الرأي : (١٣٦ هـ)

هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ ، الإمام الحافظ ، مفتي المدينة ، وعالمها في زمانه ، أبو عثمان القرشي التيمي مولاهم ، المشهور بربيعة الرأي ، روى عن جماعة من الصحابة ، وكان من أئمة الاجتهاد وأوعية العلم[4] .

وكان يقول رحمه الله : (أنا أقول برأيي من شاء أخذه ومن شاء تركه)[5] .

وقال : (أن العلم وسيلة إلى كل فضيلة)[6] .

وقال عنه سوَّار بن عبدالله العنبري[7] : (ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي) .

وقال أبو بكر الخطيب[8] : (كان ربيعة فقيهاً عالماً حافظاً للفقه والحديث)[9] .

---

(١) الزمر : ١٠ .
(٢) تاريخ الطبري ، ٧٢/٤ ، والطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٧٢/٥ .
(٣) انظر : استنزال السكينة الرحمانية بالتحديث بالأربعين البلدانية ، عبد الحفيظ الفاسي الفهري ، المقدمة ، للعلامة السيد عبدالله جنون الحسني ، صفحة ج وَ ز .
(٤) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٨٩/٦ .
(٥) سير الأعلام ، الذهبي ، ٩٠/٦ .
(٦) المصدر السابق ، ٩٠/٦ .
(٧) هو سوار بن عبد الله بن قدامة الإمام العلامة القاضي أبو عبد الله التميمي العنبري البصري ، قاضي الرصافة من بغداد ، من بيت العلم والقضاء ، كان جده قاضي البصرة ، ثقة ، وكان من فحول الشعراء فصيحا مفوها وكان وافر اللحية ، توفي سنة ٢٤٥هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١١/ ٥٤٣ — ٥٤٥ .
(٨) هو الخطيب الحافظ الكبير محدث الشام والعراق أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، صاحب التصانيف ، كان والده خطيب درزيجان قرية من سواد العراق ، رحل الخطيب إلى الأقاليم وبرع وتقدم في فنون الحديث ، وسارت بتصانيفه الركبان ، كان حافظاً متقناً ضابطاً للحديث متفننا في علله وأسانيده ، من مؤلفاته : (التاريخ الجامع) (شرف أصحاب الحديث) (الفصل في المدرج المتفق والمفترق) (تلخيص المتشابه) ، توفي سنة ٤٦٣هـ . انظر : طبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٤٣٤/١ — ٤٣٥ .
(٩) سير الأعلام ، الذهبي ، ٦/ ٩٢- ٩٣ .

لذلك كان رحمه الله يجتهد ويعمل عقله في المسائل الفقهية ، حتى قال عنه مالك : (ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة)[١] .

وقد كان من الذين يستشهد بقولهم العلماء ، كأحمد بن حنبل ، وأبو حاتم الرازي ، وغيرهما[٢] .

وكان من علمه رحمه الله أنه كان هو صاحب الفتوى في المدينة وكان يجلس إليه وجوه الناس ، وكان يحصى في مجلسه أربعون من أهل العلم ، وعنه أخذ مالك[٣] .

قال يونس : (شهدت أبا حنيفة في مجلس ربيعة مجهوده أن يفهم ما يقول ربيعة)[٤] .

وكان العلماء يخالفونه في بعض المسائل ثم يعودون إلى قوله وذلك لذكائه وسلامة رأيه وعقله[٥] .

وقد شهد له العلماء بالفطنة ، وذلك لسرعة جوابه في المسائل المعضلة ، قال يحيى بن سعيد : (ما رأيت أحداً أفطن من ربيعة بن أبي عبد الرحمن) وقال عبيد الله ابن عمر : (هو صاحب معضلاتنا وعالمنا وأفضلنا)[٦] وقال مالك : (كان ربيعة أعجل شيئاً جواباً)[٧] .

وكان يُعمل الرأي حتى كان سُمِّيَ بربيعة الرأي وهو مع ذلك حافظاً للسنن ، قال عبد العزيز بن أبي سلمة[٨] : (يا أهل العراق تقولون ربيعة الرأي ، والله ما رأيت أحداً

(١) المصدر السابق ، ٦/٩١ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ٦/٩١ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ٦/٩١ .
(٤) المصدر السابق ، ٦/٩٦ .
(٥) انظر : المصدر السابق ، ٦/٩٦ .
(٦) انظر : المصدر السابق ، ٦/٩١ .
(٧) المصدر السابق ، ٦/٩٦ .
(٨) هو الماجشون عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة ميمون ، وقيل دينار ، الإمام المفتي الكبير أبو عبد الله وأبو الأصبغ التيمي مولاهم المدني الفقيه ، والد المفتي عبد الملك بن الماجشون صاحب مالك وابن عم يوسف بن يعقوب الماجشون ، لم يكن بالمكثر من الحديث لكنه فقيه النفس فصيح كبير الشأن ، وكان صدوقاً ثقة صاحب سنة ، توفي في عام ١٦٤هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٧/ ٣٠٩ – ٣١٢ .

أحفظ لسنة منه)[1] .

وسبق قول أبي بكر : (كان ربيعة فقيهاً عالماً حافظاً للفقه والحديث) .

قال يحيى بن معين : (كان ثقة كثير الحديث) .

وقال عبد العزيز : (والله ما رأيت أحوط لسنة من ربيعة)[2] .

فإذا جمعنا بين الأقوال التي تفيد بأنه كان يأخذ بالرأي وبين هذه الأقوال ، لتبيَّن أنه كان يأخذ بالكتاب والسنة ويعمل برأيه في فهمها ، وإذا عَدِمَ النص قال بالرأي ، وذلك لأنه كان ورعاً تقياً لا يقول إلا بما يعلم .

قال لأحد تلاميذه وهو في مرض موته : (ويحك يا عبد العزيز لئن تموت جاهلاً خيراً من أن تقول في شيء بغير علم لا لا ثلاث مرات.)[3] .

وكان رحمه الله صاحب عبادة ، يصلي الليل والنهار ، ولما جالس العلماء نطق بلبٍّ وعقل[4] ، وكذلك التقوى لا تكون إلا من عاقل متوهج الإيمان .

ومما يدل على أنه رحمه الله كان صاحب سنة ، وأنه كان لا يعمل عقله إلا في الأمور الفقهية والمسائل التي جدت وليس فيها نص ، أنه وقف على قوم يتذاكرون القدر ، فقال ما معناه : (إن كنتم صادقين ، فلما في أيديكم أعظم مما في أيدي ربكم ، إن كان الخير والشر بأيديكم) وعندما سئل عن كيفية استواء الرب عز وجل ، قال : (الكيف غير معقول ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق)[5] .

رابعاً : أبو حنيفة : (١٥٠ هـ)

هو الإمام ، فقيه الملة ، عالم العراق ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي ، رأى أنس بن مالك رضي الله عنه ، وعني بطلب الآثار ، وارتحل في ذلك ،

(١) سير الأعلام ، الذهبي ، ٩٢/٦ .

(٢) المصدر السابق ، ٩٦/٦ .

(٣) تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ٢٢٣/٣ ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

(٤) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٩١/٦ .

(٥) سير الأعلام ، الذهبي ، ٩٠/٦ .

ويعتبر ممن له المنتهى في الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه[(١)] .

قال علي بن عاصم[(٢)] : (لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه ، لرجح عليهم)[(٣)] .

وقال مكي بن إبراهيم[(٤)] : (كان أعلم أهل الأرض)[(٥)] .

وقال حفص بن غياث[(٦)] : (كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشعر ولا يعيبه إلا جاهل)[(٧)] .

وقال عبدالله بن المبارك : (أبو حنيفة أفقه الناس)[(٨)] .

وقال الشافعي : (الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة)[(٩)] .

وقال أبو نعيم : (كان صاحب غوص في المسائل)[(١٠)] .

وكان من عقله رحمه الله أنه كان ثقة ولا يحدث بالحديث إلا بما يحفظه ، وقال عنه

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٦/ ٣٩٠- ٣٩٢ .

(٢) هو علي بن عاصم بن صهيب ، الإمام العالم شيخ المحدثين مسند العراق أبو الحسن القرشي التيمي ، وضعفه غير واحد لسوء حفظه ، وكان إماماً ورعاً صالحاً جليل القدر ، توفي سنة ٢٠١هـ انظر : شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ١ / ٢ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٩/ ٢٤٩ – ٣٦٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/ ٤٠٣ .

(٤) هو مكي بن إبراهيم بن بشير بن فرقد ، ويقال جده فرقد بن بشير ، الإمام الحافظ الصادق مسند خراسان أبو السكن التميمي الحنظلي البلخي ، كان ثقة صادقاً مأموناً صالحاً ، توفي سنة ٢١٤هـ . انظر : طبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١٦٤/١ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٥/١ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٩/ ٥٤٩ – ٥٥٣ .

(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤١٩/١٣ .

(٦) هو حفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن جشم بن وهبيل بن سعد بن مالك بن النخع ، الإمام الحافظ العلامة القاضي أبو عمر النخعي الكوفي قاضي الكوفة ومحدثها ، وولي القضاة ببغداد أيضاً ، كان ثقةً ثبتاً مأموناً فقيهاً ، توفي سنة ١٩٤هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٩/ ٢٢ – ٣٤ ، طبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١٣٠/١ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٤٠/١ .

(٧) سير الأعلام ، الذهبي ، ٤٠٣/٦ .

(٨) المصدر السابق ، ٤٠٣/٦ ، والبداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤١٩/١٣ .

(٩) المصدر السابق ، ٤٠٣/٦ ، والبداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤١٩/١٣ .

(١٠) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤١٩/١٣ .

شريك : (كان أبو حنيفة طويل الصمت كثير العقل)[1] .

قال يزيد : (ما رأيت أحداً أورع ولا أعقل من أبي حنيفة)[2] .

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات أن أبا حنيفة كان صاحب الرأي[3] ، وهذا صحيح فقد كان رأيه رحمه الله خادماً للنصوص لا مقدماً عليها ، وذلك أنه سخَّر رأيه لفهم النصوص والقياس عليها عند عدم النص ، مع مراعاة قواعد الشرع في قياسه .

قال أبو حنيفة : (عجباً للناس يقولون : أفتى بالرأي ، وما أفتي إلا بالأثر)[4] .

وقال : (ليس لأحد أن يقول برأيه مع كتاب الله تعالى ، ولا مع سنة رسول الله ﷺ ولا مع ما أجمع عليه الصحابة)[5] .

وعندما سئل عن كيفية نزول الرب سبحانه قال : (ينزل بلا كيف)[6] .

وقد حدثت بينه وبين أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين محاورة تدل على فقهه وذكائه وغوصه في المسائل ، قال أبو حنيفة : (إني أسألك ثلاث كلمات فأجبني ، الرجل أضعف أم المرأة ؟) .

فقال : (المرأة) .

فقال أبو حنيفة : (كم سهماً للرجل وكم سهماً للمرأة ؟) .

فقال أبو جعفر : (للرجل سهمان وللمرأة سهم واحد) .

فقال أبو حنيفة : (هذا قول جدك ، ولو حولت دين جدك لكان ينبغي في القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان ، لأن المرأة أضعف من الرجل) .

---

(١) سير الأعلام ، الذهبي ، ٣٩٥/٦ و ٤٠٠ .
(٢) تذكرة الحفاظ ، الذهبي ، ١٦٨/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
(٣) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٣٤١/٦ .
(٤) عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، شمس الدين الصالحي ، ١٧٤ ، مكتبة الإيمان ، السمانية – المدينة المنورة .
(٥) المصدر السابق ، ١٧٥ .
(٦) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، أبو عثمان الصابوني ، ٤٢ ، ت ناصر الجديع ، دار العاصمة ، الرياض ط ٢ ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

ثم قال أبو حنيفة : (الصلاة أفضل أم الصوم ؟)

قال : (الصلاة أفضل)

قال أبو حنيفة : (هذا قول جدك ، ولو حولت دين جدك فالقياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضي الصلاة ولا تقضي الصوم)

ثم قال : (البول أنجس أم النطفة ؟)

قال أبو جعفر : (البول أنجس)

قال : (فلو كنت حولت دين جدك بالقياس ، لكنت أمرت أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة ، لأن البول أقذر من النطفة ، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس) فقام أبو جعفر فعانقه[(١)] .

وهذه المحاورة تدل على إعمال أبي حنيفة لعقله ، وإن هذا الإعمال كان مقيداً بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، فإن عُدِمَ النص اجتهد وقاس .

قال أبو حنيفة : (آخذ بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسول الله ، فإن لم أجد فبقول الصحابة ، آخذ بقول من شئت منهم ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين وعطاء ، فقوم اجتهدوا فأجتهد كما اجتهدوا)[(٢)] .

وروي عنه أيضاً أنه قال : (ما جاء عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة اخترنا ، وما كان من غير ذلك ، فهم رجال ونحن رجال)[(٣)] .

وفي آخر المطاف بأبي حنيفه رحمه الله أذكر قصة تدل على ذكائه وفطنته وحسن تخلصه مما يخاف منه على دينه .

دعا المنصور الخليفة العباسي أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع ، فقال المنصور : (أترغب عما نحن فيه ؟) فقال أبو حنيفة : (لا أصلح) قال : (كذبت) قال : (فقد حكم أمير

---

(١) مناقب أبي حنيفة ، للمكي ، ١٤٣/١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
(٢) تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ٤٠٢/١٠ .
(٣) سير الأعلام ، الذهبي ، ٤٠١/٦ .

المؤمنين علي أني لا أصلح ، فإن كنت كاذباً فلا أصلح ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرتكم أني لا أصلح) وفي رواية أخرى أنه قال : (والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلا أصلح لذلك) قال المنصور : (كذبت بل تصلح) فقال : (كيف يحل أن تولي من يكذب ؟)[(١)] .

خامساً : الأوزاعي : (١٥٧ هـ)

هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمَد أبو عمرو الأوزاعي ، شيخ الإسلام ، عالم أهل الشام[(٢)] .

قال عنه أحد العلماء : (فلم يكن في أبناء الملوك والوزراء أعقل منه ، ولا أورع ، ولا أعلم ، ولا أفصح ولا أوقر ، ولا أحلم ، ولا أكثر صمتاً منه ، وما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من يجالسه أن يكتبها من حسنها وكان يعاني الرسائل والكتابة)[(٣)] .

نزل دمشق بمحلة الأوزاع ، وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وعلوم الإسلام ، وقد أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم ، وأثنى عليه غير واحد من الأئمة ، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته ، قال مالك : (كان الأوزاعي إماماً يقتدى به) وقال سفيان بن عيينة : (كان إمام أهل زمانه)[(٤)] .

وقد رأى بعضهم أنه يصلح للإمامة والخلافة ، وذلك لرجاحة عقله وسعة علمه وحسن معاملته ورفقه ، مثل الإمام مالك ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي إسحاق الفزاري[(٥)] الذي قال : (ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي)[(٦)] .

---

(١) المصدر السابق ، ٦/٤٠٢ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ٧/١٠٧ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٣/٤٤٣ .
(٣) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٣/٤٤٤ ، وانظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/١١٠ .
(٤) انظر : المصدر السابق ، ١٣/ ٤٤٤ — ٤٤٥ .
(٥) هو أبو اسحاق الفزاري الإمام الكبير الحافظ المجاهد إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جويه بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث ابن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الفزاري الشامي ، ولجدهم خارجة صحبة وهو أخو عيينة بن حصن ، كان ثقة مأموناً إماماً صاحب سنة صالحاً كثير الحديث فقيهاً ، لم يصنف أحد في السير مثله ، توفي سنة ١٨٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٨/ ٥٣٩ — ٥٤٣ .
(٦) سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/ ١١٢ — ١١٣ .

وكان عاقلاً فصيحاً مأثور الرسائل ، وكان الخليفة العباسي المنصور معجباً بفصاحة رسائله التي ترد إليه ، فكانت تنسخ في دفاتر وتوضع بين يدي المنصور فيكثر النظر فيها استحساناً لألفاظها ، فقال لسليمان بن مجالد – وكان من أحظى كتَّابه عنده - : (ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه جواباً تاماً) قال : (والله يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ذلك ، وإنما أرد عليه ما أحسن ، وإن له نظماً في الكتب لا أظن أحداً من جميع الناس يقدر على إجابته عنه ، وأنا أستعين بألفاظه على من لا يعرفها ممن نكاتبه في الآفاق)[1] .

وكان ثقة مأموناً صدوقاً فاضلاً خيِّراً كثير الحديث والعلم والفقه[2] .

أما عن موقفه من السنة ، فقد كانت له أقوال تدل على تمسكه بالكتاب والسنة وعدم التفاته إلى أقوال أهل الأهواء والبدع .

قال الأوزاعي : (عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال ، وإن زخرفوه لك بالقول فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم) وقال : (كنا - والتابعون متوافرون – نقول إن الله تعالى فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته)[3] .

وقال : (يا بقية ، لا تذكر أحداً من أصحاب نبيك إلا بخير ، يا بقية ، العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ ، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم)[4] .

وقال : (لا يجتمع حب علي وعثمان – رضي الله عنهما – إلا في قلب مؤمن)[5] .

وقال : (إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل ، ومنعهم العمل)[6] .

---

(١) سير الأعلام ، الذهبي ، ١١٥/٧ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤٤٧/١٣ ، و محاسن المساعي ، زين الدين الخطيب ، ت شكيب أرسلان ، ٧٧ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٧م ، وقد ذكر أن أحظى كتَّاب المنصور هو سليمان بن مخلد .

(٢) تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ٢١٧/٦ .

(٣) سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/ ١٢٠ – ١٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ١٢٠/٧ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤٤٩/١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ١٢٠/٧ .

(٦) المصدر السابق ، ١٢١/٧ .

وقال : (ما ابتدع رجل بدعة ، إلا سلب الورع) وقال : (إن المؤمن يقول قليلاً ، ويعمل كثيراً ، وإن المنافق يتكلم كثيراً ، ويعمل قليلاً)[1] .

وأقواله رحمه الله كثيرة في هذا الباب ، وكلها تفيد منهجاً واحداً كان يتبعه هو منهج أهل السنة والجماعة ، فهي تدل على أنه كان صاحب كتاب وسنة ، وأنه يقدمهما على كل شيء ، ويكره علم الكلام ، ولذلك ذمَّ آراء الرجال والجدل لأنه يعتبر من باب إعمال العقول فيما نهى الله فيكون إعمالاً مذموماً .

وقد كان من سلامة معتقده أن قال عنه بقية بن الوليد : (إنا لنمتحن الناس بالأوزاعي ، فمن ذكره بخير عرفنا أنه صاحب سنة)[2] .

وقد كان رحمه الله صاحب مشورة حكيمة ، فقد أشار على المنصور بفداء أسرى المسلمين بعد أن كان رافضاً لذلك .

ومما يدل على حكمته وصواب رأيه تعليله لبعض الأمور تعليلاً دقيقاً وذلك أنه لما طلب من المنصور السماح له بعدم لبس السواد ، سئل عن ذلك فقال : (لم يحرم فيه محرم ، ولا كفِّن فيه ميت ، ولم يزيَّن فيه عروس)[3] .

لذلك فقد كان رحمه الله واسع العلم والمعرفة ، وكانت إليه فتوى الفقه لأهل الشام لفضله فيهم وكثرة روايته ، قال الهِقْل بن زياد[4] : (أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة أو نحوها) وقال أبو زرعة : (رُوِيَ عنه ستون ألف مسألة) وقال غيرهما : (أفتى في سنة ثلاث عشر ومائة ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، ثم لم يزل يفتي حتى

---

(١) المصدر السابق ، ٧/١٢٥ ، و انظر : محاسن المساعي ، زين الدين الخطيب ، ٨٠ .

(٢) تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ٦/٢١٨ .

(٣) انظر : محاسن المساعي ، زين الدين الخطيب ، ١١١ و ١١٥ ، و سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/١٢٦ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٣/٤٥٤ .

(٤) هو الهقل بن زياد الإمام المفتي أبو عبدالله الدمشقي كاتب الأوزاعي وتلميذه ، كان ثقة ، ومن أعلم الناس بالأوزاعي وبمجلسه وبفتياه وهو من أعلى أصحابه ، قدم بيروت وكتب عن أهلها ، وتوفي سنة ١٧٩هـ . انظر : شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ١/٣٩٢ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٨/ ٣٧٠ — ٣٧١ وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١/١٢٤ .

مات)[1] .

وهو أول من دوَّن العلم بالشام ، وله مسائل كثيرة حسنة ينفرد بها ، وهي موجودة في الكتب الكبار ، وكان له مذهب مستقل مشهور ، عمل به فقهاء الشام مدة ، وفقهاء الأندلس ، ثم فني[2] .

وقد كانت له رحمه الله مناظرة مع غيلان الدمشقي القدري أذهبت برأس غيلان ، وسأذكرها في بابها إن شاء الله ، تدل هذه المناظرة على علمه وقوة عقله ومنهجه وتفكيره الصائب ورسوخه في العلم[3] .

وكذلك كانت له مناظرات في الفقه مع علماء عصره ، ومعلوم أنه لا يتصدى للمناظرات مع كبار العلماء إلا من كان له علم مثل علمهم وأكثر[4] .

وفي آخر المطاف بالأوزاعي أذكر بعض أقواله التي وردت عنه وتدل على تقواه وعقله عن الله تعالى .

قال رحمه الله : (من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ، ومن عرف أن منطقه من عمله ، قل كلامه) وقال (من أطال قيام الليل هون الله عليه الوقوف يوم القيامة) وسئل عن الخشوع في الصلاة ، فقال : (غض البصر ، وخفض الجناح ، ولين القلب وهو الحزن والخوف)[5] .

سادساً : الشافعي : (٢٠٤ هـ)

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ، الإمام ، عالم عصره ، ناصر الحديث ، فقيه الملة ، أبو عبد الله القرشي ثم المطلبي الشافعي المكي ،

---

(١) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٣/٤٤٦ ، و انظر : و سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/١١١ .
(٢) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/ ١١٧ و ١٢٨ .
(٣) انظر : محاسن المساعي ، زين الدين الخطيب ، ١٠٤ – ١٠٦ .
(٤) انظر : الإمام الأوزاعي محدثاً حافظاً ، حسين محمد الملاح ، ١٧٨ – ١٨١ ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
(٥) سير الأعلام ، الذهبي ، ٧/ ١١٦ و ١١٩ و ١٢٢ .

نسيب رسول الله ﷺ وابن عمه[(١)] .

أثنى عليه كثير من العلماء لعلمه وذكائه وفقهه وعقله ، قال يونس بن عبد الأعلى[(٢)] : (لو جمعت أمة لوسعهم عقله)[(٣)] .

وقال المزني[(٤)] : (لو وزن عقل الشافعي بنصف عقل أهل الأرض لرجح)[(٥)] .

وقال يونس الصدفي : (ما رأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوماً في مسألة ، ثم افترقنا ،ولقيني فأخذ بيدي ، ثم قال : (يا أبا موسى ، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة)[(٦)] .

قال الذهبي معلقاً على هذه الرواية : (هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه ، فما زال النظراء يختلفون)[(٧)] .

وقال يحيى بن أكثم[(٨)] : (كان رجلاً قرشي العقل والفهم والذهن ، صافي العقل

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٠/٥ – ٦ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٤/١٣٢ ، و مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي ، ٩ – ٣٤ ، ت أحمد السقا ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م . و مناقب الإمام الشافعي ، عبد الرؤوف المناوي ، ٤٦ – ٥٥ ، ت ساعد غازي ، دار الصحابة للتراث ، مصر - طنطا ، ط ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

(٢) هو يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن حيان ، الإمام شيخ الإسلام ، أبو موسى الصدفي المصري المقرىء الحافظ ، قال عنه يحيى بن حسان التنيسي : يونسكم هذا ركن من أركان الإسلام ، كان ثقةً رفيع الشأن ذا عقل ، توفي سنة ٢٦٤هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٢/ ٣٤٨ – ٣٥١ .

(٣) سير الأعلام ، الذهبي ، ١٠/١٥ . مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، ٦٢ .

(٤) هو الإمام العلامة فقيه الملة علم الزهاد ، أبو إبراهيم إسماعيل ابن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن مسلم المزني المصري ، تلميذ الشافعي ، وهو قليل الرواية ولكنه كان رأسا في الفقه ، من مؤلفاته : (المختصر) في الفقه ، (الجامع الكبير) (الجامع الصغير) (المنثور) (المسائل المعتبرة) (الترغيب في العلم) (الوثائق) ، توفي سنة ٢٦٤هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٢/ ٤٩٢ – ٤٩٧ .

(٥) مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، ٦٢ .

(٦) سير الأعلام ، الذهبي ، ١٠/١٦ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) هو يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن ، قاضي القضاة الفقيه العلامة أبو محمد التميمي المروزي ثم البغدادي ، كان من أئمة الاجتهاد وله تصانيف منها (كتاب التنبيه) ، كان واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن العارضة قائماً بكلٍ معضلة غلب على المأمون حتى لم يتقدمه عنده أحد مع براعة المأمون في العلم وكانت الوزراء لا تبرم شيئاً حتى تراجع يحيى ، توفي سنة ٢٤٢هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٢/ ٥ – ١٦ .

والفهم والدماغ سريع الإصابة)[1] .

قال أحمد بن حنبل : (إن الله يقيض للناس في رأس كل مائة من يعلمهم السنن ، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب) قال : (فنظرنا ، فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي)[2] .

إلى آخر ما ذكره العلماء من المدح والثناء عليه رحمه الله تعالى .

فقد حباه الله علماً وفهماً وعقلاً سليماً ، لذلك فقد كان من أحرص الناس على التمسك بالكتاب والسنَّة ، معتقداً بما دلا عليه كسائر أهل السنَّة والجماعة ، وكان يكره علم الكلام لأنه خوض فيما لا علم للإنسان فيه ، وفيما لا يدرك بالعقل ولأنه لا يوصل إلى نتيجة ، وهو مذهب مبتدع لم يرد عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابه رضوان الله عليهم ، ولا التابعين .

ومن أقواله في العقيدة : (القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال : مخلوق ، فهو كافر)[3] .

وقد روي عنه أنه كان يُمِرُّ آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف على طريقة السلف[4] .

وكان يقول : (من حلف باسم من أسماء الله فحنث ، فعليه الكفارة لأن اسم الله غير مخلوق ، ومن حلف بالكعبة وبالصفا والمروة فحنث ، فليس عليه كفارة لأنه مخلوق وذاك غير مخلوق)[5] .

وقال : (كل متكلم على الكتاب والسنَّة فهو الجد ، وما سواه فهو هذيان)[6] .

وقال: (لا يقال: للأصل لم ولا كيف) وكان يرى أن الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر

---

(١) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/١٧ .
(٢) المصدر السابق ، ١٠/٤٦ .
(٣) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٤/١٣٨ ، و سير الأعلام ، الذهبي ، ١٠/١٨ .
(٤) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٤/١٣٩ .
(٥) سير الأعلام ، الذهبي ، ١٠/١٩ .
(٦) المصدر السابق ، ١٠/٢٠ .

وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز[1] .

وأن خبر الواحد حجة ، وكان يقول : (المراء في الدين يقسي القلب ويورث الضغائن) وقال : (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)[2] .

أما عن أقواله في ذم علم الكلام : (لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد) وقال : (ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح)[3] .

وقال عنه محمد بن داوود[4] : (لم يحفظ في دهر الشافعي كله أنه تكلم في شيء من الأهواء ، ولا نسب إليه ، ولا عرف به ، مع بغضه لأهل الكلام والبدع)[5] .

وقال الشافعي : (حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل منكسين ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام)[6] .

فالشافعي إذن كان يكره بل يبغض علم الكلام ، ويحذر منه أشد تحذير ، لأنه لا يصح في باب العقائد إلا التسليم لله ورسوله ، ولأن علم الكلام لا يوصل إلى المقصود من اليقين وإلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنَّة ، ولأن فيه تحريف لأسماء الله وصفاته، ونفي لما أثبته الله سبحانه ورسوله ﷺ ، وإثبات لما نفياه .

أما في العلوم الأخرى فقد كان للشافعي صولات وجولات فيها لم يسبقه إليها أحدٌ من العلماء .

---

(١) المصدر السابق ، ١٠/ ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، ١٠/ ٢٣ و ٢٨ و ٣٢ .

(٣) المصدر السابق ، ١٠/ ١٦ و ١٨ ، و البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٤/ ١٣٨ .

(٤) هو محمد بن داود بن علي ، الظاهري العلامة البارع ذو الفنون ، أبو بكر ، وكان أحد من يضرب المثل بذكائه ، وهو مصنف كتاب (الزهرة) في الآداب والشعر ، وله كتاب في الفرائض ، وغير ذلك ، وله بصر تام بالحديث ، وبأقوال الصحابة ، وكان يجتهد ولا يقلد احداً ، ومات قبل الكهولة وقل ما روى ، تصدر للفتيا بعد والده ، توفي سنة ٢٩٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٣/ ١٠٩ – ١١٦ .

(٥) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ٢٦ .

(٦) مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، ٩٥ ، و انظر : البداية والنهاية أ ابن كثير ، ١٤/ ١٣٨ ، و شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ١٧ – ١٨ .

فقد كانت له تقسيمات للعلوم تدل على إعماله لعقله في هذا المجال إعمالاً بديعاً ، فخلف علماً متوارثاً إلى يومنا هذا .

حدث بينه وبين هارون الرشيد حوار طويل ذكره الرازي في (مناقب الإمام الشافعي) أذكر بعضه للدلالة على علمه الغزير وتقسيماته البديعة للعلوم .

سأله الرشيد عن كتاب الله ، فقال الشافعي : (إن علوم القرآن كثيرة : تسألني عن محكمه أو متشابهه ؟ وعن تقديمه أو تأخيره ؟ وعن ناسخه أو منسوخه ؟ أو عما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته ، أو عما ثبتت تلاوته وارتفع حكمه ؟ أو عما ضربه الله مثلاً أو عما جعله اعتباراً ؟ . . .) قال الرازي : (وما زال الشافعي يعدد هذه العلوم ، حتى عد ثلاثة وسبعين نوعاً من أنواع علوم القرآن) فقال هارون : (لقد أوعيت من القرآن علماً عظيماً) ثم سأله عن بصره بسنَّة رسول الله ﷺ ، فقال الشافعي : (إني لأعرف منها ما خرج على وجه الإيجاب ، فلا يجوز تركه ، وما خرج على وجه الحظر فلا يجوز فعله ، وما خرج على وجه الخاص ، فلا يشاركه فيه غيره . . .) ثم سأله عن العربية ، والأحكام، والنجوم ، والطب ، والأنساب ، والشافعي يجيب إجابة يتعجب من حسنها هارون الرشيد ، ثم ختم هذا المجلس بموعظة وعظها الشافعي لهارون الرشيد أبكاه بها بكاءً شديداً [(١)] .

الحاصل أن هذه التقسيمات التي ذكرها الشافعي في كل علم يسئل عنه ، تدل على رسوخه في العلم وعقله وفهمه لكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، ومن المعلوم أن مسألة التصنيف والتقسيم هذه عملية صعبة تحتاج إلى عقل كبير مفكر عالم ، والذي يجب على المؤمن الاستفادة منه وعدم إهماله .

---

(١) انظر : مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، ٦٩ – ٧٦ .

والشافعي رحمه الله تعالى هو أول من صنف في علم أصول الفقه بشهادة كثير من العلماء[1] .

كتب عبد الرحمن بن مهدي إلى الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن ، ويجمع قبول الأخبار ، وحجة الإجماع ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، فوضع له كتاب (الرسالة)[2] .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : (ما عرفنا العموم من الخصوص ، وناسخ الحديث من منسوخه ، حتى جالسنا الشافعي)[3] .

أما عن مناظراته فهي باب كبير عظيم في مجال العقل ، فقد كان رحمه الله مناظراً ناجحاً في جميع أحواله ، حتى قال عنه ابن عبد الحكم[4] : (ما رأيت الشافعي يناظر أحداً إلا رحمته ، ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننت أنه سبع يأكلك ، وهو الذي علَّم الناس الحجج)[5] .

وقال هارون بن سعيد الأيلي[6] : (لو أن الشافعي ناظر على أن هذا العمود الحجر خشب ، لغلب لاقتداره على المناظرة)[7] .

---

(١) انظر : مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، ١٤٣ ، و أصول الفقه ، محمد أبو زهرة ، ١٠ - ١١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة . و مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، علي سامي النشار ، ٦٥ ، دار المعارف، مصر ، ١٩٦٦م .

(٢) سير الأعلام ، الذهبي ، ٤٤/١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ٥٥/١٠ .

(٤) هو عبدالله بن عبدالحكم بن أعين بن الليث ، كان رجلاً صالحاً ثقةً متحققاً بمذهب مالك فقيهاً صدوقاً عاقلاً حليماً ، وإليه أفضت الرياسة بمصر بعد أشهب ، وكان صديقاً للشافعي ، ومن مؤلفاته : (المختصر الكبير) (المختصر الأوسط) (المختصر الصغير) (الأهوال) (القضاء في البنيان) (فضائل عمر بن عبدالعزيز) (المناسك) ، توفي عام ١٧١هـ . انظر : الديباج المذهب ، إبراهيم اليعمري المالكي ، ١٣٤/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٥) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤٩/١٠ – ٥٠ .

(٦) هو هارون بن سعيد الأيلي ، توفي سنة ٢٥٣هـ . انظر : تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، محمد الربعي ، ٢/ ٥٥٧ ، ت عبدالله الحمد ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠هـ .

(٧) سير الأعلام ، الذهبي ، ٥٠/١٠ .

وقد كانت له مناظرات كثيرة ، مثل مناظرته لحفص الفرد الذي يسميه الشافعي المنفرد[1] ، ومناظرته مع محمد بن الحسن[2] وغيرها كثير[3] .

ولو تركت لنفسي العنان في الحديث عن الشافعي رحمه الله لأخذ ذلك الوقت الكثير، ولكن المقصود هو أن الشافعي كان من أئمة أتباع التابعين من أهل السنة والجماعة، بل هو من البارزين الذين كانت لهم يد طولى في كل العلوم ، وكان يجمع صفاء العقيدة والقوة في الفقه والمناظرة ، إضافة إلى زهده وتقواه وتوثيق العلماء له وأقواله المأثورة ، وغير ذلك من سيرته .

وذكري لهذه الشخصيات الست من التابعين لا يعني إهمالي لباقي التابعين وأتباعهم، ولكن المراد هو أخذ شريحة من طبقة التابعين وأتباعهم المتمسكون بمنهج أهل السنة والجماعة ودراستها من ناحية الأمور التي أعملوا عقولهم فيها والتي لم يعملوا وعلى أساس ذلك يتبين موقفهم من العقل ، وكما رأينا فقد فاقوا غيرهم من أئمة أهل الكلام المذموم ، الذين لم يخلف لهم العلم بالكلام إلا الحيرة والعجز والجهل .

---

(١) هو حفص الفرد وقيل المنفرد وقيل القرد ، وهو الذي ناظره الشافعي في مسألة خلق القرآن ، ومسألة الإيمان فخصمه الشافعي وكفره . انظر : حلية الأولياء ، أبو نعيم ، ٩/ ١١١ — ١١٥ ، دار الكتاب ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٥هـ . وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ١٨ و ٣٢ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ، حضر مجلس أبي حنيفة سنين ، ثم تفقه على أبي يوسف ، وصنف الكتب الكثيرة ، ونشر علم أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، قال الشافعي : حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير ، وقال : ما رأيت أحداً يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت في وجهه الكراهة إلا محمد بن الحسن ، توفي سنة ١٨٧هـ . انظر : طبقات الفقهاء ، أبو إسحاق الشيرازي ، ١/ ١٤٢ .

(٣) انظر : سير الأعلام ، الذهبي ، ١٠/ ١٨ و ٣٢ ، و مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، ٨٤ — ٨٧ و ٢٤١ — ٢٦٣ .

المبحث الثالث

موقف علماء أهل السنة بعد الصحابة والتابعين من العقل

بعد وفاة الرسول ﷺ ، وصحبه رضوان الله عليهم ، وتابعيهم رحمهم الله تعالى ، قيض الله سبحانه وتعالى لهذا الدين علماء مجددين ، يعملون بالكتاب والسنَّة ، ويقيمون ما أقامه الله ورسوله ، ويهدمون معالم الشرك والكفر وحصونه بسيوفهم وألسنتهم وأقلامهم ، فكانت لهم مؤلفات تعبر عن أفكارهم وما في قلوبهم وتبيِّن مدى صفاء عقيدتهم .

فلا بد لهم إذن من موقف وقفوه تجاه العقل ، لذا فإنّ في هذا المبحث سوف أستعرض بعض الأقوال لهؤلاء الأئمة عن العقل لمعرفة موقفهم منه ، ولن أركز على شخصية بعينها ولكني أحاول الانتقاء ما استطعت[١] .

فما هي منزلة العقل عند أهل السنَّة ؟

يرى أهل السنة أن العقل من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده ، لأنه لم يعرف الإنسان ربه إلا بالعقل ابتداءً ، ولكنهم يرون مع ذلك أن العقل لا يستقل وحده بالمعرفة بل لابد من الوحي .

قال ابن حزم – ٤٥٦هـ - : (والعقل الذي به عرفنا الله تعالى ولولاه ما عرفناه . . . ومن أبطل العقل فقد أبطل التوحيد إذ كذَّب شاهد عليه إذ لولا العقل لم يعرف الله عز وجل أحد ، ألا ترى المجانين والأطفال لا يلزمهم شريعة لعدم عقولهم ؟)[٢] .

---

(١) وقد حرصت في هذا المبحث خاصة أن أورد مع أقوال الأئمة سنة وفاتهم ، ولا أعيدها إذا كررت ذكرهم ، وذلك لبيان أن أهل السنة قد اتفقت أقوالهم من أولهم إلى آخرهم ، لأنهم يسيرون على مبادئ وقواعد ثابتة وحصينة ، خاصة في مجال العقيدة .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ، ١/١٠٠ .

وقال أيضاً : (نحمد الله عز وجل على ما منَّ به علينا من تيسيرنا لاتباع كلامه وتدبره وطلب سنن نبينا محمد ﷺ والوقوف عندهما ، ومعرفتنا بأن العقل لا يحكم به على خالقه ، لكن نفهم به أوامره تعالى ونميز به حقائق ما خلق فقط)[1] .

وقال ابن الجوزي – ٥٩٧هـ - : (فإن أعظم النعم على الإنسان العقل لأنه الآلة في معرفة الإله سبحانه والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق الرسل إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب ، فمثال الشرع الشمس ومثال العقل العين فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس ، ولما ثبت عند العقل أقوال الأنبياء الصادقة بدلائل المعجزات الخارقة سلّم إليهم واعتمد فيما يخفى عنه عليهم ، ولما أنعم الله على هذا العالم الإنسي بالعقل افتتحه الله بنبوة أبيهم آدم عليه السلام فكان يعلمهم عن وحي الله عز وجل فكانوا على الصواب إلى أن إنفرد قابيل بهواه فقتل أخاه)[2] .

وقال ابن تيمية – ٧٢٨هـ - : (بل العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال صلاح الأعمال ، وبه يكمل العلم والعمل ، لكنه ليس مستقلاً بذلك ، لكنه غريزة في النفس ، وقوة فيها ، بمنزلة قوة البصر آلة في العين ، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن ، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار)[3] .

وقال ابن القيم – ٧٥١هـ - : (ثم خاصية العقل واللب : التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات بقوة العلم والتمييز ، وإيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، واحتمال أدنى المكروهين التخلص من أعلاهما بقوة الصبر واليقين)[4] .

مما سبق يتبين أن علماء أهل السنة يرون أن العقل له وظيفة محددة وهي الفهم والتمييز ، وأن من كان له عقل فطري سليم لا بد أن يحركه إلى العقل المكتسب بالعلم

(١) المصدر السابق ، ١٤/٢ .

(٢) تلبيس إبليس ، ابن الجوزي ، ٩ - ١٠ ، ت السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٣٨/٣ – ٣٣٩ .

(٤) إغاثة اللهفان ، ابن القيم ، ١٣٢/٢ ، ت محمد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

والتجارب ، وكلما صلح العقل صلح معه العلم والعمل وهذا لا يكون إلا باتباع الكتاب والسنَّة .

وكذلك يتضح مما سبق أن العقل عند أهل السنَّة عقلان : عقل فطري وهو الذي يولد مع الإنسان ، وعقل مكتسب وهو العلم ، وكلاهما يكون متفاوتاً بين الناس .

قال ابن الجوزي : (قد ثبت أن العقل هو الآلة التي عرف بها الإله وحصل به تصديق الرسل والتزام الشرائع وأنه المحرض على طلب الفضائل والمخوِّف من ركوب الرذائل والناظر في المصالح والعواقب فهو مدبر أمر الدارين ومثله كالضوء في الظلمة فقد يقل عند أقوام فيكون كعين الأعشى ويزيد فيكون كنور القبس ويكون عند قوم كضوء الشمعة وعند الكاملين كطلوع الشمس على عين زرقاء اليمامة ولهذا تتفاوت العقلاء في العلوم والأعمال)[(١)] .

إلا أن بعض علماء السنَّة يرون أنَّ العقل فطري فقط ، يقول البربهاري – ٣٢٩هـ : (والعقل مولود أُعطي كل إنسان من العقل ما أراد الله ويتفاوتون في العقول مثل الذرة في السماوات ، ويطلب من كل إنسان من العمل على قدر ما أعطاه من العقل وليس العقل باكتساب إنما هو فضل من الله)[(٢)] .

وأهل السنَّة يحترمون العقل ، ومن احترامهم لـه جعلوه دليلاً يستدل به بعد الكتاب والسنَّة والإجماع على بعض أمور العقيدة وليس كلها ، ولكنهم مع ذلك انتقدوا كثيراً الطوائف والملل التي ادعت استعمال العقل وهم في حقيقة أمرهم معطلون له نافون لوجوده .

قال ابن الجوزي : (قد أوهم إبليس خلقاً كثيراً أنه لا إله ولا صانع وأنَّ هذه الأشياء كانت بلا مكون وهؤلاء لما لم يدركوا الصانع بالحس ولم يستعملوا في معرفته العقل

---

(١) الثبات عند الممات ، ابن الجوزي ، ٢٣ ، ت عبدالله الأنصاري ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ .

(٢) شرح السنة ، البربهاري ، ٣٧ ، ت خالد الردادي ، دار السلف ، دار الصميعي ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

جحدوه وهل يشك ذو عقل في وجود صانع فإن الإنسان لو مر بقاع ليس فيه بنيان ثم عاد فرأى حائطا مبنيا علم أنه لا بد له من بان بناه فهذا المهاد الموضوع وهذا السقف المرفوع وهذه الأبنية العجيبة والقوانين الجارية على وجه الحكمة أما تدل على صانع)[1] .

ثم أنه رحمه الله ذكر عبَّاد النار والقمر والنجوم والملائكة والخيل والبقر ثم قال : (وليس في هؤلاء من أعمل فكره ولا استعمل عقله في تدبير ما يفعل)[2] .

وقد بيَّن أيضاً أن العقل لا يضل إلا باتباع الهوى والشيطان ، فإنهما العدوان اللدودان للعقل ، فقال : (ولما أنعم الله على هذا العالم الإنسي بالعقل افتتحه الله بنبوة أبيهم آدم عليه السلام فكان يعلمهم عن وحي الله عز وجل فكانوا على الصواب إلى أن انفرد قابيل بهواه فقتل أخاه ثم تشعبت الأهواء بالناس فشردتهم في بيداء الضلال حتى عبدوا الأصنام واختلفوا في العقائد والأفعال اختلافاً خالفوا فيه الرسل والعقول اتباعاً لأهوائهم وميلاً إلى عاداتهم وتقليداً لكبرائهم فصدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين)[3] .

لذلك فقد ذمَّ التقليد الأعمى ، وعلَّل ذلك بأنَّ (في التقليد إبطال منفعة العقل لأنه إنماخلق للتأمل والتدبر ، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة)[4] .

إذن فالعقل له شأن كبير عند أهل السنة ، لأنه بسلامة العقل يكون للمرء سعادة الدنيا والآخرة .

قال ابن القيم : (فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ ، والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم

---

(١) تلبيس إبليس ، ابن الجوزي ، ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ، ٧٩ .
(٣) المصدر السابق ، ١٠ .
(٤) المصدر السابق ، ١٠١ .

أموات غير أحياء وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها)[1] .

وعلماء أهل السنة يؤمنون إيماناً يقينياً بأن النقل لا يأتي بما تحيله العقول أبداً ، ولكنه قد يأتي بما تحار به العقول ولا تدركه كعدم إدراكها للغيبيات ، وأنه يجب على المرء المسلم اعتقاده والتسليم للشرع وعدم الجدال والمراء فيه ، قال ابن خزيمة – ٣١١هـ –: (والبيان أن ليس في السنَّة إلا اتباعها ، إذ لو كان من جهة العقل لم يكن لاغتسال النفساء والحيض قبل أن يطهرن – يقصد للإحرام – معنى من جهة العقل والرأي ولكن لمَّا أمر النبي ﷺ النفساء والحيض بالغسل وجب قبول أمره وترك الرأي والقياس)[2] .

وقد بيَّن رحمه الله أن السنَّة اشتملت على أمور موافقة للعقل ، ولا يشك في ذلك من كان له مسكة من عقل ، وذلك في قول الرسول ﷺ : ((أقيموا صفوفكم – ثلاثاً – والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم)) قال النعمان بن بشير رضي الله عنه – وهو راوي الحديث –: (فرأيت الرجل يكون كعبه بكعب صاحبه ، وركبته بركبة صاحبه ، ومنكبه بمنكب صاحبه)[3] .

فقال ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث : (وفي هذا الخبر ما نفى الشك والارتياب أن الكعب هو العظم الناتئ الذي في جانب القدم ، الذي يمكن القائم في الصلاة أن يلزقه بكعب من هو قائم إلى جنبه في الصلاة ، والعلم محيط عند من ركب فيه العقل أن المصلين إذا قاموا في الصف لم يمكن أحد منهم إلصاق ظهر قدمه بظهر قدم غيره وهذا غير ممكن ، وما كونه غير ممكن لم يتوهم عاقل كونه)[4] .

وهو بقوله هذا يرد على الرافضة الذين ادعوا أن الكعب هو مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك[5] من النعل .[6]

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ، ابن القيم ، ٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .
(٢) صحيح ابن خزيمة ، ١٦٠/٤ ، ت محمد الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م .
(٣) رواه البخاري ، كتاب الأذان ، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها ، رقم الحديث ٧١٧ .
(٤) صحيح ابن خزيمة ، ٨٢/١ .
(٥) الشراك : هو سير النعل التي تكون على وجهها ، انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ٤٥١/١٠ .
(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ٥٥٣/٢ .

لذلك قال الأصبهاني – ٥٣٥هـ - : (والأصل الآخر : أن يُعلم أنه ليس ما لا يدركه العقل فلا يجوز اعتقاده في الدين ، وقد غلط الناس في هذا غلطاً عظيماً فجعلوا ما يعجز العقل عن الإحاطة به مستحيلاً في باب الدين ، وقالوا لا يجوز أن يُعتقد إلا ما يدركه العقل .

وإنما قول أهل السنَّة : أن ما لا يدركه العقل فمن حقه التوقيف وتفويض علمه إلى الله تعالى ، وترك الخوض فيه)[(١)] .

وقد وصف الإمام اللالكائي – ٤١٨هـ - حال من يحكّم عقله في دين الله قائلاً : (فهو دائب الفكر في تدبير مملكة الله بعقله المغلوب وفهمه المقلوب . . . راكض ليله ونهاره في الرد على كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ والطعن عليهما ، أو مخاصماً بالتأويلات البعيدة فيهما ، أو مسلطاً رأيه على ما لا يوافق مذهبه بالشبهات المخترعة الركيكة حتى يتفق الكتاب والسنَّة على مذهبه وهيهات أن يتفق)[(٢)] .

وبسبب هذا الأمر ذم أهل السنة علم الكلام المبني على الأدلة العقلية البحتة ، وبيَّنوا أن التعمق فيه لا يأت بخير ، وإنما يؤدي إلى الشكوك والحيرة ، قال ابن الجوزي : (وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك وكثير منهم إلى الإلحاد تشم روائح الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين وأصل ذلك أنهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع وطلبوا الحقائق وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكمة التي انفرد بها ولا أخرج الباري من علمه لخلقه ما عَلِمَهُ هو من حقائق الأمور)[(٣)] .

وقال ابن أبي العز الحنفي – ٧٩٢هـ - : (والفهم هو ما يحصله العقل ويحيط به والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى وإنما نعرفه سبحانه بصفاته وهو أنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . . .)[(٤)] .

---

(١) الحجة في بيان المحجة ، قوام السنة ، ٦٦/٢ .
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/ ٩ – ١٠ .
(٣) تلبيس إبليس ، ابن الجوزي ، ١٠٥ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ٨٤ .

وقال البغوي – ٣١٧هـ - : (والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل)[(١)] .

وأهل السنَّة كانوا يحذِّرون من أصحاب العقول الفاسدة أهل الأهواء والبدع ، وينهون عن مجالستهم والسماع منهم حتى ولو كان بنية الردّ عليهم وكشف عوار مذهبهم، لذا فإنَّ الإمام أحمد – ٢٤١هـ - كان يرى (ترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء)[(٢)] .

وقال ابن بطة – ٣٨٧هـ - : (فإن المجالسة لهم ومناظرتهم ، تَعِدُ[(٣)] ، وتُفِرُّ ، وتضر، وتمرض القلوب ، وتدنس الأديان ، وتفسد الإيمان ، وترضي الشيطان وتسخط الرحمن)[(٤)] .

وقال اللالكائي : (فما جنى على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة ولم يكن لهم قهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمداً ودرداً[(٥)] ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلاً حتى جاء المغرورون ففتحوا لهم إليها طريقاً وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلاً حتى كثرت بينهم المشاجرة وظهرت دعوتهم بالمناظرة وطرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة حتى تقابلت الشبه في الحجج وبلغوا من التدقيق في اللجج فصاروا أقراناً وأخداناً وعلى المداهنة خلاناً وإخواناً بعد أن كانوا في الله أعداءً وأضداداً وفي الهجرة في الله أعواناً يكفرونهم في وجوههم عياناً

---

(١) تيسير العزيـز الحميد ، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ، ٦٢٠ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٨ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) أصول السنة ، أحمد بن حنبل ، ٣٠ .

(٣) العِدَادُ : اهتياج وجع اللديغ وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ هاج به الألم ، والعِدَدُ : مقصور منه وقد جاء ذلك في ضرورة الشعر . لسان العرب ، ابن منظور ، ٢٨٣/٣ ، وابن بطةرحمه الله شبه الجلوس مع أصحاب الأهواء بلدغ الحية والعقرب فهي تؤذي وتراجع الإنسان في أوقات معلومة ويعاود ألم سمها بين الحين والآخر .

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة ، ٣١٧/٢ ، ت عثمان الأثيوبي ، دار الراية الرياض ، ط ١ ، ١٤١٨هـ .

(٥) الدرد : ذهاب الأسنان . لسان العرب ، ابن منظور ، ١٦٦/٣ .

ويلعنونهم جهاراً وشتان ما بين المنزلتين وهيهات ما بين المقامين)[1] .

وأهل السنَّة جعلوا ميزانهم الكتاب والسنَّة ، فهم يعرضون أحكام العقل عليهما فإنْ وافقت قُبِلَت وإنْ خالفت رُدَّت ، وهو عكس ما عليه أهل الكلام المذموم الذين جعلوا العقل ميزاناً وحاكماً على الكتاب والسنَّة .

قال الأصبهاني : (وإنما قول أهل السنَّة : أن ما لا يدركه العقل فمن حقه التوقيف وتفويض علمه إلى الله تعالى ، وترك الخوض فيه ، ولا نقول إنه يُعرض على ميزان العقول فإن استقام قُبل وإلا طُرِحَ فهذا مذهب من يبني دينه على المعقول)[2] .

وقال الشاطبي – ٧٩٠هـ – : (. . . ووجه آخر وهو أن العقل لما ثبت أنه قاصر الإدراك في علمه ، فما ادعى علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التي زعم أنه أدركها ، لإمكان أن يدركها من وجه دون وجه ، وعلى حال دون حال ، والبرهان على ذلك أحوال أهل الفترات ، فإنهم وضعوا أحكاماً على العباد بمقتضى السياسات لا تجد فيها أصلاً منتظماً وقاعدة مطردة على الشرع بعد ما جاء ، بل استحسنوا أموراً تجد العقول بعد تنويرها بالشرع تنكرها ، وترميها بالجهل والضلال والبهتان والحمق ، مع الاعتراف بأنهم أدركوا بعقولهم أشياء قد وافقت وجاء الشرع بإقرارها وتصحيحها ، ومع أنهم كانوا أهل عقول باهرة وأنظار صافية وتدبيرات لدنياهم غامضة ، لكنها بالنسبة إلى ما يصيبوا فيه قليلة فلأجل هذا كله وقع الإعذار والإنذار ، وبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولله الحجة البالغة ، والنعمة السابغة)[3] .

ولو نظرنا إلى استعمال أهل السنة للعقل لوجدناهم خير أناس استعملوه وأبلوا فيه بلاءً حسناً ، فبسبب ازدياد إقحام العقل في مسائل العقيدة والقول بالرأي كثرت ردود علماء أهل السنَّة على المبتدعة الذين ادعوا العقل واتهموا أهل السنَّة بالجمود والركود

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/١٩ .
(٢) الحجة في بيان المحجة ، قوام السنة ، ٢/٦٦ .
(٣) الاعتصام ، الشاطبي ، ٥٢٠ .

العقليين .

وقد كانت هذه الردود قوية مفحمة مسكتة للخصم ، وهذه المميزات تنبع من انضباط منهجهم ، وسلامة فهمهم للنصوص ، وتقسيماتهم الدقيقة للأمور ، وسوف أستعرض بعض النماذج من كتبهم لبيان هذا الأمر .

أول نموذج نطالعه هو كتاب (الإيمان) لأبي عبيد القاسم بن سلام — ٢٢٤هـ- فقد بدأ كتابه بتقسيم الناس في الإيمان إلى طائفتين : الطائفة الأولى هم أهل السنَّة والجماعة ، والطائفة الثانية هم المخالفون لأهل السنَّة .

ثم بيَّن أنَّ الكتاب والسنَّة يصدقان الطائفة الأولى ، وينفيان ما قالت الثانية[(١)] ، ثم أخذ يسرد الحجج في ذلك ، فكانت حججاً باهرة وأدلة قاهرة وبراهين ثابتة .

فكان أول ما يستدل بالكتاب والسنة ثم يأتي بأدلة عقلية تقمع شبهة الخصم نهائياً ، ومثال ذلك استدلاله على مسألة اتحاد الناس في اسم الإيمان مع تفاضلهم فيه فقال : (فإنا وجدنا الأمور كلها يستحق الناس بها أسماؤها مع ابتدائها والدخول فيها ، ثم يفضل فيها بعضهم بعضاً ، وقد شملهم فيها اسم واحد ، من ذلك أنك تجد القوم صفوفاً بين مستفتح للصلاة ، وراكع وساجد ، وقائم وجالس ، فكلهم يلزمه اسم المصلي ، فيقال لهم مصلون ، وهم مع هذا فيها متفاضلون .

وكذلك صناعات الناس ، لو أن قوماً ابتنوا حائطاً وكان بعضهم في تأسيسه ، وآخر قد نصفه ، وثالث قد قارب الفراغ منه ، قيل لهم جميعاً بناة ، وهم متباينون في بنائهم .

وكذلك لو أن قوماً أمروا بدخول دار ، فدخلها أحدهم ، فلما تعتب الباب أقام مكانه ، وجاوزه الآخر بخطوات ، ومضى الثالث إلى وسطها ، قيل لهم جميعاً داخلون ، وبعضهم فيها أكثر مدخلاً من بعض ، فهذا الكلام المعقول عند العرب السائر فيهم ، فكذلك المذهب في الإيمان)[(٢)] .

---

(١) انظر : الإيمان ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٧ .

وهذا دليل من أدلة كثيرة ذكرها الإمام رحمه الله في هذا الكتاب ، وهي أدلة تنبئ عن علم غزير وواسع ، وهو من رجال أهل السنَّة الأفذاذ .

النموذج الثاني هو كتاب (الحيدة) لعبدالعزيز الكناني — ٢٤٠هـ - الذي يعتبر من أفضل كتب أهل السنة في الرد على القائلين بخلق القرآن .

وقد ناظر الكناني بشراً المريسي[(١)] المبتدع في حضرة الخليفة المأمون ، فأظهر علماً لا يجارى وعقلاً لا يبارى ، فكان سريع البديهة قوي الحجة أسكت خصمه وأرجعه إلى جحره خاسئاً خائباً .

وقد بدأت المناظرة بتحكيم كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ في كل اختلاف بين الكناني والمريسي ، ثم لما عجز المريسي عن مواصلة ذلك ، اتفقا أن يكون الأصل الذي تدور عليه المناظرة هو النظر والقياس فكانت الغلبة للكناني مع أن الذي طلب تحكيم النظر والقياس هو المريسي نفسُه[(٢)] ، وهذا يدل على أن أهل السنَّة قد برعوا في الاستدلال بالعقل أكثر من مدعي العقل أنفسهم ، وهذا بالطبع يعود إلى سلامة عقيدتهم وانضباط منهجهم وعدم استدلالهم بالعقل ابتداءً .

وكان الكناني في هذه المناظرة يتحلى بقوة العزم والإصرار على الرد على خصمه وعدم تأجيل الرد إلى وقت آخر ، وذلك عندما طلب المريسي من المأمون أن يأمر الكناني بعدم مطالبته بنص التنزيل وأن يناظره بالنظر والقياس ، قال المأمون : (لهذا مجلس غير هذا تتناظرون فيه) ولكن الكناني أصر على مناظرته في تلك الساعة ، وأن لا يؤجل هذا

---

(١) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة ، أبو عبد الرحمن المريسي مولى زيد بن الخطاب ، وبشر من أصحاب الراي أخذ الفقه عن أبي يوسف القاضي إلا أنه اشتغل بالكلام وجرد القول بخلق القرآن وحكى عنه أقوال شنيعة ومذاهب مستنكرة أساء أهل العلم قولهم فيه بسببها وكفره أكثرهم لأجلها ، وصنف كتابا في التوحيد و كتاب (الإرجاء) وكتاب (الرد على الخوارج) وكتاب (الاستطاعة) و (الرد على على الرافضة في الإمامة) وكتاب (كفر المشبهة) وكتاب (المعرفة) وكتاب (الوعيد) وأشياء غير ذلك في نحلته ، مات سنة ٢١٨هـ . انظر : تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، ٧/ ٥٦ — ٦٦ ، دار الكتب العلمية ، بيروت . ووفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ١/ ٢٧٧ — ٢٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ١٩٩ — ٢٠٢ .

(٢) انظر : الحيدة ، عبدالعزيز الكناني ، ١٢٤ ، ت جميل صليبا ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

الأمر إلى وقت آخر ، ثم قال الكناني : (فإن أقام بشر عليَّ الحجة كما زعم ، وأقررت بشيء مما قال ، أو رجعت عن شيء مما قلت ، فدمي حلال)[1] .

والقارئ لهذا المناظرة يتبين له علوماً جمة كان يحويها صدر هذا الرجل ، وقد كان المأمون يستمع له بشغف ولهفة لما رأى من علمه وفقهه .

فقد تحدث رحمه الله عن الخصوص والعموم في القرآن ، وأنه أربعة أقسام وهو أمر معروف عند من عقل لغة العرب ، وغير ذلك من العلوم المفيدة[2] .

النموذج الثالث هو كتاب (الرد على الجهمية والزنادقة) للإمام أحمد بن حنبل ، الذي يردُّ فيه على الزنادقة القائلين بتناقض آيات القرآن الكريم ، ومثال ذلك قوله رحمه الله : (وأما قوله عز وجل ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ، وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[3] ثم في آية أخرى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[4] فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ . . . فزعموا أن هذا الكلام ينقض بعضه بعضاً فشكُّوا في القرآن .

فهذا أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون فذلك قوله ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾[5] فإذا أذن لهم في الكلام فتكلموا واختصموا فذلك قوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ عند الحساب وإعطاء المظالم ثم يقال لهم بعد ذلك ﴿ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾[6] أي عندي { وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ فإن العذاب مع هذا القول كائن)[7] .

---

(١) المصدر السابق ، ١٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ٧٤ .
(٣) المرسلات : ٣٥ .
(٤) الزمر : ٣١ .
(٥) السجدة : ١٠٢ .
(٦) ق : ٢٨ .
(٧) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ٨٧ ، ت عبدالرحمن عميرة ، دار اللواء ، الرياض ، ط ٢ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

وذكر في كتابه هذا الجهم بن صفوان[1] ، ومناظرته للسمنية[2] التي أورثته الشك والحيرة والتخبط في دين الله ، والقول على الله بغير علم ، مما أدى به إلى بناء مذهبه على أصول عقلية فاسدة[3] .

وقد احتـوى الكتاب ردوداً قويـة على القائلين بخلـق القرآن ، منها تفصيل القـول في معنى كلمة (جَعَـلَ)[4] ، ومنها ردُّه على مسألـةٍ طَرَحَها الجهمي الخبيث وهـي: هل القـرآن هو الله أو غير الله ؟[5] وسيأتي بيان الردود على هذه الشبه في موضعهـا إن شاء الله .

وبين رحمه الله أن ضلال هؤلاء الجهمية والزنادقة إنما هو تحريف آيات القرآن ، وأنه بسبب هذا التحريف نفيت كثير من صفات الله سبحانه وتعالى مثل صفة العلو والكلام والعلم[6] ، ونفيت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة[7] ، وتُخُبِّط في صفة المعيّة والقرب[8] ، وتُأُوِّلَ قول الله تعالى ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾[9] .

والمقصود أن ردوده رحمه الله على المبتدعة كانت تدل على عمق فهمه للنصوص

---

(١) هو جهم بن صفوان ، ابو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكاتب المتكلم أس الضلالة ورأس الجهمية ، كان صاحب ذكاء وجدال ، كتب للامير حارث بن سريج التميمي ، وكان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه ويقول بخلق القرآن ويقول ان الله في الامكنة كلها ، قال ابن حزم كان يخالف مقاتلاً في التجسيم وكان يقول الايمان عقد بالقلب وان تلفظ بالكفر ، قيل إن سلم بن احوز قتل الجهم لانكاره ان الله كلم موسى ، وذلك في سنة ١٢٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/ ٢٦ – ٢٧ ، مع حاشية المحقق .

(٢) السمنية : هم الذين قالوا بقدم العالم ، وقالوا أيضاً بإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس ، وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت ، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة ، وأجازوا أن ينقل روح الإنسان الى كلب وروح الكلب الى إنسان ، وزعموا ان من أذنب في قالب ناله العقاب على ذلك الذنب في قالب آخر ، وكذلك القول في الثواب عندهم ، ومن أعجب الأشياء دعوى السمنية في التناسخ الذى لا يعلم بالحواس مع قولهم أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس . انظر : الفرق بين الفرق ، عبدالقاهر البغدادي ، ٢٧٠ – ٢٧١ ، محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار المعرفة ، بيروت .

(٣) انظر : الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٠١ – ١٠٤ .

(٤) المصدر السابق ، ١٠٦ – ١٠٩ .

(٥) المصدر السابق ، ١١٠ .

(٦) المصدر السابق ، ١٤١.

(٧) المصدر السابق ، ١٠٤.

(٨) المصدر السابق ، ١٤٠.

(٩) الحديد : ٢ .

وسعة علمه ورسوخه فيه ، وأنه استعمل عقله دون تخبط في دين الله ولا ضلال ، وله كتب أخرى في العقيدة مثل كتاب (فضائل الصحابة) و (أصول السنة) .

النموذج الرابع هو كتاب (الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة) للإمام عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري – ٢٧٦هـ - وهو كتاب يردُّ فيه على أهل الكلام عموماً ، وذكر سبب تأليفه للكتاب بأنه لمَّا رآى أمر البدع قد اشتد في كثير من مسائل العقيدة ، كالصفات ، والقدر ، وأمور الآخرة ، لم ير لنفسه عذراً في ترك ما أوجبه الله عليه بما وهب له من فضل المعرفة في أمر قد استفحل[(١)] .

وقد صدَّر رحمه الله كتابه بذكر بعض ما تأولته الجهمية في الكتاب والحديث ، وكانت أكثر ردوده عليهم في تأويلهم عن طريق اللغة[(٢)] .

ثم ذمَّ علم الكلام والقياس الفاسد ، فقال : (فأما الكلام فليس من شأننا ولا أكثر من هلك إلا به وبحمل الدين على ما يوجبه القياس .

ألا ترى أن أهل القدر حين نظروا في قدر الله الذي هو سره بآرائهم وحملوه على مقاييسهم أرتهم أنفسهم قياساً على ما جعل في تركيب المخلوق من معرفة العدل من الخلق على الخلق ، أن يجعلوا ذلك حكماً بين الله وبين العبد فقالوا بالتخلية والإهمال ، وجعلوا العباد فاعلين لما لا يشاء وقادرين على ما لا يريد)[(٣)] .

ثم ردَّ على الجبرية الذين قابلوا إفراط النفاة بالإفراط في الإثبات[(٤)] ، وعلى نفاة الصفات والقائلين بالمجاز والزاعمين أن صفات الله كلها معنى واحد[(٥)] ، وعلى القائلين بخلق القرآن[(٦)] ، وعلى المشبهة[(٧)] ، وعلى النواصب والروافض[(٨)] .

---

(١) انظر : الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية ، ابن قتيبة ، ٢٠ ، ت عمر بن محمود أبو عمر ، دار الراية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
(٢) المصدر السابق ، ٢١ .
(٣) المصدر السابق ، ٢١ – ٢٢ .
(٤) المصدر السابق ، ٣٠ .
(٥) المصدر السابق ، ٣٦ .
(٦) المصدر السابق ، ٣٨ .
(٧) المصدر السابق ، ٥٢ .
(٨) المصدر السابق ، ٥٤ .

ثم في نهاية الكتاب تحدث عن مسألة اللفظ بالقرآن وهي الهدف من تأليف الكتاب ، ففصل القول فيها تفصيلاً دقيقاً ، وسأذكر بعض كلامه في هذا ، لأن المقام لا يسمح بذكر جميع ما قاله وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله .

قال رحمه الله : (أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنيين : أحدهما : عمل ، والآخر : قرآن .

إلا أن العمل لا يتميز من القرآن كما يتميز الأكل من المأكول فيكون المأكول الممضوغ والمبلوع ، ويكون الأكل المضغ والبلع .

والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه وحده و إنما يقوم بواحدة من أربع : كتابة أو قراءة أو حفظ أو استماع ، فهو بالعمل في الكتابة قائم ، و العمل بالخط و هو مخلوق ، و المكتوب قرآن و هو غير مخلوق ، و هو بالعمل في القراءة قائم والعمل تحريك اللسان و اللهوات بالقرآن وهو مخلوق ، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق .

وهو بالاستماع قائم في السمع ، والاستماع عمل وهو مخلوق ، والمسموع قرآن غير مخلوق)[1] .

وختم الكتاب بذكر مناظرة حدثت بينه وبين جهمي في خلق القرآن فخصمه ابن قتيبة بلازم قوله في خلق أفعال العباد[2] .

وهذا التقسيم من ابن قتيبة و هذه المناظرة بل الكتاب كله من أوله إلى آخره يدل على عقلية خصبة فذَّة ، متبعة للكتاب والسنة ، عالمة بلغة العرب ، راسخة في العلم عميقة في الفهم ، وهذا أمر ليس بغريب على علماء أهل السنة ولا بعيد .

وقد سار علماء أهل السنة على هذا الطريق من ذاك اليوم إلى يومنا هذا[3] في الرد

(١) المصدر السابق ، ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ٦٧ .

(٣) فلو تأملنا - على سبيل المثال - في كتاب الشيخ : محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى (القول المفيد على كتاب التوحيد) لوجدنا جملة من التقسيمات والبيان لكثير من الأمور العقدية التي خفيت على معظم الناس.

على الفرق المخالفة ، والتقسيم للأمور المشتبهة المشكلة ، وبيانهم لما يستحق أن يثبت منها وما يستحق أن ينفى ، فطريقة أهل السنة التبيين والشرح والإظهار لمن أشكلت عليه الأمور واختلطت ، فمن اتبعهم كان متبعاً لله ورسوله ﷺ ، ومن خالفهم كان مخالفاً لهما .

الفصل الثالث

العلاقة بين العقل والنقل عند أهل السنة

ويشمل :

المبحث الأول : موافقة النقل الصحيح للعقل الصريح عند أهل السنة .

المبحث الثاني : موقف أئمة أهل السنة من الذين ادعوا التعارض بين العقل والنقل .

المبحث الأول

موافقة النقل الصحيح للعقل الصريح

عند أهل السنة

عند الحديث عن العقل الصريح وموافقته للنقل الصحيح عند أهل السنة ، ينبغي أولاً أن أتحدث عن الفطرة السليمة الصحيحة ، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي الإقرار بوجود الله ووحدانيته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته .

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأشهده على الإقرار بالتوحيد وهو ما زال في ظهر أبيه آدم عليه السلام ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾(١) .

فإن الله تعالى في هذه الآية يخبر أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه فطرهم على ذلك وجبلهم عليه(٢) ، قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : ((كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء))(٤) .

وقال ﷺ فيما يروي عن ربه : ((. . . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ٢٦٢/٢ ، وانظر : تفسير الطبري ، ١١١/٩ ، وتفسير القرطبي ، ٣١٤/٧ .

(٣) الروم : ٣٠ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، رقم الحديث ١٣٨٥ .

يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً . . .))[1] .

فالفطرة إذن هي صنعة الله التي خلق الناس عليها وهي الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك ، وقد قال بهذا كبار المفسرين كمجاهدٍ وغيره[2] .

وعلى هذا فالإنسان يولد وفطرته سليمة صحيحة ، فإذا استمر على هذه الفطرة السليمة لم تتغير ولم تتبدل فإن عقله وفهمه للوحي يكون سليماً صحيحاً نقياً ، ولكن مع فساد الفطرة يفسد العقل ويختل فهمه .

وأهل السنة والجماعة هم أهل الفطر السليمة والعقول الصريحة الصحيحة لذلك فإنهم رأوا أن النقل أو الوحي موافق للعقل تماماً ولا يعارضه في أي أمر من الأمور .

قال ابن القيم : (أن الحجج السمعية مطابقة للمعقول والسمع الصحيح لا ينفك عن العقل الصريح بل هما أخوان نصيران وصل الله بينهما وقرن أحدهما بصاحبه ، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[3] فذكر ما يُنال به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل ، وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[4] فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل ، وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[5] ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[6] وقال ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[7] فدعاهم إلى استماعه بأسماعهم وتدبره

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث ٢٨٦٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ٢١/٤٠ ، وتفسير القرطبي ، ١٤/٢٩ .

(٣) الأحقاف :٢٦ .

(٤) الملك : ١٠ .

(٥) يونس : ٦٧ .

(٦) الرعد : ٤ .

(٧) محمد : ٢٤ .

بعقولهم ومثله قوله ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2] فجمع سبحانه بين السمع والعقل وأقام بهما حجته على عباده فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلا فالكتاب المنزل والعقل المدرك حجة الله على خلقه)[3] .

ومن الأمور التي تقر بها الفطرة ويوافقها فيها العقل هو معرفة الله سبحانه وتعالى والإقرار بوجوده[4] ، وبيَّن ابن تيمية أن إثبات وجود الله عن طريق الآيات هو الواجب كما نزل بذلك القرآن ، وفطر الله عليه عباده ، ولكنه أكد أيضاً على أن الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات ، لأنها فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات لم تعلم أن هذه الآية له ، فإن كونها آية له ودلالة عليه مثل كون الاسم يدل على المسمى ، فلا بد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك وعرف أن هذا اسم له ، والطرق العقلية الفطرية في معرفة الخالق هي التي جاء بها القرآن واتفق العقل والشرع وتلازم الرأي والسمع[5] .

ودليل هذه المعرفة الفطرية للخالق تبارك وتعالى التي لا تحتاج إلى استدلال قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وقوله ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾[6] فقد ذكر سبحانه نفسه في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف ، أي أنه معروف عند المخاطبين ، فالرب سبحانه معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق وإن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق ، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ، ومعرفته فطرية مغروزة ضرورية بديهية أولية[7] .

---

(١) المؤمنون : ٦٨ .

(٢) ق : ٣٧ .

(٣) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٢/ ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢/٦ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٤٨ — ٤٩ .

(٦) العلق : ١ — ٣ .

(٧) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٦/٣٢٤ .

ومع معرفة الفطرة لله فهي أيضاً تستلزم محبته وتخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد وهو التوحيد ، وهذا معنى قول (لا إله إلا الله) كما جاء مفسراً قوله ﷺ : ((ما من مولود يولد إلا وهو على الملة)) وفي رواية ((إلا على هذه الملة))[1] [2] .

ومما تستلزمه الفطرة أيضاً أن الله سبحانه وتعالى له صفات الكمال فليس له كفؤ وليس كمثله شيء ، وهذا الأمر مستقر في فطر الناس ، فكما أنهم مفطورون على الإقرار به سبحانه ، فهم مفطورون أيضاً على أنه أجلُّ وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء ، ولا يحتاج الإنسان الأدلة على ذلك إلا عند فساد فطرته[3] .

ومن الفطرة أيضاً محبة الحق وبغض الباطل ، ومهمة الرسل كانت تذكير الناس بفطرتها وبما هو معلوم لها وتقويته وإمداده ونفي المغير للفطرة ، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغييرها[4] .

وقد أنكر أهل الكلام المذموم هذه الفطرة ، وادعوا أن هذه المعرفة لا تكون إلا بإقامة الأدلة العقلية عليها ، وهذا يعتبر من أحد الأمور التي من أجلها ذم السلف علم الكلام[5] .

وقد تبيَّن أن الفطرة هي الإسلام ، والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع له والافتقار والاضطرار إليه ، فالجميع مقرون بالخالق سبحانه ، وهم خاضعون مستسلمون قانتون مضطرون من وجوه :

أولاً : علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه .

ثانياً : دعاؤهم إياه عند الاضطرار .

ثالثاً : خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيئته .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، رقم الحديث ٢٦٥٨ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٦/ ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ٦/ ٧٢ — ٧٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ٥٢٨/٧ ، ٣٤٨/١٦ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ٣٤٠/١٦ .

رابعاً : انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء[1] .

إذن هذه هي الفطرة ، وهذه هي الأمور التي تقتضيها إذا كانت صحيحة سليمة ، فمن لم تتغير فطرته ولم تتبدل فإنه يؤتى قلباً سليماً ، وعقلاً صحيحاً ، وهذان هما ركنا الفطرة ، لا تقوم إلا عليهما ، وإذا اختل أحدهما سرى الخلل إليها ، فيهتز حينئذ كيانها، ويدمر بنيانها[2] .

فتجد عقل من كانت فطرته سليمة مسلّم للوحي تسليماً تاماً وموافقهُ موافقةً كاملة ، وكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (درء تعارض العقل والنقل) أو (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) شاهد على ذلك ، حيث أنه في ردوده - رحمه الله – على المخالفين في موافقة العقل للنقل كان دائم التقرير للعلوم الفطرية التي غرسها الله في عباده ، مثل مسألة إثبات الصانع ، ومسألة إثبات الصفات كالعلو والعلم والاستواء وغير ذلك على الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، ومثل مسألة معرفة الله سبحانه في قلب العبد هل هي فطرية أم أنها تكون بالنظر مع ترجيحه للقول الأول .

وابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه (الصواعق المرسلة) قرر أن العقل لا يخالف النقل بحال من الأحوال ، فإنَّ ما عُلِم بصريح العقل الذي لا يختلف فيه العقلاء لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ولا يأتي بخلافه ، ومن تأمل ذلك في ما ينازع العقلاء فيه من المسائل الكبار ، وجد ما خالفت النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للنقل ، فإن المتأمل في مسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد ، يجد ما يدل عليه صريح العقل لم يخالفه سمع قط بل السمع الذي يخالفه ، إما أن يكون حديثا موضوعا ، أو لا تكون دلالته مخالفة لما دل عليه العقل[3] ، أي بمعنى أن الخلل إما أن يكون في النقل أو في فهم العقل الناظر .

قال رحمه الله : (إنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دل العقل الصريح على إثباتها

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١/٤٥ .

(٢) دعوة الفطرة ، يوسف محيي الدين أبو هلالة ، ١٩ — ٣٤ ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ .

(٣) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٣/٨٢٩ .

لله ، فقد تواطأ عليها دليل العقل ودليل السمع ، فلا يمكن أن يعارض بثبوتها دليل صحيح البتة لا عقلي ولا سمعي ، بل إن كان المعارض سمعيا كان كذباً مفترى أو مما أخطأ المعارض في فهمه ، وإن كان عقلياً فهو شبه خيالية وهمية لا دليل عقلي برهاني ، واعلم أن هذه دعوى عظيمة . . . ويعرفها من نوَّر الله قلبه بنور الإيمان ، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل ، وأقرت به الفطر ، وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة)[(١)] .

ومن المسائل التي أقرها العقل وجاء بها النقل مسألة علو الله سبحانه وتعالى على خلقه ، فقد ذكر رحمه الله ما يقارب ثلاثين طريقاً بيَّن فيها عدم معارضة العقل للنقل ، وأنهما متوافقان متطابقان[(٢)] .

ومن هذا فإن أهل السنة يرون أن العقل أحد الأدلة التي يحتج بها على المسائل العقدية مع دلالة الفطرة والنقل ، قال ابن القيم في نونيته :

وأتى فريــق ثم قال ألا اسمعوا ... قد جئتكم من مطـــلع الإيمان
من أرض طيبة من مهاجر أحمد ... بالحق والبرهان والتبـــــيان
سافرت في طلب الإله فدلني ال ... هادي عليه ومحــــكم القرآن
مع فطرة الرحـــمن جل جلاله ... وصريح عقـــلي فاعتلى ببيان
فتوافق الوحي الصريح وفطرة الـ ... ـرحمن والمعقـــول في إيماني
شهدوا بأن الله جـــل جلاله ... متفـــــرد بالملك والسلطان
وهو الإله الحق لا معبـــود إلا ... وجهه الأعلى العظيم الشـــان
بل كل معبود ســـواه فباطل ... من عرشه حتى الحضيض الداني[(٣)]

فكون أهل السنة يعتبرون العقل من أدلة الاحتجاج ، فإن هذا يعني أنهم يرون

---

(١) المصدر السابق ، ٣/٩٠٩ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ٤/ ١٢٧٧ — ١٣٤٠ .
(٣) شرح قصيدة ابن القيم المسماة (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد) ، أحمد بن إبراهيم بن حمد عيسى ، ١/٢٥٢ ، ت زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٦هـ .

الموافقة التامة بين العقل والنقل .

وكذلك فإن أهل السنة يرون أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بمحالات العقول وإنما أخبروا بمحاراتها ، وهذا يعود إلى أمرين :

الأول : أن الناس يتفاوتون في عقولهم ، فالعلماء والعقلاء يفهمون من النصوص ما لا يفهمه من هو دونهم بقليل أو بكثير.

الثاني : أن هناك أموراً لا يحيط بإدراكها العقل مهما كانت قوته وذكائه ، وهذه الأمور هي الأخبار الغيبية التي لا يعلمها الإنسان إلا عن طريق الوحي ، ومعلوم أن موقف أهل السنة تجاه هذه الأمور هو التسليم التام لله ورسوله .

وهذه المعلومات الغائبة التي لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحس والعقل ، بل لا نسبة بينهما بوجه من الوجوه ، فإن ما يدرك بالسمع أعم وأشمل ، وما يدرك بالبصر أتم وأكمل ، فهذا له القوة والتمام ، وذاك له العموم والإحاطة[1] .

ولهذا أرسل الله الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى الناس ونبأهم من هذا الغيب بما يشاء وأطلعهم منه على ما يطلع عليه غيرهم ، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2] لذلك كانت العلوم التي جاء بها الأنبياء هي العلوم الحقيقية طلباً وخبراً ، فهي مزكية للنفوس ، مكملة للفطر ، مصححة للعقول ، وكل ما عارض هذه العلوم فهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ، وهو الخرص والكذب[3] .

وهذا يعتبر وجه من أوجه موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح عند أهل السنة .

وكذلك من أوجه الموافقة أن العقل شاهد لخبر الرسول بأنه صدق وحق ، وهذا يتبين

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٣/ ٨٧٣ - ٨٧٤ .

(٢) آل عمران : ١٧٩ .

(٣) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٨٧٦/٣ .

في أن دليل العقل هو عبارة عن إخبار العقل عن الذي خلقه وفطره أنه وضع فيه ذلك وعلمه إياه وأرشده إليه وهو الله سبحانه وتعالى ، أما دليل السمع فهو الخبر عن الله أنه قال ذلك وتكلم به وأوحاه وعرَّف به الرسول وأمره أن يُعرِّف الأمة ويخبرهم به ، ولا يكون أحدهما – أي دليل العقل أو دليل السمع - صحيحاً حتى يكون الآخر مطابقاً لُمخْبَرِهِ وأن الأمر كما أخبر به ، وحينئذ فقد شهد العقل لخبر الرسول بأنه صدق وحق ، فعلمنا مطابقته لمخبره بمجموع الأمرين بخبر الرسول به وشهادة العقل الصريح بأنه لا يكذب في خبره ، وأما خبر العقل عن الله بما يضاد ذلك بأن الله وضع فيه ذلك وعلمه إياه، فلم يشهد الرسول للعقل بصحة هذا الخبر بل شهد ببطلانه ، فليس مع العقل إلا شهادته لنفسه بأنه صادق فيما أخبر به ، فكيف يقبل شهادته لنفسه مع عدم شهادة الرسول له ؟ بل كيف يقبل العقل شهادته لنفسه مع تكذيب الرسول إياه ؟ بل كيف مع تكذيب العقل الصريح المؤيد بنور الوحي له ؟[1] .

وكذلك فإن أهل السنة يرون أن من موافقة العقل للنقل أن الميسر للناس قبل ورود الشرع هو الفطرة والعقل ، والله سبحانه وتعالى إنما خلق الناس لعبادته ، وهو سبحانه الحكيم العليم القدير ، فقد خلقهم على الهيئة التي ترشحهم لمعرفته ومعرفة ما فرض عليهم من الإيمان به ، لأن ذلك رأس العبادة وأساسها[2] .

ولكن مع هذا يؤكد ابن تيمية أن العقول إذا تركت وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر لم تعرف الله معرفة تفصيلية بصفاته وأسمائه على وجه اليقين ، لأن عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل واستصغى لذلك ، واستأنس به[3] .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٣/ ٩٠٧ – ٩٠٨ .

(٢) انظر : القائد إلى تصحيح العقائد ، عبدالرحمن بن يحيى المعلمي ، ٣٣ ، ت محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت - دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٣) انظر : الصارم المسلول ، ابن تيمية ، ٢/ ٤٥٩ ، ت محمد الحلواني ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧هـ .

نصبت إلا لتتلقاها عقول المكلفين حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت أحكام التكليف، سواء كانت هذه الأدلة على الأحكام الإلهية[١] أو على الأحكام التكليفية[٢][٣].

والنقل وافق عقول الكفار في عهد الرسول ﷺ ، بدليل أنهم قالوا عنه ساحر ومجنون وشاعر ، ولم يقولوا أن القرآن لا يُعقل أو مخالف للعقول أو ما أشبه ذلك ، وهذا يدل على أنهم عقلوه وفهموه ولكنهم ردوه مكابرة وعناداً[٤].

وفي المقابل أيضاً فإن الصحابة رضوان الله عليهم الذين هم أفضل وأعقل الناس بعد رسوله ﷺ ، وكذلك التابعين لهم بإحسان ، قد انقادوا لكتاب الله العزيز وسنة رسوله ﷺ وعملوا بهما وأطاعوا ولم يعترضوا ، فانقيادهم هذا وطاعتهم هذه تدل على أن النقل قد وافق عقولهم تمام الموافقة ، مع أن الصحابة كانوا قبل الإسلام مشركين وعقائدهم منحرفة ، فلما جاء هم الإسلام وسمعوا الآيات من رسول الله ﷺ ، علموا أن الحق فيما يقوله الله ورسوله ، فوافق التنزيل عقولهم وأحبوه ، وقارنوا بين دينهم القديم وهذا الدين الجديد ، والنفوس مجبولة مفطورة على محبة الحق وبغض الباطل كما تبين سابقاً لذلك اختاروا الإسلام وفضلوه على غيره من الأديان .

قال ابن القيم : (أن الله سبحانه منح عباده فطرة فطرهم عليها ، لا تقبل سوى الحق، ولا تؤثر عليه غيره لو تركت ، وأيدها بعقول تفرق بين الحق والباطل ، وكملها بشرعة تفصل لها ما هو مستقر في الفطرة ، وأدركه العقل مجملاً ، فالفطرة قابلة والعقل مزكٍّ والشرع مبصِّر مفصِّل لما هو مركوز في الفطرة مشهود أصله دون تفاصيله بالعقل ، فاتفقت فطرة الله المستقيمة والعقل الصريح والوحي المبصر المكمل على الإقرار بموجود فطر هذا العالم بجميع ما فيه عاليه وسافله وما بينهما . . .)[٥] .

وفي نهاية هذا المبحث أريد أن أبيِّن أنه لما كانت عقول أهل السنة موافقة للنقل تمام

---

(١) مثل إثبات وجود الله وألوهيته وربوبيته وإثبات القدر والأسماء والصفات .

(٢) مثل مسائل الواجب والحرام .

(٣) انظر : الموافقات ، الشاطبي ، ٣/١٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ٣/٢٠ .

(٥) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/ ١٢٧٧ — ١٢٧٨ .

وفي نهاية هذا المبحث أريد أن أبيِّن أنه لما كانت عقول أهل السنة موافقة للنقل تمام الموافقة ، فإن الله قد وهبها مميزات وصفات عالية منها :

أنها عقول مسلِّمة للوحي تعرف حجمها والآفاق التي لها أن تتحرك خلالها ، والآفاق المغلقة التي يحظر عليها أن تخترقها ، أو أن يخطر ذلك ببالها ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [1] فهي لا تعرف الإنكار والجحود لما أنزله الله ، وتؤمن بما صح من النصوص في شأن الغيب ولا تردها تحت دعوى الاستحالة العقلية .

وهي أيضاً لا تبتدع ولا تخترع شيئاً في الدين من عند أنفسها ، بل تسير على القواعد والأصول الكلية : القرآن والسنة والإجماع ، وهي مع ذلك تعترف بالقياس لأنها عقول مرنة لا جامدة كما يصفها بذلك أعداؤها ، فهي مبدعة لا مبتدعة ، ومتطورة ترفض الجمود ، وتكره التبعية الفكرية للباطل ، وتحب الحق وتفضله ، قال تعالى ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ، وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ الآية[2] .

وعقول أهل السنة مع اتباعها للحق ، فهي تطلب الحجة والبرهان والدليل ، وتهتم بالاستدلال لأنها تعتبر هذا الأمر واجب عليها ، قال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [3] .

وعقول أهل السنة تعتمد على النقل والعقل معاً عند تفكيرها في مسألة ما ، سواء كانت هذه المسألة في الأصول أو الفروع ، وفي نفس الوقت ترفض أي عنصر غريب يدخل عليها في تفكيرها فيجبرها على تغيير ثوابتها ، أو مجرد التشكيك في هذه الثوابت ، والله تعالى أعلم[4] .

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) الزخرف : ٢٢ — ٢٣ .

(٣) البقرة : ١١١ .

(٤) انظر : العقلانية غواية أم هداية ، عبدالسلام بسيوني ، ٢٣ — ٤٨ ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة .

المبحث الثاني

موقف أئمة أهل السنة من الذين ادعوا التعارض بين العقل والنقل

في المبحث السابق تبيَّن أن أهل السنة يرون أنه لا منافاة ولا تعارض بين العقل والنقل ، وأنهما يتفقان تمام الاتفاق ، لهذا فقد كان لهم موقف وقفوه واتخذوه من الذين قالوا بالتعارض ، ولكن قبل أن نعرض لموقفهم هذا نريد أن نعرف :

من هو أول من قال بتعارض العقل والنقل ؟

أوَّل من عارض النقل بعقله هو إبليس الرجيم حينما اعترض على أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام ، قال تعالى ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[1] .

ثم بعد ذلك توالت الشبهات العقلية في معارضة النص الإلهي ، فقد عارض النقل أقوام كثر منهم قوم نوح وصالح وهود وموسى وعيسى وغيرهم ، إلى أن جاء عهد النبي ﷺ وعارضه كفار قريش بعقولهم فقالوا ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[2] وقالوا ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾[3] .

وعند التتبع التاريخي لعصر الإسلام الأول ، نجد أنه عندما استتب الأمر في عهده ﷺ له ولأصحابه وللمسلمين كافة أصبحت البدع مقموعة ، وذلك لأنه ﷺ كان بين ظهرانيهم ، يصحح عقائدهم ويقومهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، مثال ذلك اختلاف الصحابة في القدر وتكلمهم وتنازعهم واختصامهم فيه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه حتى

(١) الأعراف : ١٢ .
(٢) ص : ٥ .
(٣) الإسراء : ٤٩ .

كأنما فقئ في وجنتيه الرمان ، فقال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه))[1] .

وعن عمرو بن شعيب[2] عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، فقال : ((بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم ؟! تضربون القرآن بعضه ببعض ؟! بهذا هلكت الأمم قبلكم))[3] .

وفي خلافة عمر ﷺ خرج بعض الأفراد الذين حاولوا إثارة الشكوك في متشابه القرآن ، كصبيغ بن عسل الذي قام عمر بضربه وتأديبه ونهي الناس عن مجالسته[4] ، حتى كف عن بدعته .

قال الخلال[5] : (ولو شاء عمر بن الخطاب أن يناظر صبيغاً ويجمع له أصحاب رسول الله حتى يناظروه ويحاجوه ويبينوا عليه لفعل ، ولكنه قمع جهله ، وأوجع ضربه ، ونفاه في جلده ، وتركه يتغصص بريقه ، وينقطع قلبه حسرة بين ظهرانيهم ، مطروداً منفياً مشرداً لا يُكَلَّم ولا يُجَالس ، ولا يُشْفا بالحجة والنظر ، بل تركه يختنق على حرته ، ولم يبلعه ريقه ، ومنع الناس من كلامه ومجالسته ، فهكذا حكم كل من شرع في دين الله بما لم

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب القدر عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ، رقم الحديث ٢١٣٣ ، حسنه الألباني ، انظر : صحيح سنن الترمذي ، الألباني ، ٤٣٩/٢ .

(٢) هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل الإمام المحدث أبو إبراهيم وأبو عبدالله القرشي السهمي الحجازي ، فقيه أهل الطائف ومحدثهم ، وكان يتردد كثيراً إلى مكة وينشر العلم ، توفي عام ١١٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٥/ ١٦٥ — ١٨٠ .

(٣) رواه ابن ماجة ، المقدمة ، باب في القدر ، رقم الحديث ٨٥ ، قال الألباني : حسن صحيح ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، ١/ ٤٦ — ٤٧ .

(٤) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ٤/ ٧٠١ — ٧٠٣ .

(٥) هو الإمام العلامة الحافظ الفقيه شيخ الحنابلة وعالمهم أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الخلال ، جمع علوم أحمد وتطلبها وسافر لأجلها وكتبها وصنفها كتباً لم يكن أحد أجمع لذلك منه ، من مؤلفاته : (الجامع في الفقه) من كلام الإمام أحمد ، (العلل) (السنة وألفاظ أحمد والدليل على ذلك من الأحاديث) ، توفي سنة ٣١١هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٤/ ٢٩٧ — ٢٩٨ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٣٣١/١ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٣٦١/١ .

يأذن به الله ، أن يُخْبَر أنه على بدعة وضلالة ، فيُحَذَّر منه ويُنْهى عن كلامه ومجالسته)[(١)] .

وهذا الذي فعله عمر ﷺ هو العلاج الصحيح لكل بدعة تظهر في الدين ، وقد نفع الله صبيغاً بما فعل عمر معه ، قال الزهري[(٢)] : (لما خرجت الحرورية[(٣)] قيل لصبيغ : قد خرج قوم يقولون كذا وكذا ، قال : هيهات قد نفعني الله بموعظة الرجل الصالح)[(٤)] .

ثم ظهرت في أواخر عهد علي ﷺ فرقة الخوارج[(٥)] وفي مقابلها فرقة الشيعة[(٦)] ، ثم في أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم ظهرت المرجئة[(٧)] والقدرية[(٨)] ، وكل هذه الفرق كانت تنتحل النصوص انتحالاً ، قال ابن تيمية : (وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على أقوالهم ، لا يَدَّعون أن عندهم عقليات تعارض

---

(١) السنة ، للخلال ، ٢٢٨/١ ، ت عطية الزهراني ، دار الراية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠هـ .

(٢) هو الإمام العالم الثقة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني ، وكان له ثروة ودنيا ، قتله ابنه وغلمانه لأجل ماله ثم ظفروا بالغلمان فقتلوا به ، كان قتله سنة ١٢٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٩٧/٧ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٤٩/١ ، شذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ١٦٢/١ .

(٣) الحرورية : هم الخوارج وسيأتي التعريف بهم .

(٤) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، الملطي ، ١٨١ ، ت محمد الكوثري ، مكتبة المثنى ، بغداد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

(٥) الخوارج : هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد التحكيم في معركة صفين فكفروه ، وكفروا مرتكب الكبيرة وأنه خالد مخلد في النار ، وكذلك يكفرون الحكمين أباموسى الأشعري وعمرو بن العاص وكذلك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم ، وسموا حرورية لأنهم حروراء من العراق في أول أمرهم . انظر : مقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ، ص ٨٦ وما بعدها ، ت هلموت ريتر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ .

(٦) الشيعة : وهم الذين شيعوا علي رضوان عليه وقدموه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال لهم الرافضة لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر وهم مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلن وإن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . انظر : مقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ، ص ٥ ومابعدها .

(٧) المرجئة : هم الذين يؤخرون العمل عن النية والعقد ، وقالوا لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . انظر : الملل والنحل ، الشهرستاني ، ١٣٧/١ .

(٨) القدرية : وهم مجوس هذه الأمة كما أخبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم يثبتون خالقاً مع الله فيقولون أن العبد خالق فعل نفسه ، وقد يطلق على الجبرية قدرية على اعتبار أنهم يثبتون القدر ولكنهم يغالون في الإثبات فيقولون أن العبد مجبور على عمله وليس له قدرة ولا استطاعة . انظر : الفرق بين الفرق ، الخطيب البغدادي ، ١١٤ — ١١٥ ، والملل والنحل ، الشهرستاني ، ٧٢/١ .

النصوص)[1] .

إذن من عهد الرسول ﷺ إلى أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم ظهر مواقف من أفراد قلائل تدعي إعمال العقل وهي في الحقيقة تريد إثارة الشكوك ونشر البدع وبفضل الله ورحمته فقد صححت هذه المواقف ، أما ظهور أهل البدع كفرق وأحزاب فإنها لم تظهر إلا بعد عهد الصحابة ، لذلك لما ظهرت الجهمية[2] في أواخر عصر التابعين رحمهم الله بدأت المعارضة العقلية للنصوص ، ومع ذلك فقد كانوا قليلين مقموعين في الأمة[3] .

ولكن أحد الباحثين يرى[4] أنه من الممكن أن يقال أن هذه الفئات قد مهدت السبيل للجهمية ومن سار على منهجهم بما ابتدعوه من البدع التي تَفَرَّق بسببها المسلمون .

وأول الجهمية هو الجعد بن درهم[5] ، الذي ضحى به خالد بن عبدالله القسري[6] يوم الأضحى بواسط[7] ، وقال : أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح

(١) درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، ٣/٢٥ .

(٢) الجهمية : أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمذ وقتله مسلم بن أحوز المازني بمرو في أخر ملك بني أمية ، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء منها قوله : لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقضي تشبيهاً فنفى كونه حياً عالماً واثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً لأنه لايوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق . انظر : الملل والنحل ، الشهرستاني ، ١/٧٣ .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، ٣/٢٥ .

(٤) انظر : منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ، جابر إدريس علي أمير ، ١/١٢٠ .

(٥) هو الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا ولا كلم موسى وأن ذلك لا يجوز على الله ، قال المدائني : كان زنديقا وقد قال له وهب إني لأظنك من الهالكين لو لم يخبرنا الله أن له يداً وأن له عيناً ما قلنا ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٥/٤٣٣ .

(٦) هو الأمير الكبير أبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز البجلي القسري الدمشقي أمير العراقين لهشام ، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ثم لسليمان ، وهو الذي قتل الجعد بن درهم لإنكاره الخلة والكلام ، توفي سنة ١٢٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٥/ ٤٢٥ — ٤٣٢ .

(٧) واسط : هي مدينة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد عبدالملك بن مروان ، وتقع في العراق بين الكوفة والبصرة لذلك سميت بهذا الاسم ، وللعرب سبعة أواسط وهذه أشهرها وأعظمها . انظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ٥/ ٣٤٧ — ٣٥٣ .

بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه[1] .

ومن خلال هذا العرض تبين موقف الرسول ﷺ من الصحابة الأخيار رضي الله عنهم عندما اختصموا في القدر ، وكذلك موقف عمر ﷺ من صبيغ بن عسل ، وموقف خالد بن عبدالله القسري من الجعد بن درهم .

إن علماء أهل السنة رحمهم الله تعالى منذ أن بدأ الطعن في النصوص في أواخر القرن الثاني الهجري تقريباً بدءوا بتدوين السنة وبيان الصحيح من السقيم فيها ، وقاموا أيضاً بالرد على كل من ابتدع بدعة في الدين وقال بعقله ونبذ النصوص .

فقد أتى بعد الجعد بن درهم تلميذاه : الجهم بن صفوان وبشر المريسي اللذان كانت لهما أقوال كثيرة منحرفة عن الصواب ، بل بعيدة كل البعد عنه ، من أبرزها إنكار صفات الباري عز وجل ، والقول بخلق القرآن ، وقد رد عليهما نخبة من أجلاء علماء أهل السنة منهم :

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله في كتابه (خلق أفعال العباد والرد على الجهمية) فقد ردَّ على الجهم والمريسي معاً في عدة مواضع من كتابه ، من ذلك أنه بيَّن أن الجهم إنما أخذ كلامه عن الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبدالله القسري[2] ، وذكر أقوال العلماء فيه وفي أتباعه وأن القائل بأقوالهم أشد كفراً من اليهود والنصارى ، لأن هؤلاء يثبتون وجود الإله ، أما الجهمية فإن لازم قولهم نفي الإله[3] .

وبيَّن رحمه الله أن أقوال الجهم إنما هي صادرة عن جهل منه بالدين ، فقد سئل مرة عن رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها ، فقال : عليها العدة ، فخالف كتاب الله

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، ٢٥/٣ .
(٢) انظر : خلق أفعال العباد ، البخاري ، ٣٠ ، ت عبدالرحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ٣٢ .

بجهله[1] ، لأن الله يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾[2] .

وكذلك ردَّ على المريسي وبيَّن أنه إنما أخذ قوله عن أستاذه الجهم بن صفوان ، وكان من أبرز أقواله القول بخلق القرآن ، وبيَّن أن علماء أهل السنة كانوا يغضبون إذا ذكر في مجالسهم وذكرت معه بدعته ، منهم سفيان بن عيينة[3] الذي كان يسميه الدويبة[4][5] .

ويزيد بن هارون[6] الذي قال عنه : (المريسي أحقر من أتاني)[7] .

وقد نقل البخاري حكم العلماء بكفره هو وأستاذه الجهم :

قال سلام بن أبي مطيع[8] : (الجهمية كفار) .

وقال عبد الحميد[9] : (جهم كافر بالله العظيم) .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٣٢ .

(٢) الأحزاب : ٤٩ .

(٣) هو سفيان بن عيينه بن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم أخي الضحاك بن مزاحم الإمام الكبير حافظ عصره شيخ الإسلام أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي ، طلب الحديث وهو حدث ولقي الكبار وحمل عنهم علما جما وأتقن وجود وجمع وصنف وعمر دهراً وازدحم الخلق عليه وانتهى إليه علو الإسناد ورحل إليه من البلاد وألحق الأحفاد بالأجداد ، قال الإمام الشافعي : لولا مالك وسفيان بن عيينه لذهب علم الحجاز ، توفي سنة ١٩٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٨/ ٤٥٤ — ٤٧٥ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١١٩ .

(٤) الدويبة : تصغير لدابة ، وهي الحشرة الصغير ، وفي هذا تصغير وتحقير لشأنه ، انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ٤١/١ ، ٥٩/١ ، ٢٩٨/١ ، ٣٠٧/١ ، ٣٦٧/١ .

(٥) خلق أفعال العباد ، البخاري ، ٣٣ .

(٦) هو يزيد بن هارون بن زاذي الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو خالد السلمي مولاهم الواسطي الحافظ ، كان رأسا في العلم والعمل ثقة حجة كبير الشأن ، قال أبو حاتم الرازي : يزيد ثقة إمام لا يسأل عن مثله ، توفي سنة ٢٠٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٣٥٨/٩ — ٣٧١ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ١٣٨

(٧) خلق أفعال العباد ، البخاري ، ٣٥ .

(٨) هو سلام بن أبي مطيع الإمام الثقة القدوة ، أبو سعيد الخزاعي ، مولاهم البصري ، كان صاحب سنة ، صالح الحديث ، أعقل أهل البصرة ، توفي سنة ١٦٤هـ وقيل ١٧٣هـ . انظر : سير الأعلام ، ٧/ ٤٢٨ — ٤٢٩ .

(٩) هو الإمام الحافظ الحجة الجوال أبو محمد عبد بن حميد بن نصر الكسي ويقال له الكشي بالفتح والإعجام ، يقال اسمه عبدالحميد ، قال أبو حاتم البستي في كتاب (الثقات) : عبدالحميد بن حميد بن نصر الكشي وهو الذي يقال له عبد بن حميد وكان ممن جمع وصنف ، توفي سنة ٢٤٩هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي، ١٢/ ٢٣٥ — ٢٣٨ .

وقال وكيع : (أحدثوا هؤلاء المرجئة الجهمية ، والجهمية كفار والمريسي جهمي)[1].

ومنهم الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله الذي كان له مؤلفان : الأول هو (الرد على الجهمية) وقد بيَّن فيه أن الجهم وأتباعه إنما أنكروا أموراً هي معلومة من الدين بالضرورة ولا يحتاج المرء إلى كلفة في إثباتها لأن الله كفى عبده ذلك ، فأثبتها هو سبحانه لنفسه في كتابه وأثبتها له رسوله ﷺ ، فقال رحمه الله : (وما ظننا أن نضطر إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان به ، حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله ، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا ، وإلى الله نشكو ما أوهت من عرى الإسلام ، وإليه نلجأ وبه نستعين)[2].

وقد نقل تكفير عبدالله بن المبارك لهذه الشرذمة[3].

أما المؤلَّف الثاني فقد أفرده الدارمي للرد على بشر المريسي وابن الثلجي[4] وأسماه (نقض الإمام عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد) وفي بداية الكتاب بيَّن الدارمي سبب تأليفه ، وهو أن هناك شخصاً ما أسماه الدارمي بالمعارض نشر كلام المريسي وابن الثلجي بين الناس وأظهره ، فخاف المؤلف على الناس من أن يعلق في قلوبهم كلام هذين الرجلين فيلقيهم في شك من خالقهم وفي ظلال ، أو أن يدعوهم إلى تأويله المحال ، لأن جل كلامه تنقص ووقيعة في الرب واستخفاف بجلاله وسب[5].

ولما قوي مذهب الجهمية بسبب تبني فرقة المعتزلة له في إنكار الصفات ، وبسبب

---

(١) خلق أفعال العباد ، البخاري ، ٣٤ .

(٢) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٣٢ ، ت بدر البدر ، دار ابن الأثير ، الكويت ، ط ٢ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ٢٦ .

(٤) هو محمد بن شجاع الفقيه أبو عبد الله البغدادي الحنفي ويعرف بابن الثلجي ، وكان صاحب تعبد وتهجد وتلاوة مات ساجداً ، إلا أنه كان يقف في مسألة القرآن وينال من الكبار ، له كتاب (المناسك) في نيف وستين جزءاً ، مات سنة ٢٦٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٢/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٥) انظر : نقض الإمام عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد ، الدارمي ، ١/ ١٤٢ ، ت رشيد الألمعي ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

مساعدة بعض الخلفاء لها ودخولهم فيها[(١)] ، وخاصة مسألة القول بخلق القرآن وما حدث بسبب هذا القول من فتنة عظيمة امتحن فيها كثير من أئمة أهل السنة وعلى رأسهم الإمام المبجل ناصر السنة وقامع البدعة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، فقد لقي من المأمون والمعتصم والواثق العنت الكثير بسبب ثباته على مبدئه في أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، حتى نصره الله نصراً مؤزراً وخذل أعداءه وذلك في خلافة المتوكل رحمه الله[(٢)] .

وقد ألّف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كتابه (الرد على الزنادقة والجهمية) وأورد فيه مناظرة حدثت بين الجهم وبين فرقة السمنية أدت إلى تشكيك الجهم في الله سبحانه وتعالى ، وهذه المناظرة كانت السبب في ترك الجهم للصلاة أربعين يوماً ، وإطلاقه الأقوال الفاسدة في الدين ، منها القول بنفي الصفات ، ثم بدأ الإمام أحمد بالرد على افتراءاته وضلالاته واحدة واحدة ، بعد أن بيَّن أصلها والسبب في إطلاقها[(٣)] .

وكذلك الإمام عبدالعزيز الكناني صاحب كتاب (الحيدة) الذي قام بالرد على بشر المريسي في مناظرة طويلة حدثت بينهما في حضرة المأمون خرج بعدها الكناني منتصراً داحضاً لحجج المريسي الواهية .

لذلك اشتدت المعارضة العقلية للنصوص في هذه الفترة ، فمن الممكن أن يقال أن أول الفرق الإسلامية معارضة للنصوص بالعقل هي المعتزلة ، الذين وجدوا الطريق ممهدة لهم ممن قبلهم ، ويقول الشهرستاني عن واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة : (وكان واصل بن عطاء يشرع فيها – أي في القول بنفي صفات الباري – على قول ظاهر ، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلاهين قديمين أزليين ، قال : من أثبت معنى وصفة قديمة

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٣/ ٢٥ – ٢٦ .

(٢) انظر : رسالة في أن القرآن غير مخلوق (ويليها رسالة الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل في مسألة القرآن) ، إبراهيم الحربي ، ٤٧ – ٦٢ ، ت علي الشبل ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م . وسيرة الإمام أحمد بن حنبل ، صالح بن أحمد بن حنبل ، ٣٢ – ٤٧ ، ت محمد الزغلي ، المكتب الإسلامي ، بيروت – دمشق – عمان ، ط ١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

(٣) انظر : الرد على الزنادقة والجهمية ، أحمد بن حنبل ، ١٠٣ .

أثبت إلاهين)[1] .

ثم أخذ أعوانه من بعده ينسجون على منواله ، ويتوسعون في الاطلاع على كتب الفلاسفة ، وانتهى نظرهم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ، وتنوعت أقوالهم عن هاتين الصفتين كل بحسب عقله[2] .

ثم تلقى الأشاعرة هذا الفكر عن المعتزلة ، وتأثروا بهم تأثراً كبيراً ، ومن المعلوم أن مذهب الأشاعرة قد تطور على يد أئمته كثيراً حتى اقترب من مذهب المعتزلة على يد الجويني[3] .

والمقصود هنا هو بيان موقف أهل السنة من هؤلاء المعارضين للنقل بعقولهم وآرائهم، وكيف تصدوا رحمهم الله تعالى لكل من اعترض على النقل بآرائه وعقله وقدمهما عليه[4] .

ففي القرن الرابع الهجري أفرد الإمام ابن جرير الطبري مؤلفاً أسماه (التبصير في معالم الدين) وهو عبارة عن جواب لسؤال وُجِّه له من أهل بلده (آمل طبرستان)[5] في مسألة الاسم والمسمى[6] حيث ظهر عندهم من يكتب اسم الله على التراب أو اللوح ، أو ينطق به ثم يقول : كتابي الذي كتبته ، وقولي الذي قلته ، هو خالقي الذي خلقني ، جهلاً منه وغروراً[7] ، فهب هذا الإمام الفذ في كتابه هذا بالرد على هؤلاء الشرذمة وتفنيد

---

(١) الملل والنحل ، الشهرستاني ، ١/ ٤٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٤٠ – ٤١ .

(٣) انظر : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، عبدالرحمن المحمود ، ٢/ ٦١٠ – ٦٢١ ، مكتبة الرشد ، الرياض، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٤) سيكون الكلام من بداية القرن الرابع لأني تحدثت فيما سبق عن القرن الثاني والثالث ، وسأذكر من كل قرن إمام واحد مع كتابه للاختصار .

(٥) آمل : بضم الميم واللام اسم أكبر مدينة بطبرستان ، وقد خرج منها كثير من العلماء لكنهم قل ما ينسبون إلى غير طبرستان فيقال لهم الطبري منهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ المشهور أصله ومولده من آمل . انظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ١/ ٥٧ – ٥٨ .

(٦) انظر شرح هذه المسألة في مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/ ٢٠٣ .

(٧) التبصير في معالم الدين ، الطبري ، انظر : مقدمة المحقق ، علي الشبل ، ٨٥ ، ت علي الشبل ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

أقوالهم وشبههم .

وفي القرن الخامس أفرد الإمام اللالكائي رحمه الله تعالى مؤلفاً ضخماً بعنوان (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) وبين سبب تأليفه له بأن أهل العلم سألوه أن يشرح اعتقاد مذاهب أهل الحديث لما في ذلك من الفائدة الحاصلة والمنفعة السنية التامة خاصة في زمنه رحمه الله الذي تناسى العلماء فيه رسوم مذاهب أهل السنة واشتغلوا عنها بما أحدثوا من العلوم الحديثة حتى ضاعت الأصول القديمة التي أسست عليها الشريعة وكان علماء السلف إليها يدعون وإلى طريقها يهدون وعليها يعولون ، فأراد رحمه الله أن يجدد هذه الطريقة لتعرف معانيها وحججها ولا يقتصر على سماع اسمها دون رسمها[(١)] .

وفي القرن السادس أفرد الإمام أبو القاسم الأصبهاني (قوام السنة) مؤلفاً بعنوان (الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة) وبين سبب تأليفه فقال : (وحين رأيت قوام الإسلام بالتمسك بالسنة ، ورأيت البدعة قد كثرت ، والوقيعة في أهل السنة قد فشت ، ورأيت اتباع السنة عند قوم نقيصة ، والخوض في الكلام درجة رفيعة ، رأيت أن أملي كتاباً في السنة يعتمد عليه من قصد الاتباع وجانب الابتداع ، وأبين فيه اعتقاد أئمة السلف ، وأهل السنة في الأمصار ، والراسخين في العلم في الأقطار ، ليلزم المرء اتباع الأئمة الماضين ، ويجانب طريقة المبتدعين ، ويكون من صالحي الخلف لصالحي السلف)[(٢)] .

أما القرن السابع فقد ظهر الإمام ابن قدامة المقدسي[(٣)] رحمه الله بعدة مؤلفات منها كتاب (ذم التأويل) والذي ذكر فيه مذهب السلف في أسماء الله تعالى وصفاته ليسلك

---

(١) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي ، ١/ ٢٨ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ١/ ٩٣ – ٩٤ .

(٣) هو الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب (المغني) ، كان من بحور العلم وأذكياء العالم ، وكان عالم أهل الشام في زمانه ، وكان ثقة حجة نبيلاً غزير الفضل نزهاً ورعاً عابداً على قانون السلف عليه النور والوقار ، من مؤلفاته : (الكافي) (المقنع) (العمدة) (الروضة) (الرقة) (التوابين) وغيرها كثير ، توفي سنة ٦٢٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٢٢/ ١٦٥ – ١٧٣ .

سبيلهم من أحب الاقتداء بهم والكون معهم في الدار الآخرة[(١)] .

أما القرن الثامن الهجري فقد استفحلت فيه بدعة القول بتعارض العقل والنقل وكان الفخر الرازي قد جعل لهذه البدعة قانوناً يسير عليه كل من اعتقد بها .

وقد صرح في هذا القانون بوجوب تقديم العقل على النقل عند التعارض فقال : (اعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ، ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة : إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضين وهو محال ، وإما أن يبطل فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال ، وإما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطل لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ ، وظهور المعجزات على محمد ﷺ ، ولو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهماً غير مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول وإذا لم نثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة ، فثبت أن القدح لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً وأنه باطل ، ولما بطلت الأقسام [الثلاثة][(٢)] لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية إما أن يقال أنها غير صحيحة أو يقال إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها)[(٣)] .

يلاحظ أن الرازي من خلال هذا النص يغلو في تقدير العقل ويجعله حاكماً في قبول النقل ، فهو يعتبر أن العقل هو المقياس والميزان للأدلة النقلية فإن وافقته قبلت وإلا فلا ، وهذه النظرة للأدلة العقلية ليس نظرة الرازي وحده بل هي نظرة المعتزلة والأشاعرة ومن تبعهم .

لذلك فقد قام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بإفراد مؤلف خاص كبير للرد على

---

(١) انظر : ذم التأويل ، ابن قدامة المقدسي ، ٨ ، ت بدر البدر ، الدار السلفية ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ .

(٢) في كتاب (أساس التقديس) كتبت (الأربعة) والمفروض أن تكتب (الثلاثة) كما هو مثبت في المتن .

(٣) أساس التقديس في علم الكلام ، فخر الدين الرازي ، ١٣٠ .

الرازي في كتابه (أساس التقديس) ، وهو كتاب (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) أو (نقض تأسيس الجهمية)[1] ، وكذلك يوجد له مؤلف آخر للرد على القائلين بهذا القانون عامة وهو كتاب (درء تعارض العقل والنقل) ، قال رحمه الله : (فنحن في هذا المقام إنما نخاطب من يتكلم في تعارض الأدلة السمعية والعقلية ، ممن يدعي حقيقة الإسلام من أهل الكلام ، الذين يلبسون على أهل الإيمان بالله ورسوله . . . فإن الناس في هذا الباب أنواع :

منهم من يقر بما جاء به السمع في المعاد دون الأفعال والصفات .

ومنهم من يقر بذلك في بعض أمور المعاد دون بعض .

ومنهم من يقر بذلك في بعض الصفات والمعاد مطلقاً دون الأفعال وبعض الصفات .

ومنهم من لا يقر بحقيقة شيء من ذلك لا في الصفات ولا في المعاد .

ومنهم من لا يقر بذلك أيضاً في الأمر والنهي ، بل يسلك طريق التأويل في الخبر والأمر جميعاً لمعارضة العقل عنده ، كما فعلت القرامطة والباطنية ، وهؤلاء أعظم الناس كفراً وإلحاداً .

والمقصود هنا أن من أقر بصحة السمع وأنه علم صحته بالعقل لا يمكنه أن يعارضه بالعقل البته ، لأن العقل عنده هو الشاهد بصحة السمع ، فإذا شهد مرة أخرى بفساده كانت دلالته متناقضة ، فلا يصلح لا لإثبات السمع ولا لمعارضته)[2] .

ومن ردوده رحمه الله في نقض هذا القانون :

وجوب تقديم القطعي من الأدلة مطلقاً :

وذلك عند قول الرازي : (إذا تعارض النقل والعقل) .

قال شيخ الإسلام : (إما أن يريد به القطعيين ، فلا نسلم إمكان التعارض حينئذ .

وإما أن يريد به الظنيين ، فالمقدم هو الراجح مطلقاً .

---

(١) والكتاب طبع في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وهو مقسم إلى ثمان رسائل على ستة عشر مجلداً .

(٢) درء التعارض ، ابن تيمية ، ١/١٠١ .

وإما أن يريد به ما أحدهما قطعي ، فالقطعي هو المقدم مطلقاً ، وإذا قدر أن العقلي هو القطعي كان تقديمه لكونه قطعياً ، لا لكونه عقلياً .

فعلم أن تقديم العقلي مطلقاً خطأ ، كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقلياً خطأ)[1] .

عدم التسليم بانحصار القسمة في هذه الأقسام الأربعة :

لم يسلم شيخ الإسلام رحمه الله بانحصار قسمة الرازي في أربعة أقسام فقط ، إذ من الممكن أن يقال : (يقدم العقلي تارة والسمعي أخرى فأيهما كان قطعياً قدم ، وإن كانا جميعاً قطعيين ، فيمتنع التعارض ، وإن كانا ظنيين فالراجح هو المقدم .

فدعوى المدعي : أنه لا بد من تقديم العقلي مطلقاً ، أو السمعي مطلقاً ، أو الجمع بين النقيضين ، أو رفع النقيضين ، دعوى باطلة ، بل هناك قسم ليس من هذه الأقسام ، كما ذكرناه ، بل هو الحق الذي لا ريب فيه)[2] .

ما المقصود بكون العقل أصل النقل ؟ :

أجاب شيخ الإسلام على ذلك : بأنه إما أن يكون المقصود أن العقل أصل في ثبوت النقل في نفس الأمر ، أي أن النقل لا يكون موجوداً إلا إذا أثبت في العقل ، وهذا لا يقوله عاقل ، لأن ما هو ثابت في نفس الأمر بالسمع أو بغيره فهو ثابت ، أي موجود ، سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته ، أو لم نعلم ثبوته لا بعقل ولا بغيره ، إذ عدم العلم ليس علماً بالعدم ، وعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها ، فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ هو ثابت في نفس الأمر ، سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه .

وإما أن يكون المقصود أن العقل أصل في معرفتنا بالسمع ودليل لنا على صحته ، وهذا هو الذي أراده ، فيقال له : أتعني بالعقل هنا الغريزة التي فينا ، أم العلوم التي استفدناها بتلك الغريزة ؟

ومن الممتنع أن يكون قد أراد الأول ، لأن تلك الغريزة ليست علماً يتصور أن

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٤٩ – ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ١/٥٠ .

يعارض النقل ، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة .

وإن أراد الثاني ، فيقال له : من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلاً للسمع ودليلاً على صحته ، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر ، والعلم بصحة السمع غايته أن يتوقف على ما به صدق الرسول ﷺ ، وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول ﷺ ، بل ذلك يعلم بما يعلم به أن الله تعالى أرسله ، مثل إثباته للصانع وتصديقه للرسول بالآيات وأمثال ذلك .

أي إن شيخ الإسلام يريد أن يبيِّن أن العلوم العقلية أجزاء كثيرة ، فليس كلها ثبت بها أصل النقل بل بعضها وهي التي ذكرت .

وإذا كان كذلك لم تكن جميع المعقولات أصلاً للنقل ، لا بمعنى توقف العلم بالسمع عليها – أي على المعارف العقلية – ولا بمعنى الدلالة على صحته ، ولا بغير ذلك.

وحينئذ فإذا كان المعارض للسمع من المعقولات ما لا يتوقف العلم بصحة السمع عليه ، لم يكن القدح فيه قدحاً في أصل السمع ، وليس القدح في بعض العقليات قدحاً في جميعها ، كما أنه ليس القدح في بعض السمعيات قدحاً في جميعها ، كما لا يلزم من صحة بعض السمعيات صحة جميعها .

وحينئذ فلا يلزم من صحة المعقولات التي تبنى عليها معرفتنا بالسمع صحة غيرها من المعقولات ، ولا من فساد هذه فساد تلك ، فضلاً عن صحة العقليات المناقضة للسمع[1] .

هل العقل يعلم صدق الرسول وثبوت ما أخبر به أم لا ؟ :

فصَّل شيخ الإسلام الجواب على هذا السؤال وبيَّن أنه إما أن يكون عالماً أو لا ، (فإن لم يكن عالماً امتنع التعارض عنده إذا كان المعقول معلوماً له ، لأن المعلوم لا يعارضه المجهول ، وإن لم يكن المعقول معلوماً له لم يتعارض مجهولان .

(١) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٥١ – ٥٢ .

وإن كان عالماً بصدق الرسول امتنع أن لا يعلم ثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ، غايته أن يقول : هذا لم يخبر به ، والكلام ليس هو فيما لم يخبر به ، بل إذا علم أن الرسول أخبر بكذا ، فهل يمكنه – مع علمه بصدقه فيما أخبر وعلمه أنه أخبر بكذا – أن يدفع عن نفسه علمه بثبوت المُخْبَر ، أم يكون علمه بثبوت مُخْبَرِه لازماً له لزوماً ضرورياً ، كما تلزم سائر العلوم لزوماً ضرورياً لمقدماتها ؟

وإذا كان كذلك فإذا قيل له مثل هذا : لا تعتقد ثبوت ما علمت أنه أخبر به لأن هذا الاعتقاد ينافي ما علمت به أنه صادق ، كان حقيقة الكلام : لا تصدقه في هذا الخبر لأن تصديقه يستلزم عدم تصديقه ، فيقول : وعدم تصديقي له فيه هو عين اللازم المحذور ، فإذا قيل : لا تصدقه لئلا يلزم أن لا تصدقه ، كما كان لو قيل : كذّبه لئلا يلزم أن تكذبه، فيكون المنهي عنه هو المخوف المحذور من فعل المنهي عنه ، والمأمور به هو المحذور من ترك المأمور به ، فيكون واقعاً في المنهي عنه ، سواء أطاع أو عصى ، ويكون تاركاً للمأمور به سواء أطاع أو عصى ، ويكون وقوعه في المخوف المحذور على تقدير الطاعة لهذا الآمر الذي أمره بتكذيب ما تيقن أن الرسول أخبر به أعجل وأسبق منه على تقدير المعصية ، والمنهي عنه على هذا التقدير هو التصديق ، والمأمور به هو التكذيب ، وحينئذ فلا يجوز النهي عنه سواء كان محذوراً أو لم يكن ، فإن لم يكن محذوراً لم يجز أن ينهى عنه، وإن كان محذوراً ، فلا بد منه على التقديرين فلا فائدة في النهي عنه ، بل إذا كان عدم التصديق هو المحذور كان طلبه ابتداءً أقبح من طلب غيره لئلا يفضي إليه ، فإن من أمر بالزنا كان أمره به أقبح من أن يأمر بالخلوة المفضية إلى الزنا)[1] .

الشرع دائماً هو المقدم :

(لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به ، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به ، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل .

ومعلوم أن هذا إذا قيل أوجه من قولهم ، كما قال بعضهم : يكفيك من العقل أن

(١) المصدر السابق ، ١/ ٧٧ – ٧٨ .

يعلمك صدق الرسول ومعاني كلامه ، وقال بعضهم : العقل متولٍّ ، ولّى الرسول ثم عزل نفسه ، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر)[1] .

ثم بيَّن رحمه الله مهمة العقل ووظيفته فقال : (والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة ، وهذا كما أن العامي إذا علم عين المفتي ودل غيره عليه وبين له أنه عالم مفت ، ثم اختلف العامي الدال والمفتي وجب على المستفتي أن يقدم قول المفتي ، فإذا قال له العامي : أنا الأصل في علمك بأنه مفت ، فإذا قدمت قوله على قولي عند التعارض قدحت في الأصل الذي به علمت أنه مفت ، قال له المستفتي : أنت لما شهدت بأنه مفت ، وَدللت على ذلك ، شهدت بوجوب تقليده دون تقليدك ، كما شهد به دليلك ، وموافقتي لك في هذا العلم المعين لا يستلزم أني أوافقك في العلم بأعيان المسائل، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك لا يستلزم خطؤك في علمك بأنه مفت ، وأنت إذا علمت أنه مفت باجتهاد واستدلال ، ثم خالفته باجتهاد واستدلال كنت مخطئاً في الاجتهاد والاستدلال الذي خالفت به من يجب عليك تقليده واتباع قوله ، وإن لم تكن مخطئاً في الاجتهاد والاستدلال الذي به علمت أنه عالم مفت يجب عليك تقليده ، هذا مع علمه بأن المفتي يجوز عليه الخطأ ، والعقل يعلم أن الرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأ ، فتقديمه قول المعصوم على ما يخالفه من استدلاله العقلي أولى من تقديم العامي قول المفتي على قوله الذي يخالفه)[2] .

ثم جاء بعد شيخ الإسلام تلميذه الإمام ابن القيم ورد عليهم في كتابه (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) و (مختصر الصواعق المرسلة) وقد ذكر فيهما أربعة طواغيت للجهمية والمعطلة ، فقام بالرد على هذه الطواغيت ، وكان القول بتعارض العقل والنقل ثانيها .

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٧٩ — ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ١/٨٠ .

وكان من ردوده رحمه الله عليهم ما يلي :

إنما حصل الهدى للرسول ﷺ بالوحي :

قال رحمه الله : (إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق ، فلو وزن عقله بعقولهم ، لرجح بها كلها ، وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان ، كما لم يكن يدري الكتاب ، فقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾(١) وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾(٢) وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر الشورى ، فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي كما قال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾(٣) فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام وفراش الألباب الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الأنبياء ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾(٤)(٥).

تقديم العقل على النقل ممتنع متناقض :

وذلك (بيانه أن يكون الشيء معلوماً بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس هو صفة لازمة لشيء من الأشياء بل هو من الأمور النسبية الإضافية ، فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله ، وقد يعلم الإنسان في حال تعقله ما يجهله في وقت آخر والمسائل التي يقال قد تعارض فيها العقل والشرع جميعاً قد اضطرب فيها أرباب العقل ولم يتفقوا فيها على أمر واحد بل كل منهم يقول : إن العقل أثبت أو أوجب أو سوغ ما يقول الآخر : أن العقل نفاه أو أحاله أو منع منه بل قد آل الأمر بينهم إلى التنازع فيما يقولون إنه من

(١) الشورى : ٥٢ .
(٢) الضحى : ٦ – ٧ .
(٣) سبأ : ٥٠ .
(٤) مريم : ٨٩ – ٩٠ .
(٥) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٢/ ٧٣٤ – ٧٣٥ .

العلوم الضرورية فيقول هذا : نحن نعلم بالضرورة العقلية ما يقول الآخر إنه غير معلوم بالضرورة العقلية وأبلغ من هذا أن يدعي بعضهم أن هذا محال بضرورة العقل فيدعي الآخر أنه ممكن بضرورة العقل . . . وأما الوحي فهو قول الصادق وهو صفة لازمة لا تختلف باختلاف أحوال الناس والعلم بذلك ممكن ورد الناس إليه ممكن ولهذا جاء الوحي من الله سبحانه برد الناس عند التنازع إلى كتابه وسنة رسوله كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[١] فأمر المؤمنين عند التنازع بالرد إلى كتابه وسنة رسوله ، وهذا نص في تقديم السمع . . . ولو رد الناس الأمر عند النزاع إلى عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافاً واضطراباً وشكاً وارتياباً فلا يمكن الحكم بين الناس في موارد النزاع والاختلاف على الإطلاق إلا بكتاب منزل من السماء يرجع الجميع إلى حكمه وإلا فكل واحد من أرباب المعقولات يقول عقلي أولى بالثقة به من عقل منازعي وهذا يدلي بمعقول وهذا يدلي بمعقول)[٢] .

تقديم العقل على النقل طريقة الكفار :

وذلك أن ابن القيم رحمه الله بيَّن أن طريقة هؤلاء المعارضون للوحي بعقولهم إنما تشبه طريقة الكفار الذين عارضوا الوحي أمراً وخبراً :

أما عن معارضتهم للوحي أمراً فهو في مثل قول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[٣] فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا والبيع[٤] .

---

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٣/ ٨٢٣ – ٨٢٦ .

(٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٣/٨٩٥ .

ومثل قول الله تعالى ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[1] فأولياء الشياطين عارضوا الوحي بعقولهم ، فقاسوا على المذكاة وقالوا : تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله[2] .

وأما معارضة الخبر بالعقل ، فكما حكى الله سبحانه عن منكري المعاد أنهم عارضوا ما أخبر به عنه بعقولهم ، قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[3][4] .

وعارضوا آيات نبوة محمد ﷺ بمعارضة عقلية فقالوا : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾[5][6] .

تقديم العقل على الشرع يتضمن القدح في العقل والشرع معاً :

(لأن العقل قد شهد للوحي بأنه أعلم منه وأنه لا نسبة له إليه وأن نسبة علومه ومعارفه إلى الوحي أقل من خردلة بالإضافة إلى جبل أو تلك التي تعلق بالأصبع بالنسبة إلى البحر فلو قدم حكم العقل عليه لكان ذلك قدحاً في شهادته — أي شهادة العقل للنقل - وإذا بطلت شهادته بطل قبول قوله فتقديم العقل على الوحي يتضمن القدح فيه وفي الشرع وهذا ظاهر لا خفاء به . . .

وذلك أن الشرع مأخوذ عن الله بواسطة الرسولين الملكي والبشري بينه وبين عباده ، مؤيداً بشهادة الآيات وظهور البراهين ، على ما يوجبه العقل ويقتضيه تارة ، ويستحسنه

---

(١) الأنعام : ١٢١ .

(٢) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٣/ ٨٩٥ ، و تفسير الطبري ، ١٦/٨ ، و تفسير ابن كثير ، ١٧٢/٢ .

(٣) يس : ٧٨ .

(٤) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٨٩٦/٣ .

(٥) الفرقان : ٧ — ٨ .

(٦) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٨٩٧/٣ .

تارة ، ويجوزه تارة ، ويكع عن دركه تارة ، ولا سبيل له إلى الإحاطة به ولا بد له من التسليم والانقياد لحكمه والإذعان والقبول . . . واعتراض المعترض عليه مردود واقتراح المقترح ما يظن أنه أولى منه سفه وجهل فالشريعة ، مشتملة على أعلى أنواع الحكمة علماً وعملاً ، التي لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت إليها لم يكن لها إليها نسبة ، وهي متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان ، فهي متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه وكرامته والداعي لديه ، وتعريف حال السالكين بعد الوصول إليه ، ويقابل هذه الثلاثة تعريفهم حال الداعي إلى الباطل والطرق الموصلة إليه وحال السالكين تلك الطرق وإلى أين تنتهي بهم ، ولهذا تقبلها العقول الكاملة أحسن تقبل وقابلتها بالتسليم والإذعان واستدارت حولها بحماية حوزتها والذب عن سلطانها . . . فهي الشريعة ابتداؤها من الله وانتهاؤها إليه فمنه بدأت وإليه تعود ليس فيها حديث المنجم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك وهيآتها ومقادير الأجرام . . . الصادرة عن رجل مشرك من يونان ، كان يعبد الأوثان ، ولا يعرف الرحمن ، ولا يصدق بمعاد الأبدان ولا أن الله يرسل رسولا بكلامه إلى نوع الإنسان ، فجعل هؤلاء المعارضين بين العقل والنقل عقل هذا الرجل عياراً على كتب الله المنزلة وما أرسل به رسله ، فما زكاه منطقه وآلته وقانونه الذي وضعه بعقله قبلوه ، وما لم يزكه تركوه ، ولو كانت هذه الأدلة التي أفسدت عقول هؤلاء وأتباعهم صحيحة لكان صاحب الشريعة يقوم شريعته بها ويكملها باستعمالها وكان الله سبحانه يثيبه عليها ويحض على التمسك بها ويتقدم إلى عباده بالتمسك بها وبعلمها وتعليمها ويفرض عليهم القيام بها ، فيا للعقول التي لم يخسف بها أين الدين من الفلسفة؟! . . . فإن أدلوا بالعقل فلا عقل أكمل من عقول ورثة الأنبياء . . . فالرسول مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه والوحي حاكم والعقل محكوم عليه ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غنى على أن منازل الخلق متفاوتة في العقل أعظم تفاوت . . . فإن قالوا إنما نقدم العقل الصريح الذي لم يختلف فيه اثنان على نصوص الأنبياء فقد رموا

الأنبياء بما هم أبعد الخلق منه ، وهو أنهم جاءوا بما يخالف العقل الصريح الذي لا يختلف فيه اثنان وهذا وقد شهد الله وكفى به شهيدا وشهد بشهادته الملائكة وأولو العلم أن طريقة الرسل هي الطريقة البرهانية المتضمنة للحكمة كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾(١) وقال ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(٢)(٣).

المعارضون لم يقدروا الله حق قدره :

قال رحمه الله : (إن من ادعى معارضة العقل لما جاءت به الرسل من صفاته وأفعاله وحقائق أسمائه لم يقدره حق قدره ، وقد ذم الله تعالى من لم يقدره حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه أحدها : قوله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾(٤).

الثاني : قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٥).

الثالث : قوله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٦).

فأخبر أنه لم يقدره حق قدره من أنكر إرساله للرسل وإنزال كتبه عليهم هذا حقيقة قول من قال إنه لا يتكلم ولم ينزل له إلى الأرض كلام ولا كلم موسى تكليما ومعلوم أن هذا إنكار لكمال ربوبيته وحقيقة إلهيته ولحكمته ولم يقدره حق قدره من عبد من دونه إلها غيره ولم يقدره حق قدره من جحد صفات كماله ونعوت جلاله وقد وصف سبحانه نفسه بأنه العلي العظيم وحقيقة قول المعطلة النفاة أنه ليس بعلي ولا عظيم فإنهم يردون

(١) النساء : ١٧٤ .
(٢) النساء : ١١٣ .
(٣) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٣/ ٨١٠ – ٨١٨ .
(٤) الأنعام : ٩١ .
(٥) الحج : ٧٣ – ٧٤ .
(٦) الزمر : ٦٧ .

علوه وعظمته إلى مجرد أمر معنوي كما يقال الذهب أعلى وأعظم من الفضة والبر أعلى وأعظم من الشعير وقد صرحوا بذلك فقالوا : معناه عليُّ القدر وعظيم القدر)[(١)] .

أما الإمام الشاطبي فقد كانت له ردود أيضاً عليهم في كتابيه (الاعتصام) و (الموافقات) فمن ردوده عليهم في (الاعتصام) قوله رحمه الله : (ولقد زل – بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال – أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين ، واتبعوا أهواءهم بغير علم فضلوا عن سواء السبيل)[(٢)] .

ثم ذكر بعد ذلك عشرة أمثلة على ذلك ، والذي يعنينا هو المثال العاشر ، إذ يقول فيه رحمه الله : (العاشر : رأي أهل التحسين والتقبيح العقليين ، فإن محصول مذهبهم تحكيم عقول الرجال دون الشرع ، وهو أصل من الأصول التي بنى عليها أهل الابتداع في الدين ، بحيث إن الشرع إن وافق آراءهم قبلوه ، وإلا ردوه) وهو يقصد المعتزلة الذين قالوا أن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان في الأشياء ، والحاكم بالحسن والقبح هو العقل ، والفعل حسن أو قبيح إما لذاته وإما لصفة من صفاته لازمة له ، وإما لوجوه واعتبارات أخرى[(٣)] ، والشاطبي رحمه الله رد عليهم فقال : (وإن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غير)[(٤)] .

ثم بيَّن رحمه الله أن هذا المذهب إنما هو مذهب الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم ، وضرب لذلك مثالين :

الأول : اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في السقيفة على الإمارة ، ولكن بمجرد ذكر أبي بكر الصديق لحديث الرسول ﷺ : ((الأئمة من قريش))[(٥)] أطاعوا وأذعنوا وسلَّموا .

---

(١) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/ ١٣٥٨ – ١٣٥٩ .

(٢) الاعتصام ، الشاطبي ، ٢/٥٣٧ .

(٣) القضاء والقدر ، عبدالرحمن المحمود ، ٢٥١ – ٢٥٢ ، دار الوطن ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

(٤) المصدر السابق ، ٢/٥٤٣ .

(٥) رواه الإمام أحمد ، ٣/١٢٩ ، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده ، انظر : النسخة المحققة ، ١٩/٣١٨ ، رقم الحديث ١٢٣٠٧ .

الثاني : اعتراض بعض الصحابة على أبي بكر الصديق في قتاله لمانعي الزكاة بحديث ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ، لا إله إلا الله ، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا ، واستقبلوا قبلتنا ، وذبحوا ذبيحتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))[1] فرد عليهم ما استدلوا به بقوله ﷺ : ((إلا بحقها)) فقال : الزكاة حق المال .

ثم قال الشاطبي رحمه الله : (فتأملوا هذا المعنى فإن فيه نكتتين مما نحن فيه :

إحداهما : أنه – أي أبو بكر – لم يجعل لأحد سبيلاً إلى جريان الأمر في زمانه على غير ما كان يجري في زمان رسول الله ﷺ وإن كان بتأويل ، لأن من لم يرتد من المانعين إنما منع تأويلاً ، وفي [هذا][2] القسم وقع النزاع بين الصحابة لا فيمن ارتد رأساً ، ولكن أبا بكر لم يعذر بالتأويل والجهل ، ونظر إلى حقيقة ما كان الأمر عليه فطلبه إلى أقصاه حتى قال : والله لو منعوني عقالاً[3] . . . إلى آخره ، مع أن الذين أشاروا عليه بترك قتالهم إنما أشاروا عليه بأمر مصلحيّ ظاهر تعضده مسائل شرعية ، وقواعد أصولية ، لكن الدليل الشرعي الصريح كان عنده ظاهراً ، فلم تقو عنده آراء الرجال أن تعارض الدليل الظاهر ، فالتزمه ، ثم رجع المشيرون عليه بالترك إلى صحة دليله تقديماً للحاكم الحق ، وهو الشرع.

والثانية : أن أبا بكر ﷺ لم يلتفت إلى ما يلقى هو والمسلمون في طريق طلب الزكاة من مانعيها من المشقة إذ لما امتنعوا صار مظنة للقتال وهلاك من شاء الله من الفرقتين ، ودخول المشقة على المسلمين في الأنفس والأموال والأولاد ولكنه ﷺ لم يعتبر إلا إقامة الملة على حسب ما كانت قبل ، فكان ذلك أصلاً في أنه لا يعتبر العوارض الطارئة في إقامة الدين وشعائر الإسلام ، نظير ما قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب فضل استقبال القبلة ، رقم الحديث ٣٩٢ ، وقد رواه البخاري في عدة مواضع أخرى وسأكتفي بذكر أرقامها ، ١٣٩٩ – ٢٩٤٦ – ٧٢٨٤ – ٧٢٨٥.

(٢) هذه الكلمة غير موجودة في الكتاب ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رقم الحديث ٧٢٨٤ – ٧٢٨٥ .

نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[(١)] فإن الله لم يعذرهم في ترك منع المشركين خوف العيلة ، فكذلك لم يعدّ أبو بكر ما يلقى المسلمون عذراً يترك به المطالبة بإقامة شعائر الدين حسبما كانت في زمان النبي ﷺ وجاء في القصة أن الصحابة أشاروا عليه برد البعث الذي بعثه رسول الله ﷺ مع أسامة ابن زيد ولم يكونوا بعد مضوا لوجهتهم ليكونوا معه عوناً على قتال أهل الردة ، فأبى من ذلك ، وقال : ما كنت لأرد بعثاً أنفذه رسول الله ﷺ ، فوقف مع شرع الله ولم يحكم غيره)[(٢)] .

أما في كتابه (الموافقات) فقد بيَّن رحمه الله أن هناك أدلة عقلية تدل على أن الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول أبداً ، منها :

أولاً : أنها لو نافتها لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعي ولا غيره ، ولكنها أدلة باتفاق العقلاء ، فدل أنها جارية على قضايا العقول ، وبيان ذلك أن الأدلة إنما نصبت في الشريعة لتتلقاها عقول المكلفين ، حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت أحكام التكليف، ولو نافتها لم تتلقاها فضلاً أن تعمل بمقتضاها ، وهذا معنى كونها خارجة عن حكم الأدلة ، ويستوي في هذا الأدلة المنصوبة على الأحكام الإلهية ، وعلى الأحكام التكليفية .

ثانياً : أنها لو نافتها لكان التكليف بمقتضاها تكليفاً بما لا يطاق ، وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ولا يتصوره بل يتصور خلافه ويصدقه ، فإذا كان كذلك امتنع على العقل التصديق ضرورة وقد فرضنا ورود التكليف المنافي للتصديق ، وهو معنى تكليف ما لا يطاق وهو باطل .

ثالثاً : أن مورد التكليف هو العقل ، وذلك ثابت قطعاً بالاستقراء التام ، حتى إذا فقد ارتفع التكليف رأساً ، وعد فاقده كالبهيمة المهملة ، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم التكليف ، فلو جاءت على خلاف ما يقتضيه لكان لزوم التكليف

---

(١) التوبة : ٢٨ .

(٢) الاعتصام ، الشاطبي ، ٢/ ٥٤٣ – ٥٤٤ .

على العاقل أشد من لزومه على المعتوه والصبي والنائم ، إذ لا عقل لهؤلاء يصدق أو لا يصدق ، بخلاف العاقل الذي يأتيه ما لا يمكن تصديقه به ، ولما كان التكليف ساقطاً عن هؤلاء لزم أن يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً ، وذلك مناف لوضع الشريعة ، فكان ما يؤدي إليه باطلاً[(1)] .

وقال في موضع آخر : (إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية ، فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً ، ويتأخر العقل فيكون تابعاً ، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرحه النقل ، والدليل على ذلك أمور :

الأول : أنه لو جاز للعقل تخطى مأخذ النقل ، لم يكن للحد الذي حده النقل فائدة، لأن الفِرض أنه حد له حداً ، فإذا جاز تعديه صار الحد غير مفيد ، وذلك في الشريعة باطل ، فما أدى إليه مثله . . .

الثالث : أنه لو كان كذلك لجاز إبطال الشريعة بالعقل ، وهذا محال باطل وبيان ذلك: أن معنى الشريعة أنها تحد للمكلفين حدوداً في أفعالهم ، وأقوالهم ، واعتقاداتهم، وهو جملة ما تضمنته ، فإن جاز للعقل تعدي حد واحد ، جاز له تعدي جميع الحدود ، لأن ما ثبت للشيء ثبت لمثله ، وتعدي حد واحد هو معنى إبطاله ، أي ليس هذا الحد بصحيح ، وإن جاز إبطال واحد ، جاز إبطال السائر ، وهذا لا يقول به أحد لظهور محاله)[(2)] .

وكذلك فمن علماء أهل السنة والجماعة الذين تصدوا بالرد على المعارضين بين العقل والنقل ، الإمام ابن الوزير اليماني[(3)] في كتابه (إيثار الحق على الخلق) ومن ردوده عليهم :

---

(1) انظر : الموافقات ، الشاطبي ، ١٩/٣ .
(2) المصدر السابق ، ٦١/١ .
(3) هو محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي ، أبو عبدالله ، من آل الوزير ، كان من كبار حفاظ الحديث والعلماء المجتهدين اليمانيين ومن أعيان اليمن ، كان شديد الميل إلى السنة ، من مؤلفاته : (تنقيح الأنظار في علوم الآثار) (قبول البشرى بالتيسير لليسرى) (العواصم والقواصم) وغيرها، توفي سنة ٨٤٠هـ . انظر مقدمة كتاب (إيثار الحق على الخلق) ط دار الكتب العلمية ، لبنان – بيروت ، ص ٧ .

(أن العقول بريئة أصح البراءة وأوضحها عما ادعوا عليها من معرفة وجوب ما لم يرد به كتاب من الله تعالى ومن معرفة صحة ما يناقض الآيات القرآنية فانه قد وضح للمحققين من نظار العقلاء وأذكيائهم أنه لا تعارض بين صحيح السمع وصحيح العقل وأن أصل البدع كلها يوهم التعارض بينهما في صور أربع :

الصورة الأولى : أن جماعة من المشتغلين بعلم المعقول لم يتقنوه فيتوهمون في بعض الأمور أنه صحيح في دليل عقلي توهموه قاطعا وليس بقاطع وفي معرفة القاطع وشروطه اختلاف بين المنطقيين وبعض المتكلمين . . . فان قيل تقديم العقل على السمع أولى عند التعارض لأن السمع علم بالعقل فهو أصله ولو بطل العقل بطل السمع والعقل معا وهذه من قواعد المتكلَمين .

قلنا قد اعترضهم في ذلك المحققون بأن العلوم يستحيل تعارضها في العقل والسمع فتعارضها تقدير محال فانه لو بطل السمع أيضا بعد أن دل العقل على صحته لبطلا معاً أيضا لأن العقل قد كان حكم بصحة السمع وأنه لا يبطل فحين بطل السمع علمنا ببطلانه بطلان الأحكام العقلية . . .

الصورة الثانية : أن يتيقن المتكلم بعض الأدلة العقلية حتى لا يشك في صحتها وهي كذلك ثم يعتقد لتقصيره في علم السمع أن السمع ورد بنقيض ذلك الأمر المعلوم عنده فيقع في الكفر الصريح كابن الراوندي[1] وسائر من صرح بالردة لذلك . . .

الصورة الثالثة : قوم أسرفوا في التقصير في علم السمع تارة في طلب معرفة نصوصه وألفاظه وطرق صحتها وتارة في معانيها وتارة في كيفية الجمع بين المتعارض فيقدمون

---

(١) هو الملحد عدو الدين أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الريوندي صاحب التصانيف في الحط على الملة وكان يلازم الرافضة والملاحدة ، فإذا عوتب قال إنما أريد أن أعرف أقوالهم ، ثم إنه كاشف وناظر وأبرز الشبه والشكوك ، قال ابن الجوزي : كنت أسمع عنه بالعظائم حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب ورأيت له كتاب (نعت الحكمة) وكتاب (قضيب الذهب) وكتاب (الزمردة) وكتاب (الدامغ) الذي نقضه عليه الجبائي ونقض عبدالرحمن بن محمد الخياط عليه كتابه الزمردة ، قال ابن النجار : أبو الحسين ابن الراوندي المتكلم من أهل مرو الروذ سكن بغداد وكان معتزلياً ثم تزندق وقيل كان أبوه يهودياً ، مات سنة ٢٩٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٤/ ٥٩ — ٦٢ .

العموم على الخصوص والظواهر على النصوص ونحو ذلك حتى ظنوا في بعض الأمور أن السمع ورد به وروداً ضرورياً أو قطعياً ولم يرد به السمع أصلاً لا ضرورةً ولا قطعاً ولا ظناً ثم عارضته أدلة كثيرة جلية عقلية أو سمعية أو كلاهما كالنواصب والروافض وكثير من الوعيدية . . .

الصورة الرابعة : طائفة من أهل السمع أتقنوا علم السمع وعلموا منه بعض القواعد علما صحيحا وتواتر لهم ما لم يتواتر لغيرهم لشدة بحثهم وقطعهم أعمارهم في ذلك ثم نازعهم في ذلك جماعة من علماء المعقولات المقصرين في علم السمع كبعض المعتزلة خصوصاً المتأخرين في نفي الشفاعة للموحدين ونفي الرجاء للمذنبين منهم وإيجاب خلودهم في النار مع المشركين فظن أولئك الذين أتقنوا ما علموا من السمع أن العلوم العقلية هي المعارضة لما عرفوه من السمع الحق في ذلك لشبهة أن المعارضين لهم فيه يدعون التحقيق في المعقولات فيعادون علم المعقول ومن خاض فيه حتى من أهل السنة وظنوا أن الإصغاء إليه والنظر فيه يستلزم البدعة من غير بد ولو نظروا بعين التحقيق لعلموا أن خصومهم في هذه المسألة إنما أتوا من التقصير في علم السمع وإقلال البحث عنه وما شابوا به جداً لهم من المعقولات فإنما ادعوا فيه على العقل ما هو بريء منه كما يدعون على العقل تقبيح خطاب الله لنا بالعموم المخصوص في العقائد من غير بيان مقترن به ولم يعلموا أنه يرد عليهم هذا بعينه في عمومات الوعد كعمومات الوعيد فلو حرم تخصيص الوعيد بالأدلة المنفصلة عنه لحرم تخصيص الوعد كذلك بل أولى وأحرى وحينئذ يحصل بطلان مقصودهم . . .)[1] .

أما في عصرنا الحاضر فقد ظهرت طائفة تتخذ منهج تحكيم العقل وتقديمه على النص الشرعي في الاعتبار والاستدلال والاحتكام إلى العلم الظني ، وتحكيم العواطف والأهواء في أصول العقيدة ونصوصها ، ومقررات الدين الثابتة ، كالحلال القطعي ، والحرام القطعي ، دون اعتبار للوحي ولا تسليم للنص المعصوم ، ولا احترام لما جاء عن الله

---

(١) إيثار الحق على الخلق ، ابن الوزير اليماني ، ١١٢ — ١٢١ .

صريحاً ، أو ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحاً[1] ، هذه الطائفة هي العقلانيين المعاصرين أو المدرسة العقلية الحديثة أو الاتجاهات العقلانية المعاصرة ، يقول أحدهم : (لا شك أن إخضاع دليل النقل لدليل العقل ، فيه من الحرية العلمية كل ما تتسعه هذه الكلمة من معنى ، ومما يعطي العلماء سلطة واسعة أمام الجامدين من رجال الدين فلا يكون لأولئك الجامدين سلطان عليهم أصلاً ، ولا يكون لهم أن يسلكوا سبيل التعسف معهم ، إنما هو قرع الدليل بالدليل، وما أضعف دليل الجمود أمام دليل التجديد)[2] .

وقد تصدى علماء السنة لهؤلاء العقلانيين بالرد والتفنيد ، فكان منهم الدكتور الفاضل ناصر بن عبدالكريم العقل حفظه الله في كتابه القيم (الاتجاهات العقلانية الحديثة) وقد بين حفظه الله أنه من المفارقات العجيبة أن العقلانيين حين يردون السنة أو بعضها بل ويردون الصحيح منها إذا لم يوافق أهواءهم ، فإنهم في الوقت نفسه لا يتورعون عن الاستدلال بالموضوعات التي توافق هواهم ، وينسبونها إلى النبي ﷺ كما فعل محمد فريد حين أورد قوله : (الدين هو العقل) وقوله : (يا أيها الناس اعقلوا من ربكم وتواصوا بالعقل)[3] على أنهما حديثان[4] .

وقد خاضت المدرسة العقلية الحديثة في ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته بغير علم ولم تلتزم القاعدة الشرعية في إثباتهم ما لم يثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات ونفي ما أثبته الله لنفسه[5]، وكذلك خاضوا في القدر وزعموا أن الإيمان به سبب مهم من أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم ، وأن الإنسان له مطلق الحرية في أفعاله وتصرفاته ، وأن الإسلام إنما

---

(١) انظر : الاتجاهات العقلانية الحديثة ، ناصر العقل ، ٣٦١ ، دار الفضيلة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
(٢) حرية الفكر في الإسلام ، عبدالمتعال الصعيدي ، ٢٩ ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط ٢ .
(٣) المدنية والإسلام ، محمد فريد وجدي ، ٥٢ ، نقلاً عن الاتجاهات العقلانية الحديثة ، ناصر العقل ، ٣٦٢ .
(٤) الاتجاهات العقلانية الحديثة ، ناصر العقل ، ٣٦٢ .
(٥) المرجع السابق ، ١٤٤ .

جاء ليحرر الإنسان من الاعتقاد بسلطان القدر[1] .

وقد بين الدكتور العقل أن أقوال العقلانيين عن ذات الله وصفاته إنما هي إساءة أدب مع الله سبحانه وتعالى ، وقول على الله بلا علم ، ودخول في علم الكيفية الذي لا يعلمه إلا الله وحده[2] ، وعباراتهم كلها تدل على جهل مطبق بكتاب الله وسنة رسوله وعقيدة المسلمين والسلف الصالح ، وجهل بأصول الدين وضروراته ، والجهل بأصول الدين لا يعذر به الباحث والمفكر الذي يدعي أنه مسلم[3] .

وأما عن افتراءاتهم على الإيمان بعقيدة القضاء والقدر فقد بين حفظه الله أن الإسلام إذا تمسك به المسلمون فإنه يأمرهم بالعلم والعمل والاستقراء والنظر والإنتاج والجد والتفوق والجهاد ، كل ذلك على مقتضى العقيدة والإيمان بالقدر ، وأنه لا يوجد آية في كتاب الله تأمر المسلم بالقعود أو تبيح الخمول والتواكل والاستسلام في غير ما عذر شرعي[4] ، وكذلك السنة المطهرة[5] .

بل إنه حفظه الله بين أن واقع التاريخ يشهد أن المسلمين إنما انحطوا ، وتواكلوا ، وساءت حالهم حينما ساء مفهومهم للقدر واختل إيمانهم بالقدر بين قدرية وجبرية ، وتركوا الأسباب وتعلقوا بالقبور والأضرحة ، وركنوا إلى التوسلات البدعية ، وضعف توكلهم على الله ، وركنوا إلى غير الله[6] .

وفي نهاية هذا المبحث أود أن أوضح أن موقف أهل السنة والجماعة من المخالف لهم يتسم بالعدل والتسامح حتى مع اليهود والنصارى ، فكيف بالمخالف من أهل القبلة ، فهم لا يحكمون على أحد من العلماء أو النظار والحكام بأنه مبتدع أو خارج عن أهل السنة والجماعة إذا كان مجتهداً أو أخطأ في اجتهاده سواءً كان الاجتهاد في مسألة من مسائل

(١) المرجع السابق ، ٣٣٠ .
(٢) المرجع السابق ، ١٤٦ .
(٣) المرجع السابق ، ١٥٣ .
(٤) المرجع السابق ، ٣٣٢ .
(٥) المرجع السابق ، ٣٣٣ .
(٦) المرجع السابق ، ٣٣٤ .

العقيدة والتوحيد أم في مسائل الحلال والحرام ، لأنه إنما قصد الحق وطلبه ، لذلك فهو معذور في ذلك مأجور على اجتهاده ، وهذا ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة ، قال تعالى ﴿ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا ﴾[2] .

والتاريخ الإسلامي أكبر شاهد على عدالة السلف الصالح وليس أدل على ذلك من موقف الإمام أحمد يرحمه الله الذي كان يرى كفر من يقول بخلق القرآن ، فقال : (من قال : القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله عز وجل وفيه أسماء الله)[3] ومع ذلك لم يكفر الخليفة المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، بل صبر واحتسب لعلمه بأن هؤلاء الخلفاء كانوا مولعين بعلم الكلام ، فكان يرى يرحمه الله عدم التكفير والتفسيق والتبديع إلا بضوابط شرعية وقيود محددة لئلا يخرج على الإمام ويؤدي خروجه إلى فتنة أكبر ، ولعلمه أن المأمون متأول لم يتحقق له الأمر اليقيني بعد ، فأهل السنة والجماعة لا يوالون إلا لله ، ولا يعادون إلا في الله ، وعند الجدال والرد على أهل الأهواء والبدع لا يقصدون إلا بيان الحق من الباطل والسنة من البدعة .

لذلك فإنهم لما تصدوا لهؤلاء المعارضين بين العقل والنقل وردوا عليهم بكل ما استطاعوا ، لم يكن هدفهم من ذلك إلا أمرين :

الأول : بيان الحق الذي لا ريب فيه للمسلمين عامة ، وذلك لانتشار كلام هؤلاء المعارضين بينهم .

الثاني : بيان الحق لهذا المعارض خاصة ، حتى يعود إليه ويكف عن معارضته وكلامه وتأليفه ، ولكنه إذا لم يكف ويرتدع ، فإن موقف أهل السنة منه سيتغير ويتحول إلى التحذير منه ومن كتبه والتشهير به وبكفره وبقبح بدعته بين الناس حتى يحذروه ويبتعدوا عنه والله تعالى أعلم .

---

(1) الأعراف : ٤٢ .

(2) الطلاق : ٧ .

(3) السنة ، عبدالله بن أحمد ، ٩ ، ت أبو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .

الباب الثاني

الأدلة العقلية في إثبات الأسماء والصفات

ويشمل :

- الفصل الأول : في أسماء الله جل وعلا .
- الفصل الثاني : في صفات الله جل وعلا .

الفصل الأول

في أسماء الله جل وعلا

ويشمل :

المبحث الأول : إثبات أن أسماء الله غير مخلوقة .

تمهيـــد

تبين مما تقدم أن أهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة اتباعاً مطلقاً فلا يقدمون عليهما عقلاً ولا رأياً ولا قولاً .

لذلك فهم يرون أن أسماء الله وصفاته توقيفية ، وأنها معلومة المعنى مجهولة الكيفية للمخلوقين ، وأن أسماء الله وصفاته منه سبحانه وليس هي غيره كما يقول المبتدعة .

وانه يجب إثباتها كما أثبتها الله سبحانه لنفسه وأثبتها لـه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ، أي اتخاذ المنهج الوسط الذي أوصى به الرسول ﷺ فلا إفراط ولا تفريط .

في هذا الفصل سوف يتم إيراد الأدلة العقلية لأهل السنة في إثبات إن أسماء الله تعالى غير مخلوقة ، ومسألة الاسم والمسمى والمسألة الثانية متفرعة عن الأولى ، والأولى متفرعة عن القول بخلق القرآن ، وذلك أن الجهمية والمعتزلة عندما قالوا أن القرآن مخلوق ، أدى بهم ذلك إلى القول بأن أسماء الله مخلوقة ، لأنها في القرآن ، فمادام القرآن مخلوقاً عندهم فالأسماء مخلوقاً .

وتبعاً لذلك قالوا أن الاسم غير المسمى ، وأسماء الله غيره ، وما كان غيره فهو مخلوق .

المبحث الأول

إثبات أن أسماء الله غير مخلوقة

ادعت الجهمية والمعتزلة وطوائف أخرى[1] من أهل الأهواء أن أسماء الله سبحانه وتعالى مخلوقة لأنها غيره ، وهذه إحدى حماقات الجهمية والمعتزلة ومن تابعهم وهي مبنية على قولهم بخلق القرآن ، قال الإمام أحمد : (من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر)[2] .

وقال الدارمي : (وقد كان لإمامه المريسي - وهو يقصد المعارض الذي كان يرد عليه في كتابه — في أسماء الله مذهب كمذهبه في القرآن ، كان القرآن عنده مخلوقاً من قول البشر لم يتكلم الله بحرف منه في دعواه ، وكذلك أسماء الله عنده من ابتداع البشر . . . فهذا الذي ادعوا في أسماء الله أصل كبير من أصول الجهمية التي بنوا عليها منهجهم وأسسوا بها ضلالتهم ، غالطوا بها الأغمار[3] والسفهاء ، وهم يرون أنهم يغالطون بها الفقهاء ، ولئن كان السفهاء في غلط من مذاهبهم ، إن الفقهاء منهم لعلى يقين)[4] .

وقال شيخ الإسلام : (والذي كان معروفاً عند أئمة السنة أحمد وغيره الإنكار على الجهمية الذين يقولون أسماء الله مخلوقة فيقولون الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره وما كان غيره فهو مخلوق وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول لأن أسماء الله من كلامه وكلام الله غير مخلوق بل هو المتكلم به وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء

---

(١) مثل الخوارج ، انظر : اعتقاد أئمة الحديث ، أبو بكر الإسماعيلي ، ٥٣ ، ت محمد الخميس ، دار العاصمة، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .والنجارية ، انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي ، ٢/٢٣٠ .

(٢) سيرة الإمام أحمد بن حنبل ، صالح بن أحمد بن حنبل ، ٤٨ .

(٣) الأغمار : جمع غُمْر بالضم وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور ، انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ٥/٣٢ .

(٤) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد ، الدارمي ، ١/ ١٦٤ — ١٦٦ .

والجهمية يقولون كلامه مخلوق وأسماؤه مخلوقة وهو نفسه لم يتكلم بكلام يقوم بذاته ولا سمى نفسه باسم هو المتكلم به بل قد يقولون إنه تكلم به وسمى نفسه بهذه الأسماء بمعنى أنه خلقها في غيره لا بمعنى أنه نفسه تكلم بها الكلام القائم به فالقول في أسمائه هو نوع من القول في كلامه)[1] .

وقد هبَّ علماء أهل السنة الأفذاذ بالرد على من اعتقد ذلك وبينوا القول الصحيح من خلال ردودهم .

وبما أن موضوع هذا البحث يتحدث عن أدلة أهل السنة العقلية فإني سوف أحرص إن شاء الله على إيراد أدلتهم العقلية بالضابط الذي ذكرتُه في نهاية المبحث الثاني من التمهيد، وسأعيده للتذكير به : وهو أن الدليل العقلي في الاعتقاد خاصة عند أهل السنة :

ما كان موافقاً للكتاب والسنة ، سواء كان مأخوذاً منهما أي عقلي سمعي ، أو كان مستنبطاً منهما وإن لم يكن موجوداً بنصه في الكتاب والسنة ، وهذا الثاني يأتي في الدرجة الثانية بعد الأدلة النقلية ، وأن معيار كونه صحيحاً أم لا ، هو عرضه على النقل فإن وافقه قبل وإلا رُدّ ، أي يجب ألا يحتوي على ألفاظ مجملة مبتدعة في الشرع ، فإذا سلم من ذلك فهو يفيد اليقين لأنه تابع للدليل النقلي وفرع منه ، ومعلوم أن الفرع يأخذ حكم الأصل .

ومن علماء أهل السنة الذين تصدوا بالرد على هؤلاء الجهمية في قولهم بأن أسماء الله مخلوقة ، لأن الاسم غير المسمى ، وادعوا أن الله كان ولا وجود لهذه الأسماء ، ثم خلقها ثم تسمى بها ، نعيم بن حماد[2] رحمه الله الذي ردَّ على الجهمية حين ادعوا هذا

---

(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة ، ٦/ ١٨٧ — ١٨٨ .

(٢) نعيم بن حماد بن معاوية خدتق بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك الإمام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعي المروزي الفرضي الأعور صاحب التصانيف ، قال أبو بكر الخطيب : يقال إن أول من جمع المسند وصنفه نعيم ، وقال أحمد : كان نعيم كاتباً لأبي عصمة يعني نوحاً وكان شديد الرد على الجهمية وأهل الأهواء ومنه تعلم نعيم ، قال صالح بن مسمار : سمعت نعيم بن حماد يقول أنا كنت جهمياً فلذلك عرفت كلامهم فلما طلبت الحديث عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل ، توفي سنة ٢٢٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٠/ ٥٩٥ — ٦١٢ .

الادعاء فقال : (فقلنا لهم : إن الله قال ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[(1)] وقال ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾[(2)] فأخبر أنه المعبود ودلَّ كلامه على اسمه بما دلَّ به على نفسه ، فمن زعم أن اسم الله مخلوق فقد زعم أن الله أمر نبيه أن يسبح مخلوقاً)[(3)] .

وهذا يعتبر من الرد عليهم بلازم قولهم .

وقال إسحاق بن راهويه[(4)] رحمه الله : [إن الله أمر عباده أن يدعوه بأسمائه ، فقال ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[(5)]][(6)] .

أي أنها لو كانت مخلوقة لما شرع الله سبحانه وتعالى لنا أن ندعوه بها ، وهذا هو قياس الخلف : الذي هو إثبات الأمر ببطلان نقيضه[(7)] ، إذ أن دعاءنا للمخلوقات فاسد ، فدل على أنها غير مخلوقة .

أما الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله فقد أورد في صحيحه كتاباً أسماه (كتاب التوحيد) ذكر تحت هذا الكتاب عدة أبواب ، ومن هذه الأبواب قوله : (باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها) قال ابن القيم : (ومقصوده بذلك أنها غير مخلوقة فإنه لا يستعاذ بمخلوق ولا يسأل به)[(8)] .

---

(١) الأعلى : ١ .

(٢) يونس : ٣ .

(٣) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٣/٣٧٨ .

(٤) هو إسحاق بن أبي الحسن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله ابن مطر بن عبيد الله بن غالب بن عبد الوراث بن عبيد الله بن عطية بن مرة بن كعب بن همام بن أسد بن مرة بن عمرو بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ابن مرة الحنظلي المروزي المعروف بابن راهويه ، جمع بين الحديث والفقه والورع وكان أحد أئمة الإسلامين ، أبو يعقوب ، لقي الكبار ، وكتب عن خلق من أتباع التابعين ، قال محمد بن يحيى الصفار: لو كان الحسن البصري في الأحياء ، لاحتاج إلى إسحاق في أشياء كثيرة ، وقال محمد الدارمي : ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه ، وقال النسائي : ابن راهويه أحد الأئمة ثقة مأمون ، توفي سنة ٢٣٨هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ١/ ١٩٩ – ٢٠١ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١١/ ٣٥٨ – ٣٨٣ .

(٥) الأعراف : ١٨٠ .

(٦) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٣/٣٧٨ .

(٧) المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، ٤٠٠ .

(٨) اجتماع الجيوش الإسلامية ، ابن القيم ، ١٤٨ .

وقد كان هذا المنهج متبعاً لدى علماء السنة في أول ظهور البدع ، فقد كانوا يسوقون الآيات والأحاديث في مصنفاتهم لإثبات المسألة التي أنكرها المخالفون ، ولا يكون لهم تعليق إلا قليلاً ، فمجرد سوقهم للآية والحديث يفهم القارئ مرادهم من ذلك ، وهذا ما فعله الإمام البخاري هنا ، فقد اكتفى بإيراد هذا الباب للدلالة على أن أسماء الله غير مخلوقة ، لأن المخلوق لا يسأل به ولا يستعاذ به .

والإمام الدارمي رحمه الله تعالى فنَّد هذا القول للجهمية بعدة ردود عقلية منها :

أنه بيَّن بأن قولهم بخلق أسماء الله يلزم منه نسبة الله سبحانه وتعالى إلى العجز والوهن والضرورة والحاجة إلى الخلق ، لأنهم قالوا أن أسماءه مستعارة من خلقه ، أي يلزم من قولهم أن الله سبحانه قبل أن يخلق الخلق لم يكن له أسماء ، ثم أنه بعد خلقه لهم ابتدعوا له أسماء من مخلوق كلامهم ، فأعاروها أياه من غير أن يُعرف له اسم قبل الخلق[(١)] .

وبيَّن أن المستعير محتاج مضطر ، والمعير أعلى منه وأغنى ، وهذه الدعوى فيها استجهال للخالق ، إذ كان بزعمهم هملاً لا يدرى ما اسمه وما هو وما صفته[(٢)] .

ثم قال رحمه الله : (والله المتعالي عن هذا الوصف المنزه عنه ، لأن أسماء الله هي تحقيق صفاته ، سواء عليك قلت : عبدتُ الله أو عبدتُ الرحمن ، أو الرحيم ، أو الملك العزيز الحكيم ، وسواء على الرجل قال : كفرتُ بالله ، أو قال : كفرتُ بالرحمن الرحيم ، أو بالخالق العزيز الحكيم ، وسواء عليك قلتَ : عبد الله ، أو عبد الرحمن ، أو عبد العزيز ، أو عبد المجيد ، وسواء عليك قلتَ : يا الله يا رحمن ، أو يا رحيم ، أو يا ملك يا عزيز يا جبار ، بأي اسم دعوته من هذه الأسماء أو أضفته إليه ، فإنما تدعو الله نفسه ، من شك فيه فقد كفر)[(٣)] .

ومن ردوده العقلية النقلية أنه استدل بقوله تعالى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾[(٤)]

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/١٥٨ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/١٥٨ .
(٣) المصدر السابق ، ١/١٥٩ .
(٤) الأعلى : ١ .

وقوله ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾[1] فقال : (ولو كان مخلوقاً مستعاراً غير الله – يعني اسم الله – لم يأمر الله أن يسبح مخلوق غيره)[2] .

واستدل أيضاً بقوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[3] فقال : (ولو كان كما ادعى المعارض وإمامه المريسي ، لكان الخالق والمخلوق استويا جميعاً على العرش ، إذ كانت أسماؤه مخلوقة عندهم ، إذ كان الله في دعواهم في حد المجهول أكثر منه في حد المعروف ، لأن لحدوث الخلق حداً ووقتاً ، وليس لأزلية الله حد ولا وقت ، لم يزل ولا يزال وكذلك أسماؤه لم تزل ولا تزال)[4] .

وفي هذين الدليلين نرى الدارمي رحمه الله يفترض المحال وهو صحة قولهم ويسلم لهم ولكنه يبيِّن ما يترتب على قولهم من أمور فاسدة ، وأن فساد النتيجة من فساد قولهم.

ثم إنه رحمه الله ذكر قول الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[5] وذكر أن الآلهة التي تعبد من دون الله هي التي تكون أسماؤها مستعارة من الخلق ، قال تعالى ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾[6] فشرح ذلك قائلاً : (يعني أن أسماء الله تعالى لم تزل كما لم يزل الله ، وأنها بخلاف هذه الأسماء المخلوقة التي أعاروها للأصنام والآلهة التي عبدوها من دونه ، فإن لم تكن أسماء الله بخلافها ، فأي توبيخ لأسماء الآلهة المخلوقة إذ كانت أسماؤها وأسماء الله مخلوقة مستعارة عندكم بمعنى واحد، وكلها من تسمية العباد ومن تسمية آبائهم بزعمكم؟!)[7] .

ثم ذكر شبهة أطلقها الجهمي هي قوله : (أرأيت لو كتبت اسماً في رقعة ثم احترقت الرقعة ، أليس إنما تحترق الرقعة ولا تضر النار الاسم شيئاً)[8] .

---

(١) التغابن : ١ .
(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/١٥٩ .
(٣) طه : ٥ .
(٤) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/١٦٣ .
(٥) الأعراف : ١٨٠ .
(٦) النجم : ٢٣ .
(٧) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/١٦٠ .
(٨) المصدر السابق ، ١/١٦٣ .

أي إن الجهمي بقوله هذا يريد أن أسماء الله غيره وأنها لو احترقت مثلاً أو ماتت بموت مبتدعيها لم يضر الله ذلك شيئاً – تعالى الله عما يقوله هذا الجهمي - .

فبيَّن الدارمي أن هذا الدليل عليه لا له ، فقال : (فيقال لهذا التائه الذي لا يدري ما يخرج من رأسه : إن الرقعة وكتابة الاسم ليس كنفس الاسم ، إذا احترقت الرقعة احترق الخط ويقي اسم الله له وعلى لسان الكاتب كما لم يزل قبل أن يكتب ، لم تنقص النار من الاسم ولا ممن له الاسم شيئاً ، وكذلك لو كانت أسماء المخلوقين ، لم تنقص النار من أسمائهم ولا من أجسامهم شيئاً ، وكذلك لو كتبت الله بهجائه في رقعة لاحترقت الرقعة وكان الله بكماله على عرشه ، وكذلك لو صور رجل في رقعة ثم ألقيت في النار لاحترقت الرقعة ولم تضر المُصَوَّرَ شيئاً .

وكذلك القرآن لو احترقت المصاحف كلها لم ينقص من نفس القرآن حرف واحد ، وكذلك لو احترقت القراء كلهم أو قتلوا أو ماتوا لبقي القرآن بكماله كما كان لم ينتقص منه حرف واحد ، لأنه منه بدأ وإليه يعود عند فناء الخلق بكماله غير منقوص)[(١)] .

وقد افترى هذا الجهمي فرية عظيمة فزعم أن الله لم يقل في كتابه ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[(٢)] لأنه لو اعترف بذلك للزمه أن يقول أن الله تكلم بالقرآن وهذا يكسر عليه مذهبه في القرآن[(٣)] .

وكما تبيَّن سابقاً أن القول بخلق الأسماء إنما هو فرع عن القول بخلق القرآن ، والجهمي بفعله هذا قد شابه اليهود والنصارى في تحريفهم لكتبهم السماوية .

قال الدارمي : [وقد كسر الله عليهم على رغم أنوفهم فقال : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[(٤)] لا يستحق مخلوق أن يتكلم بهذا ، فإن فعل ذلك كان كافراً ، كفرعون

(١) المصدر السابق ، ١/١٦٤ .
(٢) القصص : ٣٠ .
(٣) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/١٦٥ .
(٤) القصص : ٣٠ .

الذي قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1]][2] .

ومن ردوده العقلية عليهم أنه اتبع منهج توجيه الأسئلة ثم استقراء الإجابات كل على حدة وتفنيد السقيم منها ، أي أنه استخدم أسلوب السبر والتقسيم[3] .

قال رحمه الله : (أرأيتم قولكم أن أسماء الله مخلوقة فمن خلقها ؟ أو كيف خلقها ؟ أجعلها أجساماً وصوراً تشغل أعيانها أمكنة دونه من الأرض والسماء ؟ أم موضعاً دونه في الهواء ؟

فإن قلتم : لها أجسام دونه ، فهذا ما تنفيه عقول العقلاء .

وإن قلتم : خلقها على ألسنة العباد ، فدعوه بها ، وأعاروها إياه ، فهو ما ادعينا عليكم : أن الله بزعمكم كان مجهولاً لا اسم له حتى حدث الخلق فأحدثوا أسماء من مخلوق كلامهم ، وهذا هو الإلحاد بالله وفي أسمائه والتكذيب بها ، قال ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[4] كما نضيفه إلى الله رب العالمين ، ولو كان كما ادعيتم لقيل : الحمد لله رب العالمين المسمى الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)[5] .

ثم استدل بالحديث القدسي : ((قال الله عز وجل : أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي اسماً فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بَتَتُّه))[6] فقال : [فيقول الله : أنا شققت لها من اسمي ، وادعت الجهمية المكذبين لله ورسوله أنهم أعاروه الاسم الذي شقها منه !!

ومن أين علم الخلق أسماء الخالق قبل تعليمه إياهم ؟ فإنه لم يعلَمْ آدمُ ولا الملائكةُ أسماءَ المخلوقين ، حتى علمهم الله من عنده ، وكان بدء علمها منه فقال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

(١) النازعات : ٢٤ .
(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/١٦٥ .
(٣) انظر : التعاريف ، المناوي ، ٣٩٦ .
(٤) الفاتحة : ٢ – ٤ .
(٥) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ١٦٦ – ١٦٧ .
(٦) رواه أحمد في مسنده ، ١/١٩٤ ، وهو صحيح لغيره ، انظر : النسخة المحققة ، ٣/٢١٣ .

الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1] [2] .

وكذلك أبو الحسن الأشعري في كتابه (الإبانة) بيَّن من خلال قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾[3] أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة لأنه لا يقال للمخلوق (تبارك) أبداً[4] .

أما الإمام اللالكائي رحمه الله صاحب كتاب (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) فقد كان له كذلك عدة ردود على الجهمية في قولهم هذا ، منها :

أنه استدل بقول الله تعالى ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[5] فقال : (ومن أعظم الشرك أن يقال : أن العبادة لاسمه واسمه مخلوق وقد أمر بالعبادة للمخلوق)[6] .

واستدل بقول الله تعالى ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾[7] فقال : (فأمر الله تبارك وتعالى أن يذكر اسمه على البدن حين نحرها للتقرب إليه ، وعلى مذهب المبتدعة : لو ذكر اسم زيد أو عمرو أو اللاّت والعزّى يجزيه ، لأن هذه الأسماء مخلوقة ، وأسماء الله عز وجل عندهم مخلوقة)[8] .

ومن خلال هذه الردود وما بعدها يلاحظ أن الإمام اللالكائي يرد عليهم بلازم قولهم ، حيث يقول أيضاً : (أجمع المسلمون أن المؤذن إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فإنه قد أتى بالتوحيد وأقر بالنبوة ، إلا المعتزلة فإنه يلزمهم

---

(1) البقرة : ٣١ — ٣٣ .
(2) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ١٧٧ — ١٧٨ .
(3) الرحمن : ٧٨ .
(4) الإبانة ، أبو الحسن الأشعري ، ١/ ٧٤ ، ت فوقية حسين ، دار الأنصار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ .
(5) النساء : ٣٦ .
(6) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي ، ٢/ ٢٣٠ .
(7) الحج : ٣٦ .
(8) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي ، ٢/ ٢٣٠ .

أن يقولوا : أشهد أن الذي اسمه لا إله إلا هو وأشهد أن الذي اسمه محمد رسول الله .

وهذا خلاف ما وردت به الشريعة وخلاف ما عليه المسلمون)[1] .

وقال أيضاً : (وكذلك هذه الأَيْمَان التي بالله تبارك وتعالى كلها عندهم يجب أن تكون مخلوقة والناس يحلفون بالمخلوق دون الخالق ، لأن الاسم غير المسمى ، والاسم مخلوق عندهم)[2] .

وكذلك ابن القيم عند شرحه لحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه : ((ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً))[3] .

قال رحمه الله : (وقد دل الحديث على أن أسماء الله غير مخلوقة بل هو الذي تكلم بها وسمى بها نفسه ولهذا لم يقل بكل اسم خلقته لنفسك ولو كانت مخلوقة لم يسأله بها فإن الله لا يُقْسَم عليه بشيء من خلقه فالحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم وأيضا فإن أسماءه مشتقة من صفاته وصفاته قديمة به فأسماؤها غير مخلوقة . . . فقوله في الحديث ((سميت به نفسك)) ولم يقل خلقته لنفسك ولا قال سماك به خلقك دليل على أنه سبحانه تكلم بذلك الاسم وسمى به نفسه كما سمى نفسه في كتبه التي تكلم بها حقيقة بأسمائه)[4] .

وهكذا نرى الاستخدامات العقلية والحجج المتنوعة القائمة على العقل عند أهل السنة لنقض كلام الجهمية والمعتزلة في قولهم بخلق الأسماء ، مع أن هؤلاء المخالفين بنوا

(١) المصدر السابق ، ٢/ ٢٣١ .
(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٢٣١ .
(٣) رواه أحمد في مسنده ، ١/ ٣٩١ ، صححه الألباني ، انظر : السلسلة الصحيحة ، ١/ ٣٨٣ – ٣٨٧ .
(٤) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/ ٢٧٦ – ٢٧٧ .

بدعتهم هذه على العقل ، إلا أن أهل السنة نقضوا عليهم حججهم العقلية المجردة بحجج عقلية قوية ثابتة مستندها الكتاب والسنة ، والمخالفين لم يضلوا في حججهم إلا لأنهم أعرضوا عن الكتاب والسنة واستمعوا لآراء الرجال المجردة .

وعندما ادعت الجهمية أن أسماء الله مخلوقة وأن أسماء الله غيره ظهرت مسألة الاسم والمسمى الذي عدَّها الإمام الطبري من الحماقات الحادثة ، فقال : (وأما القول في الاسم أهو المسمى أو غير المسمى فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع ولا قول من إمام فيستمع والخوض فيه شين والصمت عنه زين)[1] .

ولكن لكثرة خوض الناس في هذه المسألة تعددت الأقوال ولم يتبين الصواب فيها ، فهبَّ علماء السنة بالتصدي لها وبيان الحق من الباطل فيها .

وقد ورث هذا القول عن الجهمية خلفاؤهم من المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وكثير من الزيدية[2] .

أما قول أهل السنة فهو أن الاسم للمسمى ، وهو الموافق للكتاب والسنة والمعقول قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[3] وقال ﴿ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[4] وقال النبي ﷺ : ((إن لله تسعة وتسعين اسماً))[5] وقال : ((لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب))[6] وأصحاب هذا القول إذا قيل لهم : هل الاسم هو المسمى أو غيره ؟ فصَّلوا ، فقالوا : ليس هو نفس المسمى ، ولكن يراد به المسمى ، وإذا قيل أنه غيره بمعنى أنه يجب أن يكون مبايناً له ، فهذا باطل ، فإن المخلوق

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ١/٢٠٨ .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ، ١٧٢ .

(٣) الأعراف : ١٨٠ .

(٤) الإسراء : ١١٠ .

(٥) رواه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب أن لله مائة اسم إلا واحدة ، رقم الحديث ٧٣٩٢ ، وكتاب الشروط بلفظ (تسعاً)، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار ، رقم الحديث ٢٧٣٦ .

(٦) رواه البخاري ، كتاب المناقب ، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم الحديث ٣٥٣٢ .

قد يتكلم بأسماء نفسه فلا تكون بائنة عنه فكيف بالخالق ، وأسماؤه من كلامه ، وليس كلامه بائناً عنه ، ولكن قد يكون الاسم نفسه بائناً ، مثل أن يسمي الرجل غيره باسم ، أو يتكلم باسمه ، فهذا الاسم نفسه ليس قائماً بالمسمى ، لكن المقصود به المسمى ، فإن الاسم مقصوده إظهار المسمى وبيانه[(١)] .

ومن المعلوم أن منهج أهل السنة في الرد على الجهمية والمعتزلة ومن قال بقولهم من الطوائف الأخرى - في هذه المسألة وفي غيرها من المسائل – أنهم يبدؤون ببيان الأمور المتفق عليها حتى يحرروا محل النزاع ، ثم بعد ذلك يفسرون ويشرحون الألفاظ المتنازع فيها، أي يستفصلون من الألفاظ المجملة .

قالت الجَهمية ومن وافقهم أن الاسم غير المسمى ، ومن المعلوم أنهم يريدون من وراء ذلك أن يقولوا أن أسماء الله سبحانه وتعالى مخلوقة .

وقد بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله أنهم إن كانوا يريدون بقولهم هذا أن الأسماء التي هي أقوال – أي ألفاظ – ليست نفسها هي المسميات فهذا حق ولا نزاع فيه بين العقلاء[(٢)] .

ثم إن لفظ (غير) هذا يعتبر لفظ مجمل يجب الاستفصال عنه لمعرفة الحق وإثباته ومعرفة الباطل ونفيه ، قال شيخ الإسلام : (فإذا قلتم أن أسماءه أو كلامه غيره فلفظ (الغير) مجمل ، إن أردتم أن ذلك شيء بائن عنه فهذا باطل ، وإن أردتم أنه يمكن الشعور بأحدهما دون الآخر فقد يذكر الإنسانُ الله ويخطر بقلبه ولا يشعر حينئذ بكل معاني أسمائه ، بل ولا يخطر له حينئذ أنه عزيز وأنه حكيم ، فقد أمكن العلم بهذا دون هذا ، وإذا أريد (بالغير) هذا فإنما يفيد المباينة في ذهن الإنسان ، لكونه قد يعلم هذا دون هذا ، وذلك لا ينفي التلازم في نفس الأمر ، فهي معانٍ متلازمة لا يمكن وجود الذات دون هذه المعاني ، ولا وجود هذه المعاني دون وجود الذات)[(٣)] .

وقال ابن القيم : (ولا يقال – أسماؤه - غيره لما في لفظ (الغير) من الإجمال فإن

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، قاعدة في الاسم والمسمى ، ابن تيمية ، ٦/ ٢٠٦ – ٢٠٧ .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، قاعدة في الاسم والمسمى ، ٦/٢٠٣ .
(٣) المصدر السابق ، ٦/ ٢٠٥ – ٢٠٦ .

أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسماً أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد)[1] .

وقال شارح النونية[2] : (وبلاء القوم من لفظة (الغير) فإنها يراد بها معنيان أحدهما : المغاير لتلك الذات المسماة بالله ، وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقاً ، ويراد به مغايرة الصفة للذات إذا جُرِّدت عنها ، فإذا قيل : علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحاً ولكن الإطلاق باطل ، فإذا أُريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره كان باطلاً لفظاً ومعنىً ، وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن)[3] .

ومن خلال هذه الردود تتبين دقة أهل السنة في الرد على الفرق المخالفة التي تطلق القول دون تقييد ولا تحديد ولا تفصيل ، لذلك انتهج أهل السنة منهج الاستفصال في مثل هذه الألفاظ حتى يتبين الحق من الباطل .

---

(١) شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢٧٧ .

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، توفي سنة ١٣٢٩هـ .

(٣) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، ١/٧٠ .

الفصل الثاني

في صفات الله جل وعلا

ويشمل :

المبحث الأول : في إثبات الصفات الذاتية .

المبحث الثاني : في إثبات الصفات الخبرية .

المبحث الثالث : في إثبات الصفات الفعلية .

تمهيد

تقسيم الصفات

من المعلوم أن الرسول ﷺ عندما أخبر أصحابه رضوان الله عليهم بصفات الباري عز وجل لم يقسمها لهم ، ولم يذكر أن بعضها يثبت بالعقل وبعضها بالسمع ، فمضى الصحابة على هذا الأمر ، مؤمنون بما أنزل إليهم من ربهم ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾[1] .

يقول المَقَرِيزي : (ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة . . .)[2] .

ولكن لما ظهر رؤوس البدع وأخذوا يثبتون ما يشاؤون من الصفات وينفون ما يشاؤون على ما تملي عليهم عقولهم ، قام من بقي من علماء الصحابة رضي الله عنهم وقام معهم التابعون رحمهم الله تعالى بالرد على هؤلاء المبتدعة في هذا التفريق بين الصفات نفياً وإثباتاً .

ومن خلال البحث ظهر لي - والله أعلم – أن تقسيم الصفات كان بدايته من أهل السنة وكان هذا التقسيم صادراً عن منهجهم المنظم الدقيق في الرد على المبتدعة .

فقد أخذوا يبينون للمبتدعة - الذين ادعوا إعمال العقل في إثبات الصفات وإن ما

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المقريزي ، ٣٥٦/٢ ، دار صادر ، بيروت .

يعارض العقل إثباته منها فإنه يجب نفيه أو تأويله - أن هناك بعض الصفات من الممكن أن تثبت بالعقل مع ورود السمع بها ، والبعض الآخر لا يمكن إثباته إلا بالسمع ، ولا يجوز للإنسان أن يدعيه من عند نفسه ، لأن ذلك يدخله في مسألة القول على الله بلا علم .

ومن هذا المنطلق فقد قسَّم أهل السنة الصفات إلى قسمين :

- صفات الذات .
- صفات الفعل .

ومن الممكن أن يقال أن بداية هذا التقسيم بالتحديد كان في النصف الأول من القرن الثاني الهجري تقريباً ، حيث يقول الإمام أبو حنيفة في كتابه (الفقه الأكبر) : (وصفاته الذاتية والفعليةَ : أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة وأما الفعلية فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل لم يزل ولا يزال بصفاته وأسمائه لم يحدث له صفة ولا اسم)[(١)] . ومن المعلوم أن الإمام أبا حنيفة توفي عام (١٥٠هـ) .

ولا يعني هذا التقسيم للصفات من قِبَل أهل السنة أنهم يثبتون بعضها دون البعض ، بل إنهم يثبتون جميع الصفات والأسماء التي أثبتها الله سبحانه وتعالى لنفسه في كتابه وأثبتها له رسوله محمد ﷺ وينفون عنه ما نفاه هو سبحانه عن نفسه ونفاه عنه رسوله من غير تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف .

وهناك تقسيم إضافي للصفات الذاتية والفعلية ، ذكره أحد الباحثين[(٢)] ، فقال : (وكذا قسم أهل السنة الصفات إلى قسمين : سمعية ، وعقلية ، وهذا يظهر من كلام الإمام أحمد وابن كلاب وعبدالعزيز المكي كما صرح بذلك شيخ الإسلام) .

وهو يشير إلى كلام ذكره شيخ الإسلام رحمه الله ، فقال : (والمقصود هنا أن من

---

(١) الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة ، محمد عبدالرحمن الخميس ، ١٥ – ١٦ ، ت محمد الخميس ، مكتبة الفرقان ، عجمان ، ط ١ ، ١٩٩٩م .

(٢) الدكتور : محمد بن عبدالرحمن الخميِّس في رسالته (أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة) ، ٣٠٥ ، دار الصميعي ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

صفات الله تعالى ما قد يعلم بالعقل ، كما يعلم أنه عالم ، وأنه قادر ، وأنه حي ، كما أرشد إلى ذلك قوله ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] .

وقد اتفق النظار من مثبتة الصفات على أنه يعلم بالعقل - عند المحققين — أنه حي عليم قدير مريد ، وكذلك السمع والبصر والكلام يثبت بالعقل عند المحققين منهم .

بل وكذلك الحب والرضا والغضب يمكن إثباته بالعقل .

وكذلك علوه على المخلوقات ومباينته لها مما يعلم بالعقل، كما أثبته بذلك الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل وغيره، ومثل عبدالعزيز المكي، وعبدالله بن سعيد بن كلاب)[2] .

وبهذا يتبيَّن أن أهل السنة يقسمون الصفات إلى قسمين : ذاتية ، وفعلية ، وكل منهما ينقسم إلى قسمين : سمعي ، وعقلي .

وهذه هي النتيجة التي خرج بها الإمام البيهقي حيث يقول رحمه الله : (صفات الله : قسمان : احدهما : صفات وهو ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال . والآخر : صفات فعله ، وهي ما استحقه فيما لا يزل دون الأزل .

ثم منه ما افترنت به دلالة العقل كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام ونحو ذلك من صفات ذاته ، وكالخلق والرزق والأحياء والأمانة والعفو والعقوبة ونحو ذلك من صفات فعله .

ومنه ما كان طريق إثباته ورود خبر الصادق به فقط كالوجه واليدين والعين في صفات ذاته وكالإستواء على العرش والإتيان والمجئ والنزول ونحو ذلك من صفات فعله)[3] .

---

(١) الملك : ١٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ٣/ ٨٨ (ج — د) ، ٥/ ٣١٠ — ٣٢٠ ، وانظر : الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٣٥ — ١٤٤ .

(٣) الأسماء والصفات ، البيهقي ، ١١٠ ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، ط مطبعة السعادة بمصر ١٣٥٨هـ. وانظر : الفتوى الحموية الكبرى ، مقدمة المحقق حمد بن عبدالمحسن التويجري ، ١٥٥ — ١٥٩ ، دار الصميعي ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م . البيهقي وموقفه من الإلهيات ، عطية بن علي الغامدي، ١٤٩ — ١٥٤ ، مكتبة ابن تيمية ، المحرق - البحرين ، ط ٤ ، ١٤١٣هـ . وأصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ، محمد بن عبدالرحمن الخميِّس ، ٣٠٥ — ٣٠٦ .

وبهذا يتبيّن أن أهل السنة كان لهم دور بارز في مسألة تقسيم الصفات ، وإن كانوا لم يبتدؤوها إلا كردٍّ فعل لما قام به المبتدعة من النفي والإثبات ، وحتى لو قيل بأن المبتدعة هم الذين قسموا الصفات ، فقد كان تقسيمهم لها بهدف إثبات بعضها دون بعض ، على العكس تماماً من أهل السنة الذين قسموها ووافقوا التنزيل في إثباتها .

لذلك فإن هذا الفصل يتكون من ثلاثة مباحث :

الأول : يحتوي على بعض الأدلة العقلية لأهل السنة في إثبات بعض الصفات الذاتية العقلية .

الثاني : يحتوي على بعض الأدلة العقلية لأهل السنة في إثبات بعض الصفات الذاتية الخبرَية .

الثالث : يحتوي على بعض الأدلة العقلية في إثبات بعض الصفات الفعلية ، وفي نهايته ذكر بعض الأدلة العقلية في إثبات صفة الكلام وهي صفة ذاتية فعلية عقلية .

المبحث الأول
في إثبات الصفات الذاتية العقلية

ويشمل :

المطلب الأول : إثبات صفة العلو .

المطلب الثاني : إثبات صفة المعية .

المطلب الثالث : إثبات صفة العلم .

المطلب الرابع : إثبات صفتا الحياة والقيومية .

المطلب الخامس : إثبات صفتا السمع والبصر .

المطلب الأول

صفة العلو

تضافرت الآيات والأحاديث على إثبات صفة العلو والفوقية لله سبحانه وتعالى ، وأن الله متعالٍ فوق سمواته ، مستو على عرشه ، كما وصف نفسه في كتابه ووصفه به رسوله ﷺ .

والعلو ينقسم عند أهل السنة إلى ثلاثة أقسام وكلها يثبتونها لله عز وجل إثباتاً يليق بجلاله وعظمته ، وهي كالتالي :

١) علو القهر .

٢) علو القدر .

٣) علو الذات[١] .

وقد يقسمون العلو إلى تقسيم آخر هو :

١) علو الصفة : بمعنى أن صفاته تعالى عليا ليس فيها نقص بوجه من الوجوه .

٢) علو الذات : بمعنى أن ذاته تعالى فوق جميع مخلوقاته[٢] .

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أقوال الناس في العلو فكانت كالتالي :

الأول : قول أهل السنة وهو أن الله فوق سمواته ، مستو على عرشه ، بائن من خلقه .

الثاني : قول معطلة الجهمية ونفاتهم وهم الذين يقولون لا هو داخل العالم ولا خارجه ولا مباين له ولا محايث له .

الثالث : قول حلولية الجهمية الذين يقولون أنه بذاته في كل مكان[٣] .

---

(١) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/١٣٢٤ .

(٢) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ، ابن عثيمين ، ٦٦ ، مكتبة دار طبرية ، ومكتبة أضواء السلف ، الرياض ، ط ٣ ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٣) انظر : أصول الدين ، الغزنوي ، ٧٠ ، ت عمر وفيق الداعوق ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

الرابع : قول طوائف من أهل الكلام والتصوف الذين يقولون أن الله بذاته فوق العالم وهو بذاته في كل مكان[1] .

وحاصل الأقوال الثلاثة الأخيرة نفي علو الذات عن الله سبحانه وتعالى .

وقد تصدى بالرد عليهم علماء السنة وفندوا أقوالهم وحججهم ، من هؤلاء إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله الذي ذكر قولهم في نفي صفة العلو عن الله سبحانه، حيث قال : [فقالوا : هو تحت الأرض السابعة ، كما هو على العرش ، وفي السموات وفي الأرض ، وفي كل مكان ولا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان ، وتلوا آية من القرآن ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾[2]][3] .

فرد عليهم الإمام أحمد بقوله : (فقلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء ، فقالوا : أي مكان ؟

فقلنا : أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش ، والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب شيء ، وقد أخبرنا أنه في السماء)[4] .

ثم بيَّن أن كل شيء يكون في السفل يكون مذموماً ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾[5] .

وقد استدلت الجهمية على نفي العلو وأن الله في كل مكان – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – بقوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾[6] ، واستدلالهم بهذه الآية على مذهبهم يدل على جهلهم ، وسطحية تفكيرهم ، وقلة بضاعتهم في علم التفسير ، وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢/ ٢٩٧ – ٢٩٩ و ١٢٤/٥ ، ومقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ، ٢١٥ و ٢٩٩ .

(٢) الأنعام : ٣ .

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ١٣٥ .

(٥) النساء : ١٤٥ .

(٦) الأنعام : ٣ .

فردَّ عليهم الإمام أحمد ببيان أن المراد بهذه الآية إحاطة علمه سبحانه بكل شيء ، وأنها ليست دليلاً على ما يقولون ، فقال : [وإنما معنى قول الله جل ثناؤه ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ يقول : هو إله من في السموات ومن في الأرض ، وهو على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش ، ولا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان فذلك قوله ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾[1]][2] .

ثم ضرب مثلين — وضرب الأمثال من الأدلة العقلية — فقال : (لو أن رجلا كان في يديه قدح من قواريرٍ صافٍ وفيه شراب صافٍ ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح ، فالله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه .

وخصلة أخرى ، لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار ، فالله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه وعلم كيف هو وما هو من غير أن يكون في شيء مما خلق)[3] .

أما الإمام الدارمي رحمه الله فقد تصدى للرد على أحد الجهمية المعارضين لمذهب أهل السنة والذي حاول إبراز مذهب بشر المريسي وابن الثلجي في نفي الصفات .

فكان من ادعاءات هذا المعارض في نفي صفة العلو استدلاله بآيات المعية التي منها قوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[4] وحديث القرب الذي يقول فيه

(١) الطلاق : ١٢ .
(٢) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٣٧ .
(٣) المصدر السابق ، ١٣٧ .
(٤) المجادلة : ٧ .

الرسول ﷺ : ﴿ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب ﴾[(1)] .

فبيَّن الدارمي أن هذه المعية وهذا القرب إنما هو قرب علم ومعية علم ، فإن علم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء وهو مع ذلك عالٍ فوق سمواته وفوق عرشه ، ثم أن الله سبحانه بيَّن أنه مع كل ذي نجوى ولم يقل أنه في كل مكان كما ادعى الجهمية لأن لازم كلامهم أنه يكون في كل مكان قذر نجس – تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً – ثم قال رحمه الله : (وإنما يعرف فضل الربوبية وعظم القدرة بأن الله تعالى من فوق عرشه وبعد مسافة السموات والأرض يعلم ما في الأرض وما تحت الثرى وهو مع كل ذي نجوى، ولذلك قال ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[(2)] ولو كان في الأرض كما ادعيتم بجنب كل ذي نجوى ما كان بعجب أن ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، فلو كنا نحن بتلك المنزلة منهم لنبأنا كل عامل منهم بما عمل وقال ، وناجى به أصحابه ، فما فضل علام الغيوب على المخلوق الذي لا يعلم الغيب في دعواك ؟)[(3)] .

ثم ادعى هذا الجهمي كذباً على الله أن الله سبحانه لم يصف نفسه أنه في موضع دون موضع ، ففنَّد الدارمي قول هذا المفتري وبيَّن أن القرآن والسنة فضحا هذا الكاذب الجاهل بالعربية وذكرا الآيات والأحاديث التي تثبت أن الله وصف نفسه بأنه في موضع دون موضع ، ومكان دون مكان ، ذكر أنه فوق العرش ، والعرش فوق السموات ، وقد عرف ذلك كثير من النساء والصبيان ، فكيف من الرجال ؟[(4)] .

ومن الآيات التي تثبت ذلك ، قوله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[(5)] ، ومن الأحاديث سؤال النبي ﷺ الجارية : ((أين الله)) قالت : (في السماء) قال : ﴿ أعتقها

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب التسبيح إذا هبط وادياً ، رقم الحديث ٢٩٩٣ ، و كتاب القدر ، باب لا حول ولا قوة إلا بالله ، رقم الحديث ٦٦١٠ .

(2) التوبة : ٩٤ .

(3) نقض الإمام أبي سعيد، الدارمي، ١/ ٤٤٣ – ٤٤٤ ، وانظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤٢ – ٤٤ .

(4) المصدر السابق ، ١/٤٤٤ .

(5) النحل : ٥٠ .

فإنها مؤمنة ﴾[(١)] .

ثم بيَّن الدارمي تناقض هذا المعارض في حججه حيث قال هذا المعارض : (العرش : أعلى الخلق ، والله عليه وعلى كل شيء ، وبكل مكان غير محوي ولا ملازق ولا ممازج ، ولا بائن باعتزال وبفرجة بينه وبين خلقه)[(٢)] .

فردَّ الدارمي قائلاً : (وأما قولك : إنه غير محوي ولا محاط به ، فكذلك هو عندنا وفي مذهبنا ، لما أنه فوق العرش في هواء الآخرة ، حيث لا خلق معه هناك ، ولا فوقه سماء ، وفي قياس مذهبك ومذاهب أصحابك محوي محاط ملازق مماس ، قد اعترفت بذلك من حيث لا تشعر ، لأنكم تزعمون أنه في كل مكان من السموات والأرض ، والسموات فوق بعضه ، وأنه في كل بيت مغلق ، وفي كل صندوق مقفل ، فهو في دعواكم محاط به مماس ، ولا يكون شيء في كل مكان إلا وذلك الشيء مما بين الأمكنة قد أحاطت به الأرض - في دعواكم - والسماء ، وحيطان البيوت ، والأغلاق والأقفال)[(٣)] .

وبيَّن الدارمي أن نفي العلو عن الله سبحانه وتعالى إنما يؤدي بالعبد إلى عبادة غير الله، ويقصد بها إلهاً في الأرض ، ومن فعل ذلك كان كعابد وثن ، لأن الرحمن على العرش والأوثان في الأرض[(٤)] .

وقد رفض هذا المعارض وصف الله بالأينية ، مع أن الرسول ﷺ وصفه بذلك عند سؤاله للجارية ، لذلك يقول الدارمي : (فلو لم يوصف بأين كما ادعيت أيها المعارض، لم يكن رسول الله ﷺ يقول للجارية : ((أين الله)) فيغالطها في شيء لا يؤين ، وحين قالت : (هو في السماء) لو قد أخطأت فيه لردَّ رسول الله ﷺ عليها وعلَّمها ، ولكنه استدل على إيمانها بمعرفتها أن الله في السماء)[(٥)] .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة ، رقم الحديث ٥٣٧ ، انظر : صحيح مسلم بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٤٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ١/ ٤٤٦ — ٤٤٧ ، وانظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤٢ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ١/٤٨٩ .

(٥) المصدر السابق ، ١/٥١٠ ، وانظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤٦ — ٤٧ .

ومن مزاعم هذا المعارض أنه لا يصف الله بحلول الأماكن ، ولكن الدارمي نقض زعمه هذا فقال : (فلو شعرت أيها المعارض أنك وصفته بأقبح حلول في الأماكن أفحش مما عبت على غيرك ، لأننا قد أيَّنَّا له مكاناً واحداً ، أعلى مكان ، وأطهر مكان ، وأشرف مكان ، على عرشه العظيم المقدس المجيد ، فوق السماء السابعة العليا ، حيث ليس معه هناك إنس ولا جان ، ولا بجنبه حش ولا مرحاض ولا شيطان .

وزعمت أنت والمضلون من زعمائك أنه في كل مكان ، وفي كل حش ومرحاض ، وبجنب كل إنسي وجانّ ، أفأنتم تشبهونه بالحلول في الأماكن ، أم نحن هذا واضح بيِّن من مذهبكم ودعواكم ، صرحت بها أيها المعارض في غير موضع من كتابك ، ولكنك تقول الشيء فتنساه ، ثم تنقضه على نفسك وأنت لا تشعر به حتى يأخذ بحلقك ، والحمد لله الذي أعاننا عليك بالنسيان ، وكثرة الهذيان)(١) .

ومن مزاعم هذا المعارض في نفي العلو استدلاله بقياس ضل به عن سواء السبيل ، فقال : (ألا ترى أنه من صعد الجبل لا يقال له أنه أقرب إلى الله ؟)(٢) .

ففند الدارمي شبهة هذا المعارض قائلاً : (من أنبأك أن رأس الجبل ليس بأقرب إلى الله تعالى من أسفله ؟ لأنه من آمن بأن الله فوق عرشه فوق سمواته علم يقيناً أن رأس الجبل أقرب إلى الله من أسفله ، وأن السماء السابعة أقرب إلى عرش الله تعالى من السادسة ، والسادسة أقرب إليه من الخامسة ، ثم كذلك إلى الأرض ، . . . لأن كل ما كان إلى السماء أقرب كان إلى الله أقرب ، وقرب الله إلى جميع خلقه أقصاهم وأدناهم واحد لا يبعد عنه شيء من خلقه ، وبعض الخلق أقرب من بعض على نحو ما فسرنا من أمر السموات والأرض ، وكذلك قرب الملائكة من الله ، فحملة العرش أقرب إليه من جميع الملائكة الذين في السموات ، والعرش أقرب إليه من السماء السابعة ، وقرب الله إلى جميع ذلك واحد هذا معقول مفهوم إلا عند من لا يؤمن أن فوق العرش إلهاً ولذلك

---

(١) المصدر السابق ، ٤٩٣/١ .

(٢) المصدر السابق ، ٥٠٤/١ .

سمى الملائكة المقربين وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾[1] فلو كان الله في الأرض كما ادعت الجهمية ما لقوله ﴿ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ معنى ، إذ كل الخلق عنده ومعه في الأرض بمنزلة واحدة ، مؤمنهم وكافرهم ، ومطيعهم وعاصيهم ، وأكثر أهل الأرض من لا يسبح بحمده ولا يسجد له ، ولو كان في كل مكان ومع كل أحد لم يكن لهذه الآية معنى ، لأن أكثر من في الأرض لا يؤمن به ولا يسجد له ويستكبر عن عبادته فأي منقبة إذن فيه للملائكة ؟ إذ كل الخلق عند الجهمية في معناهم في تفسير هذه الآية)[2] .

ثم أنه بلغ من تناقض هذا المعارض أنه أوَّل قول (أن الله في السماء) بأن معناه : مدبرها ومتقنها ، كما يقال للرجل : هو في صلاته وعمله ، وتدبير معيشته ، وليس هو في نفسها وفي جوفها ، وفي نفس المعيشة بالحقيقة[3] .

فبيَّن الدارمي أن هذا المعارض إنما يناقض نفسه في كل كلمة يقولها ، وأنه ينبغي أن لا يُرَدَّ على مثله ، ولكن خوفاً على الضعفاء وعلى عقائدهم ، ردَّ عليه كي يحذروه ويحذِّروا منه[4] .

ويكمن تناقض هذا المعارض في أنه قال أن الله لا يوصف بالأينية ، أي لا يوصف بمكان ، ثم عاد فقال أن معنى (أن الله في السماء) كذا وكذا ، لذلك يقول الدارمي : (فمن أنبأك أيها المعارض أن الله لا يوصف بأين ؟ فأخبرنا به وإلا فأنت المفتري على الله ، الجاهل به وبمكانه .

ثم نقضت على نفسك دعواك أنه في السماء على أنه مدبرها ، كما يكون الرجل في عمارة داره خارجاً منها ، وليس بداخل فيها ، فتركت المذهب الأول ، ثم ادعيت أخيراً فقلت هو في السماء وفي الأرض وفي كل مكان ، تحتج بالشيء ثم تنساه حتى تنقضه على

(١) الأعراف : ٢٠٦ .
(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٥٠٥ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ١/٥٠٦ .
(٤) انظر : الصدر السابق ، ١/ ٥٠٦ — ٥٠٧ .

نفسك وأنت لا تشعر)[1] .

وقد استخدم هذا المعارض الأدلة العقلية في غير موضعها ، فأخذ يناقش من قال : أن الله في السماء بطريقة (السبر والتقسيم) فقال : (إن قالوا لك : أين الله ؟ فالجواب لهم : إن أردتم حلولاً في مكان دون مكان ، وفي مكان يعقله المخلوقون ، فهو المتعالي عن ذلك ، لأنه على العرش ، وبكل مكان لا يوصف بأين)[2] .

فردَّ الدارمي قائلاً : (وأما اشتراطك على من سألك أين الله ؟ فتقول له : إن كنت تريد كذا وكذا ، فهذا شرط باطل ، لم يشترط ذلك أحد من الأمة على أحد أراد أن يعرف الله ، لأن النبي ﷺ حين سأل الأمة السوداء : ((أين الله)) لم تشترط على النبي ﷺ كما اشترطت أنت ، إن كنت تريد حلولاً كحلول كذا وكذا ، ولكن قالت : (في السماء) فاكتفى منها النبي ﷺ بذلك ولم يقل لها : كيف كينونته في السماء ، وكيف حلوله فيها ؟)[3] .

وأما الإمام ابن خزيمة رحمه الله فقد كانت له أدلة عقلية ردَّ بها على نفاة العلو ذكرها في كتابه (التوحيد) استنبطها من كتاب الله العزيز .

منها قوله : (باب ذكر البيان أن الله عز وجل في السماء كما أخبرنا في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه عليه السلام ، وكما هو مفهوم في فطرة المسلمين ، علمائهم وجهالهم ، أحرارهم ومماليكهم ، ذكرانهم وإناثهم ، بالغيهم وأطفالهم ، كل من دعا الله جل وعلا فإنما يرفع رأسه إلى السماء ويمد يديه إلى الله ، إلى أعلاه لا إلى أسفل)[4] .

ثم ساق الآيات التي دلت على أن الله سبحانه وتعالى في العلو ، مثل قوله تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[5] فقال معلقاً ومستنبطاً وجه

(١) المصدر السابق ، ٥١١/١ .
(٢) المصدر السابق ، ٥٠٧/١ .
(٣) المصدر السابق ، ٥٠٨/١ .
(٤) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، ابن خزيمة ، ٢٥٤/١ ، ت عبدالعزيز الشهوان ، مكتبة الرشد ، شركة الرياض ، الرياض ، ط ٦ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
(٥) فاطر : ١٠ .

الدلالة: (أفليس العلم محيطاً يا ذوي الحجا والألباب أن الرب جل وعلا فوق من يتكلم بالكلمة الطيبة ، فتصعد إلى الله كلمته ؟ لا كما زعمت المعطلة الجهمية أنه تهبط إلى الله الكلمة الطيبة كما تصعد إليه)[1] .

واستدل كذلك بقول الله تعالى ﴿ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾[2] قال : (أليس إنما يرفع الشيء من أسفل إلى أعلى ، لا من أعلى إلى أسفل ؟)[3] .

وكذلك قوله تعالى ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً ﴾[4] قال : (ومحال أن يهبط الإنسان من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو إلى موضع أخفض منه وأسفل ، فيقال: رفعه الله إليه ، لأن الرفعة في لغة العرب الذين بلغتهم خوطبنا لا تكون إلا من أسفل إلى أعلى وفوق)[5] .

واستدل بقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[6] فقال : (أوليس العلم محيطاً ، إن الله فوق جميع عباده ، من الجن والإنس ، والملائكة ، الذين هم سكان السموات جميعاً ؟)[7] .

وذكر قول الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[8] فقال: (فأعلمنا الجليل جل وعلا في هذه الآية أيضاً أن ربنا فوق ملائكته ، وفوق ما في السموات وما في الأرض ، من دابة ، وأعلمنا أن ملائكته يخافون ربهم الذي فوقهم ، والمعطلة تزعم أن معبودهم تحت الملائكة)[9] .

---

(١) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٥/١ .
(٢) آل عمران : ٥٥ .
(٣) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٥/١ .
(٤) النساء : ١٥٨ .
(٥) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٦/١ .
(٦) الأنعام : ١٨ .
(٧) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٦/١ .
(٨) النحل : ٤٩ — ٥٠ .
(٩) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٦/١ .

واستدل بقول الله تعالى ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾[1] فقال : (أليس معلوماً في اللغة السائرة بين العرب التي خوطبنا بها وبلسانهم نزل الكتاب، أن تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، إنما يدبره المدبر ، وهو في السماء لا في الأرض ، كذلك مفهوم عندهم أن المعارج : المصاعد ، قال الله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾[2] وإنما يعرج الشيء من أسفل إلى أعلى وفوق لا من أعلى إلى دون وأسفل ، فتفهَّموا لغة العرب لا تغالطوا)[3] .

ثم ذكر قول الله تعالى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[4] فقال : (فالأعلى مفهوم في اللغة : أنه أعلى كل شيء ، وفوق كل شيء ، والله قد وصف نفسه في غير موضع من تنزيله ووحيه وأعلمنا أنه العلي العظيم .

أفليس العليّ يا ذوي الحجا ما يكون علياً ، لا كما تزعم المعطلة الجهمية : أنه أعلى وأسفل ووسط ومع كل شيء ، وفي كل موضع من أرض وسماء وفي أجواف جميع الحيوان .

ولو تدبروا آية من كتاب الله ووفقهم الله لفهمها ، لعقلوا أنهم جهال ، لا يفهمون ما يقولون ، وبان لهم جهل أنفسهم ، وخطأ مقالتهم)[5] .

ثم ذكر قول الله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾[6] فقال : (أفليس العلم محيطاً يا ذوي الألباب أن الله عز وجل لو كان في كل موضع ، ومع كل بشر وخلق ، كما زعمت المعطلة ، لكان متجلياً لكل شيء ، وكذلك جميع ما في الأرض ، لو كان متجلياً لجميع أرضه سهلها ووعرها وجبالها ، وبراريها ومفاوزها ، ومدنها

---

(١) السجدة : ٥ .
(٢) المعارج : ٤ .
(٣) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٧ .
(٤) الأعلى : ١ .
(٥) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٢٥٧/١ .
(٦) الأعراف : ١٤٣ .

وقراها ، وعمرانها وخرابها ، وجميع ما فيها من نباتٍ وبناءٍ لجعلها دكاً كما جعل الله الجبل الذي تجلى له دكاً)[1] .

ثم بيَّن رحمه الله أن النبي محمد ﷺ قد أثبت العلو لله سبحانه وتعالى[2] ، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله قد أخبروا بذلك مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان عالم في ابتداء النظر إلى الكواكب والقمر والشمس أن خالقه عالٍ فوق خلقه حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس .

قال رحمه الله : (ألا تسمع قوله ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾[3] ولم يطلب معرفة خالقه من أسفل ، إنما طلبه من أعلى مستيقناً عند نفسه أن ربه في السماء لا في الأرض)[4] .

وكذلك موسى عليه السلام أخبر فرعون بأن الله سبحانه في السماء ، لأن الله حكى عن فرعون أنه قال ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾[5][6] .

ومن أدلة أهل السنة العقلية في إثبات العلو قول ابن قدامة المقدسي : (ومن الحجه عليهم أيضا في أنه على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا أيديهم ووجوههم إلى السماء رافعين لها مشيرين بها إلى السماء يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم)[7] .

---

(١) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ١/٢٥٨ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٢٦٥ — ٣٢٧ .
(٣) الأنعام : ٧٦ .
(٤) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ١/٢٦٤ .
(٥) غافر : ٣٦ — ٣٧ .
(٦) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ١/٢٦٤ .
(٧) إثبات صفة العلو ، ابن قدامة المقدسي ، ١٢٨ — ١٢٩ ، ت بدر البدر ، الدار السلفية ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ .

وهكذا فإن أهل السنة قد علموا الحق فاتبعوه فكانوا هم الغالبون ، قال ابن تيمية رحمه الله : (إن القرآن والسنن المستفيضة المتواترة وغير المتواترة وكلام السابقين والتابعين وسائر القرون الثلاثة مملوء بما فيه إثبات العلو لله تعالى بأنواع من الدلالات ، ووجوه من الصفات ، وأصناف من العبارات)[1] .

فذكر رحمه الله بعض هذه الوجوه ، منها :

- خلقه للسموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش .
- إخباره بعروج الأشياء وصعودها وارتفاعها إليه .
- إخباره بنزولها منه أو من عنده .
- إخباره بأنه هو العلي الأعلى .
- إخباره أنه في السماء .

وأدلة ابن تيمية في إثبات العلو وغيره من الصفات أكثر من أن تحصى ، منها أنه استدل بالدليل العقلي (السبر والتقسيم) فقسَّم المسألة إلى ثلاثة أقسام :

- إما أن يكون الله يحب منا أن نعتقد قول النفاة .
- أو نعتقد قول أهل الإثبات .
- أو لا نعتقد واحداً منهما .

ثم أخذ يعرض ويختبر هذه الأقسام حتى يبيِّن صحيحها من سقيمها ، فقال : (فإن كان مطلوبه منا اعتقاد قول النفاة : وهو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، وأنه ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش إله . . . فالصحابة والتابعون أفضل منا ، فقد كانوا يعتقدون هذا النفي ، والرسول ﷺ كان يعتقده ، وإذا كان الله ورسوله يرضاه لنا وهو إما واجب علينا أو مستحب لنا ، فلا بد أن يأمرنا الرسول ﷺ بما هو واجب علينا ، ويندبنا إلى ما هو مستحب لنا ، ولا بد أن يظهر عنه وعن المؤمنين ما فيه إثبات لمحبوب الله ومرضيه وما يقرب إليه ، لا سيما مع قوله عز وجل ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/١٦٤ .

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[1] . . . وإذا كان كذلك : كان من المعلوم أنه لا بد أن يبيِّنه الرسول ﷺ ، وقد علم بالاضطرار أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يتكلموا بمذهب النفاة .

فعلم أنه ليس بواجب ولا مستحب ، بل علم أنه ليس من التوحيد الذي شرعه الله لعباده)[2] وبهذا بيَّن رحمه الله أن هذا القسم غير صحيح ، ويحرم اعتقاده .

ثم قال : (وإن كان يحب منا مذهب الإثبات ، وهو الذي أمرنا به ، فلا بد أيضاً أن يبيِّن ذلك لنا ، ومعلوم أن في الكتاب والسنة من إثبات العلو والصفات أعظم مما فيهما من إثبات الوضوء والتيمم ، والصيام ، وتحريم ذوات الأرحام ، وخبيث المطاعم ، ونحو ذلك من الشرائع .

فعلى قول أهل الإثبات يكون الدين كاملاً ، والرسول ﷺ مبلغاً مبيناً ، والتوحيد عند السلف مشهوراً معروفاً .

والكتاب والسنة يصدق بعضه بعضاً ، والسلف خير هذه الأمة وطريقهم أفضل الطرق .

والقرآن كله حق ليس فيه إضلال ، ولا دل على كفر ومحال ، بل هو الشفاء والهدى والنور ، وهذه كلها لوازم ملتزمة ونتائج مقبولة ، فقولهم مؤتلف غير مختلف ، ومقبول غير مردود)[3] فبيَّن رحمه الله أن هذا القول هو الصحيح وأنه هو الذي يجب اعتقاده .

ثم قال : (وإن كان الذي يحبه الله منا أن لا نثبت ولا ننفي ، بل نبقى في الجهل البسيط ، وفي ظلمات بعضها فوق بعض ، لا نعرف الحق من الباطل ولا الهدى من الضلال ، ولا الصدق من الكذب ، بل نقف بين المثبتة والنفاة موقف الشاكين الحيارى ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ﴾[4] لا مصدقين ولا مكذبين : لزم من ذلك أن يكون الله يحب منا عدم العلم بما جاء به الرسول ﷺ ، وعدم العلم بما يستحقه الله

(١) المائدة : ٣ .
(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/ ١٧٥ — ١٧٧ .
(٣) المصدر السابق ، ٥/ ١٧٧ .
(٤) النساء : ١٤٣ .

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ﴾[1] لا مصدقين ولا مكذبين : لزم من ذلك أن يكون الله يحب منا عدم العلم بما جاء به الرسول ﷺ ، وعدم العلم بما يستحقه الله سبحانه تعالى من الصفات التامات ، وعدم العلم بالحق من الباطل ، ويحب منا الشك والحيرة .

ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ، ولا الشك ، ولا الحيرة ، ولا الضلال ، وإنما يحب الدين والعلم واليقين)[2] فبيَّن رحمه الله أن هذا القول أيضاً غير صحيح ويحرم اعتقاده .

أما الإمام ابن القيم رحمه الله فقد ذكر الأدلة العقلية الصريحة على إثبات علو الله سبحانه وتعالى على خلقه من طرق كثيرة فكانت ثلاثون طريقاً ، منها :

أولاً : أنه من المعلوم أن صفة العلو من صفات الكمال ، وأنه قد ثبت بصريح العقل أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صفة كمال والآخر صفة نقص فإن الله سبحانه يوصف بالكمال منهما دون النقص ، فكون الله سبحانه وُصِفَ بالمباينة وهي صفة كمال بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، فهذه المباينة تستلزم علوه على العالم دون السفول ضرورة[3] .

وهذا ردٌّ على الذين أثبتوا المباينة ونفوا العلو .

ثانياً : إن المعطلة عندما نزهوا الله سبحانه عن المباينة فإنهم في واقع الأمر نزهوه عن غناه ووجوده ، وتنزيههم له عن استوائه على عرشه تنزيهٌ له عن كماله ، والمثبت لو شبه الله بخلقه — على قول المعطلة — لكان قد أثبت موجوداً قائماً بنفسه مبايناً لخلقه له الكمال المطلق مع نوع تشبيه ، وهذا الأمر خير من تنزيه المعطلة وأقرب للعقول والفطر ، فكيف والله سبحانه وتعالى مع ذلك يثبت أنه لا يماثل خلقه ولا يشابههم وأنه لا يلزم من علوه على خلقه واستوائه على عرشه أن يكون من جنسهم مماثلاً لهم[4] .

---

(١) النساء : ١٤٣ .
(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/ ١٧٨ .
(٣) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/ ١٣٠٧ .
(٤) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/ ١٣١٤ .

وهو ردٌ على حلولية الجهمية الذين أثبتوا الغنى والكمال لله ، ونفوا عنه المباينة والعلو والاستواء على العرش .

ثالثاً : أنه قد دل البرهان الضروري والعقل الصريح على استغنائه سبحانه بنفسه وأنه الغني بذاته عن كل ما سواه ، فغناه من لوازم ذاته ولا يكون غنياً على الإطلاق إلاّ إذا كان قائماً بنفسه ، إذ القيام بالغير يستلزم فقر القائم إلى ما قام به ، وعدم القيام بالنفس وبالغير يستلزم العدم ، فصحّ ضرورةً وجوب قيامه بنفسه ، هذا حقيقة المباينة ، ونفي المباينة والمداخلة كنفي القيام بالنفس وبالغير ، ولا تتصور العقول قط قائماً بنفسه مع قائمٍ بنفسه ، إلاّ إذا كان مبايناً له أو محايثاً[1] .

وهذا ردٌّ على معطلة الجهمية الذين نفوا النقيضين .

وهكذا فقد كانت لأهل السنة أدلة عقلية صحيحة وقوية في إسكات الخصوم النافين لصفة العلو ، مع محافظتهم على منهجهم بالاكتفاء في الرد بالكتاب والسنة ، ولكنهم لما رأوا أن النفاة لا يحتجون إلا بعقولهم القاصرة التي ابتعدت عن الكتاب والسنة ، ردُّوا عليهم بعقول كمَّلها الكتاب والسنة ، وقد يستدل المبتدعة ببعض آيات القرآن أو الأحاديث الصحيحة فيكون الخطأ في استدلالهم لا في دليلهم وذلك لجهلهم بمعاني الكتاب والسنة ، وقد يستدلون بالموضوعات أو الضعاف فيكون الخطأ في الاستدلال والدليل معاً .

---

(١) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/١٣٣١ .

المطلب الثاني

إثبات صفة المعية

تناقض الجهمية في الصفات ، فتارة يثبتون وتارة ينفون ، يفعلون ذلك على وفق عقولهم وأهوائهم ، فكما أنهم نفوا صفة العلو وبالغوا في ذلك فقد بالغوا أيضاً في إثبات صفة المعية فقالوا : إن الله في كل مكان – تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن النفاة ليس لهم ميزاناً ثابتاً صحيحاً يسيرون على منهاجه فلذلك تناقضوا ، أما أهل السنة فإنهم جعلوا الكتاب والسنة قائدين إلى الحق والصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ، فالكتاب والسنة يثبتان لله جميع صفات الكمال التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، وينفيان عن الله جميع صفات النقص ، هذا هو ميزان أهل السنة والجماعة الثابت من لدن رب العالمين .

وقد تصدى علماء أهل السنة للجهمية ، وكان منهم الإمام أحمد بن حنبل في كتابه (الرد على الجهمية) فقد بيّن رحمه الله أن المراد بمعية الله سبحانه وتعالى لعباده إنما هي معية علم وذلك في مثل قول الله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[1] لا معية ذات لأن الله سبحانه وتعالى افتتح الخبر بعلمه وختمه بعلمه ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2][3].

ثم أنه رحمه الله أخذ يناظر الجهمي الذي ادعى عدم مباينة الله تعالى لخلقه

---

(١) المجادلة : ٧ .

(٢) المجادلة : ٧ .

(٣) انظر : الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٣٨ .

لاحتجاجه بنصوص المعية ، فقال : (يقال للجهمي : إن الله إذا كان معنا بعظمة نفسه فقل له ، هل يغفر الله لكم فيما بينه وبين خلقه ؟

فإن قال : نعم ، فقد زعم أن الله بائن من خلقه دونه ، وإن قال : لا ، كفر)[1] .

ومعنى قول الإمام أحمد : (فإن قال : نعم فقد زعم أن الله بائن من خلقه دونه) أي اعترف بالتباين بين الله وخلقه وأنه فوقهم وهم دونه وذلك في قوله : (بينه وبين خلقه) .

وفي ذلك إلزام للجهمي إما بالرجوع إلى المذهب الحق مذهب أهل السنة أو الكفر بالله بادعائه عدم مغفرة الله للعباد فيما بينهم وبينه .

ثم قال رحمه الله : (وإذا أردت أن تعلم الجهمي كاذب على الله حين زعم أن الله في كل مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان ، فقل : أليس الله كان ولا شيء ؟

فيقول : نعم .

فقل له : حين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجاً عن نفسه فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال لا بد له من واحد منها .

إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر ، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين في نفسه .

وإن قال : خلقهم خارجاً من نفسه ثم دخل فيهم ، كان هذا كفراً أيضاً . . .حين زعم أنه دخل في مكان وحش قذر رديء .

وإن قال : خلقهم خارجاً من نفسه ثم لم يدخل فيهم ، رجع عن قوله أجمع وهو قول أهل السنة)[2] .

وتلاحظ أن الإمام أحمد رحمه الله استخدم الدليلين العقليين (الإلزام) و (السبر والتقسيم) في ردوده ، وهي كما هو مشاهد أدلة عقلية قوية مسكتة للخصم مفحمة له .

---

(١) المصدر السابق ، ١٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ١٣٩ — ١٤١ .

قال ابن تيمية رحمه الله في التعليق على هذا الدليل الأخير (السبر والتقسيم) : (فقد بيَّن الإمام أحمد ما هو معلوم بالعقل الصريح والفطرة البديهية ، من أنه لا بد أن يكون خلق الخلق داخلاً في نفسه أو خارجاً عنه ، وأنه إذا كان خارجاً عن نفسه فإما أن يكون حل فيه بعد ذلك ، أو لم يزل مبايناً ، فذكر الأقسام الثلاثة)[1] .

ونلاحظ في هذا المطلب والذي قبله التداخل بينهما في مسألة الردود والأدلة ، لأن الجهمية لم يثبتوا المعية بهذه الصورة إلا لكي ينفوا صفة العلو عن الله سبحانه وتعالى .

أما الإمام الدارمي رحمه الله فقد كان رده عليهم بالجمع بين الآيات التي تثبت المعية والتي تثبت علو الله سبحانه فخرج من هذا الجمع بأن معية الله لعباده معية علم لا معية ذات[2] .

وهذا ما غفل عنه الجهمية الذين ادعوا إعمال العقل مع أنهم أبعد الناس عن استعماله ، فالجهمية الجهال بمعاني الكتاب والسنة ، وأهل السنة هم أفضل الناس في استخدام العقل ، فهم مع اتباعهم للكتاب والسنة كان لهم فهماً صائباً عن طريق الجمع بين الآيات والأحاديث وعدم إغفال شيءٍ منها ، وقد ساعدهم على ذلك سعة علمهم ودقة فهمهم للكتاب والسنة .

فمن مميزات أهل السنة والجماعة (جمعهم بين النصوص في المسألة الواحدة وردهم المتشابه إلى المحكم)[3] .

ومن حجج الجهمية في إثبات صفة المعية الذاتية قولهم : ما نعرف إلهاً غير هذا الذي في كل مكان فإذا باد شيء صار مكانه[4] .

فقال الدارمي : (فنظرنا في صفة معبودهم هذا ، فلم نجد بهذه الصفة شيئاً غير هذا

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/٣١٣ .

(٢) انظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤٣ – ٤٤ .

(٣) الوجيز في عقيدة أهل السنة ، عبدالله عبدالحميد الأثري ، ٣١ ، مكتبة الغرباء ، الدار الأثرية ، اسطنبول - تركيا ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

(٤) انظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٣٥ .

الهواء القائم على كل شيءٍ الداخل في كل مكان ، فمن قصد بعبادته إلى إله بهذه الصفة ، فإنما يعبد غير الله وليس معبوده ذاك بإله ، كفرانه لا غفرانه)[١] .

وقد قسَّم ابن تيمية معية الله سبحانه وتعالى إلى قسمين :

معية عامة : لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ، وهي التي في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس والضحاك[٣] وسفيان الثوري[٤] وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه .

معية خاصة : وهي القرب الذي لا يكون إلا لعباد الله المؤمنين الصالحين ، قال تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[٥] وقال سبحانه ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[٦] وقال تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[٧] يعني النبي

(١) المصدر السابق ، ١٣٥ .

(٢) المجادلة : ٧ .

(٣) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد ، وقيل أبو القاسم ، صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم ، وليس بالمجود لحديثه ، وهو صدوق في نفسه ، وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما ، وقيل كان فقيه مكتب كبير إلى الغاية فيه ثلاثة آلاف صبي فكان يركب حماراً ويدور على الصبيان ، وله باع كبير في التفسير والقصص ، قال سفيان الثوري كان الضحاك يعلم ولا يأخذ أجراً ، توفي سنة ١٠٢هـ . انظر : صفوة الصفوة ، ابن الجوزي ، ٤/ ١٥٠ ، سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ٥٩٨ — ٦٠٠ ، وطبقات المفسرين ، السيوطي ، ١/ ١٠ .

(٤) هو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي ابن عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، شيخ الإسلام إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب (الجامع) ، كان ينوه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه وحدث وهو شاب ، كان رأساً في الزهد والتأله والخوف رأساً في الحفظ رأساً في معرفة الآثار رأساً في الفقه لا يخاف في الله لومة لائم من أئمة الدين ، قال وكيع : كان سفيان بحراً ، توفي سنة ١٢٦هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٢/ ٣٨٦ — ٣٩١ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٧/ ٢٢٩ — ٢٧٩ .

(٥) النحل : ١٢٨ .

(٦) طه : ٤٦ .

(٧) التوبة : ٤٠ .

ﷺ وأبا بكر ﷺ ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين[(١)] .

وكان هذا التقسيم من ابن تيمية رحمه الله تعالى رداً على من قال أن معنى المعية أنه بذاته في كل مكان ، لأن هذا القول فيه مناقضة للخبر الخاص والخبر العام لأنه سبحانه يكون مع المؤمنين المتقين المحسنين الصابرين بعلمه ونصره وتأييده ، ومع الكفار بعلمه دون النصر والتأييد فلو كان مع كل أحد بذاته لاستوى المؤمنون والكافرون في الثواب[(٢)] .

ثم بيَّن رحمه الله أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجود مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى[(٣)] .

وقد ضرب لذلك مثلاً ، فقال : (وقد يدخل على صبي من يخيفه ، فيبكي ، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف ، فيقول : لا تخف أنا معك ، أو أنا هنا ، أو أنا حاضر ونحو ذلك ، ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه)[(٤)] .

وضرب مثلاً آخر بالقمر ، فقال : (بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، هو موضوع في السماء ، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم ، مطلع إليهم)[(٥)] .

هذه بعض أدلة أهل السنة العقلية في إثبات معية العلم دون معية الذات ، ولو استرسلت في ذكر هذه الأدلة لطال بنا المقام ولكن المقصود كما هو معلوم إبراز بعض هذه الأدلة لبيان مدى سعة استخدام أهل السنة للعقل في ظل الكتاب والسنة .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١١/ ٢٤٩ — ٢٥٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ٢٥٠/١١ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ٥/ ١٠٣ ، ٤٩٧ .
(٤) المصدر السابق ، ١٠٤/٥ .
(٥) المصدر السابق ، ١٤٢/٣ .

المطلب الثالث

إثبات صفة العلم

أنكر الجهمية علم الله السابق في خلقه ، وأنكروا أن يكون الله عالم بأعمال العباد قبل أن يعملوها ، هذا هو اعتقاد الجهمية النفاة في علم الله سبحانه وتعالى ، وقالت المعتزلة أن الله عالم لا بعلم ، فما هي الردود العقلية لعلماء أهل السنة على هذا الاعتقاد الباطل .

عندما قامَ الإمام عبدالعزيز الكناني بمناظرة بشر المريسي – أحد رؤوس الجهمية المعتزلة – بحضرة المأمون في مسألة القول بخلق القرآن ، سأل الكناني بشراً عن مسألة علم الله سبحانه وتعالى ، فقال : أَفَتُقِرُّ يا بشر أن لله علماً كما أخبرنا ، أو تخالف التنزيل ؟ .

فقال بشر : معنى علمه أنه لا يجهل .

فقال الكناني : إن نفي السوء لا يثبت به المدحة .

فقال بشر : وكيف ذلك ؟ .

قال الكناني : إن قولي هذه الاسطوانة لا تجهل ليس هو إثبات العلم لها . . . وإن الله عز وجل لم يمدح في كتابه ملكاً ولا نبياً ولا مؤمناً بنفي الجهل عنه ليدل على إثبات العلم وإنما مدحهم بالعلم ، فمن أثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم .

فسأل المأمونُ الكناني ، فقال : فإذا قال بشر أن لله علماً وأقر بذلك فيكون ماذا ؟ .

قال الكناني : أسأله عن علم الله هل هو داخل في الأشياء المخلوقة حين احتج بقوله ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] وزعم أنه لم يبق شيء إلا وقد أتى عليه الخبر.

فإن قال بشر : نعم داخل في الأشياء المخلوقة ، فقد شبه الله عز وجل بخلقه الذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، وكل من تقدم وجوده قبل علمه فقد دخل

(١) الأنعام : ١٠٢ .

عليه الجهل فيما بين وجوده إلى حدوث علمه ، وهذه صفة المخلوقين ، والله أعظم وأجل من أن يوصف بذلك أو ينسب إليه ومن قال ذلك فقد كفر .

وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء وغير داخل فيها ، كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها فقد رجع عن قوله وأكذب نفسه[(١)] .

أما الإمام الدارمي رحمه الله فقد ألزم منكري علم الله السابق بإلزام قويٍّ مفحم ، فقال : إن (الذي لا يقر بالعلم السابق بالأشياء قبل أن تكون ، يلزمه في مذهبه أن لا يؤمن بيوم الحساب ، وبقيام الساعة ، والبعث ، والثواب والعقاب ، لأن العباد إنما لزمهم الإيمان بها لإخبار الله بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأنه محاسبهم يوم الحساب ، مثيبهم ومعاقبهم .

فإذا كان الله بزعمهم لا يعلم بالشيء حتى يكون ، كيف علم في مذهبهم بقيام الساعة والبعث ولم تقم الساعة بعد ولا تقوم إلا بعد فناء الخلق وارتفاع الدنيا ؟!!

فإن أقروا لله بعلم قيام الساعة والبعث والحساب ، لزمهم أن يقروا له بعلم كل شيء دونها ، فإن أنكروا علم الله عز وجل بما دونها لزمهم الإنكار بها وبقيامها ، وبالبعث والحساب ، لأن علمه بالساعة كعلمه بالخلق وأعمالهم سواء لا يزيد ولا ينقص ، فمن لم يؤمن بأحدهما ، لزمه أن لا يؤمن بالآخر ، وهي من أوضح الحجج ، وأشدها على من أنكر العلم وأنكره)[(٢)] .

ثم استدل بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[(٣)] فقال : (ولعمري ما علمت الملائكة بسفك الدماء والفساد غيباً من قبل أنفسهم ، ولكن علَّمَهم ذلك علام الغيوب قبل أن يقولوا ، ولذلك ادعوا معرفته . . . والله لقد علمت الملائكة بما علمهم الله ما هو كائن من بني آدم من الفساد ، وسفك الدماء

(١) انظر : الحيدة ، عبدالعزيز الكناني ، ٥٢ — ٥٧ .
(٢) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٣٢ .
(٣) البقرة : ٣٠ .

قبل أن يخلقوا ، فكيف خالقهم الذي علَّمهم ؟!!)[1] .

وفي هذا الدليل استدل الدارمي (بقياس الأولى) بمعنى أنه إذا كان الملائكة المخلوقون علموا هذا العلم الغيبي فكيف بمن خلقهم وهو الله الواحد الأحد .

ثم أخذ يستدل بالآيات والأحاديث التي فيها إثبات صفة العلم السابق للخلق ، ثم قال : (فيقال لمن ردَّ ما ذكرنا من كتاب الله وهذه الأخبار ولم يقر لله بعلم سابق : أرأيت الله يعلم أن الساعة آتية ؟ فإن قال : لا ، فقد فارق قوله وكفر بما أنزل الله على نبيه ﷺ وكذب بالبعث ، وأخبرك أنه نفسه لا يقر بقيام الساعة .

وإن قال : يعلم الله أن الساعة آتية ، فقد أقر بكل العلم شاء أو أبى ، ويقال له أيضاً : أَعَلِمَ الله قبل أن يخلق الخلق أنه خالقهم ؟ فإن قال : لا ، فقد كفر بالله العظيم ، وإن قال : بلى ، فقد أقر بالعلم السابق وانتقض عليه مذهبه في رد علم الله وهو منتقض عليه على زعمه)[2] .

وفي هذه الطريقة محاصرة للخصم إما أن يقر أو يكفر .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقد كانت له أدلة عقلية أيضاً في إثبات صفة العلم وأن الله عالم بالأشياء قبل كونها بعلمه القديم الأزلي الذي هو من لوازم نفسه المقدسة ، قال رحمه الله : (والمسلمون يعلمون أن اللّهَ عالمٌ بالأشياء ، قبل كونها بعلمهِ القديم الأزلي ، الذي هو من لوازم نفسه المقدسة ، لم يستفد علمه بها منها ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[3] فقد دلت هذه الآية على وجوب علمه بالأشياء من وجوه انتظمت البراهين المذكورة لأهل النظر والاستدلال القياسي العقلي من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم :

أحدها : أنه خالقُ لها والخلْق هو الإبداع بتقدير ، وذلْكَ يتضمَّن تقديرها في العلمِ قبل تكوْنها في الخارج .

---

(١) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٣٣ ، ١٣٥ – ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ، ١٥٣ – ١٥٤ .
(٣) الملك : ١٤ .

الثاني : أن ذلكَ مستلزم للإرادة والمشيئة والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثرِ أهل الكلام .

الثالث : إنها صادرة عنه ، وهو سببها التام ، والعلم بأصل الأمر وسببه ، يوجب العلم بالفرع المسبب ، فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه .

الرابع : إنه في نفسه لطيف يدرك الدقيق خبير يدرك الخفي ، وهذا هو مقتضْى العلم بالأشياء ، فيجبُ وجودُ المقْتضَى لوجود السبب التام ، فهو في علمه بالأشياء مستغن بنفسه عنها ، كما هو غني بنفسِه في جميع صفاته ، ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها ، وسمعَ كلام عباده ونحو ذلك فإنما يدرك ما أبدع وما خلق ، وما هو مفتقر إليه ، ومحتاج من جميع وجوهه ،لم يحتجْ في علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة ، فلا يجوز القول بأن علمَه بالأشياء استفاده من نفسِ الأشياء الثابتة ، الغنية في ثبوتها عنه)[1] .

واستدل أيضاً بقول الله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾[2] فبيَّن رحمه الله أن كلاً من الخلق والتعليم يستلزم العلم ، فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالماً بما علَّمه إياه ، وإلا فمن الممتنع أن يُعلِّم غيره ما لا يَعْلَمُه هو ، فمن علَّم كل شيء - الإنسان وغيره - ما لم يعلم أولى أن يكون عالماً بما علَّمَه ، والخلق أيضاً يستلزم العلم ، كما قال تعالى ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[3] وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة ، فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذاك ، والإرادة تستلزم العلم ، فلا يريد المريد إلا ما شعر به وتصور في نفسه ، والإرادة بدون الشعور ممتنعة[4] .

وقريب من هذا القول قول الإمام ابن أبي العز الحنفي _ شارح الطحاوية _ فقد ذكر

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢١١/٢ .
(٢) العلق : ١ – ٤ .
(٣) الملك : ١٤ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٥٤/١٦ .

دليلاً عقلياً في إثبات صفة العلم ، فقال : (والدليل العقلي على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ولأن إيجاده الأشياء بإرادته والإرادة تستلزم تصور المراد وتصور المراد هو العلم بالمراد فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة والإرادة مستلزمة للعلم فالإيجاد مستلزم للعلم ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ولأن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع .

الثاني : أن يقال كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هو أحق به والله تعالى له المثل الأعلى ولا يستوي هو والمخلوقات لا في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي[1] بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى)[2] .

هذه كما نرى بعض أدلة أهل السنة العقلية في إثبات صفة العلم ، وهي أدلة قد أتت على جميع حجج الخصوم الواهية فأبطلتها وأسقطتها ، وهذا يكفي في إثبات قوتها وقوة مذهب أهل السنة والجماعة عموماً .

(١) القياس : هو الاستدلال بالكلي على الجزئي أو بالعام على الخاص ، والمناطقة يسمونه قياس شمولي ، وكثير من أهل الأصول والكلام يسمونه القياس التمثيلي ، أما جمهور العقلاء فإن القياس عندهم يتناول القياس الشمولي والتمثيلي معاً . انظر : الرد على المنطقيين ، ابن تيمية ، ١٥٩ ، ومجموع الفتاوى ، ٩/ ١٥٠ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ١/ ١٢٥ .

المطلب الرابع

إثبات صفتا الحياة والقيومية

نفت الجهمية[1] والنجارية[2] صفة الحياة عن الله سبحانه وتعالى لاعتقادهم أن إثباتها يستلزم التشبيه والتجسيم ، ومن المعلوم أن هذا أدى بهم إلى نفي جميع الصفات .

فبيَّن أهل السنة أن صفة الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فصفة القدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها من صفات الكمال كلها تستلزم صفة الحياة ، فلا قادر إلا حي ، ولا عالم إلا حي ، وهكذا ، قال ابن تيمية : (ثم إذا ثبت أنه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حياً ، وكذلك الإرادة تستلزم الحياة)[3] .

وقال : (فإن الإرادة مستلزمة للعلم في كل مريد ، كما أن هذه الصفات مستلزمة للحياة فلا إرادة إلا بعلم ولا إرادة وعلم إلا بحياة)[4] .

وبيَّن رحمه الله أن هناك طرقاً عقلية صحيحة في إثبات الصفات[5] منها :

أولاً : الاستدلال (بالأثر على المؤثر) ، وأن من فعل الكامل فهو أحق بالكمال ، فإن الخالق لغيره الذي جعله حياً عالماً سميعاً بصيراً هو أولى بأن يكون حياً عالماً قديراً سميعاً بصيراً .

وهذا الاستدلال أكمل ، كقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[6] فرد الله

---

(١) انظر : الإبانة عن أصول الديانة ، أبو الحسن الأشعري ، ١٤٣/١ .

(٢) انظر : التبصير في الدين ، أبو إسحاق الإسفراييني ، ١٠١ ، ت كمال يوسف الحوت ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١١٩٨٣م . والنجارية : هم أصحاب الحسين بن محمد النجار ، ووافقوا المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ووافقوا الصفاتية في خلق الأعمال . انظر : الملل والنحل ، الشهرستاني ، ١/ ٧٥ — ٧٧ .

(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٥٥/١٦ .

(٤) المصدر السابق ، ١٣٠/١٩ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ٣٥٦/١٦ .

(٦) فصلت : ١٥ .

عليهم فقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[(١)] وهكذا ، كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى وأشد ، وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم ، وما فيها من علم وحياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة ، وكذلك قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[(٢)] فالله سبحانه وتعالى جعل الإنسان عليماً والعليم لا يكون إلا حياً[(٣)] .

ثانياً : الاستدلال بطريقة (قياس الأولى) وهي الترجيح والتفضيل ، وهو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى[(٤)] .

فإن قوله (الأكرم) يقتضي أنه أفضل من غيره في الكرم ، والكرم اسم جامع لجميع المحاسن ، فيقتضي أنه أحق بجميع المحامد ، والمحامد هي صفات الكمال فيقتضي أنه أحق بالإحسان إلى الخلق والرحمة وأحق بالحكمة ، وأحق بالقدرة والعلم والحياة وغير ذلك[(٥)] .

وكقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾[(٦)] ومثل قوله ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[(٧)] وأمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل[(٨)] .

وهذه الاستدلالات منه رحمه الله كلها أدلة عقلية تدل على إثبات صفة الحياة الكاملة لله عز وجل ، وهي استدلالات صحيحة وقوية لأن القرآن الكريم استدل بها .

---

(١) فصلت : ١٥ .
(٢) العلق : ٣ – ٥ .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٦/٣٥٧ ، ٣٦١ .
(٤) انظر : المصدر السابق ، ١٦/٣٥٧ .
(٥) انظر : المصدر السابق ، ١٦/٣٦٠ .
(٦) النحل : ٦٠ .
(٧) الروم : ٢٨ .
(٨) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٦/٣٥٨ .

ثم أنه رحمه الله بيَّن أن إثبات صفة الحياة لا تستلزم التشبيه والتجسيم لأن الاتفاق في الاسم العام لا يقتضي التماثل في مسمى الحياة عند الإضافة والتخصيص والتقييد ، ولا حتى في غيره من المخلوقات ، وضرب على ذلك مثلاً فقال : (إذا قيل أن العرش شيء موجود وأن البعوض شيء موجود أن هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود ، لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً كلياً هو مسمى الاسم المطلق ، وإذا قيل هذا موجود وهذا موجود فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره ، مع أن الاسم حقيقةً في كل منهما .

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء ، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره ، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ، ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص اتفاقهما ، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلاً عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص .

فقد سمى الله نفسه حياً فقال ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم ﴾[(1)] وسمى بعض عباده حياً فقال ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾[(2)] وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي اسم لله مختص به ، وقوله ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ اسم للحى المخلوق مختص به ، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص ، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدراً مشتركاً بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق)[(3)] .

وقد خالف الجهمية المعتزلة في معنى اسم القيوم فقال بشر المريسي أحد رؤوسهم :

---

(1) البقرة : ٢٥٥ .

(2) الأنعام : ٩٥ .

(3) مجموع الفتاوى ، التدمرية ، ابن تيمية ، ٣/١٠ ، وكتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام في العقيدة ، ٣/ ١٠ – ١١ .

أن معنى اسم القيوم الذي لا يزول بمعنى الذي لا ينزل ولا يتحرك ولا يقبض ولا يبسط[1].

وهو يريد بذلك نفي صفة العلو عن الله سبحانه وتعالى عما يقولونه علواً كبيراً .

فرد الإمام الدارمي على هذا الافتراء مبيناً أن معنى (لا يزول) عند أهل البصر بالعربية : لا يفنى ولا يبيد ، لا أنه لا يتحرك ولا يزول من مكان إلى مكان[2] .

وبيَّن أيضاً أن أمارة ما بين الحي والميت التحرك وما لا يتحرك فهو ميت لا يوصف بحياة كما وصف الله تعالى الأصنام الميتة فقال ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[3] فالله الحي القيوم القابض الباسط يتحرك إذا شاء ويفعل ما يشاء بخلاف الأصنام الميتة التي لا تزول حتى تزال[4] .

أما الإمام ابن القيم رحمه الله فقد ردَّ على أبي إسحاق الاسفراييني[5] في قوله : أن معنى قائم بنفسه أنه غني عن المحل ، فقال ابن القيم : (فجعل قيامه بنفسه وصفاً عدمياً لا ثبوتياً وهذا لازم لسائر المعطلة النفاة لعلوه ومن المعلوم أن كون الشيء قائماً بنفسه أبلغ من كونه قائماً بغيره ، وإذا كان قيام العرض بغيره يمتنع أن يكون عدمياً فقيام الشيء بنفسه أحق أن لا يكون أمراً عدمياً بل وجودياً ، وإذا كان قيام المخلوق بنفسه صفة كمال وهو مفتقر بالذات إلى غيره فقيام الغني بذاته بنفسه أحق وأولى)[6] .

وهذا استدلال بقياس الأولى .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٥٣ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/٣٥٥ .
(٣) النحل : ٢٠ – ٢١ .
(٤) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٣٥٦ – ٣٥٧ .
(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني ، الملقب بركن الدين ، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي ، من مؤلفاته : (جامع الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين) ، توفي سنة ٤١٨ هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ١/ ٢٨ .
(٦) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/ ١٣٢٨ .

ثم قال : و(القيام بالنفس صفة كمال فالقائم بنفسه أكمل ممن لا يقوم بنفسه ومن كان غناه من لوازم ذاته فقيامه بنفسه من لوازم ذاته ، وهذه حقيقة قيوميته سبحانه وهو الحي القيوم فالقيوم القائم بنفسه المقيم لغيره فمن أنكر قيامه بنفسه بالمعنى المعقول فقد أنكر قيوميته وأثبت له قياماً بالنفس يشاركه فيه العدم المحض بل جعل قيوميته أمراً عدمياً لا وصفاً ثبوتياً وهي عدم الحاجة إلى المحل ، ومعلوم أن العدم لا يحتاج إلى محل وأيضاً فإنه يقال له : ما تعني بعدم الحاجة إلى المحل ، تعني به الأمر المعقول من قيام الشيء بنفسه الذي يفارق به العرض القائم بغيره ، أم تعني به أمراً آخر ، فإن عنيت الأول فهو المعنى المعقول والدليل قائم والإلزام صحيح ، وإن عنيت به أمراً آخر ، فإما أن يكون وجودياً أو عدمياً فإن كان عدمياً فالعدم لا شيء كاسمه فتعود قيوميته تعالى إلى لا شيء ، وإن عنيت به أمراً وجودياً غير المعنى المعقول الذي يعقله الخاصة والعامة فلا بد من بيانه لينظر فيه هل يستلزم المباينة أم لا)[1] .

ومن هذا يتبين أن أهل السنة والجماعة أثبتوا صفتا الحياة والقيومية لله سبحانه وتعالى كما ينبغي لجلاله وعظمته بالأدلة العقلية الصحيحة مثل (الإلزام) و (قياس الأولى) و(السبر والتقسيم) و (الاستدلال بالأثر على المؤثر) وغيرها ، مع أن أهل السنة والجماعة اكتفوا في إثبات الصفات بالكتاب والسنة ، والمعطلة اعتمدوا على عقولهم في النفي فاستخدم أهل السنة نفس سلاحهم فغلبوهم بإذن الله .

---

(١) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤ / ١٣٢٨ – ١٣٢٩ .

المطلب الخامس

إثبات صفتا السمع والبصر

أثبت أهل السنة والجماعة صفتا السمع والبصر لله سبحانه وتعالى كما أثبتها هو لنفسه سبحانه وأثبتها له رسوله ﷺ .

ولكن الجهمية أنكروا أن يكون الله سميعاً بصيراً ، وزعموا أن إثباتها يستلزم التشبيه والتجسيم ، ولكن أهل السنة اتبعوا في إثباتهم لهاتين الصفتين وغيرهما من الصفات عدة طرق منها :

أن الله لو لم يكن موصوفاً بإحدى الصفتين المتقابلتين للزم اتصافه بالأخرى : فلو لم يوصف بالحياة لوصف بالموت ، ولو لم يوصف بالقدرة لوصف بالعجز ، ولو لم يوصف بالسمع والبصر والكلام لوصف بالصمم والخرس والبكم[1] .

لذلك فإن أدلة أهل السنة العقلية التي سوف أعرضها في هذا المطلب كلها تقريباً تدور على هذا المحور .

فالإمام البخاري أورد ردَّ علماء أهل السنة على الجهمية في إنكارهم لصفتي السمع والبصر ، فقال : (وقال بعض أهل العلم : إن الجهمية هم المشبهة لأنهم شبهوا ربهم بالصنم والأصم والأبكم الذي لا يسمع ولا يتكلم ولا يخلق)[2] .

وهذا يعني إبطالاً لشبهتهم التي من أجلها نفوا السمع والبصر ، فإن قولهم هذا إنما هو عين التشبيه والتجسيم بل هو أقبح لأنهم فرُّوا من تشبيه إلههم بالمخلوق فشبهوه بالصنم الأصم الأبكم ، وهم بذلك قد وقعوا في أشر مما فرُّوا منه .

والمعتزلة أيضاً أنكروا صفتا السمع والبصر عن الله سبحانه وتعالى وقالوا أن الله

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ٣/٨٨ د .

(٢) خلق أفعال العباد ، البخاري ، ٤٣ .

سميع بلا سمع بصير بلا بصر ، فقام الإمام قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله بإيراد أدلة عقلية لإثبات صفتا السمع والبصر لله سبحانه وتعالى فقال : (فصل في الدليل على أن السميع لا يكون إلا بسمع ، والبصير لا يكون إلا ببصر ، كما لا يكون القدير والحكيم إلا بقدرة وحكمة .

فالسميع صفة مشتقة من السمع ، كما أن الضارب صفة مشتقة من الضرب ، والضرب مصدر لأن الفعل صدر عنه ، وإذا كان صادراً عن المصدر كانت الصفة المبنية من الفعل صادرة عنه أيضاً وهي الضارب ، وإذا صح هذا ، صح أن السميع صفة مبنية من أصل مشتقة منه صادرة عنه ، وذلك الأصل هو السمع ، فصح أن السميع لا يكون إلا بسمع .

والدليل على ذلك أيضاً : أنه إذا بطل السمع حصل الصمم ، فيكون الله تعالى في قول من يثبت السميع ولا يثبت السمع ، سميعاً أصم وبصيراً أعمى ، كما تقول في القدير والعليم ، فيبطل الصفات كلها وتكون ألفاظاً لا معاني لها ، ويكون الله تعالى خالياً عن الصفات والأسماء التي هي صفات ، تعالى عما يقول المعطلة .

ومن الدليل أيضاً أن الله وصف نفسه بأنه عليم وعالم ، وأثبت لنفسه العلم فقال عز من قائل ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾[1] فدل سياق هذا الكلام أن العليم الذي يكون له علم ، ولا يكون عليماً إلا وله علم ، كذلك السميع يجب أن يكون له سمع ، والبصير يكون له بصر)[2] .

وقد أوّل بشر المريسي قول الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[3] بمعنى أنه عالم بهم لا أنه يبصرهم ببصر ، ولا ينظر إليهم بعين ، فقد يقال لأعمى : ما أبصره أي ما أعلمه وإن كان لا يبصر بعين[4] .

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ، أبو القاسم الأصبهاني ، ٢/١٤٢ – ١٤٣ .

(٣) آل عمران : ١٥ و ٢٠ .

(٤) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٠٠ .

فبين الإمام الدارمي أن قول المريسي هذا ضلال مبين ، لأنه جعل بعض المخلوقات التي يأنف ويأبى الإنسان أن يوصف بمثلها أحسن حالاً من إله على هذه الصفة لأنها تسمع الأصوات بسمع وترى الألوان بعين ، بينما إله المريسي الذي جرده من هذه الصفات أعمى أصم لا يسمع بسمع ولا يبصر ببصر ولكن يدرك الصوت كما تدرك الحيطان والجبال التي ليس لها أسماع ويرى الألوان بالمشاهدة ولا يبصر في دعواه[1] .

وبشر المريسي بدعواه هذه قد جمع بين الجهل والكفر كما ذكر ذلك الدارمي ، فالكفر في تشبيهه الله تعالى بالأعمى الذي لا يبصر ولا يرى ، وأما الجهل فمعرفة الناس أنه لا يستقيم في كلام العرب أن يقال لشيء : هو سميع بصير إلا وذلك الشيء موصوف بالسمع والبصر من ذوي الأعين والأسماع والأبصار ، والأعمى من ذوي الأعين وإن كان قد حجب[2] .

ثم قال : (فإن كنت تنكر ما قلنا فسم شيئاً من الأشياء التي ليست لها أسماع وأبصار ، هل يجوز أن يقال : هو سميع بصير ؟.ونحن نقول : الله سميع بصير ، ثم نفيت عنه السمع والبصر اللذين هما السمع والبصر ، ونفيت عنه العين وكما يستحيل هذا في الأشياء التي ليست لها أسماع وأبصار فهو في الله السميع البصير أشد استحالة)[3] .

والمعتزلة عندما نفت هذه الصفات قالوا إن هذه الصفات قد وُصِفَ بها المخلوق ، فاتهموا أهل السنة بأنهم مشبهة لأنهم أثبتوا الصفات ، فبيَّن الدارمي رحمه الله أن هذه الأسماء وإن كان المخلوق قد سُمِّيَ بها إلا أنها مخالفة لصفاته ، بمعنى أنه قد يسمى المخلوق كريم وهو في حقيقة أمره بخيل ليس بكريم ، وأيضاً فإن كون الأسماء متفقة ليس معنى ذلك الاتفاق في الشبه والكيفية بل إنهما مفترقان تمام الافتراق ، كما يقال : (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء)[4] يعني في الشبه والطعم والذوق والمنظر واللون ، فإذا

(١) انظر : المصدر السابق ، ١/٣٠٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/٣٠١ .
(٣) المصدر السابق ، ١/٣٠١ .
(٤) هذا الأثر موقوف على ابن عباس ، قال المنذري : إسناده جيد ، انظر : الترغيب والترهيب ، المنذري ، ٤/٣١٦ ، ت إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧هـ .

كان كذلك فالله أبعد من الشبه وأبعد ، فإن كان أهل السنة مشبهة عند المعتزلة لأنهم وحَّدوا الله بصفات أخذوها عنه وعن كتابه فوصفوه بما وصف به نفسه في كتابه ، فالله في دعوى المعتزلة أول المشبهين بنفسه ثم رسوله ﷺ الذي أنبأنا ذلك عنه[1] .

أما الإمام ابن خزيمة رحمه الله فقد أخذ يبيِّن للنفاة الذين اتهموا أهل السنة بالتشبيه لأنهم أثبتوا صفة البصر والعين لله سبحانه ، فأخذ يبين لهم الفرق بين بصر الله وبصر المخلوق وبين عين الله وعين المخلوق ، بل إنه لا يجوز تشبيه مخلوق ليس فيه عيوب بآخر لم يسلم منها لأن بينهما فرق وتفضيل في الخلق ، فما بالك بالفرق الذي بين الخالق والمخلوق ، وسيأتي زيادة بيان لكلام ابن خزيمة في هذا الأمر عند الحديث عن إثبات صفة العين إن شاء الله[2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (ولا يجوز أن يراد بذلك مجرد العلم بما يسمع ويرى لأن الله فرق بين العلم وبين السمع والبصر ، وفرق بين السمع والبصر ، وهو لا يفرق بين علم وعلم لتنوع المعلومات ، قال تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[3] وفي موضع آخر ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[4] قال تعالى ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5] ذكَرَ سمعه لأقوالهم وعلمه ليتناول باطن أحوالهم ، وقال لموسى وهارون ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[6] وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قرأ على المنبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[7] ووضع إبهامه على

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٠٣ .
(٢) انظر : كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ١/ ١١٤ – ١١٧ .
(٣) فصلت : ٣٦ .
(٤) الأعراف : ٢٠٠ .
(٥) البقرة : ٢٢٧ .
(٦) طه : ٤٦ .
(٧) النساء : ٥٨ .

أذنه وسبابته على عينه[1] ، ولا ريب أن مقصوده بذلك تحقيق الصفة لا تمثيل الخالق بالمخلوق فلو كان السمع والبصر العلم لم يصح ذلك)[2] .

وقال أيضاً : (فقالوا – أي المعتزلة - : إنه سميع بالذات بصير بالذات عالم بالذات ونفوا عنه السمع والبصر والعلم ، ولم يعلموا أن هذه الأسامي إذا لزمت ذاتاً من الذوات لزمته الصفات التي من أجلها وقعت الأسامي ، إذ لو جاز أن يكون عالماً بغير علم أو سميعاً بغير سمع أو بصيراً بغير بصر لجاز أن يكون الجاهل مع عدم العلم عالماً والأعمى مع فقد البصر بصيراً والأصم مع غيبوبة السمع سميعاً ، فلما لم يجز ما وصفناه صح أن العالم إنما صار عالماً لوجود العلم والبصير لوجود البصر والسميع لوجود السمع)[3] .

وقد افترض شيخ الإسلام أن أحد النفاة قال : (إنما نفينا عن البصير البصر إذ كان اسم البصير متوجهاً نحو ذات الخالق لأنا هكذا شاهدنا أن من كان اسمه البصير لزمه من أجل البصر أن يجوز عليه العمى ومن كان اسمه السميع يلزمه من أجل السمع أن يجوز عليه الصمم ومن كان اسمه العالم يلحقه من أجل العلم أن يجوز عليه الجهل ، والله تعالى لا يلحق به الجهل والعمى والصمم فنفينا عنه ما يلزم بزواله ضده)[4] .

فقال شيخ الإسلام : (يقال له : ليس علة وجوب العمى البصر ولا علة وجوب الصمم السمع ولا علة وجوب الجهل العلم ، ولو كانت العلة فيه ما ذكرناه كان واجباً أنه متى وجد البصر وجد العمى أو متى وجد السمع وجد الصمم أو متى وجد العلم وجد الجهل ، فلما وجد البصر في بعض ذوي البصر من غير ظهور عمى به ، ووجد كذلك في بعض ذوي السمع من غير وجود صمم يتبعه ، ووجد العلم في بعضهم من غير وجود جهل به ، صح أن العلة في ظهور الجهل والصمم والعمى ليس هو العلم والسمع والبصر، بل في قبول إمكان الآفة في بعض ذوي العلم والسمع والبصر ، والله تعالى ذِكْرُه

(١) رواه أبو داوود ، كتاب السنة ، باب في الجهمية ، رقم الحديث ٤٧٢٨ ، صححه الألباني ، انظر : صحيح سنن أبي داوود ، ٨٩٥/٣ .
(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ، ابن تيمية ، ١٠٣ – ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ، ١١١.
(٤) المصدر السابق ، ١١١ .

والبصر، بل في قبول إمكان الآفة في بعض ذوي العلم والسمع والبصر ، والله تعالى ذِكْرُه ليس بمحل الآفات ولا الآفات بداخلة عليه ، فهو إذا كان اسم العالم والسميع والبصير يتوجه نحو ذاته ذات علم وسمع وبصر ، فتعالى الله عما أضاف إليه الجهلة المغترون من هذه الأسامي بأنها لازمة له لزوم الذوات ، بل هذه الأسامي مما تتوجه نحو الحدود المنصوبة من العلوي والسفلي والروحاني والجسماني لمصلحة العباد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[1] .

وقال أيضاً : (ويقال لهم : إن كان الاستشهاد الذي استشهدتموه صحيحاً فإن الاستشهاد الآخر الذي لا يفارق الاستشهاد الأول مثله في باب الصحة لأنكم إن كنتم هكذا شاهدتم أن من كان عالماً من أجل علمه أو سميعاً من أجل سمعه أو بصيراً من أجل بصره جاز عليه الجهل والعمى والصمم ، فنحن كذلك شاهدنا أن من كان عالماً فإن العلم سابقه ، ومن كان بصيراً كان البصر قرينه ، ومن كان سميعاً كان السمع شهيده ، فإن جاز لكم أن تتعدوا حكم الشاهد على الغائب في أحدهما فتقولوا جاز أن يكون في الغائب عالم بغير علم وبصير بغير بصر وسميع بغير سمع ، جاز لنا أن نتعدى حكم الشاهد على الغائب في الباب الآخر فنقول : إنا وإن كنا لم نشاهد عالماً بعلم إلا وقد جاز عليه الجهل، وبصيراً بالبصر إلا وقد جاز عليه العمى ، وسميعاً بالسمع إلا وقد جاز عليه الصمم ، أن يكون في الغائب عالم بعلم لا يجوز عليه الجهل ، وبصير بالبصر لا يجوز عليه العمى ، وسميع بالسمع لا يجوز عليه الصمم ، وإلا فما الفصل ، ولا سبيل لهم إلى التفصيل بين الاستشهادين)[2] .

هذه بعض أدلة أهل السنة العقلية في إثبات صفتي السمع والبصر وهي كما هو واضح أنهم استخدموا الطرق العقلية الصحيحة في إثبات هاتين الصفتين ، بل إنهم جاؤوا النفاة من نفس الطريق الذي من خلاله نفوا الصفات ، وفي هذا دلالة على أن خير من استخدم العقل هم أهل السنة والجماعة .

---

(١) المصدر السابق ، ١١١ – ١١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ١١٢ .

المبحث الثاني
في إثبات الصفات الخبرية

ويشمل :

المطلب الأول : صفة الوجه .

المطلب الثاني : صفة العين .

المطلب الثالث : صفة اليدين .

المطلب الرابع : صفة الأصابع .

المطلب الخامس : صفة القدم .

المطلب الأول

إثبات صفة الوجه

يعتقد أهل السنة والجماعة أن لله سبحانه وتعالى وجهاً على الحقيقة يليق بجلاله وعظمته ، وما أثبتوا ذلك إلا لأن الله سبحانه أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ ، ولكن الجهمية خالفت في ذلك ونفوا صفة الوجه عن الله سبحانه وتعالى وأوّلوا النصوص التي تثبت هذه الصفة ، وقالوا أنه لا يجوز وصف الله سبحانه بذلك ، فاعترض عليهم الإمام ابن خزيمة بقوله : (ألا يعقل ذوو الحجا يا طلاب العلم أن النبي ﷺ لا يسأل ربه ما لا يجوز كونه)[1].

وهو يشير إلى دعاء النبي ﷺ الذي يقول فيه : ((. . . وأسألك لذة النظر إلى وجهك))[2].

فهذا سؤال يوجهه ابن خزيمة رحمه الله لعقول هؤلاء النفاة إن كانت لهم عقول تعي وتفهم ، فهل من المعقول أن يسأل النبي ﷺ وهو أعلم الناس بربه شيئاً لا يجوز ؟

فبيّن ابن خزيمة رحمه الله أن مسألة النبي ﷺ ربَّهُ لذة النظر إلى وجهه أبين البيان وأوضح الوضوح أن لله عز وجل وجهاً يُتَلَذَّذُ بالنظر إليه مَنْ مَنَّ الله جل وعلا عليه وتفضل بالنظر إلى وجهه[3].

أما الدارمي رحمه الله تعالى فقد بيّن أن النفاة أوّلوا صفة الوجه لله سبحانه بأنه النعمة والإحسان ، والأعمال الصالحة ، وقبلة الله في أرضه وهي الكعبة ، وهذه التأويلات لا تصلح مع الآيات التي أثبتت صفة الوجه لله سبحانه ، لأن هذه الأمور التي ذكروها كلها

---

(١) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٣٠/١ .

(٢) رواه النسائي ، كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء ، رقم الحديث ١٣٠٤ - ١٣٠٥ ، صححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ، ٤١٨/١ ، مكتبة المعارف، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

(٣) انظر : كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ٣٠/١ .

مخلوقة ، فيكون وجه الله على هذه التأويلات مخلوق - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -[1] .

فمثلاً قول الله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[2] فقد فسَّر الرسول صلى الله عليه قوله تعالى ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ أنها النظر إلى وجه الله[3] ، فقال الدارمي : (أفيجوز أن يتأول هذا : أنه قال : الزيادة النظر إلى الكعبة ، أو إلى أعمال المخلوقين ؟)[4] .

وكذلك قول الرسول ﷺ : ((. . . وأسألك لذة النظر إلى وجهك))[5] قال الدارمي : (فيجوز في تأويلك أن يقول : اللهم إني أسألك لذة النظر إلى الأعمال الصالحة من أعمال خلقك أم إلى القبلة ؟)[6] .

ثم ذكر الدارمي أن هذا الجهمي ادعى أن وجه الله كوجه الثوب والحائط الذي لا يوقف منها على وجه ولا ظهر[7] .

فقال الدارمي : (أرأيتك أيها الجاهل إن كان وجه الله عندك قبلته والأعمال التي ابتغي بها وجهه ، وكوجه الثوب والحائط ، أفيجوز أن يقال للقبلة والأعمال والعباد ذو الجلال والإكرام ؟ فقد علم المؤمنون من خلق الله أنه لا يقدس وجه بذي الجلال والإكرام غير وجه الله)[8] وهو يشير إلى قول الله تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[9] .

وكذلك حاول تطبيق هذا التأويل الفاسد على قول الرسول ﷺ : ((. . . حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره))[10] فلم يستقم المعنى ،

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧٠٦/٢ .
(٢) يونس : ٢٦ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى ، ورقم الحديث ٢٩٨ .
(٤) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧٠٧/٢ .
(٥) رواه النسائي ، كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء ، رقم الحديث ١٣٠٥ .
(٦) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧٠٧/٢ .
(٧) انظر : المصدر السابق ، ٧٠٨/٢ .
(٨) المصدر السابق ، ٧٠٨/٢ .
(٩) الرحمن : ٢٧ .
(١٠) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله ﷺ ((إن الله لا ينام)) ، رقم الحديث ٢٩٣ — ٢٩٤ — ٢٩٥ .

فقال رحمه الله : (أفيستقيم أيها المعارض أن يتأول هذا أنه أحرقت سبحات وجهه الأعمال الصالحة ووجه القبلة كل شيء أدركه بصره ؟ ما يشك مسلم في بطوله واستحالته)[(١)] .

وكذلك قول الرسول ﷺ : ((أعوذ بوجهك))[(٢)] عندما نزل قول الله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[(٣)] قال الدارمي : (أفيجوز أيها المعارض أن يتأول هذا : أعوذ بثوابك والأعمال التي يبتغى بها وجهك وبوجه القبلة ؟ فإنه لا يجوز أن يستعاذ بوجه شيءٍ غير وجه الله تعالى وبكلماته ، لا يستعاذ بوجه مخلوق)[(٤)] .

وغير ذلك مما ذكره الإمام الدارمي رحمه الله من الأدلة العقلية التي تثبت فساد تأويلاتهم التي أوَّلوا بها صفة الوجه لله سبحانه وحرَّفوها عن المعنى الحقيقي المراد بها .

أما الإمام ابن خزيمة رحمه الله فقد أخذ يفرق بين صفة الوجه لله سبحانه وصفة الوجه للمخلوق ، لأن النفاة اتهموا أهل السنة بأنهم مشبهة لأنهم أثبتوا هذه الصفة لله ، فقال رحمه الله : (إن لمعبودنا عز وجل وجهاً كما أعلمنا الله في محكم تنزيله ، ووصفه بالجلال والإكرام ، وحكم له بالبقاء ، وهو محجوب عن أبصار أهل الدنيا لا يراه بشر ما دام في الدنيا ، ووجه ربنا قديم لم يزل باقٍ ولا يزال ، فنفى عنه الفناء ، ووجوه بني آدم محدثة مخلوقة لم تكن فكوَّنها الله ، فانية غير باقية ، فهل في هذا تشبيه وجه ربنا عز وجل بوجوه بني آدم ؟ غير اتفاق اسم الوجه وإيقاع اسم الوجه على وجه بني آدم ، كما سمى الله تعالى وجهه وجهاً ، وزعمت الجهمية أن معنى الوجه في الكتاب والخبر كما تقول العرب ووجه الكلام ، ووجه الثوب ، ووجه الدار ، فمن زعم ذلك فقد شبه وجه الله

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧١١/٢ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب في قول الله تعالى ((أو يلبسكم شيعاً)) ، رقم الحديث ٧٣١٣ ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله عز وجل ((كل شيء هالك إلا وجهه)) ، رقم الحديث ٧٤٠٦ .

(٣) الأنعام : ٦٥ .

(٤) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧١٣/٢ .

بوجه الخلق ، حاشى لله أن يكون أحد من أهل الأثر والسنة يشبه خالقه بأحد من المخلوقين ، فقد قلنا إيقاع اسم الوجه للخالق ليس بموجب تشبيه وجه الخالق بوجوه بني آدم)[1] .

فها هو ابن خزيمة يلزم النفاة بأنهم بتأويلاتهم الفاسدة تلك إنما يقعون فيما يفرون منه وهو التشبيه .

وكما أن الدارمي رحمه الله طبق تأويلاتهم الفاسدة على الآيات والأحاديث فلم يستقم المعنى ، كذلك فعل قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله وذلك باستعراضه لمعاني الوجه في لغة العرب وبيانه ما يجوز وما لا يجوز منها في حق الله سبحانه وتعالى ، فقال : (وهكذا قوله ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[2] للوجه في كلام العرب معانٍ منها : الجاه والقدر ، يقال : لفلان عند الناس وجه حسن ، أي : جاه وقدر ، وهذا المعنى لا يجوز في هذا الموضع لأنه لا يجوز أن يقال : لله تعالى جاه وقدر عند غيره ، فلا يقال : ويبقى جاه ربك ، وقدر ربك .

وقد يجيء وجه الشيء بمعنى : أوله ، قال الله تعالى ﴿ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ﴾[3] أي : أول النهار ، وهذا أيضاً لا يجوز ها هنا .

ومنها الوجه بمعنى : الجهة يقال : أقصد هذا الوجه ، أي هذه الجهة ، وهذا أيضاً لا يجوز في هذا الموضع ، ومنه : الوجه المعروف ، فإذا لم يجز حمل الوجه على الأوجه التي ذكرناها بقي أن يقال : هو الوجه الذي تعرفه العرب ، وكونه معلوماً بقوله تعالى ، وكيفيته مجهولة)[4] .

وهذا استدلال بالعقل واللغة وبدليل (السبر والتقسيم) على إثبات صفة الوجه لله

---

(١) الحجة في بيان المحجة ، الأصبهاني ، ٢١٨/١ ، وقد بحثت عن هذا الكلام في كتاب التوحيد لابن خزيمة فلم أجده ، ولكنه في باب بيان السنن التي تثبت صفة السمع والبصر لله سبحانه أشار إلى هذا الكلام ، انظر : كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ١١٥/١ .

(٢) الرحمن : ٢٧ .

(٣) آل عمران : ٧٢ .

(٤) الحجة في بيان المحجة ، الأصبهاني ، ٢٧٨/٢ .

سبحانه وتعالى .

أما ابن القيم رحمه الله فقد ألزم المتأولة في المعنى الذي جعلوه تأويلاً نظير ما فروا منه سواء كان في صفة الوجه أو غيرها من الصفات ، فقال : (وإذا تأول الوجه بالذات ، قيل له : فيلزمك في الذات ما لزمك في الوجه فإن لفظ الذات يقع على القديم والمحدث كما يقع لفظ الوجه على القديم والمحدث)[1] .

وهذا استدلال بالإلزام وبالأصل الذي يقول (القول في الصفات كالقول في الذات)[2] .

(١) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٢٣٦/١ .

(٢) انظر : الفتوى الحموية الكبرى ، ابن تيمية ، ٥٤١ .

المطلب الثاني
صفة العينين

أثبت أهل السنة والجماعة صفة العينين لربنا سبحانه وتعالى استناداً إلى قوله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[(١)] .

أما الجهمية النفاة فقد تأولوا صفة العينين ولم يثبتوها على حقيقتها كما وردت في الكتاب والسنة ، وقد ادعى الجهمي أن هناك قولاً لابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[(٢)] قال ابن عباس : (بحفظنا وكلاءتنا)[(٣)] .

فردَّ الدارمي على هذا الزعم قائلاً : (وأما تفسيرك عن ابن عباس في قوله ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أنه قال : بحفظنا وكلاءتنا ، فإن صح قولك عن ابن عباس فمعناه الذي ادعيناه لا ما ادعيت أنت ، يقول : بحفظنا وكلاءتنا بأعيننا ، لأنه لا يجوز في كلام العرب أن يوصف أحد بكلاية[(٤)] إلا وذلك الكالي من ذوي الأعين ، فإن جهلت فسمِّ شيئاً من غير ذوي الأعين يوصف بالكلاية .

وإنما أصل الكلاية من أجل النظر ، وقد يكون الرجل كالياً من غير نظر ، ولكنه لا يخلو أن يكون من ذوي الأعين)[(٥)] .

أما الإمام ابن خزيمة رحمه الله فقد أثبت صفة العينين لله بنفس المنهج الذي أثبت به صفة الوجه ، فقال رحمه الله في نص طويل لـه : (نحن نقول : لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما في السموات العلى ، وما بينهما من صغير وكبير ، لا يخفى على خالقنا خافية في السموات السبع والأرضين السبع ، ولا

---

(١) الطور : ٤٨ .
(٢) الطور : ٤٨ .
(٣) أشار الدارمي رحمه الله إلى عدم صحة هذا الأثر عن ابن عباس ، وزيادة في التأكد بحثت عنه في كتب السنة والتفسير فلم أجده .
(٤) انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ١/١٤٦ .
(٥) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٢/ ٨٣٠ – ٨٣١ .

مما بينهم ولا فوقهم ، ولا أسفل منهن ، لا يغيب عن بصره من ذلك شيء ، يرى ما في جوف البحار ولججها كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه .

وبنو آدم – وإن كانت لهم عيون يبصرون بها – فإنهم إنما يرون ما قرب من أبصارهم ، مما لا حجاب ولا ستر بين المرئي وبين أبصارهم ، . . . والبصير من بني آدم لا يدرك ببصره شخص آخر ، من بني آدم ، وبينهما فرسخان فأكثر ، وكذلك لا يرى أحد من الآدميين ما تحت الأرض إن كان فوق المرئي من الأرض والتراب قدر أنملة ، أو أقل منها بقدر ما يغطى ويوارى الشيء وكذلك لا يدرك بصره إذا كان بينهما حجاب من حائط أو ثوب صفيق أو غيرهما مما يستر الشيء عن عين الناظر ، فكيف يكون – يا ذوي الحجا – مشبهاً من يصف عين الله بما ذكرنا ، وأعين بني آدم بما وصفنا .

ونزيد شرحاً وبياناً : نقول : عين الله – عز وجل – قديمة ، لم تزل باقية ، ولا يزال محكوم لها بالبقاء ، منفي عنها الهلاك ، والفناء ، وعيون بني آدم محدثة مخلوقة ، كانت عدماً غير مكونة فكوَّنها الله وخلقها بكلامه الذي هو : صفة من صفات ذاته ، وقد قضى الله وقدر أن عيون بني آدم تصير إلى بلاء ، عن قليل – والله نسأل خير ذلك المصير – وقد يعمي الله عيون كثير من الآدميين فيذهب بأبصارها قبل نزول المنايا بهم ، ولعل كثيراً من أبصار الآدميين قد سلط خالقنا عليها ديدان الأرض حتى تأكلها وتفنيها بعد نزول المنية بهم ، ثم ينشئها الله بعد ، . . . فما الذي يشبه يا ذوي الحجا عين الله التي هي موصوفة بما ذكرنا عيون بني آدم التي وصفناها بعد ؟)[(١)] .

ثم أخذ يقارن بين مخلوقين أحدهما أفضل من الآخر في صفة العينين ، وبين أن الفاضل لا يرضى أن يشبه بالمفضول لأن في هذا وصف بالنقص له ، فكيف بالله سبحانه؟!! فقال : (ولست أحسب : لو قيل لبصير لا آفة ببصره ولا علة بعينه ، ولا نقص ، بل هو أعين ، أكحل ، أسود الحدق ، شديد بياض العينين ، أهدب الأشفار : عينك كعين فلان ، الذي هو : صغير العين ، أزرق ، أحمر بياض العينين ، قد تناثرت أشفاره ، وسقطت ، أو كان أخفش العين ، أزرق ، أحمر بياض شحمها ، يرى

(١) كتاب التوحيد ، ابن خزيمة ، ١/ ١١٤ – ١١٥ .

الموصوف الأول الشخص من بعيد ، ولا يرى الثاني مثل ذلك الشخص من قدر عُشْر ما يرى الأول ، لعلة في بصره ، أو نقص في عينه ، إلا غضب من هذا وأنف منه ، فلعله يخرج إلى القائل لـه ذلك إلى المكروه من الشتم والأذى .

ولست أحسب عاقلاً يسمع هذا المشبه عيني أحدهما بعيني الآخر ، إلا وهو يكذب هذا المشبه عين أحدهما بعين الآخر ، ويرميه بالعته ، والخبل والجنون ويقول لـه : لو كنت عاقلاً يجري عليك القلم ، لم تشبه عيني أحدهما بعيني الآخر ، وإن كانا جميعاً يسميان بصيرين ، إذ ليسا بأعميين ، ويقال : لكل واحد منهما عينان يبصر بهما ، فكيف لو قيل له : عينك كعين الخنزير ، والقرد ، والدب ، والكلب ، أو غيرهما من السباع ، أو هوام الأرض ، والبهائم ، فتدبروا يا ذوي الألباب ، أبين عيني خالقنا الأزلي ، الدائم الباقي ، الذي لم يزل ولا يزال ، وبين عيني الإنسان من الفرقان أكثر أو مما بين أعين بني آدم وبين عيون ما ذكرنا ؟

تعلموا وتستيقنوا أن من سمى علماءنا مشبهة ، غير عالم بلغة العرب ، ولا يفهم العلم ، إذ لم يجز تشبيه أعين بني آدم بعيون المخلوقين من السباع والبهائم والهوام ، وكلها لها عيون يبصرون بها ، وعيون جميعهم محدثة مخلوقة ، خلقها الله بعد أن كانت عدماً ، وكلها تصير إلى فناء وبلى ، وغير جائز إسقاط اسم العيون والأبصار عن شيء منها ، فكيف يحل لمسلم - لو كانت الجهمية من المسلمين - أن يرموا من يثبت لله عيناً بالتشبيه ، فلو كان كل ما وقع عليه الاسم كان مشبهاً لما يقع عليه ذلك الاسم ، لم يجز قراءة كتاب الله ، ووجب محو كل آية بين الدفتين فيها ذكر نفس الله ، أو عينه ، أو يده ، ولوجب الكفر بكل ما في كتاب الله - عز وجل - من ذكر صفات الرب ، كما يجب الكفر بتشبيه الخالق بالمخلوق ، إلا أن القوم جهلة ، لا يفهمون العلم ، ولا يحسنون لغة العرب ، فيضلون ويُضَلُّون .

والله نسأل العصمة والتوفيق والرشاد في كل ما نقول وندعو إليه)[1] .

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ١١٦ - ١١٧ .

المطلب الثالث

إثبات صفة اليدين

أثبت أهل السنة والجماعة صفة اليدين لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، أما المعتزلة الجهمية فقد خالفوا في ذلك فأنكروها وأولوا الآيات والأحاديث التي تثبتها .

فقالوا في قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[1] اليد هنا بمعنى : النعمة[2] .

فرد عليهم الإمام ابن قتيبة رحمه الله ببيان معاني اليد في اللغة وتطبيق كل معنى على الآية وبالتالي نفي ما لا يصلح ولا يطابق وإثبات المعنى الصحيح المطابق ، قال رحمه الله : (وما ننكر أن اليد قد تتصرف على ثلاثة وجوه من التأويل :

أحدها : النعمة[3] .

والآخر : القوة من الله ﴿ أُوْلِيْ الأَيْدِ وَالأَبْصَارِ ﴾[4] يريد أولي القوة في دين الله والبصائر ومنه يقول الناس : (ما لي بهذا الأمر يد) يعنون ما لي به طاقة .

الوجه الثالث : اليد بعينها[5] .

ولكنه لا يجوز أن يكون أراد في هذا الموضع النعمة ، لأنه قال ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[6] والنعم لا تغل ، وقال ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ معارضة بمثل ما قالوا ، ولا

---

(١) المائدة : ٦٤ .

(٢) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، ابن قتيبة الدينوري ، ٤٠ .

(٣) قال ابن منظور : (اليد : النعمة والإحسان تصطنعه والمنة والصنيعة ، وإنما سميت يداً لأنها إنما تكون بالإعطاء ، والإعطاء إنالة باليد ، والجمع أيد ، وأياد جمع الجمع ... ويُدِيٌّ ويَدِيٌّ في النعمة خاصة ، قال الأعشى : فلن أذكر النعمان إلا بصالح فإن له عندي يُدِيًّا وأنعما ... وقال بشر بن خازم : تكن لك في قومي يد يشكرونها وأيدي الندى في الصالحين قروض) لسان العرب ، ابن منظور ، ١٥/٤٢١ .

(٤) ص : ٤٥ .

(٥) أي الكف ، وهي من أطراف الأصابع إلى الكف . انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ١٥/٤١٩ .

(٦) المائدة : ٦٤ .

يجوز أن يكون أراد غلت نعمهم ، ثم قال ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان ﴾ ولا يجوز أن يريد نعمتاه مبسوطتان)[1] .

وهو يقصد أن نعم الله المبسوطة كثيرة ولا تحصى كما هو مشاهد ، فلا يجوز تحديدها باثنتين فقط .

ومن علماء السنة الذين ردُّوا على هذا التأويل الفاسد المفترى على الله سبحانه ، الإمام الدارمي رحمه الله في نقضه على المريسي ، فقال رحمه الله : (وقد ادعى المريسي أيضاً وأصحابه أن يد الله نعمته ، قلت لبعضهم : إذاً يستحيل في دعواكم أن يقال : خلق الله آدم بنعمته ، أم قوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان ﴾[2] أنعمتان من أنعمه قط مبسوطتان؟!! فإن أنعمه أكثرَ من أن تحصى ، أفلم يبسط منها على عباده إلا ثنتين ، وقبض عنهم ما سواهما في دعواكم ؟!! فحين رأينا كثرة نعم الله المبسوطات على عباده ثم قال ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان ﴾ علمنا أنها بخلاف ما ادعيتم ، ووجدنا أهل العلم ممن مضى يتأولونها خلاف ما تأولتم ، ومحجتهم أرضى ، وقولهم أشفى . . .

أرأيتم إذا تأولتم أن يد الله نعمته أفيحسن أن تقولوا في قول رسول الله ﷺ : ((يطوي الله السموات بيمينه يوم القيامة))[3] أنه يطويها بنعمته ؟ أم قوله : ((المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن))[4] وكلتا نعمتي الرحمن نعمة واحدة ؟)[5] .

وذكر رحمه الله بعض الأحاديث التي وردت فيها صفة اليدين لله سبحانه ، وهي في نفس الوقت لا ينطبق عليها هذا التفسير الباطل[6] .

ثم بيَّن رحمه الله أن اليد قد تأتي في كلام العرب بمعنى النعمة ، ولكن لابد من وجود قرينة تبين معنى الكلام والمقصود به ، فقال : (فإذا ادعيت أن اليد عرفت في كلام

---

(١) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، ابن قتيبة الدينوري ، ٤٠ .
(٢) المائدة : ٦٤ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، رقم الحديث ٢٧٨٨ .
(٤) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ، رقم الحديث ١٨٢٧ .
(٥) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٨٤ — ٢٨٨ .
(٦) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٢٨٨ — ٢٨٩ .

العرب أنها نعمة قلنا لك : أجل ، ولسنا بتفسيرها منك أجهل ، غير أن تفسير ذلك يستبين في سياق كلام المتكلم حتى لا يحتاج له من مثلك إلى تفسير ، إذا قال الرجل : لفلان عندي يد أكافئه عليها ، علم كل عالم بالكلام أن يد فلان ليست ببائنة منه موضوعة عند المتكلم ، و إنما يراد بها النعمة التي يشكر عليها .

وكذلك إذا قال : فلان لي يد وعضد وناصر ، علمنا أن فلان لا يمكنه أن يكون نفس يده عضوه ، ولا عضده ، فإنما عني به النصرة والمعونة والتقوية ، فإذا قال : ضربني فلان بيده ، وأعطاني الشيء بيده ، وكتب لي بيده ، استحال أن يقال ضربني بنعمته ، وعلم كل عالم بالكلام أنها اليد التي بها يضرب وبها يكتب وبها يعطى لا النعمة.

كما قال تعالى ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾[1] أي أولي البصر والعقول بدين الله ، لأن كل الناس أولي أيدي وأبصار فما خص هؤلاء الأنبياء بها ؟ علم كل عالم أنها ليست بالأيدي التي يضرب بها ويكتب لما أن الناس كلهم أولو أيدي وأبصار ، التي هي الجوارح ، ولا يجوز لك أيها المريسي أن تنفي اليد التي هي اليد لما أنه وجد في فرط كلام العرب أن اليد قد تكون نعمة وقوة ، ولكن هذا في سياق الكلام معقول ، فلما قال الله عز وجل ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيّ ﴾[2] استحال فيهما كل معنى إلا اليدين ، كما قال العلماء الذين حكينا عنهم .

فليس من ذكر هذه الأيدي شيء إلا والشاهد بتفسيرها ينطق في نفس كلام المتكلم ، فإن صرفت منه معنى مفهوماً إلى غير مفهوم استحال ، وإن صرفت عاماً إلى خاص استحال ، وإن صرفت منه خاصاً إلى عام استحال أو بطل معناه)[3] .

واحتجت المعتزلة أيضاً لتأويلها اليد بالنعمة بقول الله تعالى ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾

---

(١) ص: ٤٥ .

(٢) ص : ٧٥ .

(٣) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٨٩ — ٢٩١ .

قالوا: لو أراد اليد بعينها لم يكن في الأرض يهودي غير مغلول اليد[1] .

فاحتجوا بالواقع فردَّ عليهم ابن قتيبة بنفس ما احتجوا به وبكلام العرب أيضاً فقال : (فما أعجب هذا الجهل والتعسف في القول بغير علم ، ألم يسمعوا بقول الله تعالى { قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)[2] وبقوله ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[3] وقوله ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾[4] واللعن : الطرد ، فهل قتل الله الناس جميعاً ؟ وهل قتل قوماً وطرد آخرين ؟

ولم يسمعوا بقول العرب : قاتله الله ما أبطشه ، وأخزاه الله ما أشعره ، وبقول النبي ﷺ لرجل : ((تربت يداك))[5] أي افتقر ولم يفتقر .

ولامرأة : ((عقرى حلقى))[6] ولم يعقرها الله ولا أصاب حلقها بوجع)[7] .

وكان للمعتزلة تأويلاً آخر لصفة اليدين على لسان بشر المريسي ، حيث أوَّل قول الله تعالى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[8] .

بمعنى : أن الله ولي خلق آدم وقوله ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ تأكيد للخلق لا أنه خلقه بيد[9] .

---

(١) انظر : الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، ابن قتيبة الدينوري ، ٤٠ .

(٢) عبس : ١٧ .

(٣) التوبة : ٣٠ .

(٤) المائدة : ٦٤ .

(٥) وردت هذه الجملة بكثرة في أقوال الرسول ﷺ بضمائر متعددة وألفاظ مختلفة ، مثل : ((تربت يداك)) و ((تربت يدك)) و ((تربت يمينك)) و ((تربت جبينه)) وهذه الجملة التي ذكرها ابن قتيبة وردت أيضاً في عدة أحاديث ، انظر : مسند الإمام أحمد ، ٤/ ٢٥٢ — ٢٥٥ ، وسنن أبي داوود ، كتاب الطهارة ، باب في ترك الوضوء مما مست النار ، رقم الحديث ١٨٨ .

(٦) هذا الكلام قاله الرسول ﷺ لصفية رضي الله عنها في حجة الوداع . انظر صحيح البخاري ، كتاب الطلاق ، باب قول الله تعالى ((ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن)) من الحيض والحمل ، رقم الحديث ٥٣٢٩ ، قال ابن منظور في باب (أرب) : (قال القتيبي في قوله (أرب ماله) : أي سقطت أعضاؤه وأصيبت ، قال : وهي كلمة تقولها العرب لا يراد بها إذا قيلت وقوع الأمر كما يقال : عقرى حلقى وقولهم تربت يداه) لسان العرب ، ابن منظور ، ٢١٠/١ ، وقال في باب (عقر) : (ويقال للمرأة : عقرى حلقى معناه عقرها الله وحلقها أي حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها) لسان العرب ، ابن منظور ، ٥٩٤/٤ .

(٧) الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٤٠ .

(٨) ص : ٧٥ .

(٩) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٢٣٠/١ .

فردَّ عليه الإمام الدارمي رحمه الله هذا التأويل الفاسد بعدة ردود عقلية منها :

أولاً : قوله رحمه الله : (فهل علمت شيئاً مما خلق الله ولي خلق ذلك غيره ، حتى خص آدم من بينهم أنه ولي خلقه من غير مسيس بيده ، فسمِّه ؟ وإلا فمن ادعى أن الله لم يلِ خلق شيءٍ صغير أو كبير فقد كفر ، غير أنه ولي خلق الأشياء بأمره ، وقوله ، وإرادته ، وولي خلق آدم بيده مسيساً ، لم يخلق ذا روح بيده غيره ، فلذلك خصه وفضله وشرف بذلك ذكره ، لولا ذلك ما كانت له فضيلة من ذلك على شيء من خلقه ، إذ خلقهم بغير مسيس في دعواك)[1] فاستدل رحمه الله بالتخصيص مما يدل على أنه ليس هناك أحد خلق الخلق غير الله سبحانه ، ولكن الفرق بين آدم وغيره أن الله سبحانه خلقه بيديه .

ثانياً : قوله أيضاً : (وأما قولك : (تأكيد الخلق) فلعمري إنه لتأكيد جهلت معناه فقلبته ، إنما هو تأكيد اليدين وتحقيقهما ، وتفسيرهما ، حتى يعلم العباد أنها تأكيد مسيس بيد ، لما أن الله قد خلق خلقاً كثيراً في السموات والأرض أكبر من آدم وأصغر ، وخلق الأنبياء والرسل ، وكيف لم يؤكد في خلق شيء منها ما أكد في آدم ، إذ كان أمر المخلوقين في معنى يدي الله كمعنى آدم عند المريسي ، فإن يك صادقاً في دعواه فليسم شيئاً نعرفه ، وإلا فإنه الجاحد بآيات الله المعطل ليدي الله)[2] وهنا أيضاً استدل رحمه الله بالتأكيد الذي استدل به المريسي ولكنه بيَّن أن التأكيد إنما هو لليدين لا للخلق كما يزعم المريسي ، لأن القول بأن المراد هنا التأكيد للخلق يؤدي إلى التسوية بين المختلفات .

ثالثاً : قوله أيضاً : (وقوله لإبليس ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ ﴾[3] تأكيد يديه لا تأكيد خلق آدم ، وما كان حاجة إبليس إلى أن يؤكد الله له خلق آدم ، وقد كان من أعلم الخلق بآدم ؟ رآه قبل أن ينفخ فيه الروح طيناً مصوراً مطروحاً بالأرض ، ثم رآه بعدما نفخ فيه الروح ، ثم كان معه في الجنة حتى وسوس إليه فأخرجه منها ، ثم كان يراه إلى أن مات ،

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٢٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ١/٢٣١ .
(٣) ص : ٧٥ .

فإنما أكد الله له من أمر آدم ما لم ير ، لا ما رأى ، لأنه لم ير يدي الله وهما تخلقانه)[1] وهنا استدل رحمه الله على أن المراد إنما هو تأكيد اليدين لا تأكيد الخلق كما يزعم المريسي بعلم إبليس بخلق آدم لأنه كان يراه قبل نفخ الروح فيه وبعدها ، ولكن الذي لم يره هو خلق الله له بيديه ، لذلك أكد الله سبحانه اليدين لا الخلق .

رابعاً : قوله : (ولو كان على ما تأولت أنه أراد بيديه أنه ولي خلقه فأكده ، لما كان على إبليس إذاً فيما احتج الله به عليه من أمر اليدين لآدم في ذلك فضل ولا فخر ، إذ ولي خلق إبليس في دعواك كما ولي خلق آدم سواء ، وأكده كما أكده ، ولو كان ذلك على ما تأولت لحاجَّ إبليس ربه في ذلك كما حاجه في أن قال ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[2] وكما قال ﴿ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[3] فيقول : خلقتني أيضاً يا رب بيديك ، على معنى ما خلقت به آدم ، أي : وليت خلقي ، وأكدته في دعواك ولكن كان الكافر الرجيم أجود معرفة بيدي الله منك أيها المريسي ، بل علم عدو الله تعالى إبليس أن لو احتج بها على الله كذَّبه)[4] أي أن سبب حقد إبليس على آدم علمه أن آدم أفضل منه بخاصية خلق الله له بيديه الكريمتين سبحانه ، إذ لو كان المراد بذكر اليدين أن الله ولي خلق آدم وأكده ، لما حقد إبليس على آدم بشيء ، ولكن قول المريسي يدل على أن إبليس أعلم منه بربه .

خامساً : وقوله : [ولو كان معناه أيها المريسي على ما ادعيت : أن الله أراد باليدين تأكيد الخلق لا تأكيد اليد ، لأكد أيضاً في خلق نبي أو رسول ، كما أكد في خلق آدم في دعواك ، حتى إن أهل الآخرة يعرفون لآدم تلك الفضيلة في الموقف يوم القيامة فيقولون : ﴿ اذهبوا بنا إلى آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم ، أنت أبو الناس خلقك الله بيده اشفع لنا

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٣٣ – ٢٣٤ .
(٢) الأعراف : ١٢ .
(٣) الحجر : ٣٣ .
(٤) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٤٠ – ٢٤١ .

إلى ربك ﴾[1])[2] أي إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر عن نبي ولا رسول أنه خلقه بيد ، حتى النبي محمد ﷺ أفضل الخلق لم يذكر له تلك الفضيلة ، وفي ذلك دلالة على اختصاص آدم بالخلق بيدي الله دون غيره وبالتالي يتبين أن المراد تأكيد اليدين لا تأكيد الخلق كما زعم المريسي .

هذه أدلة الدارمي العقلية في الرد على تأويل صفة اليدين لله سبحانه وتعالى ، وهي كما هو مشاهد أدلة داحضة لحجج الخصم ، فهو يستدل بالانتقال مرة وباللازم مرة والتسليم مرة والمنع مرة أخرى .

والمريسي الجهمي كان متخبطاً في مسألة (تأكيد الخلق) التي قال بها فأتى بقياس فاسد ، فقال : أن قوله تعالى ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيّ ﴾[3] تأكيد للخلق كقوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[4] فبيَّن الدارمي أن هذا الاستدلال قياس فاسد ، لأن قوله ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ تأكيد للعدد لا تأكيد للصيام، لأن العدد غير الصيام ، ويد الله غير آدم ، فأكد الله لآدم الفضيلة التي كرمه وشرفه بها ، وآثره على جميع عباده إذ كل عباده خلقهم بغير مسيس بيد ، وخلق آدم بمسيس[5] .

وقد ذكر الدارمي رحمه الله الآيات التي فيها (تأكيد الخلق) وذلك مثل قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[6] وقوله سبحانه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾[7] وقوله تعالى ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، رقم الحديث ٣٢٧ .
(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٩٦ .
(٣) ص : ٧٥ .
(٤) البقرة : ١٩٦ .
(٥) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٣٢ .
(٦) النمل : ٨٨ .
(٧) السجدة : ٧ .

عَلَقَةٍ ﴾[1] إلى آخر الآيات التي ذكرها رحمه ، ثم قال : (فهذا تأكيد الخلق وتفسيره لا ما ادعى الجاهل)[2] يقصد المريسي .

ثم أن المريسي فرَّ من التشبيه إلى التشبيه لأنه قاس الله في يديه اللتين خلق بهما آدم أقبح قياس ، وذلك بعد زعمه أنه لا يحل أن يقاس الله بشيءٍ من خلقه ولا بشيء هو موجود في خلقه ولا يتوهم ذلك ، فقال : أليس يقال لرجل مقطع اليدين من المنكبين إذ هو كفر بلسانه ، إن كفره ذلك بما كسبت يداه ، وإن لم يكن كفر بيديه[3] .

فقال الدارمي : (أليس قد زعمت أن الله لا يشبه بشيءٍ من خلقه ولا يتوهم الرجل في صفاته ما يعقل مثله في نفسه ؟ فكيف تشبه الله في يديه اللتين خلق بهما آدم بأقطع مجذوم اليدين من المنكبين ؟ وتتوهم في قياس يدي الله ما تعقله في ذلك المجذوم المقطوع ، ويتوهم ذلك ؟ فقد توهمت أقبح ما عبت على غيرك ، إذ ادعيت أن الله لا يدان له كالأقطع المقطوع اليدين من المنكبين ، ويلك ! إنما يقال لمن كفر بلسانه وليست له يدان : ذلك بما كسبت يداه مثلاً معقولاً ، يقال ذلك للأقطع من ذوي الأيدي ، غير أنه لا يضرب هذا المثل ولا يقال ذلك إلا لمن هو من ذوي الأيدي ، أو كان من ذوي الأيدي قبل أن تقطعا ، والله بزعمك لم يكن قط من ذوي الأيدي ، فيستحيل في كلام العرب أن يقال لمن ليس بذي يدين ، أو لم يك قط ذا يدين : أن كفره وعمله بما كسبت يداه ، وقد يجوز أن يقال : بيد فلان أمري ومالي ، وبيده الطلاق والعتاق والأمر ، وما أشبهه ، وإن لم تكن هذه الأشياء موضوعة في كفه ، بعد أن يكون المضاف إلى يده من ذوي الأيدي ، فإن لم يكن المضاف إلى يده من ذوي الأيدي يستحيل أن يقال : بيده شيء من الأشياء ، وقد يقال : بين يدي الساعة كذا وكذا ، وكما قال الله تعالى ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[4] وكقوله ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾[5] وكما قال الله تعالى

(١) غافر : ٦٧ .
(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٢٣٣ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ١/٢٣٥ .
(٤) سبأ : ٤٦ .
(٥) البقرة : ٦٦ .

﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[1] فيجوز أن يقال : بين يدي كذا وكذا كذا وكذا لما هو من ذوي الأيدي ، وممن ليس من ذوي الأيدي .

ولا يجوز أن يقال : بيده إلا لمن هو من ذوي الأيدي ، لأنك إذا قلت بيد الساعة كذا وكذا كما قلت : بين يديها ، استحال ، وبيد العذاب كذا وكذا ، وبيد القرآن الذي هو مصدقاً لما بين يديه كذا وكذا ، أو بيد القرية التي جعلها نكالاً كذا وكذا استحال ذلك كله ، ولا يستحيل أن يقال : بين يديك ، لأنك تعني أمامه وقدامه وبين يديه ، فلذلك يجوز أن يقال للأقطع إذا كفر بلسانه : إنه بما كسبت يداه ، لأنه كان من ذوي الأيدي قطعتا أو كانتا معه .

ويستحيل أن يقال : بما كسبت يد الساعة ويد العذاب ، ويد القرآن ، لأنه لا يقال : بيد شيء شيء إلا وذلك الشيء معقول في القلوب أنه من ذوي الأيدي ، وأنت أول ما نفيت عن الله يديه أنه ليس بذي يدين ، ولم يكن قط لـه يدان ، ثم قلت : بيد الله كذا وكذا ، وخلقت آدم بيدي ولا يدان لـه عندك ، فهذا محال في كلام العرب ، لا شك فيه أو سم شيئاً يخالف دعوانا)[2] .

وهذا يذكرنا بقول ابن أبي العز رحمه الله في أن سبب تخبط الفرق الضالة في صفات الله سبحانه وتعالى ، إنما هو استخدامهم في العلم الإلهي قياس التمثيل أو قياس الشمول ، وقد بين رحمه الله أن استخدامهما في العلم الإلهي لا يجوز[3] .

ومن ادعاءات المريسي الواهية في إنكار صفة اليدين عن الله سبحانه وتعالى أنه احتج بالمثل القائل : (يداك أوكتا وفوك نفخ)[4] وبقوله تعالى ﴿ بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾[5]

(١) البقرة : ٩٧ .
(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٣٥ — ٢٣٨ .
(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ٨٧/١ .
(٤) انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٤١٤/٢ ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة السنة المحمدية ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
(٥) البقرة : ٢٣٧ .

وادعى أن العقدة بعينها ليست موضوعة في كفه ، وادعى أنه يجوز أن يقال ذلك في الكلام[1] .

فرد الدارمي رحمه الله على هذا الادعاء فقال : (هذا يجوز لما أن الموصوف بهما من ذوي الأيدي فلذلك جاز ، ولولا ذاك لم يجز ، ولو لم يكن الذي بيده عقدة النكاح ولا للموكي ولا للنافخ يدان ، أو لم يكونوا من ذوي الأيدي كمعبودك في نفسك لم يجز أن يقال : بيده .

ولو لم يكن لله تعالى يدان بهما خلق آدم ومسه بهما مسيساً كما ادعيت لم يجز أن يقال ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾[2] ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾[3] و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾[4] للمذهب الذي فسرنا ، فإن كنت لا تحسن العربية فسل من يحسنها ثم تكلم .

وقد يجوز للرجل أن يقول : بنيت داراً ، أو قتلت رجلاً ، وضربت غلاماً ، ووزنت لفلان مالاً ، وإن لم يتول شيئاً من ذلك بيده ، بل أمر البنَّاء ببنائه ، والكاتب بكتابه ، والقاتل بقتله ، والضارب بضربه ، والوازن بوزنه ، فمثل هذا يجوز على المجاز الذي يعقله الناس بقلوبهم على مجاز كلام العرب .

وإذا قال : كتبت بيدي كتاباً كما قال تعالى ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[5] أو قال : وزنت بيدي ، وقتلت بيدي ، وضربت بيدي ، ذلك تأكيداً ليديه ، دون يدي غيره ، ومعقول المعنى عند العقلاء ، كما أخبرنا الله أنه خلق الخلائق بأمره ، فقال ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[6] فعلمنا أنه خلق الخلائق بأمره وإرادته ، وكلامه وقوله: ﴿ كُنْ ﴾ وبذلك كانت ، وهو الفعال لما يريد .

فلما قال : خلقت آدم بيدي علمنا أن ذلك تأكيداً ليديه وأنه خلقه بهما مع أمره

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٢٣٨ .
(٢) آل عمران : ٢٦ .
(٣) الحديد : ٢٩ .
(٤) الملك : ١ .
(٥) ص : ٧٥ .
(٦) النحل : ٤٠ .

وإرادته ، فاجتمع في آدم تخليق اليدين نصاً والأمر والإرادة ، ولم يجتمعا في غيره من الروحانيين ، لأن الله تعالى لم يذكر أنه مس خلقاً ذا روح بيديه غير آدم ، إذ لم يذكر ذلك في أحد ممن سواه ، ولم يخص به بشراً غيره من الأنبياء وغيرهم)[1] .

ومن ادعاءات المريسي أيضاً أنه فسَّر قوله تعالى ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[2] أن اليدين هنا بمعنى رزقاه ، رزق موسع ورزق مقتور ، ورزق حلال ورزق حرام ، ففنَّد الدارمي هذا التأويل الباطل بقوله : (وإن كان تفسيرهما عندك ما ذهبت إليه فإنه كذب محال ، فضلاً على أن يكون كفراً ، لأنك ادعيت أن لله رزقاً موسعاً ، ورزقاً مقتراً ، ثم قلت : إن رزقيه جميعاً مبسوطتان ، فكيف يكونان مبسوطين ، والمقتور أبداً في كلام العرب غير مبسوط ؟ وكيف قال الله : إن كلتيهما مبسوطتان وأنت تزعم أن إحداهما مقتورة ؟ فهذا أول كذبك وجهالتك بالتفسير ، وقد كفانا الله ورسوله مؤنة تفسيرك هذا بالناطق من كتابه وبما أخبر الله على لسان نبيه ﷺ .

فأما الناطق من كتابه فقوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[3] وقوله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[4] وقوله ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾[5] وقوله ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾[6] وقوله ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾[7] وقوله ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[8] فهل يجوز لك أن تتأول في جميع ما ذكرنا من كتابه أنه رزقاه ، فتقول : برزقه الخير ، وبرزقه الفضل ، وبرزقه الملك ، ولا تقدموا بين رزقي الله ورسوله ؟.

وأما المأثور من قول رسول الله ﷺ فقوله : ((إن المقسطين على منابر من نور عن

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٣٨ – ٢٤٠ .
(٢) المائدة : ٦٤ .
(٣) ص : ٧٥ .
(٤) الفتح : ١٠ .
(٥) آل عمران : ٢٦ .
(٦) الحديد : ٢٩ .
(٧) الملك : ١ .
(٨) الحجرات : ١ .

يمين الرحمن وكلتا يديه يمين))[1] . . . فتفسير قول النبي ﷺ في تأويلك أيها المريسي : أنهم على منابر من نور عن رزقي الرحمن ، وكلا رزقيه يمين .

. . . وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيديه – وقبض كفيه أو قال : يديه – فجعل يقبضهما ويبسطهما ، ثم يقول : أنا الجبار ، أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون . . .))[2] .

فيجوز أيها المريسي أن تتأول هذا الحديث أنه يأخذ السموات والأرضين برزقيه بموسعه وبمقتوره ، وحلاله وحرامه ؟ وما أراك إلا وستعلم أنك تتكلم بالمحال ، لتغاط أن لتغالط بها الجهال، وتروج عليهم الضلال)[3] إلى آخر الأحاديث التي ذكرها رحمه الله ، يُطَبِّقُ عليها فرية هذا المفتري فلا تنطبق[4] .

وهذا فيه دلالة قوية أكيدة واضحة على قوة أدلة أهل السنة العقلية وعلى قوة ردودهم على الخصوم وإسكاتهم وإفحامهم ، وما سكت الخصوم وما أفحموا إلا لضعف أدلتهم وتخبطهم فيها وجهلهم بالكتاب والسنة ومعانيهما .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ، رقم الحديث ١٨٢٧ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، رقم الحديث ٢٧٨٨ .

(٣) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٢٤١ – ٢٤٦ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٢٤٦ – ٢٥٤ .

المطلب الرابع

إثبات صفة الأصابع

أنكر الجهمية المعتزلة صفة الأصابع عن الله سبحانه ، وقالوا أن المراد بقول الرسول ﷺ : ((إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يصرفه حيث يشاء))[1] أي بين نعمتين من نعم الرحمن لأن الإصبع عندهم بمعنى النعمة[2] .

فكان ممن ردَّ عليهم في هذه الفرية من علماء السنة الإمام ابن قتيبة رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لو كان قلب المؤمن بين نعمتين من نعم الله لكان القلب محفوظاً بتينك النعمتين فلأي شيء دعانا بالتثبيت ، ولِمَ احتج على المرأة[3] التي قالت له : أتخاف على نفسك ، يؤكد قولها ، وكان ينبغي ألا يخاف إذ كان القلب محروساً بنعمتين)[4] .

ولهم تأويل آخر في صفة الإصبع على لسان أحد زعمائهم وهو المريسي حيث قال بأن المراد بها القدرة فيكون معنى قوله ﷺ : ((القلوب بين إصبعين ...)) أي بين قدرتين ، وهذا ما لا يقوله عاقل[5] .

وفي هذا تحديد لقدرة الله سبحانه وتعالى ، والإمام الدارمي بيَّن أن قدرة الله واحدة

---

(١) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ، رقم الحديث ٢٦٥٤ .

(٢) انظر : الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٥١ ، ونقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٣٨٣/١ .

(٣) وردت رواية في مسند أحمد أن هذه المرأة هي زوجه عائشة رضي الله عنها وذلك أنها قالت : (دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر يدعو بها : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قالت : فقلت : يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء ، فقال : ((إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء أزاغة وإذا شاء أقامه)) ٩١/٦ ، ورواية أخرى أنها زوجه أم سلمة رضي الله عنها وذلك أنها سئلت : ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ، قالت : (كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قالت: فقلت : (ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قال : ((يا أم سلمة ما من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ما شاء أقام وما شاء أزاغ)) ٣١٥/٦ .

(٤) الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٥١ – ٥٢ .

(٥) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٣٦٩/١ .

قد كفت الأشياء كلها وملأتها واستنطقتها ، فكيف صارت للقلوب من بين الأشياء قدرتان ؟ وعلى هذا فكم قدرة لله سبحانه وتعالى ؟ فإن النبي ﷺ قال : ((بين إصبعين)) وفي دعوى المريسي هي أكثر من قدرتين وثلاث وأربع ، وحكم فيها للقلوب قدرتين ، وسائرها لما سواها[1] .

أما ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه من أن حبراً يهودياً قال للرسول ﷺ : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر[2] ، فقد ذكر ابن قتيبة أن هذا الحديث أنكره المعتزلة الجهمية تماماً ، لأنهم قالوا : أنه لا يجوز أن يكون الإصبع هنا بمعنى النعمة ، فانظر إلى تخبطهم وفساد عقولهم واعتمادهم عليها تمام الاعتماد فما وافقها قبلوه وما عارضها ردوه ولو كان مروياً في الصحيحين أو أحدهما .

وقد ردَّ على هذا التكذيب الإمام الدارمي عندما ادعى بشر المريسي هذا الادعاء فقال: [وكيف أقررت بالحديث في الإصبعين من أصابع الله وفسرتهما قدرتين وكذبت بحديث ابن مسعود في خمس أصابع ، وهو أجود إسناداً من حديث الإصبعين ؟ أفلا أقررت بحديث ابن مسعود ثم تأولته : القدرة خمس قدرات كما تأولت في الإصبعين بقدرتين فإن النبي ﷺ قال : ((بين إصبعين من الأصابع))][3] .

وقد ذكر شيخ الإسلام شبهة لمنكري صفة الأصابع بأنهم قالوا أن قوله ﷺ : ((قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن)) أنه قد علم أن ليس في قلوبنا أصابع الحق[4] .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٧٠ .
(٢) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله ((وما قدروا الله حق قدره)) ، رقم الحديث ٤٨١١ .
(٣) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٧١ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣/٤٣ .

فقال شيخ الإسلام في تفنيد هذه الشبهة : (وأما قوله : ((قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن)) فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ولا مماس لها ولا أنها في جوفه ولا في قول القائل : هذا بين يدي ، ما يقتضي مباشرته ليديه ؟ وإذا قيل : السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماساً للسماء والأرض)[1] .

(١) المصدر السابق ، ٣/٤٥ .

المبحث الخامس

إثبات صفة القدمين

أثبت أهل السنة والجماعة صفة القدمين لله سبحانه وتعالى حقيقة كما تليق بجلاله وعظمته ، قال ابن عباس : (الكرسي موضع القدمين)[(١)] .

ولكن الجهمية حرفت قول الرسول ﷺ : ((لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول : قط قط وعزتك ، ويزوى بعضها إلى بعض))[(٢)] وقالوا على لسان المريسي أن معنى القدم هنا : أهل الشقوة الذين سبق لهم في علمه أنهم صائرون إليها[(٣)] .

فرد عليه الإمام الدارمي بقوله : (وكيف تدعي أنها لا تمتلئ حتى يلقي الله فيها الأشقياء الذين هم قدم الجبار عندك ، فتمتلئ بهم في دعواك ؟ وهل استزادت أيها التائه إلا بعد مصير الأشقياء إليها ، وإلقاء الله إياهم فيها ؟ فاستزادت بعد ذلك ، أفيلقيهم فيها ثانية ، وقد ألقاهم فيها قبل ، فلم تمتلئ ؟ كأنه في دعواك حبس عنها الأشقياء ، وألقى فيها السعداء ، فلما استزادت ألقى فيها الأشقياء بعد ، حتى ملأها)[(٤)] .

ثم أن بشراً أتى بحجة واهية يؤكد بها جهله وتحريفه لمعنى صفة القدمين فقال : أليس من قال : أن الله يخلف وعده كافر ؟ فسيقال : نعم ، فقال بشر : فمن زعم أن جهنم تمتلئ من غير الجنة والناس فقد كفر ، لأن الله تعالى قال ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[(٥)] وهو يقصد أنه لو وضع الجبار قدمه في جهنم لامتلأت من قدمه لا

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، ٦/٣٢٣ ، وقال عنه : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح . انظر : المعجم الكبير ، الطبراني ، ١٢/٣٩ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الأيمان والنذور ، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلامه ، رقم الحديث ٦٦٦١ .

(٣) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٩٥ .

(٤) المصدر السابق ، ١/٤٠١ .

(٥) هود : ١١٩ .

من الجنة والناس كما أخبر ، وهي كما نرى حجة واهية لا أساس لها ، فما هو ردُّ الإمام الدارمي على هذا الافتراء ؟

قال رحمه الله : (ويلك أيها المريسي ! إنما أنزل هذه الآية من أنزل التي في (ق) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[1] ويجوز في الكلام أن يقال لمتلئ: استزاد ، كما يمتلئ الرجل من الطعام والشراب ، فيقول : قد امتلأت وشبعت ، وهو يقدر أن يزداد ، كما يقال : امتلأ المسجد من الناس ، وفيه فضل وسعة للرجال بعد، وامتلأ الوادي ماءً وهو محتمل لأكثر منه ، وكما قال النبي ﷺ : ((يخرج المهدي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً))[2] وفي الأرض سعة لأكثر من ذلك الظلم ، وأكثر من ذلك القسط ، فتمتلئ جهنم بما يلقى فيها مما وعدها من الجنة والناس، فتقول : هل من مزيد ، لفضل فيها ، غضباً لله على الكفار ، حتى يفعل الجبار بها ما أخبر رسول الله ﷺ كما شاء وكما عنى رسول الله ﷺ ، فحينئذ تقول : ((حسبي ، حسبي)) .

وكيف يستحيل أيها المريسي ما وصف رسول الله ﷺ من وضع القدم في جهنم ؟ وأنت تزعم أن الله بكماله في جهنم قبل أن يملأها ، وبعدما ملأها ، لأنك تزعم أن لا يخلو منه مكان ، فجهنم من أعظم الأمكنة ، فأنت أول من كذب بالآية إذ تدعي أن جهنم ممتلئة بالجبار ، تبارك وتعالى عز وجل عن وصفك .

ثم ادعيت أن من تأول في هذا قدم الجبار فقد جعل الله من الجنة والناس ومن تبع إبليس ، إذ زعم أن شيئاً منه يدخل جهنم ، والله يقول ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[3] .

فيقال لك أيها المريسي : فأنت أول من جعلته من الجنة والناس ، ومن تبع إبليس ،

(١) ق : ٣٠ .

(٢) رواه أبو داوود ، كتاب المهدي ، رقم الحديث ٤٢٨٥ ، صححه الألباني ، انظر : السلسلة الصحيحة ، ٤/ ٤١ .

(٣) هود : ١١٩ .

إذ تزعم أنه لا تخلو منه جهنم ، ولا شيء من الأمكنة ، أفبعض أوحش من كل ؟ .

ويلك ! إنما أراد الله بقوله ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[(١)] الذين حق عليهم العذاب ، ولها خزنة يدخلونها ملائكة غلاظ شداد ، غير مُعَذَّبين بها ، وفيها كلاب وحيات وعقارب ، وقال ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ، وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[(٢)] فلا يدفع هذه الآيات قوله ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[(٣)] كما لا يدفع هذه الآية قول النبي ﷺ : ((يضع الجبار فيها قدمه))[(٤)] فإذا كانت جهنم لا تضر الخزنة الذين يدخلونها ويقومون عليها ، فكيف تضر الذي سخرها لهم ، فإن أنت أقررت بالخزنة وملائكة العذاب وما فيها من غير الجنة والناس كفرت في دعواك ، لأنك زعمت أن من ادعى أن جهنم تمتلئ من غير الجنة والناس فقد كفر)[(٥)] .

هذه بعض أدلة أهل السنة العقلية في الردِّ على من تأول الصفات الذاتية الخبرية التي وردت في النصوص الصريحة الصحيحة ، وهي أدلة قامعة مفحمة مسكتة للخصم ، وهي دليل على سلامة عقولهم من التأويل الباطل والبدعة ، ودليل أيضاً على قوة مذهبهم ، فقد أثبتوا تناقض المخالف أكثر من مرة بسبب مخالفته بحجة أو بغير حجة فهو يعارض ويخالف من أجل المراء والجدال في الدين لا من أجل طلب الحق والبحث عنه لذلك ضلوا وأضلوا .

---

(١) هود : ١١٩ .
(٢) المدثر : ٣٠ – ٣١ .
(٣) هود : ١١٩ .
(٤) رواه البخاري ، كتاب الأيمان والنذور ، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلامه ، رقم الحديث ٦٦٦١ .
(٥) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٤٠٢ – ٤٠٥ .

المبحث الثالث

في إثبات الصفات الفعلية .

ويشمل :

المطلب الأول : صفة الاستواء ، وإثبات العرش .

المطلب الثاني : صفة الكلام .

المطلب الثالث : النزول والإتيان والمجيء .

المطلب الرابع :صفة الضحك .

المطلب الخامس : صفة القرب .

المطلب السادس : الغضب والرضا والمحبة والبغض .

المطلب الأول

صفة الاستواء ، وإثبات العرش

أنكر الجهمية صفة الاستواء لله سبحانه على عرشه ، فتأولوا معنى الاستواء بالاستيلاء فقالوا أن معنى استوى على العرش أي استولى عليه وعلاه[1] .

فكان الإمام الدارمي من الذين ردوا على هذه الفرية ، فقال : (فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله حتى خص العرش من بين الأمكنة بالاستواء عليه ، وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه ؟!! فأي معنى إذاً لخصوص العرش إذ كان عندكم مستوياً على جميع الأشياء كاستوائه على العرش تبارك وتعالى ؟)[2] وهذا استدلال بتوجيه الأسئلة وطلب الجواب لإفحام الخصم ، لأنه لا جواب له مقنع يخلصه من هذا القول ، واستدل أيضاً على الاستواء بتخصيص العرش لذلك ، فلو كان مستو على جميع المخلوقات لما خص العرش بذلك .

وقال بعض الجهمية أن استوى على العرش أي عالٍ عليه ، يقال للرجل علا الشيء أي ملكه وصار في سلطانه ، كما يقال : غلب فلان على مدينة كذا ثم استوى على أمرها ، يريد استولى ولا يريد الجلوس[3] .

فقال الدارمي : (فهل سمع سامع بجاهل أجهل بالله ممن يدعي أن الله استولى على عرشه مغالبة ، ثم يقيسه في ذلك بمتغلب ، فيقول : ألا ترى أنه يقال للرجل : غلب على مدينة واستولى على أهلها ؟ وأين ما انتحلت أنه لا يجوز لأحد أن يشبه الله بشيء من خلقه ، أو يتوهم فيه ما هو موجود في الخلق وقد شبهته بمتغلب غلب على مدينة بغلبة

(١) انظر : الإرشاد ، الجويني ، ٥٩ ، والمواقف ، الإيجي ، ٢٧٣ ، والرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤١ ، ونقض الإمام أبي سعيد ، ١/٤٥٥ .

(٢) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤١ .

(٣) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٤٥٤.

فاستولى عليها ؟)[1] وهو رحمه الله يلزمهم بنظير ما فروا منه من التشبيه ، ثم أنه بيَّن رحمه الله أن قولهم هذا من أفسد الأقوال لأنه قياس فاسد غير متكافئ الأطراف ، فهو قياس الخالق بالمخلوق وتشبيه له به .

وقال الإمام قوام السنة الأصبهاني : (والاستيلاء لا يوصف إلا من قدر على الشيء بعد العجز عنه ، والله تعالى لم يزل قادراً على الأشياء ومستولياً عليها)[2] وهذا استدلال بالمفهوم من معنى الاستيلاء ، وفي قوله هذا إثبات لصفة القدرة وصفة الاستواء لله سبحانه وتعالى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فلو كان استوى بمعنى استولى - كما هو عام في الموجودات كلها - لجازَ مع إضافته إلى العرش أن يقال : استوى على السماء ، وعلى الهوى ، والبحار والأرض ، وعليها ودونها ونحوها ، إذ هو مستو على العرش ، فلما اتفق المسلمون على أنه يقال : استوى على العرش ولا يقال : استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال استولى على العرش والأشياء ، علم أن معنى استوى خاص بالعرش ليس عاماً كعموم الأشياء)[3] وهو استدلال باللازم من قولهم .

وقال بعض الأشاعرة أن الاستواء عائد إلى العرش ، وهم يقصدون قول الله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[4] أي أن العرش هو الذي استوى بزعمهم ، ولكن الإمام قوام السنة الأصبهاني ذكر أنه لو كان الأمر على ما قالوا لكانت القراءة برفع العرش لا بخفضه ، فلما كان بالخفض عُلِمَ أنه عائد إلى الله[5] ، وهذا استدلال باللغة ، ويدل أيضاً على جهل المخالفين لعقيدة السلف باللغة العربية الصحيحة التي نزل بها القرآن الكريم .

---

(١) المصدر السابق ، ١/٤٥٥ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ، أبو القاسم الأصبهاني ، ٢/١١٣ .

(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/١٤٥ .

(٤) طه : ٥ .

(٥) انظر : الحجة في بيان المحجة ، الأصبهاني ، ٢/١١٢ .

وبيَّن ابن تيمية سبب ضلالهم في الصفات الخبرية كالاستواء والمجيء أنهم يرون أنه لا بد لكل فعل مفعول لذلك قالوا أن الاستواء فعل فعله الله في العرش فصار به مستوياً[1] ، وهذا لعدم تفريقهم بين الفعل اللازم والفعل المتعدي ، وهذا أيضاً من جهلهم باللغة .

وقد ذكر شيخ الإسلام معاني الاستواء في اللغة فقال : (فإن لفظ استوى لم تستعمله العرب في خصوص جلوس الآدمي – مثلاً – على سريره حقيقة حتى يصير في غيره مجازاً كما أن لفظ (العلم) لم تستعمله العرب في خصوص العرف القائم بقلب البشر المنقسم إلى ضروري ونظري حقيقة ، واستعملته في غيره مجازاً ، بل المعنى تارة يستعمل بلا تعدية كما في قوله ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾[2] وتارة يعدى بحرف الغاية ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[3] وتارة يعدى بحرف الاستعلاء ، ثم هذا تارة يكون صفة لله[4] ، وتارة يكون صفة لخلقه[5] ، . . .

ولا يجوز أن يفهم من استواء الله الخاصية التي تثبت للمخلوق دون الخالق ، كما في قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾[6] وقوله تعالى ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾[7] وقوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[8] وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾[9] ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[10] فهل يستحل مسلم أن يثبت لربه خاصية الآدمي الباني الصانع الكاتب العامل ؟ أم يستحل أن ينفي عنه حقيقة العمل والبناء كما يختص به ويليق بجلاله ؟ أم يستحل أن يقول : هذه الألفاظ مصروفة عن ظاهرها ، أم

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٦/٣٩٣ .
(٢) القصص : ١٤ .
(٣) فصلت : ١١ .
(٤) وهو يقصد قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ طه : ٥ .
(٥) وهو يقصد مثل قوله تعالى ﴿ واستوت على الجودي ﴾ هود : ٤٤ .
(٦) الذاريات : ٤٧ .
(٧) يس : ٧١ .
(٨) النمل : ٨٨ .
(٩) الأنبياء : ١٠٥ .
(١٠) الأعراف : ١٤٥ .

الذي يجب أن يقول : عمل كل بحسبه ، فكما أن ذاته ليست مثل ذوات خلقه ، فعمله ، وصنعه ، وبناؤه ، ليس مثل عملهم ، وصنعهم ، وبنائهم .

ونحن لم نفهم من قولنا : بنى فلان ، وكتب فلان : ما في عمله من المعالجة والتأثر إلا من جهة علمنا بحال الباني ، لا من جهة مجرد اللفظ الذي هو لفظ الفعل وما يدل عليه بخصوص إضافته إلى الفاعل المعين ، وبهذا ينكشف لك كثير مما يشكل على كثير من الناس ، وترى مواقع اللبس في كثير من هذا الباب)[1] أي أن الله له صفات الكمال التي تليق بجلاله وعظمته ، والمخلوق له صفات تليق به ، وإن اتفقت الأسماء ، فالمسميات مختلفة تمام الاختلاف .

وابن تيمية يريد أن يبيِّن أن كون الاستواء مضافاً إلى الله فإن هذا كافياً في إثبات الاستواء لله على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته ، وبيَّن رحمه الله أن الألفاظ نوعان ، نوع يذكر فيه اللفظ مفرداً ويفهم منه معنى مثل لفظ : أسد ، وبحر ، وجبل .

ونوع لا يفهم منه شيء إلا إذا أضيف ، مثل : لفظ الاستواء ، فإذا قيل استواء الله واستواء المخلوق ، كان هناك فرقاً شاسعاً في الفهم بين الاستوائين[2] .

وهؤلاء الذين جعلوا استوى بمعنى استولى أدى ذلك بهم إلى القول بأن صفة الاستواء صفة ذاتية لا صفة فعلية ، فبيَّن ابن تيمية أن الله سبحانه أخبر أنه استوى على العرش بحرف (ثم) فقال ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[3] ، وعطف فعلاً على فعل ، خلق ثم استوى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[4] .

ثم إن قولهم بأنه قدر عليه واستولى يكون لا فرق فيه بين العرش وغيره ، وإذا قيل إن العرش أعظم المخلوقات ، فهذا لا ينفي ثبوت العظمة لغيره ، كما في قوله ﴿ رَبُّ

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٣/ ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٣/ ١٨٣ — ١٨٤ .

(٣) الرعد : ٢ .

(٤) يونس : ٣ .

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[1] لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته ، والربوبية عامة ، جاز أن يقال : رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، ويقال : رب العالمين ، ورب موسى وهارون ، والاستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستول مقتدر على كل شيء من السماء والأرض وما بينهما ، فلو كان استواؤه على العرش هو قدرته عليه جاز أن يقال : على السماء والأرض وما بينهما ، وأيضاً فإنه مازال مقتدراً عليه من حين خلقه ، وكذلك فإن لفظ الاستواء في لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم ، والاستعمال الموجود في الكتاب والسنة وكلام العرب يمنع هذا[2] .

وقد ردَّ شيخ الإسلام رحمه الله على من جعل عمدته في تأويل الاستواء بالاستيلاء بيت شعر مصنوع لا يعرف في اللغة وهو :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ولا دم مهراق

فبيَّن رحمه الله أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى ، إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم هذا البيت المشهور .

ولم يثبتْ نقل صحيح أنه شعر عربي ، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة ، وقد عُلِمَ أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته ، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده ؟!

وقد روي عن جماعة من أهل اللغة إنهم قالوا : لا يجوزُ استوى بمعنى استولى إلاَّ في حقِّ من كان عاجزاً ثمَّ ظهر، والله سبحانه لا يعجزهُ شيء ، والعرش لا يغالبه في حال ، فامتنع أن يكون بمعنى استولى .

وقالوا أيضاً : لا يكون استوى بمعنى استولى إلاَّ فيما كان منازعاً مغالباً ، فإذا غلب أحدهما صاحبه قيل : استولى ، والله لم ينازعه أحد في العرش ، فلو ثبت استعماله في هذا المعنى الأخص مع النزاع في إرادة المعنى الأعم لم يجب حمله عليه بمجرد قول بعض

---

(١) التوبة : ١٢٩ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية، ١٦ / ٣٩٥ – ٣٩٦ .

أهل اللغة مع تنازعهم فيه ، وهؤلاء ادعوا أنه بمعنى استولى في اللغة مطلقاً ، والاستواء في القرآن في غير موضع ، مثل قوله ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (1) ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (2) ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ (3) وفي حديث عدي : أن رسول الله ﷺ أُتي بدابته فلما وضع رجله في الغرز قال : ﴿ بسم الله ﴾ فلما استوى على ظهرها قال : ﴿ الحمد لله ﴾ (4) .

وكذلك أنه لو ثبت أنه من اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العرباء ، ولو كان من لفظ بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله ﷺ وقوله ، ولو كان من لغته لكان بالمعنى المعروف في الكتاب والسنة وهو الَّذي يرادُ به ولا يجوزُ أن يراد معنى آخر .

ولو حمل على هذا المعنى لأدى إلى محذور يجب تنزيه بعض الأئمة عنه ، فضلاً عن الصَّحابة ، فضلاً عن الله ورسوله ، فلو كان الكلام في الكتاب والسنة كلاماً نفهمُ منه معنى ، ويريدون به آخر ، لكان في ذلك تدليس وتلبيس ، ومعاذ الله أن يكون ذلك ! .

ثم إنَّ هذا اللفظُ - الَّذي تكرر في الكتاب والسنة والدواعي متوفرة على فهم معناه من الخاصة والعامة عادة وديناً - إن جعل الطريقُ إلى فهمه بيت شعر أحدث فيؤدي إلى محذور ، فلو حمل على معنى هذا البيت للزم تخطئة الأئمة الَّذين لهم مصنفات في الردَّ على من تأول ذلك ، ولكان يؤدي إلى الكذب على الله ورسوله ﷺ والصَّحابة والأئمة ،

---

(1) المؤمنون : ٢٨ .
(2) هود : ٤٤ .
(3) الزخرف : ١٣ .
(4) رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا ركب الناقة ، رقم الحديث ٣٤٤٦ ، قال عنه الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني : انظر : صحيح سنن الترمذي ، ٣ /٤٢٠ .

وللزم أن الله امتحن عبادهُ بفهم هذا دون هذا ، مع ما تقرَّر في نفوسهم وما ورد به نص الكتاب والسنة ؛ والله سبحانه لا يكلف نفساً إلاَّ وسعها ، وهذا مستحيل على الله ورسوله ﷺ والصَّحابة والأئمة[1] .

فهذه عدة أدلة عقلية ساقها ابن تيمية رحمه الله وليس دليلاً واحداً على إثبات صفة الاستواء لله سبحانه وتعالى ، وأن الاستواء ليس بمعنى الاستيلاء كما ادعوا ذلك .

إثبات العرش :

أنكر الجهمية العرش وقالوا أن استواء الله على العرش يستلزم أن يكون الله أصغر من العرش أو أكبر منه أو مساوياً له ، فإن كان أصغر فقد صيرتم العرش أعظم منه وإن كان أكبر من العرشَ فقد ادعيتم فيه فضلاً على العرش وإن كان مثله فإنه إذا ضم إلى العرش السموات والأرض كانت أكبر[2] .

هذه هي حجة الجهمية في نفي العرش ، فردَّ على هذا الافتراء الإمام الدارمي رحمه الله فبيَّن أن الله سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من خلقه ولم يحتمله العرش عظماً ولا قوة ولا حملة العرش احتملوه بقوتهم ولا استقلوا بعرشه بشده أسرهم ولكنهم حملوه بقدرته ومشيئته وإرادته وتأييده ، لولا ذلك ما أطاقوا حمله وأن الله لو شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم أكبر من السموات السبع والأرضين السبع ؟ ولو كان العرش في السماوات والأرضين ما وسعته ، ولكنه فوق السماء السابعة[3] .

ثم قال الدارمي بعد ذلك : (فكيف تنكر هذا وأنت تزعم أن الله في الأرض وفي جميع أمكنتها ، والأرض دون العرش في العظمة والسعة ؟ فكيف تقله الأرض في دعواك ولا يقله العرش الذي أعظم منها وأوسع ، وأدخل هذا القياس الذي أدخلت علينا في عظم العرش وصغره وكبره على نفسك وعلى أصحابك في الأرض وصغرها ، حتى

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/ ١٤٦ — ١٤٨ .
(٢) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٤٥٦ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٤٥٧ — ٤٥٨ .

تستدل على جهلك وتفطن لما تورد عليك حصائد لسانك ، فإنك لا تحتج بشيء إلا وهو راجع عليك وآخذ بحلقك)[1] .

وادعى الجهمية أن العرش إنما هو أعلى الخلق ، أي كل ما علاك فهو عرش سواء كان سماءً أو سقفاً أو غيرَ ذلك[2] .

ثم كذَّب الدارميُّ الجهميةَ وزعيمَهم بشراً المريسي بقول الله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[3] فقال : (والله مكذبك في كتابه إذ يقول ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[4] فكيف يمكن أن العرش أعلى الخلق وكان العرش على الماء قبل الخلق ، إذ لا أرض ولا سماء ، ولا خلق غير العرش والماء ؟)[5] .

وقال أيضاً : (ومما يزيدك تكذيباً قول الله تعالى ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾[6] وقال ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾[7] أفتحمل الملائكة في دعواك أعلى الخلق ، أو أسفله ، أو شيئاً من الخلق ؟ وقال ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[8] أيحملون يومئذ أعلى الخلق ويتركون أسفله ؟ أم الملائكة تحمل الناس يوم القيامة والسموات ، لأنها أعلى الخلق ؟ فهل سمع سامع بمحال من الحجج أبين من هذا ؟ مع ما فيه من التكذيب بالعرش نصاً ودفعه رأساً ، لأنه إن يكن العرش في دعواه أعلى الخلق فقد بطل العرش الذي هو أعلى ، لأن العرش غير ما سواه من الخلق ، إذ كان مخلوقاً على الماء قبل الخلق ، ففي أي كلام العرب وجدت هذا أيها المعارض : أن العرش أعلى الخلق فبينه لنا وإلا فإنك من المبطلين ، والله مكذبك في كتابه

(١) المصدر السابق ، ١/ ٤٥٩ — ٤٦٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٤٣٧ و ٤٦٥ .
(٣) هود : ٧ .
(٤) هود : ٧ .
(٥) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٤٣٧ .
(٦) الزمر : ٧٥ .
(٧) غافر : ٧ .
(٨) الحاقة : ١٧ .

إذ يقول ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [1] فميز الله بين أعلى الخلق وبين العرش العظيم وجعله غير السموات السبع فما دونها .

ومما يزيدك تكذيباً قوله ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [2] و ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [3] وأي مجد وكرم لأعلى الخلق ما ليس لأوسطه وأسفله ؟ فلذلك قلنا : إن تأويلك هذا تكذيب بالعرش صراحاً وإنكاره نصاً) [4] .

وذكر ابن تيمية أن طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيرها من أجزاء الفلسفة رأوا أن الأفلاك تسعة ، قالوا أن العرش كروي الشكل وأنه هو الفلك التاسع – وهو الأطلس – محيط بها مستدير كاستدارتها ، فبين شيخ الإسلام أن هذا الكلام ليس لهم عليه دليل عقلي ولا شرعي ، فقال : (فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أنه ليس وراء الفلك التاسع شيء آخر ، بل ولا قام عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ، ولكن دلتهم الحركات المختلفة ، والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه ، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لا ثبوته ولا انتفاءه) [5] .

وقال أهل الهيئة أنه ليس هناك فرقاً بين هذه الأفلاك التسعة ، فهي في أشكالها وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد فنسبة السابع إلى السادس كنسبة السادس إلى الخامس ، وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع ، فبيَّن شيخ الإسلام أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأن هناك فرقاً شاسعاً بين عرشه وبين مخلوقاته وإن كان الكل مخلوقاً لله ، فقال رحمه الله : (وأما العرش فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات ، وأنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض ، قال الله تعالى

---

(١) المؤمنون : ٨٦ .
(٢) البروج : ١٥ .
(٣) المؤمنون : ١١٦ .
(٤) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٤٣٨ – ٤٣٩ .
(٥) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/٥٤٧ .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (١).

وقال سبحانه ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ (٢) فأخبر أن للعرش حملة اليوم ويوم القيامة ، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين .

ومعلوم أن قيام فلك من الأفلاك - بقدرة الله تعالى - كقيام سائر الأفلاك ، لا فرق في ذلك بين كرة وكرة ، وإن قُدِّر أن لبعضها ملائكة في نفس الأمر تحملها فحكمه حكم نظيره ، قال تعالى ﴿ وَتَرَى الْمَلا ئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

فذكر هنا أن الملائكة تحف من حول العرش ، وذكر في موضع آخر أن له حملة ، وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله ، فقال ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ (٤).

وأيضاً فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥).

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره ، عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: ((كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ،

---

(١) غافر : ٧ .
(٢) الحاقة : ١٧ .
(٣) الزمر : ٧٥ .
(٤) غافر : ٧ .
(٥) هود : ٧ .

وخلق السماوات والأرض))[1] وفي رواية له : ((كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء))[2]...

وثبت في صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء))[3] .

وهذا التقدير بعد وجود العرش ، وقبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وهو سبحانه وتعالى ممتدح بأنه ذو العرش ، كقوله سبحانه ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إلا ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ ﴾[5] وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾[6] وقد قرىء ﴿ المجيدُ ﴾ بالرفع صفة لله ، وقريء بالخفض صفة للعرش .

وقال تعالى ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[7] فوصف العرش بأنه مجيد وإنه عظيم ، وقال تعالى ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلاهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[8] فوصفه بأنه كريم أيضاً .

وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب : ((لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا

---

(١) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ، رقم الحديث ٣١٩١ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ((وكان عرشه على الماء)) ، رقم الحديث ٧٤١٨ .

(٣) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى ، رقم الحديث ٢٦٥٣ .

(٤) الإسراء : ٤٢ .

(٥) غافر : ١٥ — ١٦ .

(٦) البروج : ١٤ — ١٦ .

(٧) المؤمنون : ٨٦ — ٨٧ .

(٨) المؤمنون : ١١٦ .

الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم))[1] فوصفه في الحديث بأنه عظيم ، وكريم أيضاً .

فقول القائل المنازع : إن نسبة الفلك الأعلى إلى ما دون كنسبة الآخر إلى ما دونه لو كان العرش من جنس الأفلاك لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر ، كما لم يوجب ذلك تخصيص سماء دون سماء ، وإن كانت العليا بالنسبة إلى السفلى كالفلك على قول هؤلاء ، وإنما امتاز عما دونه بكونه أكبر ، كما تمتاز السماء العليا عن الدنيا ، بل نسبة السماء إلى الهواء ، ونسبة الهواء إلى الماء والأرض كنسبة فلك إلى فلك ، ومع هذا فلم يخص واحداً من هذه الأجناس عما يليه بالذكر ، ولا بوصفه بالكرم والمجد والعظمة)[2] .

ثم بيَّن رحمه الله أن العرش له وزن ثقيل بل هو أثقل الأوزان ، قال رسول الله ﷺ لزوجته جويرية بنت الحارث رضي الله عنها لما دخل عليها وكانت تسبح بالحصى من صلاة الصبح إلى وقت الضحى : ((لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته))[3] ومما يدل على أنه وحده أثقل الأوزان أنه وحده الذي أثقل ما يمثل به ، كما أن عدد المخلوقات أكثر ما يمثل به ، بينما يقول أهل الهيئة أن الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقيل[4] .

بل إنه رحمه الله يبيِّن أن العرش له قوائم ، فلو كان مستديراً كما يقولون لم يكن له قوائم كما ذكر النبي ﷺ : ((لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أكان

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الكرب ، رقم الحديث ٦٣٤٥ — ٦٣٤٦ ، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب دعاء الكرب ، رقم الحديث ٢٧٣٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/ ٥٥٠ — ٥٥٢ .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، رقم الحديث ٢٧٢٦ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/٥٥٣ .

فيمن صعق أم حوسب بصعقة الأولى))[1][2] .

ويقولون أيضاً أن حركة الفلك التاسع الذي هو العرش بزعمهم دائمة متشابهة ، وقد كذبهم شيخ الإسلام بحديث ((اهتز عرش الرحمن لموت سعد ابن معاذ))[3] فهذا الحديث يدل على أن حركة العرش ليس دائمة ولا متشابهة كما يقولون[4] .

وبهذا تتبيَّن أدلة أهل السنة العقلية في إثبات استواء الله سبحانه وتعالى على عرشه ، وإثبات وجود العرش بأوصافه التي ذكرها ربنا سبحانه ورسولنا محمد ﷺ ، فهي أدلة عقلية مدعمة بالدليل النقلي الصحيح لذلك اكتسبت قوة ومتانة ، والفلاسفة النفاة وغيرهم من الفرق الذين يدعون إعمال عقولهم ما اضطروا إلى النفي إلا لأنهم اتبعوا أهوائهم وليسَ عقولهم ، لذلك ضلوا في كثير من أبواب العقيدة ، وأهل السنة أعملوا عقولهم مع اتباعهم أولاً للكتاب والسنة لذلك سلم لهم منهجهم في العقيدة .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الخصومات ، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي ، رقم الحديث ٢٤١٢ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/٥٥٣ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه ، رقم الحديث ٣٨٠٣ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/٥٥٤ .

المطلب الثاني

إثبات صفة الكلام

أثبت أهل السنة والجماعة صفة الكلام لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، وقالوا أن صفة الكلام من الصفات الذاتية الفعلية ، فقد اتصف الله بها أزلاً وأبداً ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، كيف شاء ، متى شاء[1] .

أما الجهمية النفاة فقد أنكروا صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى ، وقالوا أن كلام الله مخلوق ، خَلقه في غيره ، منفصلاً عنه[2] .

وقد هبَّ علماء أهل السنة والجماعة بالردِّ على منكري صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى ، ومن تتبع كتبهم وجدها مليئة بالأدلة النقلية والعقلية على إثبات هذه الصفة ، ودحض القول بخلق القرآن .

وأهل السنة يستدلون بالنصوص وهذا هو العقل في هذه المسائل فإخبار الله سبحانه وتعالى لرسله ، وتبليغ الرسل لأممهم هو الحق الذي لا ريب فيه ، ومع ذلك فإن أهل السنة يستدلون مع النصوص بالمعقول لإزالة شبه الخصم عند الحاجة وفي قصة الإمام عبد العزيز الكناني صاحب كتاب (الحيدة) الدليل على ذلك حيث ناظر بشراً المريسي في حضرة المأمون فغلبه بالحجة والدليل .

وكان عبدالعزيز الكناني رحمه الله قد جعل بينه وبين بشرٍ المريسي أصلاً يرجعان إليه في حال الاختلاف ، وهذا الأصل هو (نص التنزيل) أي الكتاب والسنة[3] .

ولكن بشراً عجز عن مواصلة المناظرة مع عبدالعزيز الكناني فطلب من الكناني أن يبدِّل هذا الأصل بالنظر والقياس ، ظناً من بشر أنه سيغلب الكناني إذا بدَّلَ الأصل المتفق

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢١٩/٦ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ١٧٣/١ .

(٣) انظر : الحيدة ، عبدالعزيز الكناني ، ٢٧ .

عليه[1] .

وهذا فيه دليل واضح بيِّن على اتباع أهل السنة والجماعة للنص من الكتاب والسنة وفهمهم له ورسوخهم في العلم ، وفيه دليل أيضاً على إعراض المخالفين لعقيدة أهل السنة عن النص من الكتاب والسنة وجهلهم به ، لذلك لم يستطع بشر مواصلة المناظرة بنص التنزيل .

فوافق الكناني على التبديل ، ومع ذلك غلب بشراً فأفحمه وأسكته .

حيث قال الكناني رحمه الله : (يا بشر ، تقول أن كلام الله مخلوق) .

فقال بشر : (أنا أقول أن القرآن مخلوق) .

فقال الكناني : (يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها :

أن تقول أن الله عز وجل خلق القرآن في نفسه .

أو خلقه في غيره .

أو خلقه قائماً بذاته ونفسه .

فقل ما عندك) .

قال بشر : (إنه مخلوق ، وأنه خلقه كما خلق الأشياء كلها) .

هذه هي الإجابة التي استطاع بشر أن يجيب بها الكناني ، ولكن الكناني بيَّن أن هذا الجواب لا يعتبر جواباً صحيحاً ، بل هو حيدة عن الجواب ، وهذا يدل على أن بشراً عاجز عن الجواب وذلك لجهله[2] .

فطلب المأمون من الكناني أن يشرح لهم هذه المسألة ، فقال الكناني : (نعم يا أمير المؤمنين ، سألته عن كلام الله ، أمخلوق هو ؟ فقال : نعم ، فقلت له يا أمير المؤمنين ، ما يلزمه في هذا القول ، وهو واحدة من ثلاث لا بد منها : أن يقول إن الله خلق كلامه في نفسه ، أو خلقه في غيره ، أو خلقه قائماً بذاته .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١٢٦ .

فإن قال : أن الله خلق كلامه في نفسه ، فهذا محال ، لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ، ولا نظر ، ولا معقول ، لأن الله تبارك وتعالى لا يكون مكاناً للحوادث ، ولا يكون فيه شيء مخلوق ، ولا يكون ناقصاً فيزيد فيه شيء إذا خلقه ، تعالى الله عن ذلك وجل وتعاظم .

وإن قال : خلقه في غيره ، يلزمه في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره ، فهو كلام الله ، لا يقدر أن يفرق بينهما ، فيجعل الشعر كلاماً الله ، ويجعل قول الزور كلاماً لله ، ويجعل قول الكفر ، والفحش ، وكل قولٍ ذمه الله وذم قائله كلاماً لله عز وجل ، وهذا محال ، لا يجد السبيل إليه ، ولا إلى القول به ، لظهور الشناعة ، والفضيحة ، والكفر ، على قائله ، تعالى الله عن ذلك .

وإن قال : خلقه قائماً بنفسه وذاته ، فهذا هو من المحال الباطل ، الذي لا يجد إلى القول به سبيلاً في قياس ، ولا نظر ، ولا معقول ، لأنه لا يكون الكلام إلا من متكلم ، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ، ولا العلم إلا من عالم ، ولا القدرة إلا من قادر ، ولا رُئِيَ ، ولا يرى كلام قط قائم بنفسه ، متكلم بذاته ، وهذا ما لا يعقل ، ولا يعرف ، ولا يثبت في نظر ، ولا قياس ، ولا غير ذلك .

فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً ، ثبت أنه صفة لله ، وصفات الله عز وجل كلها غير مخلوقه ، فبطل قول بشر يا أمير المؤمنين من جهة النظر ، كما بطل من جهة القرآن والتنزيل)[1] .

وبهذا أبطل الكناني رحمه الله قول بشرٍ عقلاً ونقلاً .

ثم وجَّه الكناني سؤالاً آخر لبشر فقال : (أتقول أن الله كان ولا شيء معه وكان ولما يفعل شيئاً ، ولما يخلق شيئاً ؟ .

قال – بشر – : نعم .

فقلت له : بأي شيء حدثت الأشياء بعد أن لم تكن ، أهي أحدثت نفسها ، أم الله

---

(١) المصدر السابق ، ١٢٧ – ١٢٩ .

تعالى أحدثها ؟ .

فقال – بشر – : بل الله أحدثها .

فقلت له : فبأي شيء أحدثها ؟ .

قال – بشر – : أحدثها بقدرته التي لم تزل .

فقلت له : صدقت أنه أحدثها بقدرته التي لم تزل ، أفلست تقول إنه لم يزل قادراً؟.

قال – بشر – : بلى .

قلت له : أفتقول أنه لم يزل يفعل ؟ .

قال – بشر – : لا أقول هذا .

قلت : فلا بد من أن يلزمك القول إنه خلق بالفعل الذي كان عن القدرة ، وليس الفعل هو القدرة ، لأن القدرة صفة لله تعالى ، ولا يقال الصفة هي الله ، ولا هي غير الله.

فقال بشر : ويلزمك أنت أيضاً أن تقول إن الله لم يزل يفعل ، ويخلق ، فإذا قلت ذلك ، فقد ثبت أن المخلوق لم يزل مع الله عز وجل .

فقلت لبشر : ليس لك أن تحكم عليّ ، وتلزمني بما لا يلزمني ، وتحكي عني ما لم أقل ، فأنا لم أقل أنه لم يزل الخالق يخلق ، والفاعل يفعل ، فيلزمني ما قلت ، وإنما قلت لم يزل الفاعل سيفعل ، ولم يزل الخالق سيخلق ، لأن الفعل صفة الله تعالى ، يقدر عليه، ولا يمنعه منه مانع .

قال بشر : أنا أقول أنه أحدث الأشياء بقدرته ، فقل أنت ما شئت .

قال عبدالعزيز : فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد أقر بشر أن الله كان ولا شيء معه ، وأنه أحدث الأشياء بعد أن لم تكن شيئاً بقدرته ، وقلت أنا أنه أحدثها بأمره ، وقوله ، عن قدرته ، فلن يخلو يا أمير المؤمنين أن يكون أول خلق خلقه الله بقول قاله ، أو بإرادة أرادها ، أو بقدرة قدرها ، فأي ذلك كان ، فقد ثبت أن ها هنا إرادة ومريداً ، ومراداً ، وقولاً ، وقائلاً ، ومقولاً له ، وقدرة ، وقادراً ومقدوراً عليه ، وذلك كله متقدم قبل الخلق ، وما كان قبل الخلق متقدماً فليس هو من الخلق في شيء ، كسرت والله يا أمير

المؤمنين قول بشر ، ودحضت حجته بإقراره بلسانه ، كسرت قوله بالقرآن والسنة واللغة العربية والنظر والمعقول ولم يبق إلا القياس وأنا أكسره بالقياس ، إن شاء الله تعالى .

. . . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو كان لبشر غلامان ، وأنا لا أجد علمهما من أحد من الناس إلا من بشر ، يقال لأحدهما خالد وللآخر يزيد ، وكان بشر غائباً عني ، فكتب إليّ ثمانية عشر كتاباً ، يقول في كل كتاب منها : ادفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب ، وكتب إليّ أربعة وخمسين كتاباً يقول في كل كتاب منها : ادفع إلى يزيد - ولا يقول غلامي – هذا الكتاب ثم كتب إليّ كتاباً جمعهما فيه ، فقال : ادفع إلى خالد غلامي ، وإلى يزيد هذا الكتاب ، ولم يقل يزيد غلامي .

ثم قدم بشر من سفره ، فقال : ألست تعلم أن يزيد هذا غلامي ؟ .

فقلت له : قد كتبت إلي أربعة وخمسين كتاباً تقول في كل كتاب منها : ادفع هذا الكتاب إلى يزيد ولم تقل غلامي ، ولم أسمعك تقول أنه أحد غلاميك ، وأنا لا أجد علمه عند أحد غيرك ، وكتبت إليّ ثمانية عشر كتاباً تقول في كل واحد منها ادفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب ، فعلمت أنه غلامك ، ثم كتبت إليّ كتاباً جمعتها فيه ، فقلت : ادفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب ، وإلى يزيد ، ولم تقل غلامي ، فمن أين أعلم أن يزيد غلامك ؟ وأنت لم تقل لي قبل هذا الوقت إنه غلامك ، ولست أعلم خبرهما من غيرك ، فقال بشر فرطت ، فحلفت أنا أن بشراً فرط ، وحلف بشر أني فرطت ، حيث لم أعلم أن يزيد غلامه من كتبه ، فأينا المفرط يا أمير المؤمنين ؟ .

فقال المأمون : بشر المفرط .

فقال بشر : وأي شيء هذا مما نحن فيه ؟ .

قال عبدالعزيز : فقلت : إن الله عز وجل أخبر في كتابه عن خلق الإنسان في ثمانية عشر موضعاً ، ما ذكره في موضع منها إلا أخبر عن خلقه ، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً من كتابه ، فلم يخبر عن خلقه في موضع منها ، ولا أشار إليه بشيء من صفات الخلق ، ثم جمع بين القرآن والإنسان في موضع واحد ، فأخبر عن خلق

الإنسان، ونفى الخلق عن القرآن ، فقال عز وجل ﴿ الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ ﴾[1] ففرق بين القرآن والإنسان ، فزعم بشر يا أمير المؤمنين ، أن الله فرط في الكتاب ، وكان يجب عليه أن يخبر عن خلق القرآن ، وقد قال تعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾[2] فهذا كسر قول بشر بالقياس ، والحمد لله رب العالمين)[3] .

أما الإمام أحمد فقد ناظر هؤلاء الجهمية النفاة وأبطل قولهم بخلق القرآن ، فقال : (بيان ما فصل الله بين قوله وخلقه ، وذلك أن الله جل ثناه إذا سمى الشيء الواحد باسمين أو ثلاثة أسامي فهو مرسل غير منفصل ، وإذا سمى شيئين مختلفين لا يدعهما مرسلين حتى يفصل بينهما من ذلك قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾[4] فهذا شيء واحد سماه بثلاثة أسامي وهو مرسل ولم يقل إن له أباً وشيخاً وكبيراً ، وقال ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ ﴾[5] ثم قال ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾[6] فلما كانت البكر غير الثيب لم يدعه مرسلاً حتى فصل بينهما فذلك قوله وأبكاراً ، وقال ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى ﴾[7] ثم قال ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما ، ثم قال ﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴾[8] فلما كان كل واحد من هذا الشيء غير الشيء الآخر فصل بينهما ، ثم قال ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾[9] ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾[10] فهذا كله شيء واحد فهو مرسل ليس

---

(١) الرحمن : ١ – ٣ .
(٢) الأنعام : ٣٨ .
(٣) الحيدة ، عبدالعزيز الكناني ، ١٢٩ – ١٣٤ .
(٤) يوسف : ٧٨ .
(٥) التحريم : ٥ .
(٦) التحريم : ٥ .
(٧) فاطر : ١٩ .
(٨) فاطر : ٢٠ – ٢١ .
(٩) الحشر : ٢٣ .
(١٠) الحشر : ٢٤ .

بمفصل ، فلذلك إذا قال الله ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [(١)] لأن الخلق غير الأمر فهو منفصل) [(٢)] .

وهذا يدل على عمق فهم السلف للقرآن وفقههم لكل آية يمرون بها وأنهم يربطون بين الآيات فلا يتركون واحدة ويتمسكون بأخرى كما فعلت الجهمية .

ومن أدلة الإمام أحمد رحمه الله العقلية في هذا الصدد مناظرته للجهم ، قال الجهم : (أخبرونا عن القرآن ، هو شيء)

قال الإمام أحمد : (نعم هو شيء)

فقال الجهم : (إن الله خلق كل شيء فلم لا يكون القرآن مع الأشياء المخلوقة وقد أقررتم أنه شيء ؟) وهو يقصد قول الله تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [(٣)] .

قال الإمام أحمد : (فلعمري لقد ادعى أمراً أمكنه فيه الدعوى ، ولَبَّسَ على الناس بما ادعى فقلنا : إن الله في القرآن لم يسم كلامه شيئاً إنما سَمَى شيئاً الذي كان بقوله : ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ [(٤)] فالشيء ليس هو قوله إنما الشيء الذي كان بقوله وفي آية أخرى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ [(٥)] فالشيء ليس هو أمره إنما الشيء الذي كان بأمره) [(٦)] .

ثم أخذ يدلل رحمه الله أن عموم (كل) في كل موضع بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن ، فمن ذلك قول الله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [(٧)] فقال رحمه الله : (وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها منازلهم ومساكنهم والجبال التي بحضرتهم فأتت عليها تلك الريح ولم تدمرها ، وقد قال ﴿ تُدَمِّرُ

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١١٢ — ١١٣ .
(٣) الرعد : ١٦ .
(٤) النحل : ٤٠ .
(٥) يس : ٨٢ .
(٦) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١١٥ .
(٧) الأحقاف : ٢٥ .

كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فكذلك إذا قال ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [1] لا يعني نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة) [2] .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى عن ملكة سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [3] فقال رحمه الله : (وقد كان ملك سليمان شيئاً ولم تؤته ، وكذلك إذا قال ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [4] لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة) [5] .

ومن الأدلة قول الله سبحانه لموسى ﷺ ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [6] وقوله ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [7] مع قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [8] فقال رحمه الله : (فقد عرف من عقل عن الله أنه لا يعنى نفسه مع الأنفس التي تذوق الموت وقد ذكر الله عز وجل كل نفس فكذلك إذا قال ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [9] لا يعنى نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة ، ففي هذا دلالة وبيان لمن عقل عن الله فرحم الله من فكر ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة ولم يقل على الله إلا الحق) [10] .

واستدل الجهمي بدليل آخر من القرآن على قوله بخلق القرآن وهو قول الله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ [11] فردَّ الإمام أحمد على هذا الاستدلال الباطل ببيان أن الشيئين إذا اجتمعا في اسم يجمعهما ، فكان أحدهما أعلى من الآخر ثم

---

(١) الرعد : ١٦ .
(٢) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١١٥ — ١١٦ ، وانظر : سيرة الإمام أحمد بن حنبل ، صالح بن أحمد ، ٣٩ .
(٣) النمل : ٢٣ .
(٤) الرعد : ١٦ .
(٥) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١١٦ .
(٦) طه : ٤١ .
(٧) آل عمران : ٢٨ .
(٨) آل عمران : ١٨٥ .
(٩) الرعد : ١٦ .
(١٠) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١١٦ .
(١١) الأنبياء : ٢ .

جرى عليهما اسم مدح فكان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه مثل قوله تعالى ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [1] فكلمة عباد الله تشمل المؤمنين والكافرين ، ولكن في هذه الآية بما أن السياق فيها للمدح فإنها تعني المؤمنين دون الكافرين ، أما إذا جرى على الشيء اسم ذم فأدناهما أولى به مثل قول الله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾ [2] فاجتمع الكافر والمؤمن في اسم العبد والكافر أولى بالبغي من المؤمن ، لأن المؤمنين انفردوا ومدحوا فيما بسط لهم من الرزق وهو قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ [3] فكذلك قول الله تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [4] فجمع بين ذكرين ذكر الله وذكر نبيه ، فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم الحدث بدليل قول الله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [5] وقوله ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ ﴾ [6] وإذا انفرد ذكر النبي ﷺ فإنه يجري عليه اسم الحدث بدليل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [7] وعمل النبي ﷺ التبليغ والتذكير ، قال تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [8] وقوله ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [9] فلما اجتمعوا في اسم الذكر جرى عليهم اسم الحدث وذكر النبي ﷺ إذا انفرد وقع عليه اسم الخلق وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذي إذا انفرد لم يقع عليه اسم خلق ولا حدث [10] .

ثم قال الإمام أحمد : (فوجدنا دلالة من قول الله ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ

---

(١) الإنسان : ٦ .
(٢) الشورى : ٢٧ .
(٣) الفرقان : ٦٧ .
(٤) الأنبياء : ٢ .
(٥) العنكبوت : ٤٥ .
(٦) الأنبياء : ٥٠ .
(٧) الصافات : ٩٦ .
(٨) الذاريات : ٥٥ .
(٩) الغاشية : ٢١ .
(١٠) انظر : الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٢٠ – ١٢٣ .

مُحْدَثٍ ﴾[1] إلى النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ كان لا يعلم فعلمه الله ، فلما علمه الله كان ذلك محدثاً إلى النبي ﷺ)[2] .

وقال أيضاً في موضع آخر : (قال الله تعالى ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾[3] فالذكر هو القرآن ويلك أوليس فيها ألف ولام)[4] .

فماذا بعد هذه القاعدة التي قعدها لنا الإمام المبجل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ؟ أيوصف أهل السنة بالجمود العقلي وهم الذين قعدوا القواعد وشرحوا الأمور وسووا بين المتماثلات وفرقوا بين المختلفات ، وأظهروا لنا دقائق الإعجاز القرآني عن طريق إثباتهم للعقائد وردهم على الخصوم ؟!! .

وادعت الجهمية أيضاً أن الكلام لا يكون إلا من جوف ولسان وشفتين ، فرد عليهم الإمام أحمد بقوله : (وأما قولهم إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان أليس الله قال للسموات والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[5] أتراها أنها قالت بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات ، وقال ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾[6] أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين ، والجوارح إذ شهدت على الكافر فقالوا ﴿ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[7] أتراها أنها نطقت بجوف وفم ولسان ، ولكن الله أنطقها كيف شاء ، وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير أن يقول بجوف ولا فم ولا شفتين ولا لسان)[8] .

أما الإمام ابن قتيبة رحمه الله فقد رد على تأويل الجهمية لقول الله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ

---

(١) الأنبياء : ٢ .
(٢) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٢٣ .
(٣) ص : ١ .
(٤) سيرة الإمام أحمد ، صالح بن أحمد ، ٣٨ .
(٥) فصلت : ١١ .
(٦) الأنبياء : ٧٩ .
(٧) فصلت : ٢١ .
(٨) الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ١٣١ .

اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [1] قالوا أوجد الله كلاماً سمعه موسى ، فقال ابن قتيبة : (فخرجوا بهذا التأويل من اللغة والمعقول ، لأن معنى تكلم الله أتى بالكلام من عنده ، وترحم الله أتى بالرحمة من عنده ، كما يقال تخشع فلان أتى بالخشوع من نفسه ، وتشجع أتى بالشجاعة من نفسه ، وتبتل أتى بالتبتل من نفسه ، وتحلم أتى بالتحلم من نفسه ، ولو كان المراد أوجد كلاماً لم يجز أن يقال : يتكلم ، وكان الواجب أن يقال : أَكْلَمَ ، كما يقال أقبح الرجل أتى بالقباحة ، وأطاب أتى بالطيب ، وأخس أتى بالخساسة ، وأن يقال أَكْلَمَ الله موسى إكلاماً ، كما يقال أقبر الله الميت : أي جعل له قبراً ، أو أرعى الله الماشية جعلها ترعى ، في أشباه لهذا كثيرة لا تخفى على أهل اللغة) [2] .

واستشهدَ الجهمية بقول الله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [3] فقالوا إن الجعل هنا بمعنى الخلق ، فرد ابن قتيبة على هذا قائلاً : (وأما استشهادهم بالجعل على خلق القرآن في قول الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [4] فإن الجعل يكون بمعنيين : أحدهما خلق ، والآخر غير خلق ، فأما الموضع الذي يكون فيه خلقاً : فإذا رأيته متعدياً إلى مفعول واحد لا يجاوزه كقول الله ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [5] فهذا بمعنى خلق ، وكذلك ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [6] أي خلق منها .

وأما الموضع الذي يكون فيه غير الخلق فإذا رأيته متعدياً إلى مفعولين كقوله ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [7] أي صيرتم ، وكقوله ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ [8] وكقول القائل (جعل فلان أمر امرأته في يدها) فإن هم وجدوا في القرآن

(١) النساء : ١٦٤ .
(٢) الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٣٨ .
(٣) الزخرف : ٣ .
(٤) الزخرف : ٣ .
(٥) الأنعام : ١ .
(٦) الأعراف : ١٨٩ .
(٧) النحل : ٩١ .
(٨) البقرة : ٦٦ .

كله جعل متعدية إلى القرآن وحده ليقضوا عليه بالخلق فنحن نتابعهم)[1] .

والإمام ابن قتيبة رحمه الله بهذا الدليل الدقيق يتحدى من يخالف في هذه المسألة ويطلب منه أن يستقرئ القرآن من أوله إلى آخره ، فإن وجد ما يخالف ذلك فحينئذ يكون له الحق أن يُتَّبَعْ ، وفي هذا دلالة واضحة على قوة ومتانة أدلة أهل السنة النقلية والعقلية معاً .

أما الإمام الدارمي رحمه الله فقد استدل بأدلة نقلية عقلية أيضاً على إثبات صفة الكلام لله منها : قول الله تعالى ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً ﴾[2] وقوله ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾[3] قال الدارمي : (ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام بيان بيِّن أن الله عز وجل غير عاجز عنه ، وأنه متكلم وقائل ، لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود به)[4] .

واستدل أيضاً بقول الله تعالى ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾[5] قال الدارمي : (فلم يعب إبراهيم أصنامهم وآلهتهم التي يعبدون بالعجز عن الكلام إلا وأن إلهه متكلم قائل)[6] .

واستدل أيضاً بقول الله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[7] وقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾[8] قال الدارمي : (لو

(١) الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٣٩ .
(٢) طه : ٨٩ .
(٣) الأعراف : ١٨٥ .
(٤) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٥٧ .
(٥) الأنبياء : ٦٣ .
(٦) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٥٧ .
(٧) الكهف : ١٠٩ .
(٨) لقمان : ٢٧ .

جمع مياه بحور السموات والأرض وعيونها وقطعت أشجارها أقلاماً ، لنفدت المياه ، وانكسرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات الله ، لأن المياه والأشجار مخلوقة وقد كتب الله عليها الفناء عند انتهاء مدتها ، والله حيٌّ لا يموت ، ولا يفنى كلامه ، ولا يزال متكلماً بعد الخلق ، كما لم يزل متكلماً قبلهم ، فلا يُنْفِدُ المخلوق الفاني كلام الخالق الباقي الذي لا انقطاع له في الدنيا والآخرة ، ولو كان على ما يذهب إليه هؤلاء الجهمية أنه كلام مخلوق أضيف إلى الله ، وأن الله عز وجل لم يتكلم بشيء قط ، ولا يتكلم بشيء قط ، ولن يتكلم ، لنفد كل مخلوق من الكلام قبل أن ينفد ماء بحر واحد من البحور ، لأنه لو جمع كلام خلق الله كلهم من الجن ، والإنس ، والملائكة ، والطير ، والبهائم كلها ، وجميع أعمالهم ، وكُتِبَ بماء بحر واحد من البحور ، لكتب كل ذلك ، ونفد قبل أن ينفد ماء بحر واحد ، ولا عشر بحر واحد ، ولكنه كلام لا انقطاع له)[1] .

ثم أنه بعد إثباته لصفة الكلام أخذ يناقش الجهمية المعتزلة في قولهم بخلق القرآن ، فقال : (أرأيتم قولكم : أنه مخلوق ، فما بدء خلقه ؟ قال الله له ﴿ كن ﴾ فكان كلاماً قائماً بنفسه بلا متكلم به ؟!! فقد علم الناس إلا من شاء الله منهم أن الله عز وجل لم يخلق كلاماً يُرَى ويُسْمَع بلا متكلم به ، فلا بد من أن تقولوا في دعواكم : الله المتكلم بالقرآن ، فأضفتموه إلى الله ، فهذا أَجْوَرُ الجور ، وأكذب الكذب أن تضيفوا كلام المخلوق إلى الخالق ، ولو لم يكن كفراً كان كذباً لا شك فيه ، فكيف وهو كفر لا شك فيه ، لا يحق لمخلوق يؤمن بالله واليوم الآخر أن يدعي الربوبية ، ويدعو الخلق إلى عبادته فيقول ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾[2] ...

قد علم الخلق إلا من أضله الله أنه لا حق لأحد أن يقول هذا وما أشبهه غير الخالق ، بل القائل به والداعي إلى عبادته غير الله كافر كفرعون الذي قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[3] والمجيب له والمؤمن بدعواه أكفر وأكذب .

---

(١) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٥٧ — ١٥٨ .
(٢) طه : ١٤ .
(٣) النازعات : ٢٤ .

وإن قلتم : إنه تكلم به مخلوق فأضفناه إلى الله ، لأن الخلق كلهم بصفاتهم وكلامهم لله ، فهذا المحال الذي ليس وراءه محال ، فضلاً على أن يكون كفراً لأن الله عز وجل لم ينسب شيئاً من الكلام كله إلى نفسه أنه كلامه غير القرآن ، وما أنزل على رسله ، فإن قد تم كلامكم ولزمتموه ، لزمكم أن تسموا الشعر وجميع الغناء والنَّوْحَ وكلام السباع والطير والبهائم كلام الله ، فهذا ما لا يختلف المصلون في بطوله واستحالته ، فما فضل القرآن إذاً عندكم على الغناء والنوح والشعر إذ كان كله في دعواكم كلام الله ؟ فكيف خص القرآن بأنه كلام الله ، ونسب كل كلام سواه إلى قائله ؟ فكفى بقوم ضلالاً أن يدَّعوا دعوى لا يشك الموحدون في بطوله واستحالته .

ومما يزيد دعواكم تكذيباً واستحالةً ، ويزيد المؤمنين بكلام الله إيماناً وتصديقاً ، أن الله عز وجل قد ميز بين من كلَّم من رسله في الدنيا وبين من لم يكلم ، ومن يكلم من خلقه في الآخرة ومن لم يكلم ، فقال ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [(١)] فميَّز بين من اختصه بكلامه وبين من لم يكلمه ، ثم سمى ممن كلم موسى فقال ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [(٢)] فلو لم يكلمه بنفسه إلا على تأويل ما ادعيتم ، فما فضل ما ذكر الله من تكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه ؟ إذ كل الرسل في تكليم الله إياهم مثل موسى ، وكلٌّ عندكم لم يسمع كلام الله فهذا محال من الحجج ، فضلاً أن يكون رداً لكلام الله وتكذيباً لكتابه ، ولم يقل ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ إلا وأن حالتيهما مختلفتان في تكليم الله إياهم ، فمما يزيد ذلك تحقيقاً قوله ﴿ أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [(٣)] يعني يوم القيامة ، ففي هذا بيان بيِّن أنه لا يعاقب قوماً يوم القيامة بصرف كلامه عنهم ، إلا وأنه مثيب بتكليمه قوماً آخرين) [(٤)] .

---

(١) البقرة : ٢٥٣ .
(٢) النساء : ١٦٤ .
(٣) آل عمران : ٧٧ .
(٤) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٨١ – ١٨٣ .

وكملت ربوبيته وتمت وحدانيته بمخلوق في دعواهم[1] .

وقال أيضاً : (ولا يقاس (كلام الله) بـ (بيت الله) و (عبد الله) و (خلق الله) و (روح الله) ، لأن الخلق ليس من الله ولا من صفاته ، وكلامه صفته ومنه خرج ، فلا يضاف إلى الله من الكلام إلا ما تكلم به ، ولو جاز أن ينسب كلام مخلوق إلى الله ، فيكون لله كلاماً وصفة ، كما يضاف إليه (بيت الله) و (عبد الله) لجاز أن تقول : كل ما يُتَكَلَّم به آناء الليل والنهار ، من حق أو باطل أو شعر أو غناء أو نوح ، كلام الله ، فما فضل القرآن في هذا القياس على سائر كلام المخلوقين إن كان كله ينسب إلى الله ، ويقام لله صفة وكلاماً في دعواكم ؟ فهذا ضلال بيِّن ، مع أنا قد كفينا مؤنة النظر بما في كتاب الله من البيان ، وفي الأثر من البرهان ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[2] .

ومن دقة أهل السنة في الرد على الجهمية النفاة أنهم كانوا يفصِّلون في مسألة القرآن بين ما هو مخلوق وما هو غير مخلوق ، من ذلك قول الإمام أحمد : (يتوجه العبد بالقرآن إلى الله لخمسة أوجه كلها غير مخلوقة ، حفظ بقلب ، وتلاوة بلسان ، وسمع بآذان ، ونظر ببصر ، وخط بيد ، فالقلب مخلوق ، والمحفوظ غير مخلوق ، والتلاوة مخلوقة ، والمتلو غير مخلوق ، والنظر مخلوق ، والمنظور إليه غير مخلوق)[3] . انتهى قول الإمام أحمد ، وأنا أُكْمِلُ وأقول : والسمع مخلوق ، والمسموع غير مخلوق ، وخط اليد مخلوق ، والمخطوط غير مخلوق ، تبعاً لما قاله الإمام المبجل أحمد بن حنبل .

وهكذا فإن ما ذكرته من أدلة أهل السنة العقلية في إثبات صفة الكلام والرد على القائلين بخلق القرآن إنما هو القليل من الكثير الذي لا تسمح صفحات هذه الرسالة الإلمام بها جميعاً ، لأن هذه المسألة من أخطر المسائل التي خالف فيها الجهمية والمعتزلة المبتدعة ، وهي أيضاً من أهم المسائل لأنها تتعلق بكتاب الله العظيم الذي جعله نوراً وهدىً يهدي الله به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ١٩٥ – ١٩٦ .

(٣) رسالة في أن القرآن غير مخلوق ، إبراهيم الحربي ، ٣٢ .

المطلب الثالث

إثبات النزول والمجيء والإتيان

أثبت أهل السنة والجماعة صفة النزول لله سبحانه كما يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل .

فقد أخبرنا نبينا محمد ﷺ بأن الله سبحانه ينزل في الثلث الأخير من كل ليلة إلى السماء الدنيا[(١)] ، وينزل ليلة النصف من شعبان[(٢)] ، وينزل يوم عرفة[(٣)] ، وينزل سبحانه يوم القيامة للحساب[(٤)] ، وينزل لأهل الجنة[(٥)] .

وقد خالف الجهمية في ذلك ، وأنكروا هذه الصفة بزعمهم أن النزول إنما هو زوال من مكان إلى مكان ، حتى أن الفضيل بن عياض قال : (إذا قال لك الجهمي أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل أنت : أنا لا أكفر برب يفعل ما يشاء)[(٦)] .

وقد ذكر الإمام ابن بطة رحمه الله حجة يُرد بها على الجهمي الذي يقول : إن قلنا

---

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء نصف الليل ، رقم الحديث ٦٣٢١ .

(٢) انظر : سنن ابن ماجة ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان ، رقم الحديث ١٣٩٠ ، وحسنه الألباني ، انظر : صحيح سنن ابن ماجة ، ٤١٥/١ .

(٣) انظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، رقم الحديث ١٣٧ ، وذكر محقق الكتاب (بدر البدر) أن الأثر إسناده ضعيف ولكن أخرجه أبو عثمان الصابوني في (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) صفحة ٢١٤ بإسناد آخر وهو حسن ، وأخرجه الدار قطني في (النزول) ١٧٤ -١٧٥ ،ت علي الفقيهي ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م . واللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) ٤٨٦/٣ رقم الحديث ٧٥١ بإسناد ثالث وهو صحيح ، والله أعلم .

(٤) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب فضل السجود ، رقم الحديث ٨٠٦ ، وكتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، رقم الحديث ٦٥٧٣ ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ، رقم الحديث ٧٤٣٧ .

(٥) انظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، رقم الحديث ١٤٥ ، ذكر المحقق (بدر البدر) أن الحديث ثابت بطرقه ، والله أعلم .

(٦) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢٠٥/٣ ، وانظر : عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، أبو عثمان الصابوني ، ٢٣٥ .

ينزل ، فقد قلنا أنه يزول ، والله لا يزول ، ولو كان ينزل لزال لأن كل نازل زائل[1] .

قال ابن بطة : (أو لستم تزعمون أنكم تنفون التشبيه عن رب العالمين ؟ فقد صرتم بهذه المقالة إلى أقبح التشبيه ، وأشد الخلاف ، لأنكم إن جحدتم الآثار ، وكذبتم بالحديث ، رددتم على رسول الله ﷺ قوله ، وكذبتم خبره .

وإن قلتم لا ينزل إلا بزوال ، فقد شبهتموه بخلقه ، وزعمتم أنه لا يقدر أن ينزل إلا بزواله على وصف المخلوق الذي إذا كان بمكان خلا منه مكان)[2] .

وقال الإمام الدارمي : (فقالوا : كيف نزوله هذا ؟ قلنا : لم نكلف معرفة كيفية نزوله في ديننا ، ولا تعقله قلوبنا ، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلاً أو صفة بفعالهم وصفتهم ، ولكن ينزل بقدرته ولطف ربوبيته كيف يشاء ، فالكيف منه غير معقول ، والإيمان بقول رسول الله ﷺ في نزوله واجب ، ولا يُسأل الرب عما يفعل كيف يفعل وهم يُسألون ، لأنه القادر على ما يشاء أن يفعله كيف يشاء ، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف الذي لا قدرة له إلا ما أقدره الله تعالى عليه : كيف يصنع ؟ وكيف قدر؟.

ولو قد آمنتم باستواء الرب على عرشه وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءاً إذ خلقها، كإيمان المصلين به ، لقلنا لكم : ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد عليه ولا بأعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءاً ، فكما قدر على الأولى منهما كيف يشاء ، فكذلك يقدر على الأخرى كيف يشاء)[3] .

وقد أثبت أهل السنة صفة النزول لله سبحانه بإثبات صفة المجيء والإتيان لله سبحانه يوم القيامة فقال الإمام الدارمي : (فمما يعتبر به من كتاب الله عز وجل في النزول ويحتج به على من أنكره ، قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٣/٢٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ٣/٢٤٠ .
(٣) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٩٣ — ٩٤ .

وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [١] وقوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [٢] وهذا يوم القيامة إذا نزل الله ليحكم بين العباد ، وهو قوله ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً ، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ [٣] فالذي يقدر على النزول يوم القيامة من السموات كلها ليفصل بين عباده ، قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء ، فإن ردوا قول رسول الله ﷺ في النزول ، فماذا يصنعون بقول الله عز وجل ، تبارك وتعالى ؟) [٤] .

وحدثت مناظرة بين حماد بن أبي حنيفة [٥] وبين شرذمة من الجهمية ، فقال لهم رحمه الله : (قلنا لهؤلاء أرأيتم قول الله عز وجل ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [٦] وقوله عز وجل ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [٧] فهل يجيء ربنا كما قال ؟ وهل يجيء الملائكة صفاً صفاً ؟ .

قالوا : أما الملائكة فيجيئون صفاً صفاً ، وأما الرب تعالى فإنا لا ندري ما عنى بذلك ، ولا ندري كيف جيئته .

فقلنا لهم : إنا لم نكلفكم أن تعلموا كيف جيئته ، ولكنا نكلفكم أن تؤمنوا بمجيئه ، أرأيتم من أنكر أن المَلَك لا يجيء صفاً صفاً ، ما هو عندكم ؟

قالوا : كافر ، مكذب .

---

(١) البقرة : ٢١٠ .
(٢) الفجر : ٢٢ .
(٣) الفرقان : ٢٥ — ٢٦ .
(٤) الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٧٤ .
(٥) هو حماد بن أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي الكوفي ، كان ذا علم ودين وصلاح وورع تام ، لما توفي والده كان عنده ودائع كثيرة وأهلها غائبون فنقلها حماد إلى الحاكم ليتسلمها ، فقال : بل دعها عندك فإنك أهل ، فقال زنها واقبضها حتى تبرأ منها ذمة الوالد ثم افعل ما ترى ، ففعل القاضي ذلك وبقي في وزنها وحسابها أياماً واستتر حماد فما ظهر حتى أودعها القاضي عند أمين ، توفي سنة ١٤٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/٤٠٣ .
(٦) الفجر : ٢٢ .
(٧) البقرة : ٢١٠ .

قلنا : فكذلك من أنكر أن الله سبحانه لا يجيء فهو كافر مكذب)[1] .

وقد أوَّل الجهمية نزوله سبحانه ، فقالوا أن نزوله : أمره وسلطانه وملائكته ورحمته ، فقال الدارمي رداً على هذا الافتراء والقول على الله بلا علم : (ما كان أمره وسلطانه يتكلم بمثل هذا ويدعو الناس إلى استغفاره وسؤاله دون الله ، ولا الملائكة يدعون الناس إلى إجابة الدعوة وإلى المغفرة منها لهم ، وإلى إعطاء السؤال ، لأن الله تعالى ولي ذلك دون سواه .

وأخرى أن أمره وملائكته ورحمته وسلطانه دائباً ينزل آناء الليل وآناء النهار ، وفي كل ساعة لا يفتر ولا ينقطع ، فما بال نصف الليل خص بنزوله ورحمته وأمره من بين أوقات الليل وَالنهار ؟ حتى وقَّت رسول الله ﷺ لذلك وقتاً آخر ، فقال : ((حتى ينفجر الفجر))[2] ففي دعواك : تنزل رحمته على الناس في ثلث الليل ، فإذا انفجر الفجر رفعت في دعواك ، هذا والله تفسير محال ، وتأويل ضلال ، يشهد عليه ظاهر لفظ الحديث بالإبطال)[3] .

وقد استخدم الجهمية كعادتهم قياساً خاطئاً لإثبات كلامهم الباطل وتأويلهم الفاسد، فقالوا أن نزوله : أمره وسلطانه كما ترون القرآن يجيء يوم القيامة شافعاً مشفعاً وماحلاً[4] مصدقاً ، فقالوا : معنى ذلك أنه ثوابه ، فإن جاز لهم هذا التأويل في القرآن جاز لنا أن نقول : أن نزوله أمره ورحمته[5] .

فردَّ الدارمي قائلاً : (لقد قست بغير أصل ولا مثال ، لأن العلماء قد علموا أن القرآن كلام ، والكلام لا يقوم بنفسه شيئاً قائماً حتى تقيمه الألسن ويستلين عليها ، وأنه بنفسه لا يقدر على المجيء والتحرك والنزول بغير منزل ولا محرك ، إلا أن يؤتى به وينزَّل ،

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، أبو عثمان الصابوني ، ٢٣٤ .

(٢) انظر : صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ، رقم الحديث ٧٥٨ .

(٣) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٤) ماحلاً : أي مجادلاً ، انظر : مختار الصحاح ، مادة م ح ل .

(٥) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٤٩٨/١ .

والله تعالى حي قيوم ملك عظيم قائم بنفسه في عزه وبهائه يفعل ما يشاء كما يشاء وينزل بلا منزل ويرتفع بلا رافع ، ويفعل ما يشاء بغير استعانة بأحد ، ولا حاجة فيما يفعل إلى أحد ، ولا يقاس الحي القيوم الفعال لما يشاء بالكلام الذي ليس له عين قائم حتى تقيمه الألسن ، ولا له أمر ولا قدرة ولا إرادة ولا يستبين إلا بقراءة القراء .

أرأيت إن كان نزوله : أمره ورحمته فما بال أمره ورحمته لا ينزل إلا في ثلث الليل ثم إلى السماء الدنيا ؟ وما بال أمره ورحمته في دعواك لا ينزل إلى الأرض حيث مستقر العباد ، ممن يريد الله أن يرحمه ويجيب ويعطي ، فما بالها تنزل إلى السماء الدنيا ، ثم لا تجوزها ؟ وما بال رحمته تبقى على عباده من ثلث الليل إلى انفجار الفجر ثم ترجع من حيث جاءت بزعمك ؟

وما باله إذ الله بزعمك في الأرض فإذا استرحمه عباده واستغفروه وتضرعوا إليه بعَّد عنهم رحمته إلى السماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام ولا يغشيهم إياها وهو معهم في الأرض بزعمك ؟ إذ زعمت أن نزوله تقريب رحمته إياهم كقوله الآخر : ((من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً))[1] فقلتَ : هذا تقرب بالرحمة .

ففي دعواك في تفسير النزول : من تقرب إليه شبراً تباعد هو عنه مسيرة ما بين الأرض إلى السماء ، وكلما ازداد العباد إلى الله اقتراباً تباعد هو برحمته عنهم بُعْدَ ما بين السماء والأرض بزعمك)[2] . وهو رحمه الله بكلامه هذا يبطل قولهم في نفي العلو ونفي النزول معاً .

ثم أبطل رحمه الله قياسهم في تأويل النزول على تفسير أهل السنة لمجيء القرآن يوم القيامة أنه مجيء ثوابه فبيَّن أن القول لا يتحول صورة لها لسان وفم ، ينطق ويشفع ، والقرآن قول الله سبحانه وتعالى ، فحين اتفقت المعرفة من المسلمين على هذا علموا أن

(١) رواه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ((ويحذركم الله نفسه)) وقوله جل ذكره ((تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)) ، رقم الحديث ٧٤٠٥ .

(٢) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٤٩٨ – ٥٠٠ .

ذلك ثواب فيصوره الله بقدرته صورة رجل يبشر به المؤمنين ، لأنه لوكان القرآن صورة كصورة الإنسان لم يتشعب أكثر من ألف ألف صورة ، فيأتي أكثر من ألف ألف شافعاً وماحلاً ، لأن الصورة الواحدة إذا هي أتت واحداً زالت عن غيره ، فهذا معقول لا يجهله إلا كل جهول ، وهذا كحديث . . . : ((أن الرجل إذا مات تأتيه أعماله الصالحة في صورة رجل في أحسن هيئة وأحسن لباس وأطيب ريح ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح ، كان حسناً وكذلك تراني حسناً ، وكان طيباً فكذلك تراني طيباً ، وكذلك العمل السيء يأتي صاحبه فيقول له مثل ذلك ويبشره بعذاب الله))[1] وإنما عملهما الصلاة والزكاة والصيام وما أشبهها من الأعمال الصالحة ، وعمل الآخر الزنا والربا وقتل النفس بغير حقها وما أشبهها من المعاصي قد اضمحلت وذهبت في الدنيا ، فيصور الله بقدرته للمؤمن والفاجر ثوابها وعقابها يبشر بهما إكراماً للمؤمن وحسرة على الكافر[2] ، وهذا هو الفرق بين ما ادعوا التماثل فيه ، وهذا الدليل منه رحمه الله إنما هو تفريق بين المختلفات .

أما الإمام ابن جرير الطبري فقد ذكر أن الجهمية المعتزلة أنكروا النزول لأنهم يزعمون أن الهبوط نقلة ، وأنه لا يجوز على الله الانتقال من مكان إلى مكان لأن ذلك من صفات الأجسام المخلوقة[3] .

فوجَّه رحمه الله هذا السؤال للجهمي المعتزلي ، فقال : (فقد قال جل ثناؤه ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[4] فهل يجوز عليه المجيء ؟ فإن قال : لا يجوز ذلك عليه ، وإنما معنى هذا القول : وجاء أمر ربك .

قيل : قد أخبرنا تبارك وتعالى أنه يجيء هو والملك ، فزعمتَ أنه يجيء أمره لا هو ،

---

(١) انظر : مسند أحمد ، ٤/ ٢٨٧ – ٢٨٨ ، والحديث إسناده صحيح ، رجاله رجال الصحيح ، انظر : النسخة المحققة ، ٣٠/٥٠٣ .

(٢) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٥٠٠ – ٥٠٣ .

(٣) انظر : التبصير في معالم الدين ، الطبري ، ١٤٤ .

(٤) الفجر : ٢٢ .

فكذلك تقول : إن الملك لا يجيء ، إنما يجيء أمر الملك لا الملك ، كما كان معنى مجيء الرب تبارك وتعالى مجيء أمره .

فإن قال : لا أقول ذلك في الملك ، ولكني أقول في الرب .

قيل له : فإن الخبر عن مجيء الرب تبارك وتعالى والملك خبر واحد ، فزعمتَ في الخبر عن الرب تعالى ذكره أنه يجيء أمره لا هو ، فزعمتَ في الملك أنه يجيء بنفسه لا أمره، فما الفرق بينك وبين من خالفك في ذلك ، فقال : بل الرب هو الذي يجيء ، فأما الملك فإنما يجيء أمره لا هو بنفسه ؟!!

فإن زعم أن الفرق بينه وبينه : أن الملك خلق لله جائز عليه الزوال والانتقال ، وليس ذلك على الله جائزاً .

قيل له : وما برهانك على أن معنى المجيء والهبوط والنزول هو النقلة والزوال ، ولا سيما على قول من يزعم منكم أن الله تقدست أسماؤه لا يخلو منه مكان .

وكيف لم يجز عندكم أن يكون معنى المجيء والهبوط والنزول بخلاف ما عقلتم من النقلة والزوال من القديم الصانع ، وقد جاز عندكم أن يكون معنى العالم والقادر منه بخلاف ما عقلتم ممن سواه ، بأنه عالم لا علم له ، وقادر لا قدرة له ؟

وإن كنتم لم تعقلوا عالماً إلا له علم ، وقادراً إلا له قدرة ، فما تنكرون أن يكون جائياً[1] لا مجيء له ، وهابطاً لا هبوط له ، ولا نزول له ، ويكون معنى ذلك وجوده هناك مع زعمكم أنه لا يخلو منه مكان !!)[2] فهو رحمه الله يسوي بين المتماثلات ويتساءل عن تفريقهم بينها بلا مبرر .

وقد أوَّل المريسي صفة الإتيان والمجيء في قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾[3] أي إن الله سبحانه يأتي بالقيامة ، ومعنى قوله تعالى ﴿ هَلْ

---

(١) هذه الكلمة مكتوبة في كتاب التبصير هكذا (صائباً) والظاهر والله أعلم أنها خطأ في الطباعة ، والصحيح ما أثبته والله أعلم .

(٢) التبصير في معالم الدين ، الطبري ، ١٤٤ — ١٤٧ .

(٣) الأنعام : ١٥٨ .

يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ (1) أي إن الله سبحانه يأتي بأمره في ظلل من الغمام ولا يأتي هو بنفسه ، وقال أيضاً أن معنى الإتيان كمعنى قول الله تعالى ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ (2) وقوله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ (3)(4).

فقال الإمام الدارمي : (يقال لهذا المريسي قاتلك الله ما أجرأك على الله وعلى كتابه بلا علم ولا بصر : أنبأك الله أنه إتيان ، وتقول ليس إتياناً ، إنما هو مثل قوله ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ (5) ، لقد ميزت بين ما جمع الله ، وجمعت بين ما ميز الله ، ولا يجمع بين هذين في التأويل إلا كل جاهل بالكتاب والسنة ، لأن كل واحد منهما مقرون به في سياق القراءة لا يجهله إلا مثلك .

وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه فوق سمواته ، وأنه لا ينزل قبل يوم القيامة لعقوبة أحد من خلقه ، ولم يشكوا أنه ينزل يوم القيامة ليفصل بين عباده ، ويحاسبهم ويثيبهم ، وتشقق السموات يومئذ لنزوله ، وتنزل الملائكة تنزيلاً ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية ، كما قال الله ورسوله ، فلما لم يشك المسلمون أن الله لا ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة لشيء من أمور الدنيا ، علموا يقيناً أن ما يأتي الناس من العقوبات إنما هو أمره وعذابه ، فقوله ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ (6) يعني مكره من قبل قواعد بنيانهم ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ (7) فتفسير هذا الإتيان خرور السقف من فوقهم .

وقوله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ (8) مكر بهم فقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وهم بنو قريظة ، فتفسير الإتيان مقرون بهما خرور

---

(1) البقرة : ٢١٠ .
(2) النحل : ٢٦ .
(3) الحشر : ٢ .
(4) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٣٣٩ .
(5) النحل : ٢٦ .
(6) النحل : ٢٦ .
(7) النحل : ٢٦ .
(8) الحشر : ٢ .

السقف والرعب ، وتفسير إتيان الله يوم القيامة منصوص في الكتاب مفسر ، قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ، وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [(١)] إلى قوله ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [(٢)] فقد فسر الله تعالى المعنيين تفسيراً لا لبس فيه ، ولا يشتبه على ذي عقل ، فقال فيما يصيب به من العقوبات في الدنيا ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [(٣)] فحين قال ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ عَلِمَ أهل العلم أن أمره من عنده من السماء وهو على عرشه ، فلما قال ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ الآيات التي ذكرنا ، وقال أيضا ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً ﴾ [(٤)] و ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [(٥)] و ﴿ دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [(٦)] عُلِم بما قص الله من الدليل ، وبما حد لنزول الملائكة يومئذ أن هذا إتيان الله بنفسه يوم القيامة ليلي محاسبة خلقه بنفسه ، لا يلي ذلك أحد غيره ، وأن معناه مخالف لمعنى إتيان القواعد ، لاختلاف القضيتين .

ألا ترى أيها المريسي أنه قال ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ [(٧)] ولم يذكر عندها نفخ الصور ، ولا تشقق السماء ، ولا تنزل الملائكة ، ولا حمل العرش ، ولا يوم العرض ، ولكن قال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [(٨)] في دنياهم ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [(٩)] رد الإتيان إلى العذاب ، ففرق بين المعنيين ما فرق بهما

(١) الحاقة : ١٣ — ١٨ .
(٢) الحاقة : ٢٩ .
(٣) يونس : ٢٤ .
(٤) الفرقان : ٢٥ .
(٥) البقرة : ٢١٠ .
(٦) الفجر : ٢١ — ٢٢ .
(٧) النحل : ٢٦ .
(٨) النحل : ٢٦ .
(٩) النحل : ٢٦ .

من الدلائل والتفسير ، وإنما يُصْرَف كل معنى إلى المعنى الذي ينصرف إليه ، ويحتمله في سياق القول ، إلا أن يجد الشيء اليسير في الفرط يجوز في المجاز بأقل المعاني وأبعدها عن العقول ، فيعمد إلى أكثر معاني الأشياء وأغلبها فيصرف المشهورات منها إلى المغمورات المستحالات يغالط بها الجهال ، ويروج عليهم به الضلال ، فيكون ذلك دليلاً منه على الظنة والريبة ، ومخالفة العامة ، والقرآن عربي مبين ، نصرف معانيه إلى أشهر ما تعرفه العرب في لغاتها ، وأعمها عندهم ، فإن تأول متأول مثلك جاهل في شيء منه خصوصاً ، أو صرفه إلى معنى بعيد عن العموم بلا أثر ، فعليه البينة على دعواه وإلا فهو على العموم أبداً كما قال الله تعالى ، وقد كفانا رسول الله ﷺ وأصحابه تفسير هذا الإتيان ، حتى لا يحتاج له منك إلى تفسير ، ولو لم يأت عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه فيه أثر لم تكن ممن يعتمد على تفسيرك لما أنك فيه ظنين غير أمين)[(١)] .

وقال أيضاً : (ويلك ، أيأتي الله بالقيامة ويتغيب هو نفسه ؟ فمن يحاسب الناس يومئذ ؟ لقد خشيت على من ذهب مذهبك هذا ، وأستيقنُ أنه لا يؤمن بيوم الحساب)[(٢)] .

وهكذا فإنا نرى من خلال شبه المبتدعة العقلية والردود العقلية من قِبَل أهل السنة عليها ، أن أدلة المبتدعة واهية مفككة ليس لها أصل ثابت تستقر عليه لذلك تراه يقرر لنفسه أصلاً ما ثم ما يلبث أن يناقض هذا الأصل لضعفه وهشاشته ، على العكس تماماً من أدلة أهل السنة وردودهم فهي قوية ثابتة لأن أصلها ثابت قوي وهو القرآن والسنة ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾[(٣)] .

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/ ٣٤٠ – ٣٤٥ .
(٢) المصدر السابق ، ١/٣٥٣ .
(٣) إبراهيم : ٢٤ – ٢٦ .

المطلب الرابع

إثبات صفة الضحك

أثبت أهل السنة صفة الضحك لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، بلا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، وقد ثبتت هذه الصفة لله سبحانه وتعالى عن طريق السنة حيث قال رسول الله ﷺ : ((ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه))(١) .

ولكن الجهمية شبهوا ثم عطلوا وحرفوا ، فقال أحدهم أن ضحك الرب إنما هو رضاه ورحمته وصفحه عن الذنوب ، وشبهوا ضحك الله بضحك الزرع(٢) .

فبيَّن الإمام الدارمي رحمه الله أن هذا إنما هو كذب من الجهمية ، وأن هذا الذي يقوله الجهمي إنما هو التشبيه الذي ادعوا الفرار منه ، فشبهوا ضحك الله عز وجل بضحك الزرع ، وضحك الزرع ليس بضحك إنما هو خضرته ونضارته(٣) ، فجعل ذلك مثلاً للضحك ، وكيف يشبه ضحك الله الحي القيوم الفعال لما يشاء ذي الوجه الكريم ، والسمع السميع ، والبصر البصير ، بضحك الزرع الميت الذي لا ضحك له ولا قدرة ولا يقدر على الضحك ؟!! وإنما ضحكه يمثل ، وضحك الله ليس يمثل(٤) .

والزرع إنما يضحك لكل أحد ما دام أخضر سواء كان ذلك للعدو أو الولي ولمن يسقيه ولمن يحصده لا يقصد بضحكه إلى شيء ، والله يقصد بضحكه سبحانه إلى أوليائه عندما يعجبه فعالهم ، ويصرفه عن أعدائه فيما يسخطه من أفعالهم ، فالزرع يضحك على المجاز ، والله سبحانه يضحك على الحقيقة كما يشاء(٥) .

---

(١) رواه ابن ماجة ، المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ، رقم الحديث ٢٨١ ، وصححه الألباني ، انظر صحيح سنن ابن ماجة ، ١ /٧٨ .

(٢) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٢/٧٧١ .

(٣) قال ابن منظور : (ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرتها) ، انظر : لسان العرب ، ١٠/٤٥٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ٢/ ٧٧١ — ٧٧٢ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ٢/ ٧٧٢ — ٧٧٣ .

واستدل الدارمي رحمه الله بحديث عبدالله بن مسعود ﷺ في آخر رجل يدخل إلى الجنة حيث قال الرسول ﷺ في هذا الحديث : ((من ضحك رب العالمين منه))[1] قال : (أفلا تسمع أيها المعارض من قول رسول الله ﷺ : ((من ضحك رب العالمين منه)) أنه لا يشبه ضحك الزرع ، لأنه يقال للزرع : يضحك ، ولا يقال : يضحك من أحد ، وإنا لم نجهل مجاز هذا في العربية ، ولكنه على خلاف ما ذهبت إليه ، فقد سمعنا قول الأعشى وفهمنا معناه ، وهو من معنى ضحك الرب بعيد ، إذ يقول :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل[2]

فالزرع ما دام أخضر فهو مضاحك الشمس أبداً ، لا يخص بضحكه أحداً ولا يصرفه عن أحد ، والله يضحك إلى قوم ويصرفه عن آخرين)[3] .

واستدل أيضاً بحديث أبي رزين العقيلي ﷺ الذي قال فيه : (أو يضحك الرب)[4] ، وهذا الحديث كان المعارض الجهمي قد استدل به على الضحك ليأوله ، فقال الدارمي : (ولو كان تفسير الضحك الرضى والرحمة والصفح من الذنوب فقط ، كان أبو رزين في دعواك إذاً جاهلاً لا يعلم أن ربه يرحم ويرضى ويغفر الذنوب ، حتى يسأل رسول الله ﷺ : أيرحم ربنا ويغفر ويصفح عن الذنوب ؟ بل هو كافر في دعواك ، إذ لم يعرف الله بالرضى والرحمة والمغفرة ، وقد قرأ القرآن وسمع ما ذكر الله فيه من رحمته ومغفرته وصفحه عن الذنوب ، ما كان له فيه مندوحة عن رسول الله ﷺ أيغفر ربنا ويرحم ؟ إنما سأله عما لا يعلم لا عما علم وآمن به قبل ، وقرأ القرآن فوجد فيه ذكره ، ولم يجد فيه ذكر الضحك .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجاً منها ، رقم الحديث ٣١٠ .

(٢) ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) ، ١٠٧ ، شرح : محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٣) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٢/ ٧٧٥ — ٧٧٧ .

(٤) سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

فلما أخبره النبي ﷺ أنه يضحك قال : (لا نعدم من رب يضحك خيراً) ولو كان على تأويلك لاستحال أن يقول أبو رزين للنبي ﷺ : (لا نعدم من رب يرحم ويرضى ويغفر خيراً ، لما أنه قد آمن وقرأ قبل في كتابه أنه ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فاعقله ، وما أراك تعقله)[١] .

ثم أن الجهمي المعارض فسر الضحك تفسيراً آخر ، فقال أنه يحتمل أن يكون ضحكه أن يبدو له خلق من خلق الله ضاحكاً يأتيهم مبشراً ومغيثاً ودليلاً إلى الجنة[٢] .

فرد الدارمي على هذا التأويل الفاسد ، فقال : (ويحك أيها المعارض ! ألا تسمع ما في حديثك الذي رويته وثبته عن أبي رزين ، قال : (أيضحك ربنا ؟) قال : ((نعم)) ولم يقل : أيخلق الله خلقاً يضحك ، ثم قال : (لا نعدم من رب يضحك خيراً) ولم يقل : لا نعدم من رب يخلق الضاحك ، فهذا في نفس حديثك لو قد عقلته ، وأنى لك العقل مع هذا التخليط ؟)[٣] .

ثم غيَّر الجهمي تأويله فقال إن ضحك الله بمعنى أنه يُضْحِكُ الرجلَ ويُسِرُه ، أي يدخل عليه السرور ، وإنما سمي ذلك بضحك الله تعالى على النسبة ، يعني أن الخلق وضحكهم وكلامهم لله[٤] .

والدارمي رحمه الله ردَّ على هذا أيضاً بحديث أبي رزين ﷺ الذي رواه هذا المعارض الجهمي ، فقد قال أبو رزين : (أيضحك الرب ؟) ولم يقل : أيُضْحِكُ ربنا ؟ ولو قال كذلك لكان جاهلاً إذ سأل رسول الله ﷺ : أيُضْحِكُ الرب الخلق ؟ وقد قرأ في كتاب الله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾[٥][٦] .

وردود الدارمي هذه كلها تعتبر من باب (رد كلام الخصم من فحوى كلامه) وهو

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٢/ ٧٧٩ – ٧٨٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ٢/٧٨٠ .
(٣) المصدر السابق ، ٢/٧٨١ .
(٤) انظر : المصدر السابق ، ٢/٧٨١ .
(٥) النجم : ٤٣ .
(٦) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٢/٧٨٢ .

دليل عقلي يطلق عليه اسم (القول بالموجب) .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقد أثبت عن طريق العقل أن صفة الضحك لله سبحانه وتعالى إنما هي صفة كمال تثبت لله على الوجه اللائق به سبحانه ، وذلك في معرض رده على الأشاعرة عندما احتجوا على النفي بأن الضحك إنما هو خفة روح ، فقال رحمه الله : (وقول القائل : (إن الضحك خفة روح) ليس بصحيح ، وإن كان ذلك قد يقارنه .

ثم قول القائل : (خفة الروح) إن أراد به وصفاً مذموماً فهذا يكون لما لا ينبغي أن يضحك منه ، وإلا فالضحك في موضعه المناسب له صفة مدح وكمال ، وإذا قُدِّرَ حيَّان أحدهما يضحك مما يضحك منه ، والآخر لا يضحك قط ، كان الأول أكمل من الثاني.

ولهذا قال النبي ﷺ : ((ينظر إليكم الرب قنطين فيظل يضحك ، يعلم أن فرجكم قريب)) فقال له أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ! أو يضحك الرب ؟! قال : ((نعم)) قال : (لن نعدم من رب يضحك خيراً) فجعل الأعرابي - بصحة فطرته - ضحكه دليلاً على إحسانه وإنعامه ، فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود ، وأنه من صفات الكمال ، والشخص العبوس الذي لا يضحك قط هو مذموم بذلك ، وقد قيل في اليوم الشديد العذاب : إنه ﴿ يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ (١) . . .

والإنسان حيوان ناطق ضاحك ، وما يميز الإنسان عن البهيمة صفة كمال ، فكما أن النطق صفة كمال فكذلك الضحك صفة كمال ، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يضحك أكمل ممن لا يضحك ، وإذا كان الضحك فينا مستلزماً لشيء من النقص فالله منزه عن ذلك ، . . . فليس حقيقة الضحك مطلقاً مقرونة بالنقص ، كما أن ذواتنا وصفاتنا مقرونة بالنقص ، ووجودنا مقرون بالنقص ، ولا يلزم أن يكون الرب موجَداً وأن لا تكون له ذات) (٢) .

(١) الإنسان : ١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/ ١٢١ – ١٢٢ .

فشيخ الإسلام رحمه الله يرى أن الضحك صفة كمال لأنه لا يأتي إلا بالخير كما فهم ذلك الصحابي الجليل أبو رزين العقيلي ، وهذا هو قياس الأولى الذي يفيد بأن كل صفة كمال اتصف بها المخلوق ليس فيها نقص بوجه من الوجوه فالله أولى بها ، وأن كل صفة نقص تَنَزَّه عنها المخلوق فالله سبحانه أولى أن ينزه عنها[1] .

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ١/ ٧٨ – ٨٨ .

المطلب الخامس

إثبات صفة القرب

أثبت أهل السنة صفة القرب لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وقرب الله سبحانه وتعالى لا يكون إلا لعباده المؤمنين الصالحين فالقرب معية خاصة للمؤمنين ، وكلما ازداد العبد تقرباً إلى الله بفعل الطاعات ازداد قرب الله سبحانه وتعالى منه .

وأهل السنة يقولون أن صفة القرب صفة ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار آخر ، فالقرب من لوازم ذات الله سبحانه وتعالى فهو قريب بعلمه وقدرته وتدبيره لجميع خلقه سبحانه لم يزل بهم عالماً ولم يزل عليهم قادراً ، أما قربه بنفسه من مخلوقاته قرباً لازماً في وقت دون وقت فهو من الصفات الفعلية لله عز وجل والحديث سيكون عنها في هذا المطلب[1] .

وقد أنكر الجهمية هذه الصفة ونفوها عن الله سبحانه وتعالى ثم أوَّلوها ، فقالوا عن أثر عبدالله بن مسعود ﷺ الذي يقول فيه : (إن الرب يبدو لأهل الجنة في كل جمعة على كثيب من كافور فيكونون منه في القرب على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا)[2] فقال

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٣/٦ .

(٢) رواه عبدالله بن أحمد بن حنبل في (السنة) ٢٥٩/١ ، رقم الحديث ٤٧٦ ، وابن خزيمة في (كتاب التوحيد) ٨٩٣/٢ ، رقم الحديث ٦٠٢ ، والطبراني في (المعجم الكبير) ٢٣٨/٩ ، رقم الحديث ٩١٦٩ ، ت حمدي السلفي ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م . والدار قطني في (رؤية الله) ١٤١ ، رقم الحديث ١٨٠ ، ت مبروك إسماعيل مبروك ، مكتبة القرآن ، القاهرة . وابن بطة في (الإبانة الكبرى) ٤٣/٣ ، رقم الحديث ٣١ ، وشيخ الإسلام أيد صحة هذا الحديث فقال : (وهذا الذي أخبر به ابن مسعود أمر لا يعرفه إلا نبي أو من أخذه عن نبي ، فيعلم بذلك أن ابن مسعود أخذه عن النبي ﷺ ، ولا يجوز أن يكون أخذه عن أهل الكتاب ، لوجوه :

أحدها : أن الصحابة قد نهوا عن تصديق أهل الكتاب فيما يخبرونهم به ، فمن المحال أن يحدث ابن مسعود رضي الله عنه بما أخبر به اليهود على سبيل التعليم ويبني عليه حكماً .

الثاني : أن ابن مسعود رضي الله عنه خصوصاً كان من أشد الصحابة رضي الله عنهم إنكاراً لمن يأخذ من أحاديث أهل الكتاب .

الثالث : إن الجمعة لم تشرع إلا لنا ، والتبكير فيها ليس إلا في شريعتنا ، فيبعد مثل أخذ هذا عن الأنبياء المتقدمين ، ويبعد أن اليهودي يحدث بمثل هذه الفضيلة لهذه الأمة ، وهم الموصوفون بكتمان العلم والبخل به وحسد هذه الأمة) . مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٤٠٥/٦ ، ورواه الذهبي أيضاً في (العلو) ٥٨٥/١ ، رقم الحديث ١٤٣ وقال : (موقوف حسن) .

الجهمي أن تفسير هذا أن يبدو لهم بظهور الدلالات وبذل الكرامات لأوليائه فيظهر بما فعل دلالاته وعلاماته لا هو بنفسه[1] .

فقال الدارمي في الرد على ذلك : (بئسما أَثْبَتَّ على أولياء الله أنهم لم يعرفوا الله بدلالاته وعلاماته وبرسالات نبيه ، وما أنزل في كتبه في الدنيا قبل مقامهم حتى يعرفوه بها في الآخرة ، إذ ماتوا كفاراً في دعواك ، جهالاً بالله وبدلالاته ، فإن كانوا كذلك في دعواك لم يكونوا إذاً أولياء الله ، إذ لم يموتوا على حقيقة معرفة الله تعالى ولا استحقوا الكرامات من الله ، ولم يكونوا أهلاً في دعواك أن يبدو لهم في كثيب من كافور ، بل يحتجب عنهم، إذ لم يعرفوه بدلالاته وعلاماته ورسالات نبيه ، إلا يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، إذ كل كافر ومنافق يعرفه يومئذ بدلالاته وعلاماته ، فما فضل المؤمن عندك في هذا على الكافر ؟)[2] .

ثم فسر الجهمي قول عبدالله بن مسعود ﷺ : (إنهم يكونون في القرب منه على قدر تسارعهم إلى الجمعة) إن ذلك تقرب إليه بالعمل الصالح ، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي ((من تقرب إليَّ شبراً تقربت منه ذراعاً))[3] فنقض الدارمي هذا القول بأن هذا إنما يكون في الدنيا لا في الآخرة يوم ترفع الأعمال عن العباد[4] .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقد ذكر أن قوماً من المعطلة قالوا أن القرب ليس حقيقياً ، إنما هو قرب إلى ثوابه وإحسانه[5] .

فبيَّن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن هذا التأويل غير صحيح وذلك أن ثوابه وإحسانه يصل إلى عباده المؤمنين ويصلون إليه ، ويباشرهم ويباشرونه بدخوله فيهم ودخولهم فيه بالأكل واللباس ، فإذا كانوا يكونون في نفس جنته ونعيمه وثوابه كيف

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧٤٥/٢ .
(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٧٤٥ – ٧٤٦ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ((ويحذركم الله نفسه)) ، رقم الحديث ٧٤٠٥ .
(٤) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٧٤٦/٢ .
(٥) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٢/٦ .

يجعل أعظم الغايات قربهم من إحسانه ؟! ولا سيما والمقربون هم فوق أصحاب اليمين الأبرار ، الذين كتابهم في عليين ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ، إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ، خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ، وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾[١].

وقال ابن عباس : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً[٢] .

فقد أخبر أن الأبرار في نفس النعيم ، وإنهم يسقون من الشراب الذي وصفه الله تعالى ، ويجلسون على الأرائك ينظرون ، فكيف يقال أن المقربين – الذين هم أعلا من هؤلاء بحيث يشربون صرفها ويمزج لهؤلاء مزجاً – إنما تقريبهم هو مجرد النعيم الذي أولئك فيه ؟ هذا مما يعلم فساده بأدنى تأمل[٣] .

وهو رحمه الله يفرق بين المختلفات التي سوَّى المخالف بينها بلازم كلامه وشبهته وتأويله الفاسد .

---

(١) المطففين : ١٩ – ٢٨ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، ٤/٤٨٨ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/ ١٢ – ١٣ .

المطلب السادس

إثبات صفات الرضا والغضب والمحبة والبغض لله سبحانه

أثبت أهل السنة والجماعة الرضا والغضب والمحبة والبغض لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف .

أما الجهمية فقد عارضوا في هذه الصفات بالإنكار والتأويل ، وقالوا أن الله سبحانه لا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا يسخط ولا يكره في نفسه ولا هذه الصفات من ذاته على اختلاف معانيها ، ولكن تفسير حبه ورضاه بزعمهم ما يصيب الناس من العافية والسلامة والخصب والدعة ، وغضبه وسخطه بزعمهم ما يقعون فيه من البلاء والهلكة والضيق والشدة ، فإنما آية غضبه ورضاه وسخطه عندهم ما يتقلب فيه الناس من هذه الحالات وما أشبهها لا أن الله يحب ويبغض ويرضى ويسخط حالاً بعد حال في نفسه[1] .

فردَّ الدارمي رحمه الله على هذا التأويل الفاسد بأن هذه دعوى باطلة وبعيدة تمام البعد من لغات العرب والعجم ، لأنها تستلزم أن يكون أولياء الله المؤمنون من رسله وأنبيائه وسائر أوليائه إذا أتت عليهم حالات ضيق وشدة وعوز من المأكل والمشرب ، وخوف وبلاء ، كانوا في دعواكم في سخط من الله وغضب وعقاب ، وإذا كان الكافر في خصب ودعة وأمن وعافية ، واتسعت عليه دنياه من مأكل الحرام وشرب الخمور كانوا في رضى من الله وفي محبة[2] .

هذا وقد ذكر الإمام ابن قتيبة رحمه الله شبهة للجهمية في إنكار صفة الخلة ، وهي أنهم قالوا أن الخلة هي الصداقة ، فادعوا تنزيه الله عن هذه الصفة ، وقالوا أن معنى قوله

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ٨٦٦/٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ٨٦٧/٢ .

تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [1] أي اتخذه فقيراً إليه ، وجعلوا كلمة الخلة بفتح الخاء أي (الخَلّة) ، فرد عليهم الإمام ابن قتيبة بقوله : (فقبحاً لهذه العقول وهذا النظر أما سمعوا ويحهم بإجماع الناس جميعاً على أن الخلة بضم الخاء لإبراهيم وعلى أن موسى كليم الله ، وإبراهيم خليل الله ، وعيسى روح الله ، فإن كان معنى خليل الله : الفقير إلى الله ، فأي فضيلة لإبراهيم في هذا القول إذ كان الناس جميعاً فقراء إلى الله) [2] .

وذكر أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله تعالى أن الأشاعرة فسروا المحبة والرضا بالإرادة بحجة أن المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحاً ولذة وسروراً ، وكذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغِض والمبغَض ، وذلك يقتضي للمبغِض بدرك المبغَض أذى وبغضاً ونحو ذلك ، والملاءمة والمنافرة تقتضي الحاجة ، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه ، وما لا يضره كيف يبغضه ؟ والله غني لا تجوز عليه الحاجة ، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه وهو غني عن العالمين ، وقد قال تعالى في الحديث القدسي ((يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)) [3] فلهذا فُسِّرَت المحبة والرضا بالإرادة إذ يفعل النفع والضر [4] .

فبيَّن رحمه الله أن الجواب على هذه الشبهة من وجهين :

(**أحدهما :** الإلزام وهو أن نقول : الإرادة لا تكون إلا للمناسبة بين المريد والمراد ، وملاءمته في ذلك تقتضي الحاجة ، وإلا فما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده ، ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار لا يكون إلا لنفرة وبغض ، وإلا فما لم يتألم به الحي أصلاً لا يكرهه ولا يدفعه ، وكذلك نفس نفع الغير وضرره هو في الحي متنافر من الحاجة فإن الواحد منا إنما يحسن إلى غيره لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، وإنما يضر غيره لجلب

(١) النساء : ١٢٥ .
(٢) الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٤٩ — ٥٠ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، ٢٥٧٧ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣٥٨/١١ .

منفعة أو دفع مضرة ، فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه لم يكن إثبات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس ، ولو عكس عاكس فنفي ما أثبته من الإرادة وأثبت ما نفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينهما فرق ، وحينئذ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم وأن ذلك يستلزم الإرادة ، وإما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص ، وحينئذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور فأحد الأمرين لازم : إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لزم فليس بمحذور .

الجواب الثاني : أن الذي يُعْلَم قطعاً هو أن الله قديم واجب : الوجود كامل ، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص ، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر ، فإن الله غني واجب بنفسه ، وقد عُرِفَ أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته . وأن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفتقر إلى ذاته ، ومعلوم أنه غني بنفسه، وأنه واجب الوجود بنفسه ، وأنه موجود بنفسه ، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه ، إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق ، فإن الله غني عن العالمين وعن خلقه ، وهو غني بنفسه)[(1)] .

ومن شبه الأشاعرة في النفي لهذه الصفات وغيرها قولهم أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التشبيه والتركيب والتجسيم ، فقال شيخ الإسلام رحمه في تفنيده لهذه الشبهة : (ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم واجب بنفسه ، يمتنع عليه العدم ، فإن الموجود : إما ممكن ومحدث ، وإما واجب وقديم ، والممكن المحدث لا يوجد إلاَّ بواجب قديم ، فإذا كان ما يُسْتَدَل به على نفي الصفات الثابتة يستلزم نفي الموجود الواجب القديم ، ونفي ذلك يستلزم نفي الموجود مطلقاً ، عُلِمَ أن من عطل شيئاً من الصفات الثابتة بمثل هذا الدليل – التشبيه والتركيب والتجسيم - كان قوله مستلزماً تعطيل الموجود

---

(1) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١١ / ٣٥٨ – ٣٥٩ .

المشهود .

ومثال ذلك : أنه إذا قال : النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل النزول والاستواء إلاّ لجسم مركب ، والله سبحانه منزه عن هذه اللوازم ، فيلزم تنزيهه عن الملزوم ، أو قال : هذه حادثة ، والحوادث لا تقوم إلاّ بجسم مركب ، وكذلك إذا قال : الرضا والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الأجسام .

فإنه يقال له : وكذلك الإرادة ، والسمع ، والبصر ، والعلم والقدرة : من صفات الأجسام ، فإنا كما لا نعقل ما ينزل ، ويستوي ويغضب ويرضى إلاّ جسماً ، لم نعقل ما يسمع ويبصر ويريد ويعلم ويقدر إلاّ جسماً .

فإذا قيل : سمعه ليس كسمعنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وإرادته ليست كإرادتنا ، وكذلك علمه وقدرته .

قيل له : وكذلك رضاه ليس كرضانا ، وغضبه ليس كغضبنا ، وفرحه ليس كفرحنا، ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا .

فإذا قال : لا يعقل في الشاهد غضب إلاّ غليان دم القلب لطلب الانتقام ولا يعقل نزول إلاّ الانتقال ، والانتقال يقتضي تفريغ حيز وشغل آخر ، فلو كان ينزل ، لم يبق فوق العرش ربٌّ .

قيل : ولا يعقل في الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه وينفعه ، ويفتقر فيه إلى ما سواه ودفع ما يضره ، والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه المقدسة في حديثه الإلهي ((يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني)) فهو منزه عن الإرادة التي لا يعقل في الشاهد إلاّ هي)[1] .

ومن الملاحظ أن أدلته العقلية رحمه الله في الرد على الأشاعرة كانت بالأصل الذي يقول (القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر) وهو أيضاً من قبيل إلزام الخصم بنفس حجته .

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/ ٣٥٢ — ٣٥٣ .

وقد فصَّل رحمه الله القول في الرد على قولهم بأن الغضب إنما هو غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فقال : (وأما قول القائل : (الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام) فليس بصحيح في حقنا ، بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده فلا يكون هناك انتقام أصلاً).

وأيضاً : فغليان دم القلب يقارنه الغضب ، ليس أن مجرد الغضب هو غليان دم القلب ، كما أن الحياء يقارن حمرة الوجه ، والوجل يقارن صفرة ، لا أنه هو ، وهذا لأن النفس إذا قام بها دفع المؤذي فإن استشعرت القدرة فاض الدم إلى خارج فكان منه الغضب ، وإن استشعرت العجز عاد الدم إلى داخل ، فاصفر الوجه كما يصيب الحزين .

وأيضاً : فلو قدر أن هذا هو حقيقة غضبنا لم يلزم أن يكون غضب الله تعالى مثل غضبنا ، كما أن حقيقة ذات الله ليست مثل ذاتنا ، فليس هو مماثلاً لنا : لا لذاتنا ، ولا لأرواحنا ، وصفاته كذاته .

ونحن نعلم بالاضطرار إنا إذا قدرنا موجودين : أحدهما عنده قوة يدفع بها الفساد ، والآخر لا فرق عنده بين الصلاح والفساد كان الذي عنده تلك القوة أكمل .

ولهذا يذم من لا غيرة له على الفواحش كالديوث ، ويذم من لا حمية له يدفع بها الظلم عن المظلومين ، ويمدح الذي له غيرة يدفع بها الفواحش ، وحمية يدفع بها الظلم، ويعلم أن هذا أكمل من ذلك .

ولهذا وصف النبي ﷺالرب بالأكملية في ذلك ، فقال في الحديث الصحيح : ((ليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن))[1] ، وقال : ((أتعجبون من غيرة سعد ؟ أنا أغير منه ، والله أغير مني))[2] .

وقول القائل : أن هذه انفعالات نفسانية .

فيقال : كل ما سوى الله مخلوق منفعل ، ونحن وذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا

(١) رواه البخاري ، كتاب النكاح ، باب الغيرة ، رقم الحديث ٥٢٢٠ .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله ، رقم الحديث ٦٨٤٦ .

لغيرنا نعجز عن دفعها ، لا يوجب أن يكون الله منفعلاً لها عاجزاً عن دفعها ، وكان كل ما يجري في الوجود ، فإنه بمشيئته وقدرته لا يكون إلا ما يشاء ، ولا يشاء إلا ما يكون ، له الملك وله الحمد)[1] .

وهو يستدل رحمه الله بقياس الأولى وهو كل كمال ثبت للمخلوق ليس فيه نقص بأي وجه من الوجوه فالله سبحانه أولى به ، وكل نقص ينزه عنه المخلوق فالله سبحانه أولى أن ينزه عنه[2] .

ثم إنه رحمه الله أثبت صفة المحبة والبغض بطريق العقل فقال : (وكذلك إذا قُدِّر (اثنان) أحدهما يحب نعوت الكمال ويفرح بها ويرضاها ، والآخر لا فرق عنده بين صفات الكمال وصفات النقص ، فلا يحب لا هذا ولا هذا ، ولا يرضى لا هذا ولا هذا ، ولا يفرح لا بهذا ولا بهذا ، كان الأول أكمل من الثاني .

ومعلوم أن الله تبارك وتعالى يحب المحسنين ، والمتقين ، والصابرين ، والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهذه كلها صفات كمال .

وكذلك إذا قُدِّر اثنان أحدهما يبغض المتصف بضد الكمال ، كالظلم والجهل والكذب ، ويغضب على من يفعل ذلك ، والآخر لا فرق عنده بين الجاهل الكاذب الظالم وبين العالم الصادق العادل ، لا يبغض لا هذا ولا هذا ، ولا يغضب لا على هذا ولا على هذا ، كان الأول أكمل)[3] .

وكذلك ردَّ على قولهم بأن المحبة مناسبة بين المحب والمحبوب ومناسبة الرب للخلق نقص ، فقال : (وقول القائل : (المناسبة) لفظ مجمل ، فإنه قد يراد بها التولد والقرابة ، فيقال : هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة إلى الولادة والآدمية ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، ويراد بها المماثلة فيقال : هذا يناسب هذا : أي يماثله ، والله سبحانه وتعالى أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ويراد بها

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/ ١١٩ — ١٢٠ .
(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، ١/ ٨٧ — ٨٨ .
(٣) المصدر السابق ، ٩٢/٦ .

الموافقة في معنى من المعاني ، وضدها المخالفة .

و(المناسبة) بهذا الاعتبار ثابتة ، فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه ، وفيما يحبه فيحبونه ، وفيما نهى عنه فيتركونه ، وفيما يعطيه فيصيبونه ، والله وتر يحب الوتر[1] ، جميل يحب الجمال[2] ، عليم يحب العلم ، نظيف يحب النظافة[3] ، محسن يحب المحسنين ، مقسط يحب المقسطين ، إلى غير ذلك من المعاني ، بل هو سبحانه يفرح[4] بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد اليأس ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته ، كما ثبت ذلك في الصحاح عن النبي ﷺ[5] .

فإذا أريد (بالمناسبة) هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق ، وهي من صفات الكمال تقدمت الإشارة إليه ، فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال ، أو لا يحب صفات الكمال .

وإذا قدر موجودان : أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك ، والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور ، وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك ، لا يحب هذا ولا يبغض هذا ، كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا)[6] .

ونجد ابن القيم رحمه الله تعالى يستند إلى الأدلة العقلية في إثبات هذه الصفات لمن هم في حاجة لذلك فيبين أن هذه الصفات لا تستلزم نقصاً لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته بل هي كمال لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه ، وكلما كان العلم بحاله أهم كانت كراهته وبغضه أقوى ، ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، رقم الحديث ٦٤٠٩ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، رقم الحديث ٩١ .

(٣) رواه الترمذي ، كتاب الأدب ، باب ما جاء في النظافة ، رقم ٢٧٩٩ ، ضعفه الألباني ، انظر : ضعيف سنن الترمذي ، الألباني ، ٣١٣ — ٣١٤ .

(٤) رواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها ، رقم الحديث ٢٦٧٥ .

(٥) رواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها ، رقم الحديث ٢٦٧٥ .

(٦) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٦/ ١١٤ — ١١٥ .

قال ابن تيمية رحمه الله في التعليق على هذا الدليل الأخير (السبر والتقسيم) : (فقد بيَّن الإمام أحمد ما هو معلوم بالعقل الصريح والفطرة البديهية ، من أنه لا بد أن يكون خلق الخلق داخلاً في نفسه أو خارجاً عنه ، وأنه إذا كان خارجاً عن نفسه فإما أن يكون حل فيه بعد ذلك ، أو لم يزل مبايناً ، فذكر الأقسام الثلاثة)[(١)] .

ونلاحظ في هذا المطلب والذي قبله التداخل بينهما في مسألة الردود والأدلة ، لأن الجهمية لم يثبتوا المعية بهذه الصورة إلا لكي ينفوا صفة العلو عن الله سبحانه وتعالى .

أما الإمام الدارمي رحمه الله فقد كان رده عليهم بالجمع بين الآيات التي تثبت المعية والتي تثبت علو الله سبحانه فخرج من هذا الجمع بأن معية الله لعباده معية علم لا معية ذات[(٢)] .

وهذا ما غفل عنه الجهمية الذين ادعوا إعمال العقل مع أنهم أبعد الناس عن استعماله ، فالجهمية الجهال بمعاني الكتاب والسنة ، وأهل السنة هم أفضل الناس في استخدام العقل ، فهم مع اتباعهم للكتاب والسنة كان لهم فهماً صائباً عن طريق الجمع بين الآيات والأحاديث وعدم إغفال شيءٍ منها ، وقد ساعدهم على ذلك سعة علمهم ودقة فهمهم للكتاب والسنة .

فمن مميزات أهل السنة والجماعة (جمعهم بين النصوص في المسألة الواحدة وردهم المتشابه إلى المحكم)[(٣)] .

ومن حجج الجهمية في إثبات صفة المعية الذاتية قولهم : ما نعرف إلهاً غير هذا الذي في كل مكان فإذا باد شيء صار مكانه[(٤)] .

فقال الدارمي : (فنظرنا في صفة معبودهم هذا ، فلم نجد بهذه الصفة شيئاً غير هذا

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥/٣١٣ .
(٢) انظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ٤٣ — ٤٤ .
(٣) الوجيز في عقيدة أهل السنة ، عبدالله عبدالحميد الأثري ، ٣١ ، مكتبة الغرباء ، الدار الأثرية ، اسطنبول - تركيا ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
(٤) انظر : الرد على الجهمية ، الدارمي ، ١٣٥ .

وإن أردتم الثاني استفصلناكم عن مرادكم فإن فسرتموه بما يمتنع وصفه به قابلناه بالإنكار والرد وإن فسرتموه بما وصف به نفسه قبلناه وإن فسرتموه بأمر مجمل محتمل استفصلناه فقبلنا حقه ورددنا باطله)[1] .

وقال أيضاً : (فما مقصودكم من نفي الشهوة والنفرة واللذة والألم عنه ، إن عنيتم به ما هو من خصائص المخلوقين فلا ريب في انتفائه عنه سبحانه لأن كماله المقدس ينفيه ، فإثباته نقص وعيب وأنتم قد اعترفتم أنه لم يقم دليل عقلي على تنزيهه عن العيوب والنقائص وإنما استندتم فيه إلى الإجماع واعترفتم بأن دلالته ظنية وهذا موجود في إرشادكم[2] ونهايتكم[3] وغيرها ، ونحن نقرر نفي ذلك بالأدلة القطعية والبراهين اليقينية فإنه سبحانه لا يجوز أن يماثل خلقه في شيء من صفاتهم وأفعالهم فهو منزه عن أن يطلب ما يقبح طلبه أو يريد ما لا يحسن إرادته أو يطلب ويكره ويحب ما لا يصلح طلبه وكراهته ومحبته إلا للمخلوق ، وكل ما ينزه سبحانه عنه من العيوب والنقائص فهو داخل فيما نزه نفسه عنه وفيما يسبح به ويقدس ويحمد ويمجد ، وداخل في معاني أسمائه الحسنى وبذلك كانت حسنى أي أحسن من غيرها فهي أفعل تفضيل معرفة باللام أي لا أحسن منها بوجه من الوجوه ، بل لها الحسن الكامل التام المطلق وأسماؤه الحسنى وآياته البينات متضمنة لذلك ناطقة به صريحة فيه وإن ألحد فيها الملحدون وزاغ عنها الزائغون)[4] .

وقال : (إن قال – النافي – : أعني بذلك ما هو أعم من شهوة الحيوان وألمه ولذته ونفرته قيل لـه : الشهوة والنفرة جنسهما الحب والبغض فكل مشته لشيء فهو محب لـه ، وكل نافر عن شيء فهو مبغض لـه ، وإن كان في المحبة والبغض ما لا يسمى في لغة القوم شهوة ونفرة ، كمحبتنا لله ورسوله ، وإذا كان كذلك فمعلوم أن الله سبحانه قد وصف نفسه بالمحبة والبغض في غير موضع من كتابه وسنة رسوله ، وهو موصوف بالإرادة والكراهة المتضمنة للحب والبغض ، والشهوة والنفرة أيضا تتضمن معنى الإرادة

---

(١) المصدر السابق ، ٤/١٤٤٠ .

(٢) يعني كتاب (الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد) للجويني .

(٣) يعني كتاب (نهاية العقول ودراية الأصول) للفخر الرازي .

(٤) الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، ٤/ ١٤٤٢ – ١٤٤٣ .

والكراهة فإن المشتهي فيه نوع إرادة والنافر فيه نوع كراهة ، والإرادة والكراهة من لوازم الحياة ، فكل حي مريد كاره ، والشهوة والنفرة من لوازم الحيوان ، فإنه يشتهي ما يتضمن بقاء ذاته ويلائمه وينفر من ضد ذلك .

وهذه الأسماء قد تتنوع إما بحسب صفاتها في أنفسها ، وإما بحسب متعلقها وهو المحبوب المكروه ، لما في لغة العرب من التفريق بين اللفظين لأدنى فرق بين المعنيين ، لقوة التمييز في عقولهم وألسنتهم ، بخلاف الأمم الذين يضعف فيهم التمييز فإنهم يغلب عليهم الاقتصار على القدر المشترك في العقل واللسان ، وثبوت تلك الفروق اللفظية في المعاني والألفاظ لا يمنع ثبوت القدر المشترك بينها ، والذي تدركه سائر الأمم ، فيجب إثبات القدر المشترك والقدر المميز .

وإذا كان بين الشهوة والمحبة والإرادة والرضى والفرح قدر مشترك وبين النفرة والبغض والكراهة والسخط ونحوها قدر مشترك ، فمن نفى مسمى أحد هذه الألفاظ فإن عنى به نفي جميع مسماه لزم نفي القدر المشترك الثابت في البواقي ، وإن نفى ما يختص به مما هو من خصائص المخلوقين فقد أصاب ، والله سبحانه منزه في جميع ذلك إن أُثْبِتَ له وإن نُفِيَ عنه شيء من ذلك مما هو مختص به لأجل ما يظنه مستلزماً لنقص فذلك لازم له في جميع ما يوصف به فإنه سبحانه إنما يوصف من كل نوع بأكمل ذلك النوع على وجه لا يستلزم نقصا ولا تمثيلاً) [(١)] .

فهذه بعض الأدلة العقلية لأهل السنة في إثبات الصفات الاختيارية لله عز وجل ، وهي كما هو ملاحظ أدلة تبيِّن سبب ضلال الطوائف التي نفت كل الصفات أو أكثرها ، منها إطلاقهم للألفاظ المجملة وعدم تمييزهم بين القدر المشترك وبين القدر المميز ، وهذا يدل على دقة أهل السنة وقوة عقولهم لتمييزهم بين هذه الأمور الدقيقة التي لا يلم بها إلا الراسخون في العلم .

(١) المصدر السابق ، ٤/ ١٤٤٥ – ١٤٤٧ .

الباب الثالث

الأدلة العقلية في إثبات القدر

ويشمل :

- الفصل الأول : علم الله السابق الأزلي .
- الفصل الثاني : الكتابة الأزلية لكل ما هو كائن .
- الفصل الثالث : عموم مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة .
- الفصل الرابع : خلق الله لكل شيء .

تمهيد

مضى الصحابة رضي الله عنهم في صدر الإسلام ومِنْ بعدِهم التابعون رحمهم الله على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وأن الله عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون[(١)] ، وأنه سبحانه كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، ثم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ثم خلق الخلق وأعمالهم بمشيئته وقدرته فمنهم كافر ومنهم مؤمن .

ولكن قبل انصرام عهد الصحابة حدث أول انحراف في القدر وذلك في إنكار علم الله بما سيكون من العباد ، وأن العباد هم الخالقون لأفعالهم .

فإن أول من قال بهذه المقالة هو سنسويه[(٢)] البقال الذي كان نصرانياً ثم أسلم ثم ارتد وعاد إلى نصرانيته بعد ما بث سمومه بين المسلمين وأحدث بدعة القدر[(٣)] .

وقد كانت بدعة التكذيب بالقدر قبل بدعة نفي الصفات ، مع أن الإيمان بالقدر مبني على الإيمان بصفات الله سبحانه وتعالى ، فالعلم والقدرة والإرادة والخلق كلها صفات لله عز وجل : العلم والقدرة صفتان ذاتيتان ، والإرادة والخلق صفتان فعليتان تتعلقان بمشيئة الله وقدرته ، فمن كذب بالقدر فقد نفى هذه الصفات عن الله سبحانه وتعالى .

ثم أن معبداً الجهني[(٤)] أخذ من سنسويه بدعته في القدر ثم أخذ غيلان الدمشقي من معبد هذه البدعة ، وقد ذكر الذهبي أن معبد مات قبل سنة تسعين للهجرة وقيل في سنة

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٤٤٩ .

(٢) هو سوسن أو سنسويه وهو أول من نطق في القدر بالعراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد وأخذ غيلان القدري عن معبد . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ١٨٦ — ١٨٧ .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ، البغدادي ، ١٨ ، حاشية المحقق : محمد محيي الدين عبدالحميد .

(٤) هو معبد بن عبد الله بن عويمر ، وقيل ابن عبد الله ابن عكيم الجهني ، نزيل البصرة ، وأول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة ، وكان من علماء وقته على بدعته ، وقد وثقه يحيى بن معين ، وقال أبو حاتم : صدوق في الحديث ، توفي سنة ٨٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/ ١٨٥ — ١٨٧ .

ثمانين[1] ، أي إن الانحراف في القدر ظهر في النصف الثاني من القرن الأول الهجري .

ثم ظهرت في مقابل بدعة القدرية بدعةُ الجبرية وصاحبها هو الجهم بن صفوان (١٢٨هـ) وذلك في النصف الأول من القرن الثاني الهجري .

وكلا الطرفان يدوران حول محور واحد وهو خلق الله لأفعال العباد ، فالقدرية تنفي ، والجبرية الجهمية تغالي في الإثبات حتى تجعل الإنسان كالريشة في مهب الريح ، مع أن الجهم وشيعته نفاة للصفات التي منها صفة العلم وهذا من تناقضهم في مذاهبهم[2] .

أما أهل السنة والجماعة فقد وضّح شيخ الإسلام رحمه الله عقيدتهم في القدر فقال : (وتؤمن الفرقة الناجية - أهل السنة والجماعة - بالقدر خيره وشره ، والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم ، الذي هو موصوف به أزلاً ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال .

ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق : ((فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة))[3] فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[4] وقال ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[5] .

وهذا التقدير ـ التابع لعلمه سبحانه ـ يكون في مواضع جملة وتفصيلاً فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء : وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً ، فيؤمر

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٤/١٨٧ .

(٢) انظر : الملل والنحل ، الشهرستاني ، ١/٧٣ .

(٣) رواه الترمذي ، كتاب القدر ، باب حدثنا قتيبة حدثنا عبدالرحمن بن زيد . . . ، رقم الحديث ٢١٥٥ ، وصححه الألباني ، أنظر : صحيح سنن الترمذي ، ٢/٤٤٩ .

(٤) الحج : ٧٠ .

(٥) الحديد : ٢٢ .

بأربع كلمات ، فيقال له : اكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، ونحو ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ، ومنكره اليوم قليل .

وأما الدرجة الثانية : فهو مشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات .

فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه ، لا خالق غيره ولا رب سواه .

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته .

وهو سبحانه يحب المتقين ، والمحسنين والمقسطين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد .

والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر ، والمصلي والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ، كما قال تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [(١)] .

وهذه الدرجة من القدر : يكذب بها عامة القدرية ، الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات ، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، ويُخرِجون عن أفعال الله وأحكامه حِكَمَها ومصالحها) [(٢)] .

وقال رحمه الله في موضع آخر : (أصل هذه المسألة – أي مسألة القدر – : أن يعلم الإنسان أن مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان : وهو

---

(١) التكوير : ٢٨ – ٢٩ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣/ ١٤٨ – ١٥٠ .

أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها ، من أفعال العباد وغير أفعال العباد .

وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته ، لا يمتنع عليه شيء شاءه ، بل هو قادر على كل شيء ، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه .

وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها ، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم : قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك ، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة ، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون ، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون .

وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم ، وكتابته السابقة ، ويزعمون أنه أمر ونهى ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، بل الأمر أنف ، أي مستأنف .

وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبين بني أمية في أواخر عصر عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهما من الصحابة ، وكان أول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني ، فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرءوا منهم ، وأنكروا مقالتهم، كما قال عبد الله بن عمر - لما أُخْبِرَ عنهم - : إذا لقيت أولئك فأخبرهم : إني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين ، فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم : أن المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون .

ثم كثر خوض الناس في القدر فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق ، لكن ينكرون عموم مشيئة الله ، وعموم خلقه وقدرته ، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره ، فما شاءه فقد أمر به ، وما لم يشأه لم يأمر به)[1] .

إذن غلاة القدرية الأوائل نفوا علم الله وكتابته ، والمتأخرون منهم أثبتوا العلم والكتابة ونفوا المشيئة والخلق ، وفي هذا سوف يتسلسل ذكر الأدلة العقلية لأهل السنة على إثبات مراتب القدر الأربعة بالترتيب مع ذكر الأدلة العقلية على بعض المسائل المتعلقة بهذه المراتب .

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٤٤٨ – ٤٥١ .

الفصل الأول

علم الله السابق الأزلي

ويشمل :

المبحث الأول : مطابقة العلم للمعلوم .

المبحث الثاني : ليس للعبد القدرة على تغيير علم الله سبحانه .

المبحث الأول

مطابقة العلم للمعلوم

أثبت أهل السنة والجماعة صفة العلم لله سبحانه وتعالى كما سبق في باب الأدلة العقلية في الأسماء والصفات فأثبتوا ما أثبته الله لنفسه من أنه سبحانه عالم بما كان وما يكــون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فما علمه الله أنه سيقع فإنه يقع لا محالة كما علمه الله .

ولكن المخالفين في هذه المسألة هم القدرية الغلاة الذين ينفون علم الله المتقدم ، وكتابته السابقة ، ويزعمون أنه أمر ونهى ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، بل الأمر أُنُف : أي مستأنف[1] .

فمن المعلوم أن غيلان الدمشقي صاحب القول بالقدر ظهر في زمن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى ، فلما تكلم غيلان بالقدر استدعاه عمر ووجَّه إليه هذا السؤال فقال : (هل علم الله نافذ في عباده أم منتقض ؟) فكان هذا السؤال كالصاعقة على غيلان لأنه سؤال مفحم مدحض لباطله ومع ذلك لم يستطع إلا أن يقول : (بل نافذ يا أمير المؤمنين) وإقراره هذا يدل على عدم وجود حجة قوية يرد بها على عمر بن عبدالعزيز ، ثم أنه لما خرج من عمر عاد وتكلم في القدر مرة أخرى لأن هدفه الوحيد إنما هو إضلال الناس وإبعادهم عن دينهم ، فدعاه عمر بن عبدالعزيز مرة أخرى فقال لـه : (ألم يكن في سابق علمه – سبحانه – حين أمر إبليس بالسجود ألا يسجد ؟)[2] وهذه الأسئلة من عمر رحمه الله إنما كانت لإثبات علم الله السابق الأزلي الذي ينكره غيلان وشيعته .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٤٥٠/٨ .

(٢) كتاب القدر ، الفريابي ، ٢٣١ ، ت عمرو سليم ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

وقد اتُّهِم الحسن البصري رحمه الله بالقدر وهو بريء من ذلك فأراد أحد أصحابه وهو خالد الحذاء[1] أن يتأكد من سلامة معتقد الحسن فوجَّه إلى الحسن الأسئلة الآتية فقال: (يا أبا سعيد ، أخبرني عن آدم أللسماء خلق أم للأرض ؟) فاستغرب الحسن من هذا السؤال وتعجب وقال : (ما هذا يا أبا منازل ؟) يقول خالد : (ولم تكن هذه من مسائلنا) فقال خالد : (يا أبا سعيد ، إني أحب أن أعلم) قال الحسن : (بل للأرض خلق) قال خالد : (أرأيت لو اعتصم ، فلم يأكل من الشجرة ؟) قال الحسن : (لم يكن له بد من أن يأكل منها لأنه للأرض خلق)[2] .

قال ابن بطة رحمه الله في التعليق على هذه القصة : (فقد علم الله عز وجل المعصية من آدم قبل أن يخلقه ونهاه عن أكل الشجرة ، وقد علم أنه سيأكلها وخلق إبليس لمعصيته ولمخالفته فيما أمره به من السجود لآدم وأمره بالسجود ، وقد علم أنه لا يسجد، فكان ما علم ولم يكن ما أمر ، وكذلك خلق فرعون وهو يعلم أنه يدعي الربوبية ويفسد البلاد ويهلك العباد ، وأرسل إليه موسى يأمره بالتوحيد لله والإقرار له بالعبودية وهو يعلم أنه لا يقبل ، فحال علمه فيه دون أمره)[3] .

وكلامه رحمه الله يدل على أن العلم يطابق المعلوم .

ويروي لنا أبو عامر المكي[4] رحمه الله مناظرة حدثت بينه وبين غيلان الدمشقي في

---

(١) هو خالد بن مهران الإمام الحافظ الثقة الثبت أبو المنازل البصري المشهور بالحذاء أحد الإعلام ، رأى أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولم يكن حذاءً بل كان يجلس في سوق الحذائين أحياناً ، وقيل لأنه كان يقول : احذ على هذا النحو ، فلقب الحذاء ، وكان حافظاً مهيباً ليس له كتاب ، توفي سنة ١٤١هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٦/ ١٩٠ — ١٩٣ ، وطبقات الحفاظ ، السيوطي ، ٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٤٢ ، وانظر : الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ١٦/٢ .

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة ، ١٧/٢ .

(٤) ذكر الآجري في الشريعة (ص ٢٠٤) أنه محمد بن عبيدالله بن أبي عامر المكي ، وذكر ابن بطة في الإبانة (٢ /٣٢١) أنه محمد بن عبيد بن أبي عامر المكي ، وكلاهما روى عن الفريابي الذي ذكره في كتاب القدر (ص ٢٧١) بأنه محمد بن عبيدالله عن أبي عامر المكي ، ولكنني أثناء البحث عن الترجمة لم أجد أي واحد من هذه الأسماء ، والذي وجدته هو عبيد الله بن عامر المكي والظاهر أنه هو المقصود والله تعالى أعلم ، وقد ذكر العلماء أن رواية عبيدالله بن عامر المكي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ثقة ، وأبناء عامر المكي ثلاثة : عبيدالله وعبدالرحمن وعروة . انظر : ميزان الاعتدال : الذهبي ، ١٥٤/٨ ، ت علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥م . والجرح والتعديل ، أبو حاتم الرازي ، ٣٣٠/٥ دار إحياء التراث ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥م .

دمشق ، فقال أبو عامر : (لقيت غيلان بدمشق مع نفر من قريش ، فسألوني أن أكلمه ، فقلت : اجعل لي عهد الله وميثاقه أن لا تغضب ولا تجحد ولا تكتم ، قال : ذلك لك ، فقلت : نشدتك الله هل في السموات أو في الأرض شيء قط من خير أو شر لم يشأه الله عز وجل ولم يعلمه حتى كان ؟ قال غيلان : اللهم لا ، قلت فعلم الله بالعباد كان قبل أو أعمالهم ؟ ، فقال غيلان : بل علمه كان قبل أعمالهم ، قلت فمن أين كان علمه بهم، من دار كانوا فيها قبله جبلهم في تلك الدار غيره ، وأخبره الذي جبلهم في الدار عنهم غيره ، أم من دار جبلهم هو فيها وخلق لهم القلوب التي يهوون بها المعاصي ؟ قال غيلان : بل من دار جبلهم هو فيها وخلق لهم القلوب التي يهوون بها المعاصي ، قلت : فهل كان الله يحب أن يطيعه جميع خلقه ؟ ، قال غيلان : نعم ، قلت : انظر ما تقول ، قال : هل معها غيرها ؟ قلت : نعم ، فهل كان إبليس يحب أن يعصي الله جميع خلقه ، فلما عرف الذي أردت سكت فلم يرد عليَّ شيئاً)[(١)] .

أي إن أبا عامر رحمه الله يريد أن يبين لغيلان عن طريق السؤال والجواب أن الله سبحانه وتعالى علم من عباده من يعصيه ومن يطيعه ، فإذا أطاعه الطائع وعصاه العاصي، فإنما ذلك مطابق لعلم الله سبحانه وتعالى وإرادته ، والله يحب الطائع ويبغض العاصي ويفعل مايشاء ، أما إبليس فهو يحب ويريد أن يعصي الله جميع خلقه ، ولكنه مع هذا لا يعلم من سيطيع ومن سيعصي ، إذن تبين أن معصية العاصي إنما هي بعلم الله وإرادته لا بعلم الشيطان وإرادته ، وعلم الله نافذ في عباده لا محالة .

ثم قال غيلان لأبي عامر : (يا أبا عامر هل لهؤلاء الكلمات من أصل) فقال أبو عامر : (نعم ، حسبك بهن من كتاب الله عز وجل ، إن الله خلق جميع خلقه من أربعة أشياء لمَ يخلق شيئين من شيء واحد ، فجعل الطاعة في اثنين وجعل المعصية في اثنين ، واللذين فيهما الطاعة هي فيهما إلى يوم القيامة ، واللذين فيهما المعصية هي فيهما إلى يوم

(١) كتاب القدر ، الفريابي ، ٢٧٢ ، وانظر : الشريعة ، الآجري ، ٢٠٤ ، والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢/٣٢١ .

القيامة ، إن الله خلق الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق البهائم من ماء ، وخلق آدم من طين ، فجعل الطاعة في الملائكة والبهائم ، وجعل المعصية في الجن والإنس، قال غيلان : صدقت)[1] .

وقد رد ابن بطة رحمه الله على من ادعى أن الله علم من عباده الطاعة وأرادها منهم وهم فعلوا خلاف ذلك فكان ما أرادوا لا ما أراد الله ، فقال : (فمن زعم أن الله عز وجل شاء لعباده الذين جحدوه وكفروا به وعصوه الخير والإيمان به والطاعة له ، وأن العباد شاؤوا لأنفسهم الشر والكفر والمعصية ، فعملوا على مشيئتهم في أنفسهم واختيارهم لها خلافاً لمشيئته فيهم فكان ما شاؤوا ولم يكن ما شاء الله ، فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله وأنهم أقدر على ما يريدون منه على ما يريد ، فأي افتراء على الله يكون أكثر من هذا ؟!!

ومن زعم أن أحداً من الخلق صائر إلى غير ما خُلِقَ له وعلمه الله منه ، فقد نفى قدرة الله عز وجل عن خلقه ، وجعل الخلق يقدرون لأنفسهم على ما لا يقدر الله عليه منهم ، وهذا إلحاد وتعطيل وإفك على الله عز وجل وكذب وبهتان ، ومن زعم أن الزنا ليس بقدر ، قيل له : أرأيت هذه المرأة التي حملت من الزنا وجاءت بولدها ، هل شاء الله أن يخلق هذا الولد ، وهل مضى هذا في سابق علم الله ، وهل كان في الذرية التي أخذها عز وجل من ظهر آدم ؟ فإن قال : لا ، فقد زعم أن مع الله خالقاً غيره وإلهاً آخر، وهذا قول يضارع الشرك ، بل هو الشرك الصارح ، تعالى الله عما تقول الملحدة القدرية علواً كبيراً)[2] .

وقد قال بعض علماء السنة : (مسألة يقطع بها القدري ، يقال له : أخبرنا ، أراد الله من العباد أن يؤمنوا به ويطيعوه ولا يعصوه ، فلم يقدر ، أم قدر فلم يرد ؟ فإن قال : قدر فلم يرد ، قيل له فمن يهدي من لم يرد الله هدايته ، وإن قال : أراد فلم يقدر، قيل

---

(١) المصدر السابق ، ٢٧٢ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٤٤/٢ .

له : لا يشك جميع الخلق أنك قد كفرت يا عدو الله)[١] .

أي أن ما علمه الله من العبد فهو واقع لا محالة ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على هدايته لم يقدروا لنفاذ علم الله فيه ، وفي هذا الدليل العقلي محاصرة للخصم إما أن يقر وإما أن يكفر .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقد رد على القدرية النافين لعلم الله سبحانه بالشيء قبل كونه فبيَّن أن هذا القول مهجور باطل لأن الكتاب والسنة والأدلة العقلية تكذبه ، أما بالنسبة للكتاب فقد قال تعالى ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[٢] فهذا قسم منه سبحانه على ذلك ، وهو الصادق البار في قسمه ، وصدقه مستلزم لعلمه بما أقسم عليه ، وهو دليل على أنه قادر على ذلك ، وقد يستدل به على أنه خالق أفعال العباد ، إذ لو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم ، بل كان ذلك إليهم إن شاؤوا عصوه فملأها ، وإن شاؤوا أطاعوه فلم يملأها[٣] .

ثم بيَّن رحمه الله أنه قد يعترض معترض القدرية فيقول : أنه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك ، فأجاب شيخ الإسلام بأن علمه بالمستقبل قبل أن يكون مستلزم لخلقه ، فإنه سبحانه لا يستفيد العلم من غيره كالملائكة والبشر ، ولكن علمه من لوازم نفسه ، فلو كانت أفعاله خارجة عن مقدوره ومراده لم يجب أن يعلمها كما يعلم مخلوقاته[٤] .

وهذا بناءً على قولهم بأن العبد خالق فعل نفسه ، أي إن الله علم من هذا الإنسان المعصية ، ولكن ليس هو الذي خلق تلك المعصية وإنما الإنسان هو الذي خلقها فعاقبه الله على خلق تلك المعصية في نفسه .

ثم بيَّن رحمه الله أن العلم بالمستقبل من أفعال العباد يحصل لآحاد المخلوقين من

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٨٧ .

(٢) السجدة : ١٣ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٤٩٣ .

(٤) انظر المصدر السابق : ٨/٤٩٣ .

الملائكة والأنبياء وغيرهم ، فكيف لا يكون حاصلاً لرب العالمين ؟! وقد أخبر النبي ﷺ عما سيكون من الأفعال المستقبلة من أمته وغير أمته مما يطول ذكره ، كإخباره بأن ابنه الحسن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[1] ، وإخباره بأنه تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق[2] ، ومثل هذا من أخبار نبيه ﷺ أكثر من أن تذكر وهو إنما يعلم ما علّمه الله وإذا كان هو يعلم كثيراً مما يكون من أعمال العباد فكيف الذي خلقه وعلّمه ما لم يكن يعلم ، وهو سبحانه لا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء ولا يعلم أحد ـ لا نبي ولا غيره - إلا ما علّمه الله[3] .

وهذا استدلال (بقياس الأولى) .

وقد أشكل على القدرية قول الله تعالى ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ فقالوا إن فيها دلالة على حدوث العلم بعد أن لم يكن ، فردَّ شيخ الإسلام رحمه الله على هذا الزعم بقوله : (وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾[5] ونحو ذلك فهذا هو العلم الذي يتعلق ، بالمعلوم بعد وجوده ، وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب ، والأول هو العلم بأنه سيكون ، ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب ، فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال، وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا : لنرى ، وكذلك المفسرون قالوا : لنعلمه موجوداً بعد أن كنا نعلم أنه سيكون . . . والمقصود هنا : أن تقدم علم الله وكتابته لأعمال العباد حق ، والقول بحدوث ذلك قول مهجور . . . وليس في ذلك ما ينافي أمر الله ونهيه ، فإن كونه خالقاً لأفعال العباد لا ينافي الأمر والنهي ، فكيف العلم المتقدم ، وليس في ذلك

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الصلح ، باب قول النبي ﷺ للحسن . . . ، رقم الحديث ٢٧٠٤ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، رقم الحديث ١٠٦٥ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٤) البقرة : ١٤٣ .

(٥) الكهف : ١٢ .

ما يقتضي كون العبد مجبوراً لا قدرة له ، ولا فعل ، كما تقوله الجهمية المجبرة)[١] .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا الشأن : (والله سبحانه قد علم قبل أن يُوجد عباده أحوالهم وما هم عاملون وما هم إليه صائرون ، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي عَلمه فيهم كما عَلِمه ، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشرّ بما أظهر معلومه ، فاستحقوا المدح والذمّ والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق ، ولم يكن يستحقون ذلك وهي في عِلْمه قبل أن يعملوها)[٢] .

أما عن الجبرية فقد ذَكَرَ أحدهم الجبر عند علي بن أبي طالب ﷺ ، فردَّ عليه رضي الله عنه قائلاً : (لعلك ظننته قضاءً جبراً وقدراً قسراً ، لو كان ذلك كذلك ، لبطل الأمر والنهي ، والوَعد والوعيد ، وبطل الثواب والعقاب ، ولم يكن المحسن أولى بمثوبة الإحسان من المسيء ، ولا المسيء أولى بعقوبة الإساءة من المحسن)[٣] .

وهذا استدلال بقياس العكس أو الخلف : وهو إثبات الأمر ببطلان نقيضه[٤] .

والجبرية قالوا إن الله إذا قدر للعبد السعادة فإنه يدخله الجنة وإن لم يعمل بعمل أهل السعادة ، وإذا قدر لـه الشقاوة فإنه يدخله النارَ وإن لم يعمل بعمل أهل الشقاوة ، وقد ردَّ جمع من علماء أهل السنة على هذا القول الفاسد ، منهم يونس بن ميسرة بن حلبس[٥] عندما ذكر قول رسول الله ﷺ الذي سئل فيه عن الأعمال : أهي شيء مستأنف أو شيء قد فرغ منه ؟ فقال ﷺ : ((بل أمر قد فرغ منه)) فقيل : فكيف بالعمل يا رسول الله ؟ فقال : ((كل امرئ مهيأ لما خلق لـه))[٦] فقال يونس : إن تصديق هذا الحديث في

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٤٩٦ — ٤٩٧ .
(٢) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/١٠٦ .
(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ١٤٢/٢ .
(٤) انظر : المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، ٤٠٠ .
(٥) هو يونس بن ميسرة بن حلبس الحبلاني ، أبو حلبس ، كان فاقداً للبصر ، وكان ثقةً ، ولما دخل المسودة في أول سلطان بني هاشم دمشق دخلوا مسجدها فقتلوا من وجدوا فيه فقُتل يومئذ يونس بن ميسرة بن حلبس ، توفي سنة ١٣٢هـ . انظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٤٦٦/٧ ، ومشاهير علماء الأمصار ، ابن حبان ، ١٨٣ ، ت م فلايش همر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٥٩م .
(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ٤٤١/٦ ، وهو حسن الإسناد ، انظر : السلسلة الصحيحة ، الألباني ، ٥٣/٥ .

كتاب الله عز وجل .

فقال له سعيد بن عبدالعزيز(١): (أبن لي يا حلبس ؟) قال : أما تسمع الله عز وجل يقول في كتابه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾[٢] أرأيت يا سعيد لو أن هؤلاء أهملوا كما يقول الأخابث – يعني الجبرية – أين كانوا يذهبون ؟! حيث حبب إليهم وزين لهم ، أم حيث كره إليهم وبغض إليهم ؟!)[٣] . وهذا دليل عقلي مقنع من يونس رحمه الله حيث بيَّن وشرح وساق الأدلة النقلية ثم على أساس ذلك وجه سؤاله لمن يخاطبه .

وقالت الجبرية أيضاً أنه لا ينفع العمل طالما سبق العلم بالسعادة والشقاوة ، فرد عليهم ابن تيمية رحمه الله بالأحاديث التي تثبت قدر الله سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه قدَّر المعصية والطاعة من قبل أن يخلق الخلق وقدر العمل أيضاً ، ثم قال : (فقد أخبر النبي ﷺ في هذه الأحاديث وغيرها بما دل عليه القرآن أيضاً من أن الله سبحانه وتعالى تقدم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاوة ، كما تقدم علمه وكتابه بغير ذلك من أحوال العباد وغيرهم . . . والنصوص والآثار في تقدم علم الله وكتابته وقضائه وتقديره الأشياء قبل خلقها وأنواعها كثيرة جداً .

وقد بيَّن النبي ﷺ أن ذلك لا ينافي وجود الأعمال التي بها تكون السعادة والشقاوة ، وأن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة

---

(١) هو أبو محمد سعيد بن عبدالعزيز التنوخي الدمشقي ، مفتي دمشق ، انتهت إليه مشيخة العلم بعد الأوزاعي بالشام ، وكان حجة مقدماً فقيهاً أميناً صالحاً قانتاً خاشعاً ، قال عنه أحمد بن حنبل : ليس بالشام رجل أصح حديثاً من سعيد بن عبدالعزيز ، توفي عام ١٦٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ٣٢/٨ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ٢٦٣/١ .

(٢) الحجرات : ٧ – ٨ .

(٣) كتاب القدر ، الفريابي ، ٥٢ .

فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة ، وقد نهى أن يتكل الإنسان على القدر السابق ويدع العمل، ولهذا كان من اتكل على القدر السابق وترك ما أمر به من الأعمال هو من الأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وكان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذي يسروا به لعمل أهل الشقاوة . . . وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو يعلم الأشياء على ما هي عليه وكذلك يكتبها ، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً ، وهذا عام في جميع الحوادث .

مثال ذلك : إذا علم الله وكتب أنه سيولد لهذين ولد ، وجعل الله سبحانه ذلك معلقاً باجتماع الأبوين على النكاح وإنزال الماء المهين الذي ينعقد منه الولد ، فلا يجوز أن يكون وجود الولد بدون السبب الذي علق به وجود الولد ، والأسباب وإن كانت نوعين: معتادة ، غريبة ، فالمعتادة : كولادة الآدمي من أبوين ، والغريبة : كولادة الإنسان من أم فقط كما ولد عيسى ، أو من أب فقط كما ولدت حواء ، أو من غير أبوين كما خلق آدم أبو البشر من طين . . . فمن ظن أن الشيء إذا عُلِمَ وكُتِبَ أنه يكفي ذلك في وجوده ولا يحتاج إلى ما به يكون من الفاعل الذي يفعله وسائر الأسباب ، فهو جاهل ضال ضلالاً مبيناً ، من وجهين :

(أحدهما) من جهة كونه جعل العلم جهلاً ، فإن العلم يطابق المعلوم ، ويتعلق به على ما هو عليه ، وهو سبحانه قد علم أن المكونات تكون بما يخلقه من الأسباب لأن ذلك هو الواقع فمن قال : إنه يعلم شيئاً بدون الأسباب ، فقد قال على الله الباطل ، وهو بمنزلة من قال : إن الله يعلم أن هذا الولد ولد بلا أبوين ، وأن هذا النبات نبت بلا ماء ، فإن تعلق العلم بالماضي والمستقبل سواء ، فكما أن من أخبر عن الماضي بعلم الله بوقوعه بدون الأسباب يكون مبطلاً ، فكذلك من أخبر عن المستقبل كقول القائل : إن الله علم أنه خلق آدم من غير طين ، وعلم أنه يتناسل الناس من غير تناكح ، وأنه أنبت

الزروع من غير ماء ولا تراب فهو باطل ظاهر بطلانه لكل أحد ، وكذلك أخباره من المستقبل . . .و(الوجه الثاني) : أن العلم بأن الشيء سيكون والخبر عنه بذلك وكتابة ذلك[(١)] يوجب استغناء ذلك عما به يكون من الأسباب التي لا يتم إلا بها ، كالفاعل وقدرته ومشيئته ، فإن اعتقاد هذا غاية في الجهل ، إذ هذا العلم ليس موجباً بنفسه لوجود المعلوم باتفاق العلماء ، بل هو مطابق له على ما هو عليه لا يكسبه صفة ولا يكتسب منه صفة بمنزلة علمنا بالأمور التي قبلنا كالموجودات التي كانت قبل وجودنا مثل علمنا بالله وأسمائه وصفاته ، فإن هذا العلم ليس مؤثراً في وجود المعلوم باتفاق العلماء وإن كان من علومنا ما يكون له تأثير في وجود المعلوم كعلمنا بما يدعونا إلى الفعل ويعرفنا صفته وقدره، فإن الأفعال الاختيارية لا تصدر إلا ممن له شعور وعلم ، إذ الإرادة مشروطة بوجود العلم ، وهذا التفصيل الموجود في علمنا بحيث ينقسم إلى علم فعلي له تأثير في المعلوم ، وعلم انفعالي لا تأثير له في وجود الموجود، هو فصل الخطاب في العلم)[(٢)] .

ومما يتعلق بهذا المبحث مسألة الهداية والضلال وهما لا يكونان إلا بعلم الله سبحانه وتعالى ، فمن علمه الله مهتدياً فإنه يكون مهتدياً بمشيئة الله وإرادته ، ومن علمه ضالاً فإنه كذلك بمشيئة الله وإرادته ، لذلك قال ابن بطة رحمه الله بعد ما ذكر الآيات في هذا الشأن كقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[(٣)] : (ففي كل هذه الآيات يُعْلِمُ الله عز وجل عباده المؤمنين أنه هو الهادي المضل ، وأن الرسل لا يهتدي بها إلا من هداه الله ، ولا يأبى الهداية إلا من أضله الله ، ولو كان من اهتدى بالرسل والأنبياء مهتدياً بغير هدايته ، لكان كل من جاءهم المرسلون مهتدين لأن الرسل بعثوا رحمة للعالمين ، ونصيحة لمن أطاعهم من الخليقة أجمعين ، فلو كانت الهداية إليهم ، لما

---

(١) في طبعة مجموع الفتاوى التي تم نقل هذا النص منها يوجد حرف (لا) قبل الفعل (يوجب) وهذا الحرف يسبب خلل في المعنى ولا يستقيم المعنى إلا بحذفه ، فتم حذفه ، انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢٨٠/٨ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٢٧٤ – ٢٨٠ .

(٣) المدثر : ٣١ .

ضل أحد جاؤوه)[١] .

وقد قام ابن القيم رحمه الله تعالى بالرد على القدرية عندما طرحوا تساؤلاً قالوا فيه: كيف تقوم حجة الله على قوم منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه ؟[٢] .

فقال ابن القيم رحمه الله : (حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم وأراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عياناً وأقام لهم أسباب الهداية ظاهراً وباطناً ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه .

نعم قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه أعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور لهم وهو الذي مُنِعوه وحيل بينهم وبينه فتأمل هذا الموضع وأعرف قدره والله المستعان)[٣] .

فانظر إلى دقة ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يشرح هذا الأمر للقدرية ، فإن هذا الأمر يحتاج لدقة فهم للنصوص الواردة في الكتاب والسنة حتى يستطيع أن يفهم الأمر على حقيقته ، ولم يوفق لهذا الأمر إلا أهل السنة الذين آتاهم الله عقولاً نيرة تنظر في الكتاب والسنة وتفهم ما فيهما على ما هو عليه بدون أن تدخل الأهواء في ذلك .

وقد ناقش رحمه الله تأويلاً للقدرية في مسألة الهداية والضلال قالوا فيه أن المراد بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[٤] وقوله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٥] تسمية الله العبدَ مهتدياً وضالاً[٦] .

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ١/ ٢٦٤ .
(٢) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/ ٢١٢ .
(٣) المصدر السابق ، ١/ ٢١٢ .
(٤) غافر : ٢٨ .
(٥) المائدة : ٥١ .
(٦) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/ ٢١٧ .

فقال ابن القيم : (فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك ، وهذا مما يعلم قطعاً أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه ، وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه البتة وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها ، هَدَاهُ بمعنى سماه مهتدياً وأضله سماه ضالاً ، وهل يصح أن يقال عَلَّمَهُ إذا سماه عالماً ، وفَهَّمَهُ إذا سماه فاهماً ، وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[1] فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا : ليس عليك تسميتم مهتدين ولكن الله يسمي من يشاء مهتدياً ، وهل فهم أحد قط من قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت ﴾[2] لا تسميه مهتدياً ولكن الله يسميه بهذا الاسم ، وهل فهم أحد من قول الداعي ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] وقوله : اللهم اهدني من عندك ونحوه ، اللهم سمني مهتدياً ؟)[4] .

فهو رحمه الله يستخدم أسلوب تطبيق المعنى الذي زعموه على الآيات والأحاديث الواردة ليريهم ويري غيرهم ممن قد ينطلي عليه تأويلاتهم الفاسدة أن هذه التأويلات يستحيل أن تكون صحيحة أبداً ، وهو يذكرنا بالإمام الدارمي رحمه الله تعالى فقد استخدم مع بشر المريسي نفس الأسلوب ، وأبطل تأويلاته بنفس الأسلوب .

وذكر ابن القيم أيضاً تأويلاً آخر لبعضهم هو أن المراد بالهداية هنا هي هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب[5] ، لأنهم يرون أن الله لا يقدر على ذلك - تعالى الله عما يقوله الظالمون علواً كبيراً – وأيضاً طبَّق تأويلاتهم على النصوص فلم تنطبق ، ولكن قبل أن يطبق قدّم مقدمة بيَّن فيها أنواع الهداية الواردة في القرآن ، ثم على أساس ذلك ردَّ عليهم .

(١) البقرة : ٢٧٢ .
(٢) القصص : ٥٦ .
(٣) الفاتحة : ٦ .
(٤) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١ / ٢١٧ – ٢١٨ .
(٥) انظر : المصدر السابق ، ١/٢١٨ .

فقال رحمه الله : (وهذا التأويل من أبطل الباطل فإن الله سبحانه يخبر أنه قسَّم هدايته قسمين : قسماً لا يقدر عليه غيره ، وقسماً مقدوراً للعباد ، فقال في القسم المقدور للغير ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [(١)].

وقال في غير المقدور للغير ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [(٢)] وقال ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ ﴾ [(٣)].

ومعلوم قطعاً أن البيان والدلالة قد تحصل له ولا تنفى عنه ، وكذلك قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ لا يصح حمله على هداية الدعوة والبيان ، فإن هذا يُهْدَى - وإن أضله الله - بالدعوة والبيان .

وكذا قوله ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [(٤)] هل يجوز حمله على معنى : فمن يدعوه إلى الهدى ويبين له ما تقوم به حجة الله عليه ؟.

وكيف يصنع هؤلاء بالنصوص التي فيها أنه سبحانه هو الذي أضلهم ؟ أيجوز لهم حملها على أنه دعاهم إلى الضلال ؟ فإن قالوا : ليس ذلك معناها ، وإنما معناها ألفاهم ووجدهم كذلك ، أو أعلم ملائكته ورسله بضلالهم ، أو جعل على قلوبهم علامة يعرف الملائكة بها أنهم ضُلاَّل ، قيل : هذا من جنس قولكم أن هُداه سبحانه وإضلاله بتسميتهم مهتدين وضالين .

فهذه أربع تحريفات لكم ، وهو أنه سماهم بذلك ، وعلمهم بعلامة يعرفهم بها الملائكة ، وأخبر عنهم بذلك ، ووجدهم كذلك ، فالإخبار من جنس التسمية ، وقد بينا أن اللغة لا تحتمل ذلك وأن النصوص إذا تأملها المتأمل وجدها أبعد شيء من هذا المعنى وأما العلامة فيا عجبا لفرقة التحريف وما جنت على القرآن والإيمان .

(١) الشورى : ٥٢ .
(٢) القصص : ٥٦ .
(٣) الأعراف : ١٨٦ .
(٤) الجاثية : ٢٣ .

ففي أي لغة وأي لسان يدل قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [1] على معنى أنك لا تعلّمه بعلامة ولكن الله هو الذي يعلّمه بها ، وقوله ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ ﴾ [2] من يعلّمه الله بعلامة الضلال لم يعلّمه غيره بعلامة الهدى ، وقوله ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [3] علّمناها بعلامة الهدى الذي خلقته هي لنفسها وأعطته نفسها ، وفي أي لغة يفهم من قول الداعي ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [4] علّمنا بعلامة يعرف الملائكة بها إننا مهتدون ، وقولهم ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [5] لا تعلّمها بعلامة أهل الزيغ .

وقوله : ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) [6] وقوله ((يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك)) [7] وأمثال ذلك من النصوص .

ففي أي لغة وأي لسان يفهم من هذا : علّمنا بعلامة الثبات والتصريف على طاعتك، وفي أي لغة يكون معنى قوله ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [8] علّمناها بعلامة القسوة ، أو وجدناها كذلك ، نعم لو نزل القرآن بلغة القدرية والجهمية وأهل البدع لأمكن حمله على ذلك ، أو كان الحق تبعاً لأهوائهم وكانت نصوصه تبعاً لبدع المبتدعين وآراء المتحيرين) [9] .

فهذه عدة أدلة عقلية يسوقها ابن القيم رحمه الله تعالى لبيان أن علم الله مطابق للواقع لا محالة وأن الأدلة والحجج التي ساقها القدرية إنما هي واهية ساقطة لأنها لا تقوم على أساس الكتاب والسنة .

---

(1) القصص : ٥٦ .
(2) الأعراف : ١٨٦ .
(3) السجدة : ١٣ .
(4) الفاتحة : ٦ .
(5) آل عمران : ٨ .
(6) رواه الترمذي ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن ، رقم الحديث ٢١٤٠ ، وصححه الألباني ، انظر : صحيح سنن الترمذي ، ٢/ ٤٤٢ .
(7) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ، رقم الحديث ٢٦٥٤ .
(8) المائدة : ١٣ .
(9) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/ ٢١٩ – ٢٢٠ .

المبحث الثاني

ليس للعبد القدرة على تغيير علم الله سبحانه

هذه هي الحقيقة التي قررها أهل السنة من جملة ما أثبتوه من القدر ، فقالوا أنه ليس للعبد القدرة على تغيير علم الله سبحانه وتعالى بأي حال من الأحوال ، لأن العبد مهما عَمِلَ من عَمَلٍ فإنما هو بعلم الله وكتابته وإرادته وخلقه .

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما أراد أن يثبت لأصحابه هذه الحقيقة استخدم (القياس) أو بالتحديد (قياس التمثيل) وذلك عندما ذُكَرَ له القوم رجلاً سيىء الخلق ، قال بعضهم : أما له من ينهاه ، أماله من يأخذ على يديه ؟ فقال عبد الله : (أتقولون ذاك ؟!! أرأيتم لو قطع رأسه أكنتم تقدرون على أن تجعلوا له رأساً آخر ؟) ، قالوا: لا ، قال: (أرأيتم لو قطعت يده أكنتم تقدرون على أن تجعلوا له يداً أخرى ؟) ، قالوا : لا ، قال : (أرأيتم لو قطعت رجله أكنتم تقدرون على أن تجعلوا له رجلاً أخرى ؟) ، قالوا : لا ، قال : (فإنكم لن تغيِّروا خُلُقَهُ كما لم تغيروا خَلْقَهُ)[1] .

فقد بيَّن لهم ﷺ عن طريق هذا القياس أنه من المحال أن يغير العبد المخلوق شيئاً مما علمه الله وكتبه وأراده وخلقه ، وأن الله سبحانه خلق هذا العبد على هذه الطبيعة فلا يستطيع أحد أن يغيره لسابق علم الله فيه .

ثم أتى بدليل آخر وهو دليل (التسليم) وهو أن يفرض المحال فقال ﷺ : (عجب للنساء اللاتي يعلقن التمائم تخوف السقط ، والذي لا إله غيره ، لو بطحت ثم وطئت عرضاً وطولاً ما أسقطت حتى يكون الله عز وجل هو الذي يقدر ذلك لها)[2] فهو بهذا الافتراض ينهى عن تعليق التمائم لأنها لا تردُّ شيئاً من قدر الله ولا تغيره .

(١) كتاب القـدر ، الفريابي ، ١١٣ — ١١٤ ، وانظر : الإبانة عن شريعـة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢ / ٣٧ — ٣٨ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢/ ٣٨ .

أما ابن بطة رحمه الله فقد ذكر مسألة الفطرة ومعناها وذلك في قوله ﷺ : ((كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) الحديث[1] ، فبيَّن رحمه الله أن القدرية ضلوا عندما زعموا أن معنى الفطرة هنا : الإسلام وشرائعه وأن المولود يولد مسلماً مؤمناً ، لأنه من قال بهذا المعنى فقد زعم أن اليهود والنصارى يغيرون علم اللم الله في خلقه ، ويجعلون من خلقه الله للجنة من أهل النار ، وأن مشيئة اليهود والنصارى في أولادهم كانت أغلب وإرادتهم أظهر وأقدر[2] .

ثم بيَّن القول الصحيح في معنى الفطرة ، وهو أنها ابتداء الخلق والإقرار بأن الله هو ربهم بناءً على الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، ثم قال رحمه الله : (ولو كان الأمر على ما تأولته الزائغون أن كل مولود يولد على الفطرة (عنى دين الإسلام وشرائعه) لكان من سبيل المولود من اليهود والنصارى إذا مات أبواه وهو طفل ألا يرثهما ، وكذلك إن مات لم يرثاه ، لما عليه الأمة مجمعون أنه لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم ، ولكان من سبيل الطفل من أولاد أهل الكتاب إذا مات في صغره أن يتولاه المسلمون ويصلوا عليه ، ولا يدفن إلا معهم وفي مقابرهم)[3] .

وهو رحمه الله يفترض أنه لو كان ما قالوه صحيحاً لحدثت تلك الأمور التي أشار إليها ، فبما أنها لم تحدث إذن تفسيرهم لمعنى الفطرة إنما هو مفترى ولا أساس له .

وهذا المبحث لـه صلة بالمبحث الذي قبله وهو مطابقة العلم للمعلوم ، فإن ابن تيمية رحمه الله بيَّن أن الله سبحانه وتعالى يعلم أن العبد لا يفعل الفعل مع أنه مستطيع لـه ، والمعلوم أنه لا يفعله ، ولا يريده لا أنه لا يقدر عليه ، والعلم يطابق المعلوم ، فالله يعلم ممن استطاع الحج والقيام والصيام أنه مستطيع ، ويعلم أن هذا مستطيع يفعل مستطاعه ، فالمعلوم هو عدم الفعل لعدم إرادة العبد ، لا لعدم استطاعته ، كالمقدورات التي لله سبحانه وتعالى التي يعلم أنه لا يفعلها لعدم إرادته لها لا لعدم قدرته عليها ، والعبد قادر

---

(١) رواه البخاري ، كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ، رقم الحديث ٦٥٩٩ .
(٢) انظر : الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٧١/٢ .
(٣) المصدر السابق ، ٧٣/٢ .

على أن يفعل ، وقد علم الله أنه لا يفعل مع القدرة ، ولهذا يعذبه لأنه إنما أمره بما استطاع لا بما لا يستطيع ، ومن لم يستطع لم يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه[(١)] .

هذا هو شرح شيخ الإسلام رحمه الله لهذه المسألة ، ولكنه افترض إلزام قد يطرحه المعتزلي ليؤكد مذهبه في خلق العبد لفعله ، فقال رحمه الله : (ولكن قد يقال : أنه يلزم من ذلك أن يكون قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه لا يفعل ، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله .

قيل : هذه مغلطة ، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يلزم فيها تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه ، لا عدم وقوعه ، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه ، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وان لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعرف علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بشيء يغير العلم ، بل هو قادر على فعل ما لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع)[(٢)] .

ولم يكتف شيخ الإسلام بهذا بل توقع افتراضاً قد يطرحه المعتزلي أيضاً ، فقال : (وإذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل : ليس الأمر كذلك ، بل العبد يقدر على وقوعه ، وهو لم يوقعه ، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فإذا وقع كان الله عالماً أنه سيقع ، وإذا لم يقع كان الله عالماً بأنه لا يقع البتة ، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه ، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٤/ ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١٤/١٠٤ .

ومما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء إلا الرب ، فإن الأمور نوعان :

نوع : عَلِمَ الله أنه سيكون ، ونوع : عَلِمَ الله أنه لا يكون .

فالأول : لا بد من وقوعه . والثاني : لا يقع البتة . فما علم الله أنه سيقع يعلم أنه يقع بمشيئته وقدرته ، وما علم أنه لا يقع يعلم أنه لا يشاؤه ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما المعتزلة فعندهم أنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، وأولئك المجبرة في جانب ، وهؤلاء في جانب ، وأهل السنة وسط .

وما يفعله العباد باختيارهم يعلم سبحانه أنهم فعلوه بقدرتهم ومشيئتهم وما لم يفعلوه مع قدرتهم عليه يعلم أنهم لم يفعلوه لعدم إرادتهم له ، لا لعدم قدرتهم عليه ، وهو سبحانه الخالق للعباد ولقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وكل ذلك مقدور للرب ، وليس هذا مقدوراً بين قادرين بل القادر المخلوق هو وقدرته ومقدوره مقدور للخالق مخلوق له)[1] .

وبهذا التفصيل والتقسيم والتفريق من شيخ الإسلام تتبين أدلته العقلية بقوتها ورصانتها وإقناعها للخصم الذي أعرض عن الكتاب والسنة وبدأ يبحث برأيه وعقله فضل بسبب ذلك .

ومما يتصل بهذا الموضوع مسألة :

المقتول هل قتل بأجله الذي علمه الله وأجَّله له ؟ أم إن القاتل استطاع أن يغير علم الله في هذا المقتول ؟ ومثل ذلك مسألة الغلاء والرخص هل هو من الله أم لا ؟

زعمت المعتزلة أن المقتول مات بغير أجله ، وأن قتل النفس ليس بقدر[2] ، وهذا بناء على قولهم أن الخير من الله والشر من العبد ، إذ أنهم يقولون كيف يخلق الشر ويعاقب عليه ، فجعلوا للعبد القدرة على تغيير علم الله تعالى .

(١) انظر : المصدر السابق ، ١٤/ ١٠٤ — ١٠٦ .

(٢) انظر : المغني ، للقاضي عبدالجبار ، ١١/ ٦ - ٢٥ ، ت محمد النجار ، الدار المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥م . والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢/ ٤٤ .

وقد أجاب ابن تيمية رحمه الله تعالى على هذه المسألة وبيّن أنه لكل مخلوق أجل لا يتقدم ولا يتأخر ، والأجل هو نهاية العمر ، والعمر هو مدة البقاء ، والأجل نهاية العمر بالانقضاء ، والله سبحانه يعلم ما كان قبل أن يكون وقد كتب ذلك ، فهو يعلم أنَّ هذا يموت بالبطن ، أو ذات الجنب أو الهدم أو الغرق أو غير ذلك ، وعِلْمُ الله بذلك وكتابته له بل مشيئته لكل شيء وخلقه لكل شيء لا يمنع المدح والذم والثواب والعقاب ، بل القاتل : إن قتل قتيلاً أَمَرَ الله به ورسوله ، كالمجاهد في سبيل الله أثابه الله على ذلك ، وإن قتل قتيلاً حَرَّمَهُ الله ورسوله كقتل القطاع والمعتدين ، عاقبه الله على ذلك ، وإن قتل قتيلاً مباحاً كقتيل المقتص لم يثب ولم يعاقب إلا أن يكون له نية حسنة ، أو سيئة في أحدهما[(١)] .

والقدرية المعتزلة عندما اعتقدوا إن العبد خالق فعل نفسه قالوا إن المقتول إذا لم يقتل فإنه يعيش ، وخالفتهم الجبرية نفاة الأسباب فقالوا أنه يموت ، ولكن شيخ الإسلام رحمه الله حقق المسألة تحقيقاً شافياً وبيَّن أن كلاهما خاطئ في قوله واعتقاده ، فإن الله علم أنه يموت بالقتل فإذا قدر خلاف معلومة كان تقديراً لما لا يكون لو كان كيف يكون .

فلو فرضنا إن الله سبحانه علم أنه لا يقتل أمكن أن يكون قدر موته في هذا الوقت ، وأمكن أن يكون قدر حياته إلى وقت آخر ، فالجزم بأحد هذين الأمرين على التقدير الذي لا يكون يعتبر جهلاً .

وهذا كمن قال : لو لم يأكل هذا ما قدر له من الرزق كان يموت أو يرزق شيئاً آخر ، وبمنزلة من قال : لو لم يحبل هذا الرجل هذه المرأة هل تكون عقيماً أو يحبلها رجل آخر ، ولو لم تزدرع هذه الأرض هل كان يزدرعها غيره ، أم كانت تكون مواتاً لا يزرع فيها ، وهذا الذي تعلّم القرآن من هذا ، لو لم يعلّمه : هل كان يتعلّم من غيره ؟ أم لم يكن يتعلّم القرآن البتة ، ومثل هذا كثير[(٢)] .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٥١٦/٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ٥١٨/٨ .

وشيخ الإسلام استخدم في تحقيق هذه المسألة استخدم عدة أنواع من الأدلة العقلية منها (الفرض) و (التسليم) و (ضرب الأمثال) .

وأيضاً بناءً على قول المعتزلة بأن الله لا يخلق الشر ، سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن مسألة الغلاء والرخص هل هي من الله أم لا ؟

فقال رحمه الله : (جميع ما سوى الله من الأعيان وصفاتها وأحوالها مخلوقة لله ، مملوكة لله ، هو ربها وخالقها ومليكها ومدبرها ، لا رب لها غيره ، ولا إله سواه ، له الخلق والأمر، لا شريك له في شيء من ذلك ، ولا معين ، بل هو كما قال سبحانه ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ، وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (١)

... وحينئذ : فالغلاء بارتفاع الأسعار ، والرخص بانخفاضها ، هما من جملة الحوادث التي لا خالق لها إلا الله وحده ، ولا يكون شيء منها إلا بمشيئته وقدرته ، لكن هو سبحانه قد جعل بعض أفعال العباد سبباً في بعض الحوادث ، كما جعل قتل القاتل سبباً في موت المقتول ، وجعل ارتفاع الأسعار قد يكون بسبب ظلم العباد ، وانخفاضها قد يكون بسبب إحسان بعض الناس ، ولهذا أضاف من أضاف من القدرية المعتزلة وغيرهم الغلاء والرخص إلى بعض الناس ، وبنوا على ذلك أصولا فاسدة :

أحدها : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى .

والثاني : إنما يكون فعل العبد سبباً له يكون العبد هو الذي أحدثه .

والثالث : أن الغلاء والرخص إنما يكون بهذا السبب .

... و (الأصل الثاني) : وهو إنما كان فعل العبد أحد أسبابه : كالشبع الذي يكون بسبب الأكل ، وزهوق النفس الذي يكون بالقتل ، فهذا قد جعله أكثر المعتزلة فعلاً للعبد، والجبرية لم يجعلوا لفعل العبد فيه تأثيراً بل ما تيقنوا أنه سبب ، قالوا : إنه عنده لا به، وأما السلف والأئمة فلا يجعلون العبد فاعلاً لذلك ، كفعله لما قام به من الحركات ،

---

(١) سبأ : ٢٢ – ٢٣ .

فلا يمنعون أن يكون مشاركاً ، في أسبابه وأن يكون الله جعل فعل العبد مع غيره أسباباً في حصول مثل ذلك)[١] .

ثم أتى رحمه الله بدليل من القرآن يدل على أن الله سبحانه وتعالى ذكر هذين النوعين من أفعال الناس في كتابه ، الفعل الخاص الذي قام بالعبد وحده أي الفعل المباشر، والفعل المشارك الذي قام به مع غيره أي الفعل المتولد ، قال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

فقال رحمه الله : (فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب ، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ ، وما ينالونه من العدو ، وقال ﴿ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح ، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم وهى الإنفاق وقطع المسافة ، فلهذا قال فيها ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ فإن هذه نفسها عمل صالح ، وإرادتهم في الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح)[٣] .

وهذا الدليل العقلي من شيخ الإسلام من أحسن الأدلة وأوضحها في شرح مسألة أسباب الغلاء والرخص ، فبعد شرح المسألة وبيان أقسام الفعل التي تضاف للمخلوق أتى بدليل من القرآن يبيِّن صحة هذا التقسيم .

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٥١٩ — ٥٢٢ .
(٢) التوبة ، ١٢٠ — ١٢١ .
(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٠/ ٧٢٣ — ٧٢٤ ، وانظر : ٨/٥٢٢ .

ثم عقّب رحمه الله في نهاية حديثه عن تلك المسألة فقال : (و (الأصل الثالث) أن الغلاء و الرخص لا تنحصر أسبابه في ظلم بعض ، بل قد يكون سببه قلة ما يخلق أو يجلب من ذلك المال المطلوب ، فإذا كثرت الرغبات في الشيء وقلّ المرغوب فيه ارتفع سعره ، فإذا كثر وقلت الرغبات فيه انخفض سعره ، والقلة والكثرة قد لا تكون بسبب من العباد ، وقد تكون بسبب لا ظلم فيه ، وقد تكون بسبب فيه ظلم ، والله تعالى يجعل الرغبات في القلوب)[1] .

ومن الملاحظ أن هاتين المسألتين عندما شرحهما شيخ الإسلام رحمه الله تعرض فيهما إلى جميع مراتب القدر ، فمن الممكن إيراد هاتين المسألتين في كل فصل من هذا الباب ، فمن ناحية العلم فقد بين رحمه الله أنه يستحيل أن يغير العبد شيئاً من علم الله ، ومن ناحية الكتابة فقد بين أن الله كتب هذه الأمور بعد علمه سبحانه بها ، ومن ناحية المشيئة فإنه بين أنه لا يحدث شيئاً من ذلك إلا بعد مشيئة الله وحده ، ثم من ناحية القدرة والخلق فقد بين أن كل هذه الأمور إنما هي مقدورة لله سبحانه مخلوقة له وحده دون سواه .

وهو في كل ذلك يشرح ويقسم ويبين ويفصل ، وهذا فيه دلالة قوية واضحة على إعمال أهل السنة لعقولهم في النصوص الواردة بما يتمشى مع النصوص نفسها ، وأنهم لم يسلكوا طريق الجمود العقلي كما اتهمهم بذلك أهل الأهواء والبدع .

(١) المصدر السابق ، ٨/٥٢٣ .

الفصل الثاني

الكتابة لكل ما هو كائن

الفصل الثاني
الكتابة لكل ما هو كائن

أثبت السلف رضوان الله عليهم كتابة الله لكل ما هو كائن في اللوح المحفوظ بعد علمه به سبحانه تبعاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [(١)] ، وقوله سبحانه ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [(٢)] ، وقوله ﷺ : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . قال : وكان عرشه على الماء)) [(٣)] .

لذلك فإنه لا يحدث شيء في هذا الكون إلا وقد كتبه الله سبحانه في اللوح المحفوظ أولاً ، ثم كانت الكتابة في صحف الملائكة مطابقة لما في اللوح المحفوظ لذلك عندما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [(٤)] قال : (إن أول ما خلق الله عز وجل القلم ثم النون وهي الدواة ، ثم خلق الألواح ، فكتب الدنيا وما يكون فيها حتى تفنى من كل خلق مخلوق أو عمل معمول من بر أو فجور ، وما كان من رزق حلال أو حرام ، ومن كل رطب ويابس ، ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه دخوله في الدنيا وبقاؤه فيها ، كم إلى كم شاء ، ثم وكل بذلك الكتاب ملكاً ووكل بالخلق ملائكة ، فتأتي ملائكة الخلق إلى ملائكة الكتاب ، فينسخون ما يكون في يوم وليلة مقسوماً على ما وكلوا به ، وتأتي ملائكة الخلق ، فيحفظون الناس بأمر الله ويسوقونهم إلى ما في أيديهم من تلك النسخ ، فإذا انتفت النسخ عن شيء لم يكن ها هنا بقاء ولا مقام) فقال رجل لابن عباس : ما كنا نرى هذا إلا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة ؟ فقال

---

(١) الحج : ٧٠ .
(٢) الحديد : ٢٢ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، رقم الحديث ٢٦٥٣ .
(٤) الجاثية : ٢٩ .

ابن عباس : (ألستم قوماً عرباً ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب))[2] .

فاستدلال ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية يدل على قوة عقله وعمق فهمه للآيات وللغة العرب التي نزل بها القرآن ، فالنسخ في اللغة : الكتابة عن أصل[3] ، وابن عباس رضي الله عنهما بيَّن أن قوله تعالى ﴿ نَسْتَنْسِخُ ﴾ يدل على وجود أصل يُنْقل عنه نقلاً مطابقاً ، وبالتالي فكل ما يحدث في هذا الكون فهو معلوم لله مكتوب عنده قبل حصوله .

وقد ضرب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلاً على أنه لا يحدث شيءٌ في هذا الكون إلا وقد كتب في اللوح المحفوظ ، وذلك عند خروجه إلى الشام وبلوغه وقوع الوباء بها فاستشار عمر ﷺ المهاجرين والأنصار فأشاروا عليه بالرجوع من حيث أتوا ، فأَذَّن عمر ﷺ بالناس : (أني مُصْبِحٌ على ظهر فأصبحوا عليه) قال أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ : (يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله ؟) قال عمر ﷺ : (لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله عز وجل إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبلاً فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟)

فجاء عبدالرحمن بن عوف ﷺ وكان متغيباً في بعض حاجته ، فقال : (إن عندي من هذا علماً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه)) فحمد عمر ﷺ اللهَ عز وجل ثم انصرف)[4] .

---

(١) الجاثية : ٢٩ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٣٤٠/١ .

(٣) انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ٦١/٣ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ، رقم الحديث ٥٧٢٩ ، وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ٧٢٦/٤ .

هذا وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلاً ، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء ، وأشار إلى حديث ابن مسعود ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ : ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح . . .)) الحديث[(١)] ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ، ومنكريه اليوم قليل[(٢)] .

ومما يتصل بهذا الأمر مسألة الدعاء ورده للقدر ، ومسألة الزيادة في العمر بصلة الرحم ، فقد قال رسول الله ﷺ : ((لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر))[(٣)] فهل في هذين الأمرين تغيير للكتابة أم لا ؟

شرح شيخ الإسلام رحمه الله هذه المسائل عندما وُجّه له سؤالاً عن قوله تعالى ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾[(٤)] وقوله تعالى ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[(٥)] فبيّن رحمه الله أن المراد بالآية الأولى : الجنس أي ما يعمر من عمر إنسان ، ولا ينقص من عمر إنسان آخر ، ثم التعمير والتقصير يراد به شيئان :

الأول : أن هذا يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما أن المعمر يطول عمره ، والتعمير زيادة بالنسبة إلى آخر .

الثاني : وقد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب ، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب . وقد قال رسول الله ﷺ : ((من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في

---

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، رقم الحديث ٣٢٠٨ .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣/ ١٤٨ – ١٤٩ .
(٣) رواه الترمذي ، كتاب القدر ، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ، رقم الحديث ٢١٣٩ ، صححه الألباني، انظر : صحيح سنن الترمذي ، ٢/٤٤٣ .
(٤) فاطر : ١١ .
(٥) الرعد : ٣٩ .

أثره فليصل رحمه))[1] ، وقد قال بعض الناس : إن المراد به البركة في العمر ، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان[2] .

ثم استطرد رحمه الله فقال : (فيقال لهؤلاء تلك البركة . وهي الزيادة في العمل ، والنفع ، هي أيضا مقدرة مكتوبة ، وتتناول لجميع الأشياء .

والجواب المحقق : أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة ، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب ، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب . . .

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فهو يعلم ما كتبه لـه وما يزيده إياه بعد ذلك ، والملائكة لا علم لـهم إلا ما علمهم الله ، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها ، فلهذا قال العلماء : إن المحو والإثبات في صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو لـه ما لم يكن عالماً به ، فلا محو فيه ولا إثبات)[3] .

وبهذا الشرح من شيخ الإسلام يتبيَّن الفرق أكثر بين اللوح المحفوظ وصحف الملائكة وذلك في مسألة المحو والإثبات الذي يكون في صحف الملائكة دون اللوح المحفوظ المطابق للعلم الإلهي ، مع أن شيخ الإسلام ذكر أن اللوح المحفوظ قد يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وهذا أيضاً يكون طبقاً للعلم الإلهي[4] ، وهذا التفريق من شيخ الإسلام يدل على قوة عقول علماء أهل السنة وعمق فهمهم للنصوص التي ضل عن فهمها أهل الأهواء والبدع بل أعرضوا عن النظر فيها أصلاً ، لذلك لم يتوصلوا لتلك الأمور التي توصل لها أهل السنة .

أما الدعاء فهو من أقوى الأسباب في جلب المنافع ، ودفع المضار ، ولكن قوماً من

(١) رواه البخاري ، كتاب البيوع ، باب من أحب البسط في الرزق ، رقم الحديث ٢٠٦٧ .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٤/٤٩٠ .
(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٤/ ٤٩٠ – ٤٩١ .
(٤) انظر : المصدر السابق ، ١٤/٤٩٢ .

المتفلسفة وغالية الصوفية قالوا أن الدعاء لا فائدة فيه ، وحجتهم في ذلك : أن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة للدعاء ، وإن لم تقتضه فلا فائدة في الدعاء[1] ، وهذا بناءً على أن المكتوب لا يتغير ، وهذا الكلام صحيح فإن المكتوب لا يتغير ، ولكن الخلل في قولهم أن الدعاء لا فائدة فيه .

فردَّ على هذه الشبهة ابن أبي العز الحنفي رحمه الله فقال : (وجواب الشبهة بمنع المقدمتين : فإن قولهم عن المشيئة الإلهية ، إما أن تقتضيه أو لا ، ثم قسم ثالث ، وهو : أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه ، وقد يكون الدعاء من شرطه ، كما توجب الثواب مع العمل الصالح ، ولا توجبه مع عدمه ، وكما توجب الشبع والري عند الأكل والشرب، ولا توجبه مع عدمهما ، وحصول الولد بالوطء ، والزرع بالبذر ، فإذا قُدِّرَ وقوع المدعوِّ به بالدعاء لم يصح أن يقال : لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب ، فقول هؤلاء كما أنه مخالف للشرع ، فهو مخالف للحس والفطرة)[2] .

وبذلك بيَّن ابن أبي العز رحمه الله أن الفلاسفة أغفلوا احتمالاً ثالثاً يجب أن يؤخذ في الحسبان وهو أن هذا الإنسان قد كتب له أن يدعو فينال مراده ، وأنه لن ينال هذا المراد إلا بالدعاء ، فكيف يقال لا فائدة في الدعاء وهو شرط في حصول المطلوب ، وبهذا الرد منه رحمه الله فاق الفلاسفة الذين ادعوا استعمال العقل على أصول وقواعد ابتدعوها من عند أنفسهم ، وهذا الدليل قد يدخل في (السبر والتقسيم) من ناحية فرض الاحتمالات وسبرها ، وقد يدخل في (المنع) من ناحية منعه رحمه الله للمقدمتين .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ٢/٦٧٨ .
(٢) المصدر السابق ، ٢/٦٧٩ .

الفصل الثالث

عموم مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة

ويشمل :

المبحث الأول : إثبات المشيئة والقدرة لله سبحانه وتعالى .

المبحث الثاني : إثبات الاستطاعة والاختيار للعبد .

المبحث الثالث : الفرق بين الإرادة والمحبة .

المبحث الأول

إثبات المشيئة والقدرة لله سبحانه وتعالى

أثبت أهل السنة مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وقالوا بوجوب الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات[(1)] .

وقد حدثت مناظرة بين الأوزاعي رحمه الله تعالى وبين أحد القدرية - النافين لمشيئة الله وقدرته – في حضرة هشام بن عبدالملك ، وكان القدري قد اشترط شرطاً قال فيه : (فإن غلبته بالحجة والبيان علمتَ أني على الحق ، وإن هو غلبني بالحجة فاضرب عنقي) فبدأ الأوزاعي قائلاً : (أخبرني عن الله عز وجل هل تعلم أنه قضى على ما نهى ؟) قال القدري : (ليس عندي في هذا شيء) فقال الأوزاعي : (يا أمير المؤمنين هذه واحدة) ثم قال : (أخبرني هل تعلم أن الله حال دون ما أمر ؟) قال القدري : (هذه أشد من الأولى) فقال الأوزاعي : (يا أمير المؤمنين هذه اثنتان) ثم قال : (هل تعلم أن الله أعان على ما حرم ؟) قال القدري : (هذه أشد من الأولى والثانية) فقال الأوزاعي : (يا أمير المؤمنين هذه ثلاث ، قد حل بها ضرب عنقه) فأمر به هشام فضربت عنقه .

ثم قال هشام : (يا أبا عمرو فسِّر لنا هذه المسائل) فقال الأوزاعي : (نعم يا أمير المؤمنين ، سألته : هل تعلم أن الله قضى على ما نهى ؟ نهى آدم عن أكل الشجرة ثم قضى عليه بأكلها ، وسألته هل يعلم أن الله حال دون ما أمر ؟ أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود ، وسألته هل يعلم أن الله أعان على ما حرم ؟ حرم الميتة

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٤٩/٣ .

قال هشام : (والرابعة ما هي يا أبا عمرو ؟) قال الأوزاعي : (كنت أقول : مشيئتك مع الله أم دون الله ؟ فإن قال : مع الله ، فقد اتخذ مع الله شريكاً ، أو قال : دون الله ، فقد انفرد بالربوبية ، فأيهما أجابني فقد حل ضرب عنقه بها) .

قال هشام : (حياة الخلق وقوام الدين بالعلماء)(١) .

وهذا ربيعة الرأي رحمه الله يفحم غيلان الدمشقي عندما قال له غيلان : أترى الله يريد أن يعصى ؟ فقال له ربيعة : (أترى الله يعصى قهراً ؟) فكأنما ألقمه حجراً(٢) .

فهذا الإفحام يدل على سرعة البديهة عند علماء أهل السنة وأنهم بردودهم على المبتدعة إنما هم يقفون على أرض صلبة يعجز المبتدع عن زلزلتها .

ومن أدلة أهل السنة العقلية في إثبات قدرة الله سبحانه الدليل الذي ساقه ابن تيمية رحمه الله في شرحه للأصفهانية حيث قال : (إما أن يكون المبدع للأشياء مجرد ذات عارية عن الصفات يستلزم وجوده المفعول كما يقوله المتفلسفة القائلون بقدم الأفلاك(٣) ، وإما أن يكون ذاتاً موصوفة بالصفات لا يجب معها وجود المخلوقات كما عليه أهل الملل ، وإذا أردت التقسيم الحاضر قلت : الفاعل إما مجرد الذات ، وإما الذات بصفة ، فإن كان الأول فمعلوم أن العلة التامة تستلزم وجود المعلول ، فإذا كان مجرد الذات هو الواجب فمجرد الذات علة تامة فيلزم وجود المعلول جميعه ، ويلزم قدم جميع الحوادث وهو خلاف المشاهدة ، وإن كان الثاني فالصفة التي يصلح بها الفعل هي القدرة ، أو يقال فإذا لم يكن موجباً لذاته بل بصفة ، تَعَيَّنَ أن يكون مختاراً ، فإنه إما موجب بالذات ، وإما

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ٤/ ٧٩٤ - ٧٩٥ ، وانظر : حز الغلاصم ، شيث بن إبراهيم ابن حيدرة ، ١١٢ — ١١٣ ، ت عبدالله البارودي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ. ومحاسن المساعي في مناقب الأوزاعي ، شكيب أرسلان ، ١٠٤ — ١٠٥ ، وتاريخ مدينة دمشق ، أبو القاسم الشافعي ، ٢٠٦/٤٨ ، ت محب الدين العمري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م .

(٢) عيون المناظرات ، السكوني ، ٢٠٥ ، ت سعد غراب ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٦م . وانظر : الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢٦٠/٢ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ، اللالكائي ، ٧٦٠/٤ .

(٣) وهي نظرية الفيض والصدور التي يقول بها الفلاسفة ، وهذه النظرية عرضها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عرضاً واضحاً ثم نقدها نقداً وافياً وذلك في كتابه (الصفدية) .

فاعل بالاختيار ، والمختار إنما يفعل بالقدرة إذ القادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، فأما من يلزمه المفعول بدون إرادته فهذا ليس بقادر بل ملزوم ، بمنزلة الذي تلزمه الحركات الطبيعية التي لا قدرة له على فعلها ولا تركها)[1] .

وهنا استخدم شيخ الإسلام رحمه الله دليل (السبر والتقسيم) فقد بيَّن أن الذات إما أن تكون مجردة عارية عن الصفات وهذا ما يصف به الفلاسفة الله سبحانه وتعالى ، والفلاسفة تطلق على الله سبحانه لفظ العلة التامة ويقولون أنها تستلزم معلولها أو مفعولها وهم بهذا ينفون مشيئة الله وقدرته سبحانه ، وهذا يؤدي – كما بيَّن شيخ الإسلام – إلى قدم الحوادث وأزليتها وهذا باطل بالمشاهدة ، إذن أبطل شيخ الإسلام هذا القسم بما يراه الإنسان من بدء الحوادث وانتهائها وهو بهذا ينبه إلى استعمال العقل في التفكر بمخلوقات الله سبحانه للوصول إلى ما ينفع العبد في دنياه وآخرته ، وأن لكل مخلوق بداية ونهاية .

أما القسم الثاني وهو أن تكون الذات موصوفة بصفات ، من هذه الصفات الفعل بالاختيار وهي المشيئة ، والفاعل المختار لا يكون إلا قادراً ، فإذا بطل القول بقدم الحوادث أو المخلوقات ، استلزم ذلك القول بحدوثها ، ولكل حادث مُحْدِث ، وحدوث هذه الحوادث يستلزم المشيئة والقدرة ، والمُحْدِث هو الله سبحانه وتعالى ، إذن الله سبحانه وتعالى موصوف بجميع صفات الكمال التي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ومن هذه الصفات المشيئة والقدرة .

وكذلك من أدلته رحمه الله في إثبات قدرة الله استدلاله بما يلزم من قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[2] حيث قال : (... ثم إذا عُرِفَ أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادراً ، بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة وقدرة ، حتى أفعال الجمادات ، كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ، ابن تيمية ، ٤٥ ، وانظر : منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، ١/ ١٦١ – ١٦٤ .
(٢) العلق : ١ – ٢ .

فيها ، وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه ، وكذلك فعل كل حي من الدواب وغيرها هو بقوة فيها وكذلك الإنسان وغيره ، والخلق أعظم الأفعال ، فإنه لا يقدر عليه إلا الله ، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة ، وليس لها نظير من قُدَر المخلوقين ، وأيضاً فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة ، فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة)[1] .

فهذا استدلال بدليل (الاستلزام) .

وقد طرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عدة مسائل تتعلق بالقدرة منها :

مسألة الممتنع لذاته[2] هل يدخل في عموم قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] ؟.

اختلفت الطوائف في ذلك ، منهم من يدخل ذلك ومنهم من يعتبره شيئاً ولا يدخله في عموم القدرة على كل شيء ، فبيَّن رحمه الله الصواب والذي عليه عامة النظار أن الممتنع لذاته ليس شيئاً البتة ، لأنه لا يمكن تحققه في الخارج ، ولا يتصوره الذهن ثابتاً في الخارج ، ويمتنع تحققه في الأعيان ، وتصوره في الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال : قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء ، فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد ، كما تجتمع الحركة والسكون ، فيقال : هذا غير ممكن ، فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه ، وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل ، فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان ، فلم يدخل في قوله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4][5] .

فشيخ الإسلام رحمه الله تفطن إلى أمر لم يتفطن إليه غيره وهو : عدم كون الممتنع لذاته شيء أصلاً ، فينفض النزاع بمجرد معرفة هذا الأمر وتبقى قدرة الله سبحانه شاملة

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ١٦/٣٥٣ .

(٢) الممتنع بالذات : ما يقتضي لذاته عدمه ، التعريفات ، الجرجاني ، ٢٩٦ . والمقصود به اجتماع الضدين مثل السكون والحركة .

(٣) البقرة : ٢٠ .

(٤) المائدة : ١٢٠ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٨ – ٩ .

لكل شيء ، وهذا يدل على عمق فهم أهل السنة للمسائل المختلف فيها وما هو أصل الخلاف .

وكذلك مسألة المعدوم هل هو شيء أم لا ؟ فبيَّن شيخ الإسلام أن المعدوم ليس بشيء في الخارج عند الجمهور وهو الصواب ، لأن الشيء اسم لما يوجد في الأعيان ، ولما يتصور في الأذهان ، فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئاً في الخارج ، ومنه قوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [1] ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا ، فهو على كل شيء ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجوداً إن تصور أن يكون موجوداً قدير ، لا يستثنى من ذلك شيء ، ولا يزاد عليه ، كما قال ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [2] وقال ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [3] وقد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي ﷺ : ﴿ أعوذ بوجهك ﴾ فلما نزل ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [4] الآية قال : ﴿ هاتان أهون ﴾ [5] فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما [6] .

وبهذا يفرق شيخ الإسلام رحمه الله بين الممتنع لذاته الذي لا يعتبر شيء ولا يمكن وجوده ، وبين المعدوم الذي أيضاً لا يعتبر شيء لأنه لم يوجد في الخارج ولم يتصور في الأذهان بعد ، ولكن هذا المعدوم إن وجد أو تصوره الذهن فإنه من الممكن وجوده ، وقد ضرب شيخ الإسلام مثلاً على ذلك بآيات من الكتاب الحكيم ومن السنة المطهرة ليؤكد ويثبت ذلك ، وهذا لقوة استنتاجه ودليله .

---

(١) يس : ٨٢ .

(٢) القيامة : ٤ .

(٣) الأنعام : ٦٥ .

(٤) الأنعام : ٦٥ .

(٥) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب في قول الله تعالى ﴿ أو يلبسكم ﴾ ، رقم الحديث ٧٣١٣ .

(٦) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٩ — ١٠ .

وأهم مسألة في هذا المبحث هي : إرادة الله سبحانه وتعالى لأفعال العباد وقدرته على خلقها وإيجادها ، والقدرية المعتزلة يقولون أن أفعال العباد لم يشأها الله وغير مقدورة له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد بيَّن ابن القيم رحمه الله أن أهل السنة يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة ، وينزهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ، ويثبتون القدر السابق ، وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنه لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته ، وإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه ، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول ، فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة ، وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة ، والذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه ، والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم ، فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه هو المُقْدِر لهم على ذلك ، القادر عليه الذي شاءه منهم ، وخلقه لهم ومشيئته وفعله بعد مشيئته ، فما يشاؤن إلا أن يشاء الله وما يفعلون إلا أن يشاء الله[(١)] .

أما القدرية المعتزلة فقد قالوا أن قوله تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[(٢)] يعني مما لا يقدر عليه غيره ، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه ، وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال[(٣)] .

فبيَّن ابن القيم رحمه الله ردَّ أهل السنة عليهم وهو : أن إضافة الأفعال إلى العباد فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إلى الله سبحانه خلقاً ومشيئةً ، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقةً ، فلو لم تكن مضافةً إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم

(١) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/ ١٥١ — ١٥٢ .
(٢) الرعد : ١٦ .
(٣) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/١٥٥ .

يقدر عليه ولا خلقه[(١)] .

وقد بيَّن رحمه الله أنه مما يدل على قدرته سبحانه على أفعالهم قوله ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(٢)] وقد اعترضت القدرية على الاستدلال بذلك بأن هذا من العام المراد به الخاص ، فقال رحمه الله : (أن أفعالهم أشياء ممكنة والله قادر على كل ممكن فهو الذي جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته ولو شاء لحال بينهم وبين الفعل مع سلامة آلة الفعل منهم كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[(٣)] وقال ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾[(٤)] وقال ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾[(٥)] فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه ، وبين الإنسان ونطقه ، وبين اليد وبطشها ، وبين الرجل ومشيها ، فكيف يُظَنُّ به ظَنُّ السوء ، ويُجْعل له مثل السوء أنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده ، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون لقدرته علواً كبيراً)[(٦)] .

وابن القيم في هذا الرد يقرر ما قرره شيخ الإسلام قبله من أن لفظ الشيء لا يطلق إلا على ما يمكن وجوده أو تصوره ، وعليه يكون داخلاً في قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء ، واتفاق قول الشيخ مع تلميذه يدل دلالة واضحة على قوة مذهب ومنهج أهل السنة والجماعة بحيث أنه من أولهم إلى آخرهم متفقون على كلام واحد ، وهذا يتضح من مصنفاتهم .

أما مسألة العدل التي تتحدث عنها المعتزلة القدرية فقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنهم كما أصابوا فيها فإنهم أيضاً أخطأوا ، فقد قالوا إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ،

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ١/١٥٥ .
(٢) البقرة : ٢٨٤ .
(٣) البقرة : ٢٥٣ .
(٤) الأنعام : ١٣٧ .
(٥) يونس : ٩٩ .
(٦) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/١٥٦ .

وهذا حق لا ريب فيه ، ولكنهم أخطأوا بإنكار عموم مشيئته وقدرته على أفعال عباده وهدايتهم وإضلالهم ، وأن الأمر إليهم لا إليه ، فقال : (ولعمر الله إن الذي قاله هؤلاء حقه أكثر من باطله ، وصحيحه أكثر من سقيمه ، ولكن لم يوفوه حقه ، وعظموا الله من جهة وأخلوا بتعظيمه من جهة ، فعظموه بتنزيهه عن الظلم وخلاف الحكمة ، وأخلوا بتعظيمه من جهة التوحيد وكمال القدرة ونفوذ المشيئة)[1] .

وهذا النص يدل على إنصاف أهل السنة والجماعة للفرق المخالفة عامة ، فما كان من حقٍ موافق للكتاب والسنة في كلامهم أخذوه وبينوه ، وما كان من باطل ردوه وفندوه وأظهروا خلله ، وهذا يبين أن أهل السنة والجماعة عندما ترد على الفرق المخالفة وتجادل ليس مقصودهم الجدال لذاته وإنما الجدال لإظهار الحق وإبطال الباطل .

ومن دعاوى المعتزلة القدرية أنهم نفوا قدرة الله على هداية العبد وإضلاله ، وقالوا بوجوب فعل الأصلح ، وقد بيَّن ابن قتيبة رحمه الله تعالى سبب ضلالهم في هذا الأمر ، فقال : (ألا ترى أهل القدر حين نظروا في قدر الله الذي هو سره بآرائهم وحملوه على مقاييسهم أرتهم أنفسهم قياساً على ما جعل في تركيب المخلوق من معرفة العدل من الخلق على الخلق أن يجعلوا ذلك حكماً بين الله وبين العبد فقالوا بالتخلية والإهمال[2] وجعلوا العباد فاعلين لما لا يشاء وقادرين على ما لا يريد)[3] .

فردَّ رحمه الله على هذا الكلام قائلاً : (ونسوا ما يلزمهم في اختلاف الحكمين وأن من ملك البعض ليس كمن ملك الكل ، وأن الخلق كله لله يميت ويحيي ويفقر ويغني ويصح ويسقم ويبتدئ بالنعم من يشاء ويصطفي للرسالة من شاء ويؤيده بالتوفيق ويملأ قلبه بالنور ويعصمه من الذنوب ويجعل من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة وأنه لو

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ابن القيم ، ١/٢٢٧ .

(٢) أي إن العبد خالق فعل نفسه وأنه له القدرة الكاملة على الفعل وضده وليس لقدرة الله أي فعل في أعمال العباد . انظر : القضاء والقدر في الإسلام ، فاروق أحمد الدسوقي ، ٢/ ١٩٧ – ٢٠٣ ، المكتب الإسلامي، بيروت ، مكتبة الخاني ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

(٣) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية ، ابن قتيبة الدينوري ، ٢٢ .

لم يرد المعصية[1] لما هيأهم هيئة المعصية ولما ركب فيهم آلة الشهوة كما طبع الملائكة ولا سلط عليهم عدوهم ثم أمرهم بالاحتراس)[2] .

وأيضاً فقد ردَّ رحمه الله عليهم عندما جعلوا الإرادة في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾[3] فجعلوا الإرادة في الهداية والإضلال للعبد لا لله ، فبيَّن ابن قتيبة أنه لا يجوز أن تكون الإرادة للعبد لأن لفظ الجلالة جاء بعدها مباشرة وهو مرفوع بإجماع القراء، ولو كان لفظ الجلالة منصوباً لكان أقرب من المعنى الذي أرادوه مع أن هذا لا يجوز لأنه يؤدي إلى إضمار حرف الجر (من) في الكلام أي يكون الكلام هكذا : من يرد من الله أن يهديه ، ثم حذفت (من) ونصب لفظ الجلالة وهذا كله لا يجوز إلا مع حروف معدودة محكية عند العرب ولا يُحْمَلُ عليها غيرها ولا يقاس عليها أي إن هذه الحروف سماعية وليست قياسية[4] .

وقالت المعتزلة أيضاً في قول الله تعالى ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾[5] أي اختبارك تضل به من تشاء ، يعني الفاسقين ، وتهدي به من تشاء ، يعني المؤمنين ، واحتجوا بقول الله تعالى ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[6] والفاسقون ههنا الكافرون لأنه قال في صدر الآية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾[7][8] .

فردَّ عليهم ابن قتيبة بقوله : ((وكيف يضل الضال ويهدي المهتدي ، فإن قالوا يزيد

---

(١) وهو يقصد الإرادة الكونية التي سيأتي ذكرها في المبحث الثالث من هذا الفصل – إن شاء الله – .

(٢) المصدر السابق ، ٢٣ .

(٣) الأنعام : ١٢٥ .

(٤) انظر : الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة الدينوري ، ٢٧ .

(٥) الأعراف : ١٥٥ .

(٦) البقرة : ٢٦ .

(٧) البقرة : ٢٦ .

(٨) انظر : الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة ، ٢٨ .

الكافر ضلالة والمؤمن هداية أكذبهم في هذا الموضوع معنى الآية لأن فتنة القوم بالعجل أنه كان فضة وحلياً فتحول جسداً له خوار فارتدُّوا عن الإسلام وعبدوه ولم يكن مع موسى بني إسرائيل كافر ولو كانوا كفاراً ما غضب ولا ألقى الألواح ، فإنما وقع الضلال ههنا بمسلمين .

وأما قوله عز وجل ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) فإنه نزل في قوم من اليهود وسمعوا قوله عز وجل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ (٢) وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْه ﴾ (٣) فقالوا ما هذه الأمثال التي لا تليق بالله فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٤) من الذباب والعنكبوت فقالوا ما أراد بمثل ينكره فيضل به كثيراً من الناس ، فقال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) يعني اليهود لأنهم ضلوا بالمثل وأنكروا ولم ينكره غيرهم .

وقد يأتي الحرف وظاهره العموم ومعناه الخصوص ، كقول موسى عليه السلام ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) وقول النبي ﷺ ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٧) لم يريدا كل المؤمنين وكل المسلمين في جميع الأزمنة بل مؤمني زمن موسى ومسلمي زمن نبينا عليهما السلام ، وكذلك قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٨) لم يفضلهم

---

(١) البقرة : ٢٦ .
(٢) العنكبوت : ٤١ .
(٣) الحج : ٧٣ .
(٤) البقرة : ٢٦ .
(٥) البقرة : ٢٦ .
(٦) الأعراف : ١٤٣ .
(٧) الأنعام : ١٦٣ .
(٨) الأعراف : ١٤٠ .

على محمد ﷺ ولا أممهم على أمته وإنما أراد عالمي أزمنتهم)[1] .

وقالت المعتزلة القدرية أيضاً : إن الهدى من الله إنما هو بيان طريق الصواب ، فردَّ على ذلك شارح الطحاوية رحمه الله تعالى فقال : (والدليل على ما قلناه قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [2] ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه لأنه بيَّن الطريق لمن أحب وأبغض ، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [3] ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء ﴾ [4] ولو كان الهدى من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة)[5] وهذا استدلال بـ (العكس).

وقد ردَّ الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله على من قال : أن العبد يفعل ما لا يريده ربه ولا يشاءه ، فبيَّن أن من لم يعلم أنه لا يكون في سلطان الله سبحانه شيء إلا بمشيئته ، ولا يوجد موجود إلا بإرادته ، لم يعلمه عزيزاً ، وذلك أن من أراد شيئاً فلم يكن وكان ما لم يرد ، فإنما هو مقهور ذليل ، ومن كان مقهوراً ذليلاً فغير جائز أن يكون موصوفاً بالربوبية[6] .

فالإمام الطبري رحمه الله أثبت المشيئة بإلزامه لهم بإثبات صفة العزة لله سبحانه وتعالى ، والمعتزلة - كما هو معلوم – يثبتون الأسماء وينفون الصفات ، فألزمهم بإثبات أسماء تدل على الصفات كدلالة الذات على وجود الله سبحانه[7] ، وهم بالطبع لا يستطيعون إنكار ذات الله ولا وجودها ، ومن خلال إلزامه الأول ألزمهم إلزاماً آخر بإثبات المشيئة .

---

(١) الاختلاف في اللفظ ، ابن قتيبة ، ٢٨ – ٢٩ .
(٢) القصص : ٥٦ .
(٣) السجدة : ١٣ .
(٤) المدثر : ٣١ .
(٥) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ١/ ١٣٧ – ١٣٨ .
(٦) انظر : التبصير في معالم الدين ، أبو جعفر الطبري ، ١٣٠ .
(٧) انظر : المصدر السابق ، ١٢٩ .

المبحث الثاني

إثبات الاستطاعة والاختيار للعبد

أثبت أهل السنة والجماعة قدرة العبد على أفعاله واختياره لها ، وأن هذه القدرة والمشيئة تابعة لمشيئة الله وقدرته ، فالله سبحانه هو الذي جعل العبد مختاراً لما يفعله فهو مختار مريد والله خالق اختياره[(١)] .

قال علي بن أبي طالب ﷺ لأحد أصحابه : (أنه قد بلغني أنك تقول بقول أهل القدر) قال الرجل : (إنما أقول : أني أقدر على أن أصلي وأصوم وأحج واعتمر) قال عليٌّ ﷺ : (أرأيت الذي تقدر عليه ، أشيء تملكه مع الله أم شيء تملكه من دونه ؟) فارتج الرجل ، فقال عليّ ﷺ : (مالك لا تتكلم ، أما لئن زعمت أن ذلك شيئاً تملكه مع الله عز وجل ، فقد جعلت مع الله مالكاً وشريكاً ، ولئن كان شيئاً تملكه من دون الله ، لقد جعلت من دون الله مالكاً) قال الرجل : (قد كان هذا من رأيي وأنا أتوب إلى الله عز وجل منه توبة نصوحاً لا أرجع إليه أبداً)[(٢)] .

هذا الدليل العقلي من علي ﷺ يدل على أن للعبد مشيئة وقدرة وأنها تابعة لمشيئة الله وقدرته ، وقد اتبع رضي الله عنه في دليله هذا طريقة (السبر والتقسيم) مع تركه للاحتمال الثالث الصحيح لعلمه أنه معلوم بالبديهة وهذا الاحتمال هو : أن الذي يقدر عليه هذا الرجل إنما هو تابع لمشيئة الله وقدرته ، ودليله هذا ردٌّ على القدرية الذين يبالغون في إثبات القدرة والمشيئة للعبد وأنها غير تابعة لقدرة الله ولا مشيئته .

وقد كان أكثر الخلاف في مسألة مشيئة العبد وقدرته مع الجبرية الذين نفوا قدرة العبد

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٣/٣٧٤ .
(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، ابن بطة العكبري ، ٢/١٤٠ .

ولم يجعلوها سبباً في وجود الفعل ، وإذا فرض وجودها فهي غير مؤثرة في الفعل ، لأنهم يرون أن الفاعل الحقيقي لأفعال العباد إنما هو الله سبحانه ، تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : (ومن قال إن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسباباً ، أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادي كاقتران الدليل بالمدلول ، فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ، ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرِجْل يعقل بها ، ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز .

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم)[(1)] .

وهذا استدلال بلازم قولهم في نفي قدرة العبد ومشيئته ، أي أنهم نفوا أن يكون للعبد قدرة على الفعل ، ونفوا مشيئته أيضاً ، وبالتالي نفوا أن يكون فعله سبباً في حصول الشيء أو عدمه ، وقد بيَّن شيخ الإسلام رحمه أن قولهم هذا يلزم منه إنكار قوة العين التي تبصر بها العين ، ويكون حينئذ لا فرق بين العين والخد ، وكذلك يلزم من قولهم إنكار قوة القلب فيكون لا فرق بينه وبين الرِّجل ، وكذلك إنكار قوة النار فيكون لا فرق بينها وبين التراب ، وهم بهذا القول كما قال شيخ الإسلام : (أضحكوا العقلاء على عقولهم) .

وبيّن رحمه الله أن ما لم يفعله العباد من الأعمال لم يكن لعدم قدرتهم عليه وإنما كان بسبب عدم إرادتهم له فقال : (والعباد الذين علم الله أنهم يطيعونه بإرادتهم ومشيئتهم وقدرتهم ، وإن كان خالقاً لذلك ، فخلقه لذلك أبلغ في علمه به قبل أن

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/١٣٦ — ١٣٧ .

يكون ، كما قال تعالى ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1] وما لم يفعلوه فما أمرهم به يعلم أنه لا يكون لعدم إرادتهم له ، لا لعدم قدرتهم عليه ، وليس الأمر به أمراً بما يعجزون عنه بل هو أمر بما لو أرادوه لقدروا على فعله لكنهم لا يفعلونه لعدم إرادتهم له)[2] .

والأشاعرة – وهم جبرية - يفرقون بين الكسب[3] الذي أثبتوه وبين الخلق ، فقالوا : الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة ، وقالوا : أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه[4] .

فردَّ عليهم شيخ الإسلام رحمه الله بأن هذا لا يوجب فرقاً بين كون العبد كَسَبَ ، وبين كونه فَعَل وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك ، فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم في محل القدرة الحادثة .

وأيضا فهذا فرق لا حقيقة له ، فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجاً عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه : وهو مبني على أصلين :

الأول : أن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه ، وإن خلقه للعالم هو نفس العالم ، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك .

والثاني : أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها ولا يكون شيء من مقدورها خارجاً عن محلها . . .

وأيضا فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجاً

---

(١) الملك : ١٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٤٧٤ .

(٣) الكسب عند الأشاعرة : هو اقتران الفعل بالقدرة الحادثة من غير أن يكون لها فيه أمر ، وعند القدرية : هو إحداث العبد لفعله بقدرته ومشيئته استقلالاً ، وليس للرب صنع فيه ولا هو خالق فعله ولا مكونه ولا مريداً له . انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/٣٢٩ ، وشرح الأصول الخمسة ، القاضي عبدالجبار ، ٣٦٣ - ٣٧١ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/١١٩ .

عن المحل .

وبيَّن رحمه الله أنه من المستقر في فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل ، ومن فعل الظلم فهو ظالم ، ومن فعل الكذب فهو كاذب ، فإذا لم يكن العبد فاعلاً لكذبه وظلمه وعدله بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم ، وهذا كقول الأشعرية وسائر الصفاتية أنه من المستقر في فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم ، ومن قامت به القدرة فهو قادر ، ومن قامت به الحركة فهو متحرك ، ومن قام به التكلم فهو متكلم ، ومن قامت به الإرادة فهو مريد ، وقال الأشعرية إذا كان الكلام مخلوقاً كان كلاماً للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات[(١)] ، فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضا من فعل الأفعال .

والقرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[(٢)] وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(٣)] وقوله ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(٤)] وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(٥)] وأمثال ذلك .

والشرع والعقل متفقان على أن العبد يُحْمَد ويُذَم على فعله ويكون حسنة له أو سيئة ، فلو لم يكن إلا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها[(٦)] .

إذن شيخ الإسلام رحمه الله ردَّ على الجبرية من ناحتين :

(١) انظر : الإرشاد ، الجويني ، ١١٢ - ١١٥ .
(٢) السجدة : ١٧ .
(٣) فصلت : ٤٠ .
(٤) التوبة : ١٠٥ .
(٥) البقرة : ٢٢٧ .
(٦) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ١١٩ — ١٢٠ .

تستدل على جهلك وتفطن لما تورد عليك حصائد لسانك ، فإنك لا تحتج بشيء إلا وهو راجع عليك وآخذ بحلقك)[1] .

وادعى الجهمية أن العرش إنما هو أعلى الخلق ، أي كل ما علاك فهو عرش سواء كان سماء أو سقفاً أو غير ذلك[2] .

ثم كذَّب الدارميُّ الجهميةَ وزعيمَهم بشراً المريسي بقول الله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[3] فقال : (والله مكذبك في كتابه إذ يقول ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[4] فكيف يمكن أن العرش أعلى الخلق وكان العرش على الماء قبل الخلق ، إذ لا أرض ولا سماء ، ولا خلق غير العرش والماء ؟)[5] .

وقال أيضاً : (ومما يزيدك تكذيباً قول الله تعالى ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾[6] وقال ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾[7] أفتحمل الملائكة في دعواك أعلى الخلق ، أو أسفله ، أو شيئاً من الخلق ؟ وقال ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[8] أيحملون يومئذ أعلى الخلق ويتركون أسفله ؟ أم الملائكة تحمل الناس يوم القيامة والسموات ، لأنها أعلى الخلق ؟ فهل سمع سامع بمحال من الحجج أبين من هذا ؟ مع ما فيه من التكذيب بالعرش نصاً ودفعه رأساً ، لأنه إن يكن العرش في دعواه أعلى الخلق فقد بطل العرش الذي هو أعلى ، لأن العرش غير ما سواه من الخلق ، إذ كان مخلوقاً على الماء قبل الخلق ، ففي أي كلام العرب وجدت هذا أيها المعارض : أن العرش أعلى الخلق فبينه لنا وإلا فإنك من المبطلين ، والله مكذبك في كتابه

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٤٥٩ — ٤٦٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١/ ٤٣٧ و ٤٦٥ .
(٣) هود : ٧ .
(٤) هود : ٧ .
(٥) نقض الإمام أبي سعيد ، الدارمي ، ١/٤٣٧ .
(٦) الزمر : ٧٥ .
(٧) غافر : ٧ .
(٨) الحاقة : ١٧ .

هذه القدرة فحاشا لله لم يقله سني وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال .

وإن أريد بالتأثير نوع معاونة إما في صفة من صفات الفعل ، أو في وجه من وجوهه كما قاله كثير من متكلمي أهل الاثبات ، فهو أيضا باطل بما به بطل التأثير في ذات الفعل، إذ لا فرق بين إضافة الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل ، وهل هو إلا شرك دون شرك . . .

وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة ، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة، كما خلق النبات بالماء وكما خلق الغيث بالسحاب ، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب فهذا حق ، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات ، وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً ، وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الحكيم الخبير ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) فبين أنه المُعَذِّب ، وأن أيدينا أسباب وآلات وأوساط وأدوات في وصول العذاب إليهم) (٤) .

وشيخ الإسلام رحمه الله يبين في هذا النص أن لفظ التأثير لفظ مجمل ويجب الاستفصال فيه كما هو منهج أهل السنة والجماعة وذلك لدقتهم في الرد على الفرق المخالفة ، ومن الدقة أيضاً التفريق بين ما خلقه الله في العبد من صفات بتوسط وبغير توسط وهي نفس العبد وسائر صفاته .

---

(١) الأعراف : ٥٧ .

(٢) النمل : ٦٠ .

(٣) التوبة : ١٤ .

(٤) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٣٨٩ – ٣٩٠ .

وكذلك مما يتعلق بمسألة استطاعة العبد مسألة الفعل والمفعول فإن الأشاعرة قالوا : أن الفعل هو المفعول ، فبيَّن شيخ الإسلام الصواب في هذه المسألة ، فقال : (ولكن طائفة من أهل الكلام ـ المثبتين للقدر ـ ظنوا أن الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ، فلما اعتقدوا أن أفعال العباد مخلوقة مفعولة لله ، قالوا فهي فعله ، فقيل لهم مع ذلك : أهي فعل العبد ؟ فاضطربوا ، فمنهم من قال : هي كسبه لا فعله ، ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق ، ومنهم من قال : بل هي فعل بين فاعلين ، ومنهم من قال: بل الرب فعل ذات الفعل ، والعبد فعل صفاته .

والتحقيق ما عليه أئمة السنة ، وجمهور الأمة ، من الفرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، فأفعال العباد هي كغيرها من المحدثات مخلوقة ، مفعولة لله : كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة ، مفعولة لله ، وليس ذلك نفس خلقه وفعله ، بل هي مخلوقة ومفعولة ، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به ، ليست قائمة بالله ، ولا يتصف بها فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته ، وإنما يتصف بخلقه وفعله ، كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته ، والعبد فاعل لهذه الأفعال ، وهو المتصف بها ، وله عليها قدرة ، وهو فاعلها باختياره ومشيئته ، وذلك كله مخلوق لله ، فهي فعل العبد ، وهي مفعولة للرب)[1] .

وقد شرح رحمه الله هذا الأمر أكثر في موضع آخر فقال : (قول القائل : هذا فعل هذا ، وفعل هذا : لفظ فيه إجمال ، فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل ، وتارة يراد به مسمى المصدر . فيقول فعلت هذا أفعله فعلاً ، وعملت هذا أعمله عملاً ، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الإنسان وصيامه ونحو ذلك فالعمل هنا هو المعمول ، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل ، وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب وبناء الدار ونحو ذلك ، فالعمل هنا غير المعمول . . .

والمقصود هنا : أن القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد ، فإن أراد

---

(١) المصدر السابق ، ٢/ ١١٩ — ١٢٠ .

بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل ، ولكن من قال هي فعل الله وأراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق)[(١)] .

أما ابن القيم رحمه الله فقد فرَّق أيضاً بين الفعل والمفعول لإثبات قدرة العبد وإرادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازاً ، مع إثبات أن فعل العبد مخلوق لله سبحانه حقيقة ، فضرب رحمه الله لذلك أمثلة من القرآن الكريم وعلَّق عليها ، منها :

قول المؤمنين في دعائهم ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾[(٢)] قال ابن القيم : (فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان ، ولكن التصبير والتثبيت فعل الرب تعالى ، وهو المسؤول ، فالصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة)[(٣)] .

وقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٤)] وقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾[(٥)] قال ابن القيم : (وتأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضاً ويميل إليه ويحبه ، وهو من أفعالها الاختيارية ، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره)[(٦)] .

وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾[(٧)] قال ابن القيم : (فأخبر سبحانه بفعلهم ، وهو الهم ، وبفعله وهو كفهم عما همُّوا به ، ولا يصح أن يقال إنه سبحانه أشلَّ أيديهم وأماتهم وأنزل عليهم عذاباً حال بينهم وبين ما همُّوا به ، بل كف قدرهم وإرادتهم مع سلامة حواسهم وبنيتهم وصحة آلات الفعل منهم ، وعند القدرية هذا محال ، بل هم

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ١٢١ — ١٢٢ .
(٢) البقرة : ٢٥٠ .
(٣) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١٦١/١ .
(٤) الأنفال : ٦٢ — ٦٣ .
(٥) آل عمران : ١٠٣ .
(٦) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١٦٣/١ .
(٧) المائدة : ١١ .

الذين يكفون أنفسهم ، والقرآن صريح في إبطال قولهم)[1] .

وقوله تعالى ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[2] قال ابن القيم : (وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه ، والتعادي والتباغض أثره وهو محض فعلهم ، وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد ، فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعل الرب دون المتعاديين والمتباغضين ، والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة ، وأهل الصراط السوي جعلوا ذلك فعلهم وهو أثر فعل الله وقدرته ومشيئته ، كما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[3] فالتسيير فعله ، والسير فعل العباد وهو أثر التسيير، وكذلك الهدى والإضلال فعله ، والإهتداء والضلال أثر فعله وهما أفعالنا القائمة بنا ، فهو الهادي والعبد المهتدي ، وهو الذي يضل من يشاء ، والعبد الضال ، وهذا حقيقة ، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان)[4] .

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾[5] قال ابن القيم : (فهاهنا أمران : تجنيب عبادتها واجتنابه ، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها ، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله ، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله)[6] .

وهذا من باب ضرب الأمثال للتفريق بين فعل الله وفعل العبد ، وهذا يدل على دقة وقوة فهم أهل السنة والجماعة للأمور المختلف فيها والأخذ بجميع جوانب الموضوعات دون إغفال شيء منها كما فعلت المبتدعة من القدرية والجبرية وغيرهما .

وكذلك شيخ الإسلام رحمه الله فرق وقسم وفصل الخطاب في مسألة استطاعة

---

(١) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/١٦٣ .
(٢) المائدة : ١٤ .
(٣) يونس : ٢٢ .
(٤) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/١٦٦ .
(٥) إبراهيم : ٣٥ .
(٦) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/١٦٧ .

العبد ، حيث أن الأشاعرة قالوا : أن استطاعة الإنسان لا تكون إلا مع الفعل لذلك فإن العبد لا يستطيع غير ما يفعله وهو ما تقدم به العلم والكتابة ، والمعتزلة القدرية قالوا إن الاستطاعة قد تتقدم الفعل وقد توجد دون الفعل لذلك فإن الإنسان يكون مستطيعاً لما لم يفعله ولما علم وكتب إنه لا يفعله[(1)] .

فبيَّن ابن تيمية رحمه الله إن الاستطاعة جاءت في كتاب الله على نوعين :

النوع الأول : الاستطاعة المشترطة للفعل وهي مناط الأمر والنهي ، وهي تكون قبل الفعل ، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[(2)] فإن الاستطاعة هنا لو كانت توجد مع الفعل لوجب أن يكون الحج لا يجب إلا على من حج ، وكذلك قوله تعالى ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾[(3)] فإذا كانت الاستطاعة مع الفعل لكان صيام الشهرين لا يجب إلا على من صام ، وكذلك قول الرسول ﷺ لعمران بن حصين ﷺ : ((صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب))[(4)] فلو كانت الاستطاعة هنا مع الفعل لوجب القيام في الصلاة على من قام، ولكان معنى قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾[(5)] على الذين يصومون الشهر طعام مسكين ، والآية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام والإطعام في شهر رمضان ، فهذا هو النوع الأول وهي الاستطاعة قبل الفعل .

أما النوع الثاني فهي الاستطاعة مع الفعل أي المقترنة بالفعل الموجبة له وذلك في مثل قول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾[(6)] وقوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ،

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢٩٠/٨ .
(2) آل عمران : ٩٧ .
(3) النساء : ٩٢ .
(4) رواه البخاري ، أبواب تقصير الصلاة ، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب ، رقم الحديث ١١١٧ .
(5) البقرة : ١٨٤ .
(6) الكهف : ١٠١ .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [1] فهذه الاستطاعة ليست هي الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي ، لأن الاستطاعة الأولى المشروطة في الأمر والنهي إذا انتفت انتفى الأمر والنهي والوعد والوعيد والحمد والذم والثواب والعقاب ، لأن الكفار في هذه الآيات مأمورون منهيون موعودون متوعدون .

وبيَّن رحمه الله أنه إذا عرف هذا التقسيم للاستطاعة فإنه حينئذ يكون إطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل ولا يستطيع خلاف المعلوم المقدور ، وأيضاً إطلاق القول بأن استطاعة الفاعل والتارك سواء وأن الفاعل لا يختص عن التارك باستطاعة خاصة ، فإن كلا الإطلاقين خطأ وبدعة[2] .

وابن تيمية رحمه الله تعالى أورد اعتراضاً قد يُعترض به فيقال : إن الاستطاعة المقارنة للفعل هي نفسها الاستطاعة المنفية في قول الخضر لموسى عليه السلام ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [3] فبيَّن رحمه الله أن هذا الكلام غير صحيح لأنه لو كانت هذه الاستطاعة المنفية في قول الخضر هي الاستطاعة المقارنة في الفاعل والتارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين وبين المؤمنين ، ولا بين الخضر وموسى ، فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله ، والقرآن يدل على أن هذه الاستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل ، فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التي تصد قلبه عن إرادة الفعل وعمله ، وبكل حال فهذه الاستطاعة منتفية في حق من كتب عليه أنه لا يفعل بل وقضي عليه بذلك[4] .

وكذلك فقد ردَّ على الأشاعرة أيضاً في عدم إثباتهم أسباباً وقوى وطبائع في المخلوقات وقالوا : أن الله يفعل عندها لا بها ، فبيَّن رحمه الله أنه يلزمهم بذلك أن لا يكون فرق بين

---

(١) يس : ٨ – ٩ .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٢٩٠ – ٢٩٢ ، ومنهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، ١/ ٤٠٧ – ٤٠٨ ، ٣/ ٤٢ – ٥٠ و١٠٦ .
(٣) الكهف : ٦٧ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢٩٢/٨ .

القادر والعاجز ، وإن أثبتوا قدرة وقالوا أنها مقترنة بالكسب ، قيل لهم :لم تثبتوا فرقاً معقولاً بين ما تثبتونه من الكسب وبين ما تنفونه من الفعل ولا بين القادر والعاجز إذا كان مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة فإن فعل العبد يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران فلا فرق بين القدرة وغيرها .

وأهل السنة يثبتون للعبد قدرة ويقولون إن تأثيرها في مقدورها كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها والسبب ليس مستقلاً بالمسبب بل يفتقر إلى ما يعاونه ، فكذلك قدرة العبد ليست مستقلة بالمقدور وأيضاً فالسبب له ما يمنعه ويعوقه ، وكذلك قدرة العبد ، والله تعالى خالق السبب وما يعينه وصارف عنه ما يعارضه ويعوقه وكذلك قدرة العبد(١) .

هذه بعض أدلة أهل السنة العقلية في إثبات قدرة العبد واختياره .

---

(١) انظر : منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، ٣/ ١١٢ – ١١٥ .

المبحث الثالث

الفرق بين الإرادة والمحبة

اشترك الجبرية والقدرية في القول بأن مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد ، ولكنهم افترقوا في تفاصيل هذا القول ، فقال المعتزلة القدرية : إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان فلا يشاؤه ، وهو يقع من غير مشيئة الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1] .

وهؤلاء قد تم بيان بعض ردود وأدلة أهل السنة العقلية عليهم في المبحث الأول من هذا الفصل[2] .

أما الجهمية الجبرية فقد أثبتوا المشيئة لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا بمشيئة الله وحده ، ولكنهم قالوا : إن الله يشاء الكفر والفسوق والعصيان فهو إذن يحبه ويرضاه ، وبيَّن ابن تيمية إن أبا الحسن الأشعري وأكثر أصحابه وافقوا الجهمية في هذا القول فلم يفرقوا بين المشيئة والمحبة والرضا[3] .

فمن أدلة أهل السنة العقلية في الرد على ذلك ما بينه ابن تيمية رحمه الله من إن حملة الشريعة من الخلف والسلف متفقين على أنه لو حلف حالف ليفعلن واجباً أو مستحباً ، كقضاء دين يضيق وقته ، أو عبادة يضيق وقتها ، وقال : إن شاء الله ، ثم لم يفعله لم يحنث وهذا يبطل قول القدرية ، ولو قال : إن كان الله يحب ذلك ويرضاه فإنه يحنث ، كما لو قال : إن كان يندب إلى ذلك ويرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وهذا يرد على الجهمية ومن اتبعهم كأبي الحسن الأشعري ومن وافقه من المتأخرين[4] .

وكونه يبطل قول القدرية إذا لم يحنث بقول إن شاء الله ، لأن القدرية لا يرون

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٨٢ و٣٤٠ و ٤٧٤ .
(٢) انظر : ص ٤٩٨ — وما بعدها .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٣٤١ و ٤٧٤ .
(٤) المصدر السابق ، ٨/٤٧٥ .

الإرادة الكونية التي تشمل الطاعات والمعاصي وأنها لازمة الوقوع ، ويقولون بالإرادة الشرعية فقط ، وينكرون أيضاً مرتبة الخلق وأن العبد خالق فعل نفسه ، فعلى قولهم فإن هذا الحالف يحنث فخالفوا جمهور السلف والخلف ، وكونه يبطل قول الجبرية في أن يحنث إذا اشترط فقال : إن كان الله يحب ذلك ويرضاه ، لأن الجبرية لا تفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ويرون أن الإرادة الشرعية التي تستلزم المحبة هي نفسها الإرادة الكونية التي تشمل الطاعات والمعاصي ، أي المشيئة ، فإنهم يقولون إذا شاء الله المعاصي والكفر فإنه يحبه ويرضاه — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً —.

والسلف رحمة الله عليهم فرَّقوا بين المشيئة والمحبة ، فبينوا أن الإرادة في كتاب الله نوعان :

الأول : الإرادة بمعنى المشيئة لما خلق ، كقوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)].

والثاني : الإرادة بمعنى المحبة والرضى لما أمر به وإن لم يخلقه ، كقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[(٢)][(٣)].

قال ابن أبي العز : (والمحققون من أهل السنة يقولون الإرادة في كتاب الله نوعان :

- إرادة قدرية كونية خلقية .
- وإرادة دينية أمرية شرعية .

فالإرادة الشرعية : هي المتضمنة للمحبة والرضى .

والكونية : هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات ، وهذا كقوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٤٧٦ .

يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [(١)] وقوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [(٢)] وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [(٣)].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية ، فكقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [(٤)] وقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [(٥)] ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [(٦)] وقوله تعالى ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [(٧)] وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [(٨)] فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح : هذا يفعل ما لا يريده الله ، أي لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به .

وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة معلقة بفعله ، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) هود : ٣٤ .
(٣) البقرة : ٢٥٣ . هود : ٣٤ .
(٤) البقرة : ١٨٥ .
(٥) النساء : ٢٦ .
(٦) النساء : ٢٧ — ٢٨ .
(٧) المائدة : ٦ .
(٨) الأحزاب : ٣٣ .

وان كان مريداً منه فِعْله)[(١)] .

وبيَّن ابن تيمية رحمه الله تعالى أن هذا التفريق يفصل النِزَاع في مسألة الأمر : هل هو مستلزم للإرادة أم لا ؟ فإن القدرية تزعم أنه مستلزم للمشيئة ، فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن ، والجهمية قالوا : إنه غير مستلزم لشيء من الإرادة ، لا لحبه له ، ولا رضاه به إلا إذا وقع ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكذلك عندهم ما أحبه ورضيه كان ، وما لم يحبه ولم يرضه لم يكن[(٢)] .

فقال رحمه الله : (وفصل الخطاب : أن الأمر ليس مستلزما لمشيئة أن يخلق الرب الآمر الفعل المأمور به ، ولا إرادة أن يفعله ، بل قد يأمر بما لا يخلقه ، وذلك مستلزم لمحبة الرب ورضاه من العبد أن يفعله ، بمعنى أنه إذا فعل ذلك أحبه ورضيه ، وهو يريده منه إرادة الآمر من المأمور بما أمره به لمصلحته ، وإن لم يرد أن يخلقه وأن يعينه عليه ، لما له في ترك ذلك من الحكمة ، فإن له حكمة بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه .

وفرق بين أن يريد أن يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلاً يحسن إليه ويتفضل عليه بالإعانة له على مصلحته ، وبين أن يأمر غيره بما يصلحه ويبين له ما ينفعه إذا فعله ، وإن كان لا يريد هو - نفسه - أن يعينه لما في ترك إعانته من الحكمة ، لكون الإعانة قد تستلزم ما يناقض حكمته ، والمنهي عنه الذي خلقه هو يبغضه ويمقته ، كما يمقت ما خلقه من الأعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ، ولكنه خلقها لحكمة يحبها ويرضاها .

ونحن نعلم أن العبد يريد أن يفعل ما لا يحبه لإفضائه إلى ما يحبه ، كما يشرب المريض الدواء الكريه لإفضائه إلى ما يحبه من العافية ، ويفعل ما يكرهه من الأعمال لإفضائه إلى مطلوبه المحبوب له ، ولا منافاة بين كون الشيء بغيضاً إليه مع كونه مخلوقاً له لحكمة يحبها، وكذلك لا منافاة بين أن يحبه إذا كان ولا يفعله ، لأن فعله قد يستلزم تفويت ما هو

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ١/ ٧٩ — ٨٠ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٤٧٦ — ٤٧٧ .

أحب إليه منه ، أو وجود ما هو أبغض إليه من عدمه) [1] .

وبهذه التقسيم والتفريق والتفصيل وضرب الأمثال ، وبهذه الاستدلالات الدقيقة من أهل السنة تتبين قوة أدلتهم العقلية وقوة ردودهم ، وبالتالي يتبين ضعف أدلة المخالفين وتهافتها وعدم وضوحها لعدم التفريق بين المختلفات والتسوية بين المتماثلات كما هو واضح من أدلتهم وأقوالهم .

(١) انظر : المصدر السابق ، ٨/ ٤٧٧ – ٤٧٨ .

الفصل الرابع

خلق الله سبحانه لكل شيء

ويشمل :

المبحث الأول : دخول أفعال العباد في خلق الله .

المبحث الثاني : تعليل أفعال الله .

المبحث الأول

دخول أفعال العباد في خلق الله

أثبت أهل السنة والجماعة خلق الله سبحانه وتعالى لكل شيء لقوله تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[1] بما في ذلك أفعال العباد لقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] وقوله ﷺ : ﴿ اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها . . . ﴾ الحديث[3] ، أما المعتزلة القدرية فقد أثبتوا خلق الله للعبد وأنكروا خلقه لفعل العبد وادعوا أن العبد خالق فعل نفسه[4] .

ومن أدلة أهل السنة العقلية في إثبات خلق الله لأفعال العباد ما حدث بين إياسُ بن معاوية[5] رحمه الله وبين غيلانَ الدمشقي حيث قال إياس لغيلان : (أسألك عن مسألة واحدة ، وتسألني عن مائة مسألة) فقال أصحاب غيلان : (قد أنصفك) ، فقال غيلان : (فسلني) ، قال إياس : (أخبرني ، ما خير شيء ذكر الله في الإنسان ؟) قال غيلان : (العقل) فقال إياس : (فمقسوم هو أم مباح ؟) فسكت غيلان فلم يجبه ، فقال له أصحابه : (أجبه) فقام ولم يجبه ، ثم قال لهم : (ويلكم أتدرون عن أي شيء سألني ؟ إن قلت : مباح ، قال : فما لك لا تأخذه كله ؟ وإن قلت : مقسوم ، رجعت

---

(١) الرعد : ١٦ .

(٢) الصافات : ٩٦ .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ، رقم الحديث ٢٧٢٢

(٤) انظر : شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ، ٣٢٣ ، ت عبدالكريم عثمان ، مكتبة وهبة ، مصر ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

(٥) هو القاضي أبو واثلة إياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن سوأة بن سارية بن ذبيان بن ثعلبة بن سليم بن أوس بن مزينة المزني ، وهو اللسن البليغ والألمعي المصيب والمعدود مثلاً في الذكاء والفطنة ورأسا لأهل الفصاحة والرجاحة ، كان صادق الظن لطيفاً في الأمور مشهوراً بفرط الذكاء وبه يضرب المثل في الذكاء ، توفي سنة ١٢٢هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ١/ ٢٤٧ — ٢٥٠ ، وسير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١٥٥/٥ ، وشذرات الذهب ، عبدالحي الدمشقي ، ١٦٠/١ .

إلى قوله)[1] .

وفي هذه المناظرة اتبع إياس رحمه الله أسلوب محاصرة الخصم ومن ثم إفحامه ، وهذا ما حصل لغيلان بالفعل فقد أفحم وانقطع عن الجواب لأنه سواء أجاب بنعم أو بلا فهو مهزوم مقطوع ، لأن غيلان يرى كما ترى القدرية أتباعه أن العبد خالق فعل نفسه ، فلو كان كلامهم هذا صحيحاً لكان باستطاعة كل إنسان أن يأخذ ما يشاء من العقل إذ هو خالق فعل نفسه ، أما لو اعترف أنه مقسوم أي أن الله هو الذي قسم العقل بين عباده كيف يشاء ، لرجع إلى قول أهل السنة في خلق أفعال العباد ولناقض نفسه بهذا الاعتراف .

أما الإمام الطبري رحمه الله فقد أنكر على المعتزلة القدرية قولهم في خلق أفعال العباد وردَّ عليهم بعدة ردود ، منها :

أنه لو كان القول كما قالت القدرية الذين زعموا أن الله تعالى قد فوض الأمر إليهم فهم يفعلون ما شاؤوا ، لبطلت حاجة الخلق إلى الله تعالى في أمر دينه ، وارتفعت الرغبة إليه في معونته إياهم على طاعته ، وفي رغبة المؤمنين في كل وقت أن يعينهم على طاعته ويوفقهم ويسددهم ، ما يدل على فساد ما قالوا[2] .

فالإمام الطبري رحمه الله استدل بحاجة العباد إلى ربهم في كل حين على أن أفعال العباد مخلوقة لله وليس لهم ، إذ لو كانت مخلوقة لهم لما احتاجوا إلى ربهم بشيء أبداً .

أما الإمام الأصفهاني فقد أورد أدلة نقلية عقلية على خلق الله لأفعال العباد منها :

أنه استدل بقوله تعالى ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾[5] ثم قال رحمه الله : (فنفى سبحانه وتعالى القدرة

---

(١) انظر : الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ٢/ ٧٨ – ٧٩ .
(٢) انظر : التبصير في معالم الدين ، الطبري ، ١٧١.
(٣) الصافات : ٩٦ .
(٤) النحل : ٧٥ .
(٥) النحل : ٧٦ .

على الفعل عند العبد ، وأعلمنا أن فعل العبد وقدرته على الفعل شيء ، وهو من خلق الله تعالى لا من خلقه ، لأن نفي قدرته على جميع الأشياء ، أو جعل الشيء نكرة ، والنكرة تعم الجنس ، فدل ذلك على أن العبد لا يقدر على خلق عمل من أعماله ، وأن عمله وقدرته على العمل من الله تعالى لا منه)[1] .

ثم بين رحمه الله أن الدليل على ذلك قوله تعالى للنبي ﷺ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[2] أي ليس لك فيما تتصرف فيه من الأمر والأعمال والقدرة عليها شيء ، ولا يمكنك أن تخلق عملاً أو فعلاً من نفسك ، بل ما تفعله وتعمله مخلوقاً بخلق الله تعالى إياه ، ومفعوله بقدرته وتوفيقه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله[3] .

وأتى بدليل آخر وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[4] فبيَّن أنه لو كان العبد يقدر على خلق أو عمل من تلقاء نفسه لكان يمكنه أن يهدي من أحب ، لأن الهداية مصدر يتفرع منه الفعل ، وقوله : لا تهدي فعل ، فلما نفى القدرة على هذا الفعل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما خصه به وأكرمه به من المعجزات ، دل على أن غيره من العباد أكثر عجزاً وأقل إمكاناً على خلق فعل من أفعاله[5] .

ثم أتى بدليل عقلي فقال : (ولأن الإنسان لو قدر على خلق فعل من أفعاله ، أو حركة من حركاته ، لكان يمكنه أن يتغوط ولا يبول ، وينام ولا يغمض أجفانه ، وأن تفتح أجفانه ساعة مديدة ، لا يضرب بعضها على بعض ، فلما لم يمكنه ذلك دل على أن أفعاله مخلوقة لله تعالى .

فإن قيل : يريد بخلق أفعاله حركته وسكونه ، يقال : إن أفعال الحي مخلوقه ، لأن

---

(١) الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ٢/٤٤٤ .
(٢) آل عمران : ١٢٨ .
(٣) انظر : الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ٢/٤٤٤ .
(٤) القصص : ٥٦ .
(٥) انظر : الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ٢/ ٤٤٤ — ٤٤٥ .

الحي لا يخلو من حركة وسكون ، فحركته فعله وسكونه فعله ، وهما مخلوقان معه في ابتداء خلقه ، لأنه كما أوجده أوجد فعله معه غير منفصل عنه ، وعدم بعدمه فصار جزءاً من أجزاء ذاته ، فخالق كل جزء من أجزاء ذاته ، وكل صفة من صفات ذاته هو الله وحده .

لأن الجزء من أجزاء الذات هو الذات بعينه ، وكذلك الصفة الذاتية هي الذات بعينها فلا يجوز أن يكون الله تعالى خالقاً لبعض الذات ، ولا يكون خالقاً لبعضه)[1] .

فالأصفهاني رحمه الله تعالى يبين أن خالق الكل هو خالق الجزء ، وأن القول بأن الله سبحانه خالق العبد دون فعله إنما هو تفريق بين المتماثلات التي يجب التسوية بينها في الأحكام .

أما ابن تيمية رحمه الله تعالى فقد استدل على خلق الله لأفعال العباد بقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[2] فقال : (فلو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم بل كان ذلك إليهم إن شاؤوا عصوه وإن شاؤوا أطاعوه فلم يملأها)[3] .

وها هو ابن القيم رحمه الله تعالى فقد بيَّن أن القدرية ضلت وأضلت عندما اعتقدت استبداد العبد بالاختراع وانفراده بالخلق لذلك فقد شرح هذا الأمر وضرب لذلك مثلاً فقال : (فإنا لما أضفنا فعل العبد إلى تقدير الإله سبحانه ، قلنا أحدث الله تعالى القدرة في العبد على أقدار أحاط بها علمه وهيأ أسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل وأراد من العبد أن يفعل ، فأحدث فيه دواعٍ مستحثة وخيرة وإرادة وعلم أن الأفعال ستقع على قدر معلوم ، فوقعت بالقدرة التي اخترعها العبد على ما علم وأراد ، فاختيارهم واتصافهم بالاقتدار والقدرة خلق الله ابتداء ومقدورها مضاف إليه مشيئة وعلماً وقضاءً وخلقاً من حيث أنه نتيجة ما انفرد بخلقه وهو القدرة ولو لم يرد وقوع مقدورها لما أقدره

(١) الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ٢/٤٤٥ .
(٢) السجدة : ١٣ .
(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/٤٩٣ .

عليه ولما هيأ أسباب وقوعه .

ومن هُدِيَ لهذا استمر لـه الحق المبين فالعبد فاعل مختار مطالب مأمور منهي وفعله تقدير لله . . .

ونحن نضرب في ذلك مثلاً شرعياً يستروح إليه الناظر في ذلك فنقول : العبد لا يملك أن يتصرف في مال سيده ولو استبد بالتصرف فيه لم ينفذ تصرفه فإذا أذن لـه في بيع ماله ، فباعه نفذ ، والبيع في التحقيق معزو إلى السيد من حيث أن سببه أذنه ولولا إذنه لم ينفذ التصرف ولكن العبد يؤمر بالتصرف وينهى ويوبخ على المخالفة ويعاقب فهذا والله الحق الذي لا غطاء دونه ولا مراء فيه لمن وعاه حق وعيه وأما الفرقة الضالة فإنهم اعتقدوا انفراد العبد بالخلق ثم صاروا إلى أنه إذا عصى فقد انفرد بخلق فعله والرب كاره لـه فكان العبد على هذا الرأي الفاسد مزاحماً لربه في التدبير موقعاً ما أراد إيقاعه شاء الرب أو كره)[(١)] .

ومن الردود الجميلة والقوية على المعتزلة القدرية ما ذكره ابن القيم أيضاً في مناظرة حدثت بين سنِّي وقدري ، ادعى فيها القدري أنه لو كان الله خالقاً أفعال العباد للزمته الأمور التي تقوم بالعبد من الأكل والشرب والسرقة والزنا – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – .

فردَّ عليه السنِّي بقوله : (هذا باطل ودعوى كاذبة ، فإنه سبحانه لا يشتق له اسم مما خلقه في غيره ولا يعود حكمه عليه ، وإنما يشتق الاسم لمن قام به ذلك ، فإنه سبحانه خلق الألوان والطعوم والروائح والحركات في محالها ، ولم يشتق له منها اسم ولا عادت أحكامها إليه ، ومعنى عود الحكم إلى المحل الإخبار عنه بأنه يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ، . . . ومن ههنا عُلِمَ ضلال المعتزلة الذين يقولون أن القرآن مخلوقاً خلقه الله في محل ثم اشتق له اسم المتكلم باعتبار خلقه له وعاد حكمه إليه فأخبر عنه أنه تكلم به ، ومعلوم أن الله سبحانه خالق صفات الأجسام وأعراضها وقِوَاها ، فكيف جاز أن يشتق له اسم مما

---

(١) شفاء العليل ، ابن القيم ، ٣١٧/١.

أن يقولوا : أشهد أن الذي اسمه لا إله إلا هو وأشهد أن الذي اسمه محمد رسول الله .

وهذا خلاف ما وردت به الشريعة وخلاف ما عليه المسلمون)[١] .

وقال أيضاً : (وكذلك هذه الأَيْمَان التي بالله تبارك وتعالى كلها عندهم يجب أن تكون مخلوقة والناس يحلفون بالمخلوق دون الخالق ، لأن الاسم غير المسمى ، والاسم مخلوق عندهم)[٢] .

وكذلك ابن القيم عند شرحه لحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه : ((ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً))[٣] .

قال رحمه الله : (وقد دل الحديث على أن أسماء الله غير مخلوقة بل هو الذي تكلم بها وسمى بها نفسه ولهذا لم يقل بكل اسم خلقته لنفسك ولو كانت مخلوقة لم يسأله بها فإن الله لا يُقْسَم عليه بشيء من خلقه فالحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم وأيضا فإن أسماءه مشتقة من صفاته وصفاته قديمة به فأسماؤها غير مخلوقة . . . فقوله في الحديث ((سميت به نفسك)) ولم يقل خلقته لنفسك ولا قال سماك به خلقك دليل على أنه سبحانه تكلم بذلك الاسم وسمى به نفسه كما سمى نفسه في كتبه التي تكلم بها حقيقة بأسمائه)[٤] .

وهكذا نرى الاستخدامات العقلية والحجج المتنوعة القائمة على العقل عند أهل السنة لنقض كلام الجهمية والمعتزلة في قولهم بخلق الأسماء ، مع أن هؤلاء المخالفين بنوا

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ٢/٢٣١ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ، ١/٣٩١ ، صححه الألباني ، انظر : السلسلة الصحيحة ، ١/ ٣٨٣ — ٣٨٧ .

(٤) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١/ ٢٧٦ — ٢٧٧ .

ثم بين رحمه الله أن كلام الله سبحانه لا يكون مخلوقاً أبداً لأن كونه مخلوقاً على زعمهم يلزم منه أن يكون الله قبل أن يخلق الكلام منقوصاً مضطراً إلى الكلام حتى خلقه وكملت ربوبيته وتمت وحدانيته بمخلوق في دعواهم[(1)].

وقال أيضاً : (ولا يقاس (كلام الله) بـ (بيت الله) و (عبد الله) و (خلق الله) و (روح الله) ، لأن الخلق ليس من الله ولا من صفاته ، وكلامه صفته ومنه خرج ، فلا يضاف إلى الله من الكلام إلا ما تكلم به ، ولو جاز أن ينسب كلام مخلوق إلى الله ، فيكون لله كلاماً وصفة ، كما يضاف إليه (بيت الله) و (عبد الله) لجاز أن تقول : كل ما يُتَكَلَّم به آناء الليل والنهار ، من حق أو باطل أو شعر أو غناء أو نوح ، كلام الله ، فما فضل القرآن في هذا القياس على سائر كلام المخلوقين إن كان كله ينسب إلى الله ، ويقام لله صفة وكلاماً في دعواكم ؟ فهذا ضلال بيِّن ، مع أنا قد كفينا مؤنة النظر بما في كتاب الله من البيان ، وفي الأثر من البرهان ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[(2)].

ومن دقة أهل السنة في الرد على الجهمية النفاة أنهم كانوا يفصِّلون في مسألة القرآن بين ما هو مخلوق وما هو غير مخلوق ، من ذلك قول الإمام أحمد : (يتوجه العبد بالقرآن إلى الله لخمسة أوجه كلها غير مخلوقة ، حفظ بقلب ، وتلاوة بلسان ، وسمع بآذان ، ونظر ببصر ، وخط بيد ، فالقلب مخلوق ، والمحفوظ غير مخلوق ، والتلاوة مخلوقة ، والمتلو غير مخلوق ، والنظر مخلوق ، والمنظور إليه غير مخلوق)[(3)] . انتهى قول الإمام أحمد ، وأنا أُكْمِلُ وأقول : والسمع مخلوق ، والمسموع غير مخلوق ، وخط اليد مخلوق ، والمخطوط غير مخلوق ، تبعاً لما قاله الإمام المبجل أحمد بن حنبل .

وهكذا فإن ما ذكرته من أدلة أهل السنة العقلية في إثبات صفة الكلام والرد على القائلين بخلق القرآن إنما هو القليل من الكثير الذي لا تسمح صفحات هذه الرسالة الإلمام بها جميعاً ، لأن هذه المسألة من أخطر المسائل التي خالف فيها الجهمية والمعتزلة المبتدعة ، وهي أيضاً من أهم المسائل لأنها تتعلق بكتاب الله العظيم الذي جعله نوراً وهدىً يهدي الله به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم .

---

(1) انظر : المصدر السابق ، ١٩٢ .

(2) المصدر السابق ، ١٩٥ — ١٩٦ .

(3) رسالة في أن القرآن غير مخلوق ، إبراهيم الحربي ، ٣٢ .

بنسبة الظلم لله سبحانه لو كان خالقاً لأفعال العباد ، فقال : (فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم ، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء ، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب ، فجَعْله فاعلاً خير ، والمفعول شر قبيح ، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها فهو خير وحكمة ومصلحة ، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً .

وهذا أمر معقول في الشاهد فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يمدح به ، وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل ، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمةً وعدلاً وصواباً وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها فمن وضع العمامة على الرأس والنعل في الرجل والكحل في العين والزبالة في الكناسة فقد وضع الشيء موضعه ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلهما)[1] .

واستدل رحمه الله تعالى أيضاً بمعاني أسماءه الحسنى على نفي الظلم عنه سبحانه وتنزيهه عنه ، فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه ، فمن أسمائه سبحانه القدوس أي المنزه من كل شر ونقص وعيب ، ومنها السلام أي الذي سلم من العيوب والنقائص ، ومنها الكبير والمتكبر أي الذي تكبر عن السوء وعن ظلم عباده ، ومنها العزيز الذي له العزة التامة ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب فإن ذلك ينافي العزة التامة ، ومنها العلي الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص ، ومنها الحميد وهو الذي له الحمد كله فكمال حمده يوجب أن لا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته ، ومنها العدل والحكيم الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه[2] .

---

(١) شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/ ٦٦ — ٦٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ٢/ ٦٤ — ٦٧ .

وهذا استدلال عقلي نقلي ، لأن هذه الأسماء وردت في الكتاب والسنة ، وهما نزلا بلغة العرب المشهورة لديهم ، فكل اسم وصفة لله وردت فيهما فمعناهما مفهوم لدى العرب ، وبهذا استنبط رحمه الله الأدلة من معاني هذه الأسماء على نفي الظلم والشر والسوء عنه سبحانه .

المبحث الثاني

تعليل أفعال الله سبحانه وتعالى

أثبت أهل السنة والجماعة حكمة الله البالغة في خلق الخلق ، وأنه فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة ، وقد أطلع الله سبحانه عباده على بعض حِكَمِهِ في الخلق دون بعض ، فما عُلِمَ منها وجب الإيمان به ، وما لم يُعْلَم وجب الإيمان بأن هناك حكمة لا يعلمها إلا الله وحده ، لذلك فإن أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن القدر سر الله في خلقه ، وأن الله سبحانه طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده لحكمة هو يعلمها قد يطلع عليها بعض العباد دون بعض .

وقد بيَّن الأصفهاني رحمه الله تعالى سبب ذلك فقال : (فلو كشف لهم عن سر ما قُضِيَ وقُدِّرَ لهم وعليهم في عواقب أمورهم لافتتنوا ، وفتروا عن العمل ، واتكلوا على مصير الأمر في العاقبة فيكون قصاراهم عند ذلك أمن أو قنوط ، وفي ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء ، فلَطَفَ الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر ، وعلقهم بين الخوف والرجاء ، والطمع والوجل ، ليبلو سعيهم واجتهادهم ، وليميز الله الخبيث من الطيب ، ولله الحجة البالغة)[1] .

ولكن الأشاعرة أنكروا الحكمة في أفعال الله سبحانه وتعالى ، وقالوا أن الله خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لداع ولا لباعث ، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة[2] .

فبيَّن ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة

---

(١) الحجة في بيان المحجة ، الأصفهاني ، ٣١/٢ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨٣/٨ .

لأجلها فعل ، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل ، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها ، فذكر رحمه الله قرابة اثنين وعشرين نوعاً[(1)] ، منها :

- التصريح بلفظ الحكمة ، وما تصرف منه ، كقوله ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾[(2)] وقوله ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[(3)] وقوله ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[(4)(5)].
- إخباره أنه فعل كذا لكذا ، وأنه أمر بكذا لكذا ، كقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[(6)(7)].
- الإتيان بـ (كي) في التعليل ، كقوله تعالى ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾[(8)(9)].
- ذِكْر المفعول له وهو علة للفعل المعلل به ، كقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً ﴾[(10)(11)].
- الإتيان بأن والفعل المستقبل بعدها تعليلاً لما قبله ، كقوله ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾[(12)(13)].

---

(1) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/ ٨٨ — ١٢٢ .
(2) القمر : ٥ .
(3) النساء : ١١٣ .
(4) البقرة : ٢٦٩ .
(5) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/٨٨ .
(6) المائدة : ٩٧ .
(7) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/٨٨ .
(8) الحشر : ٧ .
(9) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/٩٦ .
(10) النحل : ٨٩ .
(11) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/٩٧ .
(12) الأنعام :١٥٦ .
(13) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ٢/٩٩ .

وهذا يدل على تدبر أهل السنة والجماعة لكتاب الله تعالى واستقرائهم له وفهمهم للآيات التي جاءت بأساليب مختلفة لإثبات حكمة الله في خلقه ، على العكس تماماً من الفرق التي أنكرت الحكمة بسبب إعراضها عن كتاب الله سبحانه ، واعتمادها بعد ذلك على العقول البشرية القاصرة المتفاوته في الفهم والإدراك ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[1] .

ثم أنه رحمه الله ذكر أدلة عقلية في إثبات الحكمة ، مستنبطة من القرآن الكريم أيضاً، منها :

- اتصافه بالرحمة وأنه أرحم الراحمين وإن رحمته وسعت كل شيء ، وذلك لا يتحقق إلا بأن تُقصد رحمةُ خَلْقه بما خلقه لهم ، وبما أمرهم به ، فلو لم تكن أوامره لأجل الرحمة والحكمة والمصلحة وإرادة الإحسان إليهم لما كان رحمة ، ولو حصلت بها الرحمة لكانت اتفاقية لا مقصودة وذلك لا يوجب أن يكون الآمر سبحانه أرحم الراحمين فتعطيل حكمته والغاية المقصودة التي لأجلها يفعل إنكار لرحمته في الحقيقة وتعطيل لها[2] .
- جوابه سبحانه لمن سأل عن التخصيص والتمييز الواقع في أفعاله بأنه لحكمة يعلمها هو سبحانه ، وإن كان السائل لا يعلمها ، كما أجاب الملائكة لما قال لهم ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] فقالوا ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[4] فأجابهم بقوله ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[5] ولو كان فعله مجرداً عن الحكم والغايات والمصالح لكان الملائكة أعلم به أن سألوا هذا السؤال ، ولم يصح جوابهم بتفرده بعلم مالا يعلمونه من الحكم

---

(١) النور : ٤٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ٢/١١٨ .
(٣) البقرة : ٣٠ .
(٤) البقرة : ٣٠ .
(٥) البقرة : ٣٠ .

والمصلحة التي في خلق هذا الخليفة ، ولهذا كان سؤالهم إنما وقع عن وجه الحكمة ولم يكن اعتراضاً على الرب تعالى ، ولو قدر أنه على وجه الاعتراض فهو دليل على علمهم أنه لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، فلما رأوا أن خلق هذا الخليفة منافٍ للحكمة في الظاهر سألوه عن ذلك(١) .

- أن تعطيل الحكمة والغاية المطلوبة بالفعل إما أن يكون لعدم علم الفاعل بها أو تفاصيلها وهذا محال في حق من هو بكل شيء عليم ، وإما لعجزه عن تحصيلها وهذا ممتنع في حق من هو على كل شيء قدير ، وإما لعدم إرادته ومشيئته الإحسان إلى غيره وإيصال النفع إليه وهذا مستحيل في حق أرحم الراحمين ، وإن إحسانه من لوازم ذاته فلا يكون إلا محسناً منعماً مناناً ، وإما لمانع يمنع من إرادتها وقصدها وهذا مستحيل في حق من لا يمنعه مانع عن فعل ما يريد ، وإما لاستلزامها نقصاً ومنافاتها كمالاً وهذا باطل بل هو قلب للحقائق وعكس للفطر ومناقضة لقضايا العقول ، فإن من يفعل لحكمة وغاية مطلوبة يحمد عليها أكمل ممن يفعل لا لشيء البتة ، كما أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق ، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يقدر ويريد أكمل ممن لا يتصف بذلك ، وهذا مركوز في الفطر مستقر في العقول فنفي حكمته بمنزلة نفي هذه الأوصاف عنه ، وذلك يستلزم وصفه بأضدادها وهي أنقص النقائص ، وجماع ذلك إن كمال الرب تعالى وجلاله وحكمته وعدله ورحمته وقدرته وإحسانه وحمده ومجده وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك وتشهد ببطلانه(٢) .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعض شُبَه نفاة الحكمة وقام بالرد عليها ، وقد كانت ردوده رحمه الله أدلة عقلية كافية في إقناع من يجادل بحثاً عن الحق لا من يجادل من أجل

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٢/١١٩ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١٢٢ - ١٢٣ .

الجدال ذاته ، لذلك فإني سأكتفي بذكر بعض هذه الأدلة – مع ذكر الشبهة قبل ذكر الأدلة ليتبين الأمر جلياً واضحاً – دون تعليق لغنى الأدلة عن ذلك .

ومن هذه الشُبَه قول الرازي : أن كل من فعل لغرض يكون ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره[1] .

وقد أجاب ابن القيم رحمه الله عن هذه الشبهة بستة عشر جواباً ، أكتفي بذكر وجهين منها :

أولاً : قوله رحمه الله : (أن قولك أن كل من فعل لغرض يكون ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره ، ما تعني بقولك أنه يكون ناقصاً بذاته ، أتعني به أنه يكون عادماً لشيء من الكمال الذي يجب أن يكون له قبل حدوث ذلك المراد ؟ أم تعني به أن يكون عادماً لما ليس كمالاً قبل وجوده ؟ أم تعني به معنى ثالثاً ؟ فإن عنيت الأول فالدعوى باطلة فإنه لا يلزم من فعله لغرضٍ حصولُه أولى من عدمه أن يكون عادماً لشيء من الكمال الواجب قبل حدوث المراد فإنه يمتنع أن يكون كمالاً قبل حصوله ، وإن عنيت الثاني لم يكن عدمه نقصاً فإن الغرض ليس كمالاً قبل وجوده وما ليس بكمال في وقت لا يكون عدمه نقصاً فيه فما كان قبل وجوده عدمه أولى من وجوده وبعد وجوده وجوده أولى من عدمه لم يكن عدمه قبل وجوده نقصاً ولا وجوده بعد عدمه نقصاً بل الكمال عدمه قبل وقت وجوده ، ووجوده وقت وجوده ، وإذا كان كذلك فالحكم المطلوبة والغايات من هذا النوع وجودها وقت وجودها هو الكمال وعدمها حينئذ نقص وعدمها وقت عدمها كمال ووجودها حينئذ نقص ، وعلى هذا فالنافي هو الذي نسب النقص إلى الله لا المثبت وإن عنيت به أمراً ثالثاً فلا بد من بيانه حتى ننظر فيه)[2] .

الثاني : قوله رحمه الله : (إن قولك يلزم أن يكون ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره ، أتعني به أن الحكمة التي يجب وجودها إنما حصلت له من شيء خارج عنه ؟ أم تعني أن

---

(1) انظر : شفاء العليل ، ابن القيم ، ١٢٧/٢ ، ومجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨٣/٨ .

(2) شفاء العليل ، ابن القيم ، ١٢٨/٢ .

تلك الحكمة نفسها غير له وهو مستكمل بها ، فإن عنيت الأول فهو باطل فإنه لا رب غيره ولا خالق سواه ولم يستفد سبحانه من غيره كمالاً بوجه من الوجوه ، بل العالم كله إنما استفاد الكمال الذي فيه منه سبحانه وهو لم يستفد كماله من غيره كما لم يستفد وجوده من غيره ، وإن عنيت الثاني فتلك الحكمة صفته سبحانه وصفاته ليست غيراً له ، فإن حكمته قائمة به وهو الحكيم الذي له الحكمة ، كما أنه العليم الذي له العلم ، والسميع الذي له السمع ، والبصير الذي له البصر ، فثبوت حكمته لا يستلزم استكمالاً بغير منفصل عنه كما أن كماله سبحانه بصفاته وهو لم يستفدها من غيره[(١)] .

ومن شبه نفاة الحكمة ، قولهم : أن جميع الأغراض يرجع حاصلها إلى شيئين : تحصيل اللذة والسرور ، ودفع الألم والحزن والغم ، والله سبحانه قادر على تحصيل هذين المطلوبين ابتداء من غير شئ من الوسائط ، ومن كان قادراً على تحصيل المطلوب ابتداء بغير واسطة كان توسله إلى تحصيله بالوسائط عبثاً وهو على الله محال[(٢)] .

فأجاب ابن القيم رحمه الله عن هذه الشبهة بأحد عشر وجهاً ، منها :

الأول : أن يقال لا ريب إن الله على كل شئ قدير ، لكن لا يلزم إذا كان الشيء مقدوراً ممكناً أن تكون الحكمة المطلوبة لوجوده يمكن تحصيلها مع عدمه ، فإن الموقوف على الشيء يمتنع حصوله بدونه ، كما يمتنع حصول الابن بكونه ابناً بدون الأب ، فإن وجود الملزوم بدون لازمه محال ، والجمع بين الضدين محال ، ولا يقال : فيلزم العجز لأن المحال ليس بشيء فلا تتعلق به القدرة ، والله على كل شئ قدير فلا يخرج ممكن عن قدرته البتة[(٣)] .

الثاني : قولك يلزم العبث وهو على الله محال ، فيقال : إن كان العبث عليه محالاً لزم أن لا يفعل ولا يأمر إلا لمصلحة وحكمة فبطل قولك بقولك ، وإن لم يكن العبث

(١) المصدر السابق ، ١٢٨/٢ .
(٢) المصدر السابق ، ١٤٠/٢ .
(٣) المصدر السابق ، ١٤٠/٢ .

عليه محالاً بطلت هذه الحجة فيتحقق بطلانها على التقديرين[(١)] .

الثالث : قولك جميع الأغراض يرجع حاصلها إلى شيئين : تحصيل اللذة ودفع الهم والحزن ، أتريد به الغرض الذي يفعل لأجلها الحيوان ؟ أو الحكمة التي يفعل الله سبحانه لأجلها ؟ أم تريد به ما هو أعم من ذلك ؟

فإن أردت الأول لم يفدك شيئاً – لأن الخلاف في حكمة الرب سبحانه لا في حكمة المخلوق – ، وإن أردت الثاني أو الثالث كانت دعوى مجردة لا برهان عليها ، فإن حكمة الرب تعالى فوق تحصيل اللذة ودفع الغم والحزن ، فإنه يتعالى عن ذلك بل ليس كمثل حكمته شيء ، كما أنه موصوف بالإرادة وليست كإرادة الحيوان فإن الحيوان يريد ما يريده ليجلب له منفعة أو يدفع به عنه مضرة ، وكذلك غضبه ليس مشابهاً لغضب خلقه فإن غضب المخلوق هو غليان دم قلبه طلباً للانتقام والله يتعالى عن ذلك ، وكذلك سائر صفاته فكما أنه ليس كمثله شيء في إرادته ورضاه وغضبه ورحمته وسائر صفاته ، فهكذا حكمته سبحانه لا تماثل حكمة المخلوقين ، بل هي أجل وأعلى من أن يقال أنها تحصيل لذة أو دفع حزن ، فالمخلوق لنقصه يحتاج أن يفعل ذلك لأن مصالحه لا تتم إلا به ، والله سبحانه غني بذاته عن كل ما سواه لا يستفيد من خلقه كمالاً بل خلقهم يستفيدون كمالهم منه[(٢)] .

ومن شبه نفاة الحكمة أنهم قالوا : قد قام الدليل على أنه سبحانه خالق كل شيء ، فأي حكمة أو مصلحة في خلق الكفر والفسوق والعصيان ؟[(٣)] .

فأجاب ابن القيم رحمه الله على هذه الشبهة باثنين وعشرين جواباً ، منها :

الأول : أن يقال غاية ذلك انتفاء الحكمة في هذا النوع من المقدورات فيلزم من ذلك انتفاؤها في جميع خلقه وحكمه ، فهب أن هذا النوع لا حكمة فيه ، فمن أين يستلزم ذلك نفي الحكمة والغرض في كل شيء؟ كيف وفيه من الحكم والغايات المحمودة ما هو

---

(١) المصدر السابق ، ٢/١٤١ .
(٢) المصدر السابق ، ٢/١٤٢ .
(٣) المصدر السابق ، ٢/١٤٤ .

معلوم لأهل البصائر الراسخين في العلم[1] .

الثاني : أن كماله المقدس يمنع خلو ما ذكرتم عن الحكمة ، وكماله أيضا يأبى اطلاع خلقه على جميع حكمته ، فحكمته تمنع اطلاع خلقه على جميع حكمته ، بل الواحد منا لو أطلع غيره على جميع شأنه وأمره عُدَّ سفيهاً جاهلاً ، وشأن الرب أعظم من أن يطلع كل واحد من خلقه على تفاصيل حكمته[2] .

الثالث : أنه سبحانه يجب أن يُشْكر ، ويحب أن يُشْكر ، عقلاً وشرعاً وفطرةً فوجوب شكره أظهر من وجوب كل واجب ، وكيف لا يجب على العباد حمده وتوحيده ومحبته وذكر آلائه وإحسانه وتعظيمه وتكبيره والخضوع له والتحدث بنعمته والإقرار بها بجميع طرق الوجوب ، فالشكر أحب شيء إليه ، وأعظم ثواباً وأنه خلق الخلق وأنزل الكتب وشرع الشرائع ، وذلك يستلزم خلق الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل ، ومن جملتها أن فاوت بين عباده في صفاتهم الظاهرة والباطنة في خلقهم وأخلاقهم وأديانهم وأرزاقهم ومعايشهم وآجالهم ، فإذا رأى المعافى المبتلى ، والغني الفقير ، والمؤمن الكافر، عظم شكره لله وعرف قدر نعمته عليه وما خصه به وفضله به على غيره فازداد شكراً وخضوعاً واعترافاً بالنعمة .

فإن قيل : فقد كان من الممكن أن يسوي بينهم في النعم ويسوي بينهم في الشكر كما فعل بالملائكة ، قيل : لو فعل ذلك لكان الحاصل من الشكر نوع آخر غير النوع الحاصل منه على هذا الوجه ، والشكر الواقع على التفضيل والتخصيص أعلى وأفضل من غيره ولهذا كان شكر الملائكة وخضوعهم وذلهم لعظمته وجلاله بعد أن شاهدوا من إبليس ما جرى له ومن هاروت وماروت ما شاهدوه أعلى وأكمل مما كان قبله وهذه حكمة الرب[3] .

الرابع : أنه قد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة

(١) المصدر السابق ، ١٤٨/٢ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ١٤٩/٢ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ١٥٥/٢ .

والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك ، فولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان وبقيت يتحدث بها الناس على ممر الزمان ، ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم التي دمرت ما مرت عليه ، ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة ، ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة ، ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعدد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك الآية العظيمة التي يترتب عليها من الإيمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلاً مع عدمها ، ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصى والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم لما ظهرت آية عصا موسى حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم ولهذا أمرهم موسى أن يلقوا أولاً ثم يلقي هو بعدهم ، ولولا خلق الشياطين والهوى والنفس الأمارة لما حصلت عبودية الصبر ومجاهدة النفس والشيطان ومخالفتهما وترك ما يهواه العبد ويحبه لله فإن لهذه العبودية شأنا ليس لغيرها ، ولولا وجود الكفار لما حصلت عبودية الجهاد ولما نال أهله درجة الشهادة [1] .

وبهذا تتبين أدلة أهل السنة العقلية في إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله سبحانه ، ولو استرسلت في ذكر هذه الأدلة لأخذ ذلك صفحات ، ولكني اكتفيت بذكر بعضها لإثبات أن أهل السنة استدلوا بالعقل واعتبروه كما استدلوا قبله بالنقل مع جعلهم النقل هو الأساس والركيزة الأولى في إثبات العقائد .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ٢/ ١٥٨ – ١٦١ .

الخاتمة والتوصيات

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، الحمد لله الذي يسر وأعان على إتمام هذا البحث في (أدلة أهل السنة العقلية في الأسماء والصفات والقدر) ، فلله وحده الفضل والمنة ، أما عن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث فأجملها فيما يلي :

أولاً : إن منهج أهل السنة والجماعة التمسك الشديد بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في جميع أصول الدين لأنهما المصدران الأساسيان .

ثانياً : إن هذا التمسك لا يعني جموداً عقلياً كما ادعت ذلك شرذمة العقلانيين سواء القدامى منهم أو المحدثين الذين يزعمون التجديد في العصر الحديث ، بل إن تمسكهم هذا يدل على أنهم أعلم الناس بكيفية استخدام العقل وبحدود هذا الاستخدام ، ومتى يقف الإنسان ويبدأ بالتسليم حتى لا يتخبط كما تخبط أهل الكلام المذموم وغيرهم من مدعي العقل .

ثالثاً : إن الدليل العقلي عند أهل السنة لا يعني البعد والاستغناء عن الكتاب والسنة ، كما هو الحال عند الفرق المخالفة ، بل إن دليل أهل السنة العقلي موافق للكتاب والسنة ، ولا يحتوي على الألفاظ المجملة التي تحتمل حقاً وباطلاً ، بل هو واضح معلوم مفهوم .

رابعاً : الدليل العقلي عند أهل السنة يدل على قوة ذكاء أهل السنة وفهمهم الدقيق العميق للكتاب والسنة ، ويدل أيضاً على سعة علمهم ومعرفتهم بمقصود المخالف ، وذلك من خلال استفصالهم لكلام المخالف وإلزامه بما يحوي كلامه من لوازم .

خامساً : أهل السنة والجماعة استخدموا العقل في جميع نواحي الحياة ، في الحروب ، في السياسة ، في الاقتصاد ، وغير ذلك ، وليس فقط في إثبات العقائد ، فمن أين

يأتي الجمود إذن ؟!! .

سادساً: إن أهل السنة والجماعة اكتفوا بالقرآن والسنة في الرد على المبتدعة المخالفين لأنهما كافيان في ذلك ، إلا أن بعض المبتدعة لم يكونوا قانعين بالكتاب والسنة لعدم فهمهم لهما وتركهم النظر فيهما ، لذلك استخدم أهل السنة والجماعة الدليل العقلي الموافق للكتاب والسنة في الرد على هؤلاء .

سابعاً : أن المتمسك بالكتاب والسنة لا يمكن أن يوصف بالجمود العقلي أبداً ، لأن الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم أمر بالتدبر والتفكر والتعقل والنظر ، فكيف يكون متمسكاً بالكتاب وهو لا يمتثل لأوامر الكتاب ؟!! .

ثامناً : أن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان كانوا يناظرون ويجتهدون ويستنبطون ويعملون عقولهم في النصوص دون الخروج عنها .

تاسعاً : أن أهل السنة والجماعة يرون أن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح ، وأنه لا تعارض بينهما البتة ، بل إنهم وقفوا جداراً صلباً في وجه كل من ادعى التعارض .

عاشراً : أن أهل السنة والجماعة استخدموا جميع أنواع الأدلة العقلية التي وردت في القرآن الكريم ، والتي تحدث عنها المتكلمون في كتبهم ، واستخدامهم لها كان على أفضل وجه وأحسنه وأتقنه .

التوصيات

في أثناء بحثي في الأسماء والصفات والقدر ، مرَّت بي مسألة الفرق بين الفعل والمفعول أو الفرق بين الخلق والمخلوق ، وقد جاءت هذه المسألة في باب الأسماء والصفات ، بالتحديد في صفة الاستواء عندما لم يفرق الأشاعرة بين الفعل اللازم والفعل المتعدي ، وكذلك جاءت في باب القدر في مسألة خلق الله لأفعال العباد ، وإني أرى أن يزاد هذا الموضوع بحثاً ، هو والمسائل المتعلقة به .

كذلك عند بحثي في باب القدر وجدت القصيدة التائية لابن تيمية رحمه الله في القدر[1] ، وهي تتكون من ١٢٤ بيتاً ، هذه القصيدة تحتاج إلى شرح وبحث في معانيها وفي المناسبة التي قيلت فيها .

كذلك فإني أرى أنه من المناسب أن يبحث في أدلة أهل السنة العقلية في باقي أبواب العقائد ، كالإيمان ، وعذاب القبر ، وأشراط الساعة ، والصحابة ، وغير ذلك .

هذا والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٨/ ٢٤٥ — ٢٥٦ .

الفهـــارس

ويشمل :

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث .
- فهرس الأعــلام .
- فهرس الفـــرق .
- فهرس المصادر والمراجـع .
- فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنيـة

الآيــــــة	رقمهـا	الصفحة
﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾	٩١	٣٩٢
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾	٨٩	٣٩-٥٠٠
﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	١٢٥	٤٣
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾	١٣٨	٣٢٣
سـورة الإسـراء		
﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ ﴾	١١	١١٨
﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾	٣٢	١٦٧
﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾	٤٢	١٠١-١٧٥-٣٧٩
﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾	٤٩	٢٥٤
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾	١٠١-١٠٢	١٦٩
﴿ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾	١١٠	٥١-٢٥٦
﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾	٢٩	١١٨
سـورة الكهـف		
﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾	١٢	٤٣٧
﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ﴾	١٥	١٠٦
﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾	٥٦	٤٤
﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾	٦٧	٤٨٢
﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾	١٠١	٤٨١
﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾	١٠٩	٣٩٣
سـورة مريـم		
﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾	٤١	١٥٩
﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ ﴾	٤٢	١٦٢
﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ ﴾	٧٧-٧٨	٩٢
﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾	٨٩-٩٠	٢٦٠

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ ﴾	٦٨	١١٠-١١١-٢٤٦
﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ ﴾	٦٨-٧٠	١٠٣
﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾	٨٦	٣٧٧
﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ﴾	٨٦-٨٧	١٤٦-٣٧٩
﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ ﴾	٩١	٩٩-١٠١
﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾	١١٦	٣٧٧-٣٧٩
سورة النور		
﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾	٤٠	٥٠٠
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ﴾	٥٥	١١٦
سورة الفرقان		
﴿ ﴾	٢٥	٤٠٥
﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾	٢٥-٢٦	٣٩٩
﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾	٧-٨	٢٧٢
﴿ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾	٦٢	١٣٢
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾	٦٧	١١٨-٣٩٠
سورة الشعراء		
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾	٢٣-٢٨	١٠٣-١٧١
﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾	٦٩-٧٧	١٦٣
﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾	٧٧-٨٢	١٦٤
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾	١٢٨	١٥٦

الآيـــــــة	رقمهـا	الصفحة
سـورة المنافقـون		
﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾	٨	٩٥
سـورة التغابـن		
﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾	١	٢٩١
سـورة الطـلاق		
﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ مَاْ ءَاتَاْهَاْ ﴾	٧	٢٨٣
﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	١٢	٣٠٧
سـورة التحريم		
﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً ﴾	٥	٣٨٧-١٨٥
سـورة الملـك		
﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾	١	٣٦٠-٣٥٩
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾	١٠	٢٤٥-٧٤
﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾	١٤	٤٧٤-٣٢٨-٣٢٧-٣٠٠
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾	١٩	١٣٠
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾	٣٠	١٧٤
سـورة القـلم		
﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾	٢٤	١٠
سـورة الحاقـة		
﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾	١٣-١٨	٤٠٥
﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾	١٧	٣٧٨-٣٧٦
﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾	٢٩	٤٠٥

فهرس الأحاديث

فهرس الأعـــــلام

فهرس الفــرق

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم هو المصدر الأساسي والأول .

(الألـــف)

- الإبانة عن أصول الديانة ، أبو الحسن الأشعري ، المحقق : فوقية حسين محمود ، دار الأنصار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ .
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ، المحقق : عثمان عبدالله آدم الأثيري والوليد بن نبيه بن سيف النصر ، دار الراية ، الرياض — جدة ، ط١ ، ١٤١٨هـ .
- الاتجاهات العقلانية الحديثة ، ناصر بن عبدالكريم العقل ، دار الفضيلة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، المحقق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، دمشق — بيروت ، دار العلوم الإنسانية ، دمشق ، ط٢ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
- إثبات صفة العلو ، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، المحقق : بدر بن عبدالله البدر، الدار السلفية ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .
- اجتماع الجيوش الإسلامية ، ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- الأحكام في أصول الأحكام ، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد ، دار الحديث، القاهرة، ط١ ، ١٤٠٤هـ .
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسي المعروف بالبشاري ، المحقق : محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي ، بيروت — لبنان ، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م .
- إحياء علوم الدين ، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، درا المعرفة ، بيروت — لبنان .
- أخبار النحويين ، عبدالواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم ، المحقق : مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط ١ ، ١٤١٠هـ .

- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري ، المحقق : عمر بن محمود أبو عمر ، دار الراية ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ، سعود عبدالعزيز العريفي ، دار عالم الفوائد ، مكة، ط١ ، ١٤١٩هـ .
- الأذكياء ، أبو الفرج بن علي بن الجوزي ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت .
- إرشاد الفحول ، الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، درا الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، ط١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك الجويني ، المحقق : اسعد تميم ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- أساس التقديس في علم الكلام ، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- أسباب اختلاف المحدثين ، خلدون الأحدب ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة - الدمام - الرياض ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- استخراج الجدال من القرآن الكريم ، الإمام ناصح الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن نجم ابن عبدالوهاب الأنصاري المعروف بابن الحنبلي ، المحقق : محمد صبحي حسن حلاق، مؤسسة الريان ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- الاستقامة ، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ، المحقق : محمد رشاد سالم ، نشر جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
- استنزال السكينة الرحمانية بالتحديث بالأربعين البلدانية ، عبدالحفيظ الفاسي الفهري ، تقديم : العلامة السيد عبدالله جنون الحسنى .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم مدين محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني الشافعي ، المحقق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

- أصول الدين ، جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي ، المحقق : عمر وفيق الداعوق ، درا البشائر الإسلامية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .
- أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ، محمد بن عبدالرحمن الخميس ، دار الصميعي ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- أصول السنة ، للإمام أحمد بن حنبل ، رواية عبدوس بن مالك العطار ، المحقق : الوليد بن محمد نبيه بن سيف النصر ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- أصول الفقه ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب ، بيروت .
- الاعتصام ، للإمام الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي ، المحقق : عبدالرزاق المهدي ، درا الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- اعتقاد أئمة الحديث ، أبو بكر الإسماعيلي ، المحقق : محمد بن عبدالرحمن الخميس ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ط٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- الإعجاز العلمي في القرآن ، محمد أرناؤوط ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .
- إعجاز القرآن العلمي ، محمود مهدي الاستانبولي ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .
- الأعلام ، الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ط١٠ ، ١٩٩٢م .
- أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية ، المحقق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة المصرية ، صديا – بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، المحقق : محمد حامد الفقي، دارالكتب العلمية، بيروت– لبنان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- الإمام الأوزاعي محدثاً حافظاً ، حسين محمد الملاح ، المكتبة العصرية ، صديا – بيروت ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- الأنوار الساطعات لآيات جامعات ، عبدالعزيز السلمان ، ط٥ ، ١٤١٧هـ .

- الأيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته ، الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ، المحقق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت — دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- إيثار الحق على الخلق ، أبو عبدالله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير ، دار الكتب العلمية ، بيروت — لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

(البـــــــاء)

- بدائع التفسير ، لابن قيم الجوزية ، المحقق ، يسري السيد محمد ، دار ابن الجوزي ، الدمام — الرياض — جدة ، ط١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
- البداية والنهاية ، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، المحقق : عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، دار هجر ، مصر ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- البرهان في أصول الفقه ، لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ،. المحقق : عبدالعظيم محمود الديب ، درا الوفاء ، مصر — المنصورة ، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- البرهان في علوم القرآن ، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .
- بغية المرتاد المعروف بالسبعينية ، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، المحقق : سعيد اللحام ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م .
- بيان تلبيس الجهمية ، ابن تيمية الحراني أبو العباس ، المحقق : محمد بن عبدالرحمن بن قاسم ، مؤسسة قرطبة .
- البيهقي وموقفه من الآلهيات ، أحمد بن عطية بن علي الغامدي ، مكتبة ابن تيمية ، المحرق — البحرين ، ط٤ ، ١٤١٣هـ .

(التـــــــاء)

- تاج العروس ، للإمام اللغوي السيد محمد مرتضى الزبيدي ، درا صادر ، بيروت .
- تاريخ الجدل ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، ط٢ ، ١٩٨٠م .
- تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، المحقق : الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي والشيخ محمد عثمان ، دار الأرقم ، ودار القلم ، بيروت — لبنان .

- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ .
- تاريخ بغداد ، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، محمد بن عبدالله بن أحمد بن سليمان بن زبر الربعي ، المحقق : عبدالله أحمد سليمان الحمد ، دار العاصمة ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٠هـ .
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، طاهر ابن محمد الأسفراييني، المحقق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣م .التبصير في معالم الدين ، أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المحقق : علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل ، دار العاصمة ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أب الحسن الأشعري ، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ .
- التحف في مذاهب السلف ، محمد بن علي الشوكاني ، المحقق : طارق السعود ، درا الهجرة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- تذكرة الحفاظ ، أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
- الترغيب والترهيب ، عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري أبو محمد ، المحقق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ .
- التعاريف أو التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد عبدالرؤوف المناوي ، المحقق : محمد رضوان الداية ، درا الفكر ، بيروت – دمشق ، ط١ ، ١٤١٠هـ .
- التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني ، المحقق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .
- تفسير البغوي (معالم التنزيل) ، الحسين بن سعود الفراء البغوي أبو محمد ، المحقق : خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشافعي البيضاوي ، المحقق : عبدالقادر عرفات العشا حسونة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

- تفسير الرازي (المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب) ، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبوجعفر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ .
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبدالله، المحقق : أحمد عبدالعليم البردوني ، درا الشعب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٧٢هـ .
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشَري الخوارزمي ، ط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .
- تلبيس إبليس ، عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي ، المحقق : السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، المحقق: عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- التمهيد في علوم الحديث ، همام عبدالرحيم سعيد ، دار الفرقان ، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الملطي الشافعي ، المحقق : محمد زاهد الحسن الكوثري ، مكتبة المثنى ، بغداد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
- تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار الفكر، بيروت، ط١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- تهذيب اللغة ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ومحمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- توجيه النظر إلى أصول الأثر ، طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري الدمشقي ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة .

- تيسير العزيز الحميد ، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ، المكتب الإسلامي ، بيروت ن ط٨ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

(الثــــاء)

- الثبات عند الممات ، أبو الفرج ابن الجوزي ، المحقق : عبدالله الليثي الأنصاري ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

(الجيــــم)

- جامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، جمع وترتيب صقر أحمد عباس وعبدالجواد أحمد ، ط محمد هاشم الكتبي بدمشق .
- جامع الرسائل ، ابن تيمية الحراني ، المحقق : محمد رشاد سالم ، دار المدني ، جدة .
- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي البغدادي زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن شهاب الدين بن أحمد بن رجب ، المحقق مــروان كجك ، درا الكلمة الطيبـــة ، ط١، ١٣٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- الجرح والتعديل ، عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن ادريس أبو محمد الرازي التميمي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط١ ، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
- جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، المحقق : رمزي منير بعلبكي ، دار الملايين ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧م .

(الحــــاء)

- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ، للإمام الحافظ قوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني ، المحقق : محمد مدخلي ومحمد محمود أبو عبدالرحيم ، درا الراية ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- الحدود الانيقة والتعريفات الدقيقة ، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحي ، المحقق : مازن المبارك ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ن ط١ ، ١٤١١هـ .
- الحديث والمحدثون ، محمد محمد أبو زهو ، مطبعة مصر .
- حرية الفكر في الإسلام ، عبدالمتعال الصعيدي ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط ٢ .

- حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر ، شيث ابن إبراهيم ابن حيدرة أبو الحسن ، المحقق : عبدالله عمر البارودي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .
- حكمة التشريع وفلسفته ، وضعه لجنة من علماء الأزهر ، تعليق : عبدالله توفيق الصباغ ، دار القلم ، الإمارات ، ط١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
- حلية الأوليات وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ، دار الكتاب، بيروت، ط٤ ، ١٤٠٥هـ .
- الحيدة ، عبدالعزيز بن يحيى الكناني ، المحقق : جميل صليبا ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(الخـــاء)

- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أحمد بن شعيب النسائي أبو عبدالرحمن ، المحقق : أحمد ميرين البلوشي ، مكتبة المعلا ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ .
- خصائص أهل السنة ، أحمد فريد ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية) ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي ، دار صادر ، بيروت .
- خلق أفعال العباد ، محمد بن إسماعيل البخاري ، المحقق : عبدالرحمن عميرة ، داراالجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(الـــدال)

- الدار والدواء ، لابن قيم الجوزية ، المحقق : يوسف علي بديوي ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، ط ٣ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، المحقق : عبداللطيف عبدالرحمن، دار الكتب العليمة ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- دراسات ف يالمنطق ومناهج البحث ، محمد السيد الجليند .
- دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، محمد الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت – دمشق ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

- دعوة الفطرة ، يوسف محيي الدين أبو هلالة ، دار العاصمة ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق : محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٧ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ديوان العباس بن مرداس ، المحقق : يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت — لبنان، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- ديوان الهذليين ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- ديوان امرؤ القيس ، المحقق : محمد ابو الفضل إبراهيم ، دارالمعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٦٤م .
- ديوان حسان بن ثابت ، دار بيروت ، بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ديوان طرفة بن العبد ، المحقق : علي الجندي ، مكتبة الأنجلو .
- ديوان عنترة ، دار بيروت ، بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت .

(الــــــــــذال)

- ذم التأويل ، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، المحقق : بدر بن عبدالله البدر ، الدار السلفية ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .
- ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله الأكفاني، المحقق: عبدالله بن أحمد بن سليمان الحمد ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ .

(الــــــــــراء)

- رؤية الله ، علي بن عمر بن أحمد الدار قطني ، المحقق : مبروك إسماعيل مبروك ، مكتبة القرآن، القاهرة .
- الرد على الجهمية ، الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي ، المحقق : بدر بن عبدالله البدر ، دار ابن الأثير ، الكويت ، ط٢ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

- الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، المحقق : عبدالرحمن عميرة ، دار اللواء ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- الرد على المنطقيين ، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني ، دار المعرفة ، بيروت .
- رسالة الآداب في علم البحث والمناظرة ، محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر — القاهرة .
- الرسالة ، محمد بن ادريس أبو عبدالله الشافعي ، المحقق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .
- رسالة في أن القرآن غير مخلوق ، إبراهيم بن إسحاق الحربي ، المحقق : علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل ، دار العاصمة ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت — لبنان ، ط١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(السين)

- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ، المحقق : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر، بيروت .
- سنن أبي داوود ، سليمان بن الاشعث أبو داوود السجستاني ، المحقق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر .
- سنن الترمذي ، الجامع الصحيح سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، المحقق : أحمد محمد شاكر وآخرون دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- سنن الدارمي ، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي ، المحقق : فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ .
- السنة ، أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال أبو بكر ، المحقق : عطية الزهراني ، دار الراية، الرياض ، ط١، ١٤١٠هـ .

- السنة ، الحافظ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة ، لمحمد بن ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت – دمشق ، ط ٣ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- السنة ، عبدالله بن أحمد بن حنبل ، المحقق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
- السنة ، للإمام أحمد بن حنبل ، مع كتاب الرد على الجهمية والزنادقة ، ط البابي الحلبي .
- السنة ، محمد بن نصر المروزي ، المحقق : سالم بن أحمد السلفي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي ، دمشق – بيروت، ط٣ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- سير أعلام النبلاء ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- سيرة ابن هشام (السيرة النبوية لابن هشام) ، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبومحمد ، المحقق : طه عبدالرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ .
- سيرة الإمام أحمد بن حنبل ، صالح بن أحمد بن حنبل ، المحقق : محمد الزغلي ، المكتب الإسلامي ، بيروت – دمشق – عمّان ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

(الشـــــين)

- شذرات الذهـــب في أخبار من ذهب ، عبدالحي بن أحمد العكري الدمشقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، أبو القاسم هبه الله بن الحسن بن منصور الطبري للالكائي ، المحقق : أحمد الغامدي ، دار طيبة ، الرياض ، ط٤ ، ١٤١٨هـ .
- شرح الأصول الخمسة ، القاضي عبدالجبار بن أحمد ، المحقق : عبدالكريم عثمان ، مكتبة وهبة ، مصر ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .
- شرح السنة ، أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري ، المحقق : خالد بن قاسم الردادي ، دار السلف ، دار الصميعي ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

- شرح العقائد النسفية ، للإمام مسعود بن عمر الشهير بسعد الدين التفتازاني ، المحقق : كلود سلامة ، إحياء التراث العربي ، دمشق ، ١٩٧٤م .
- شرح العقيدة الاصفهانية ، أحمد بن عبدالحليم بن تيمة الحراني ، المحقق : إبراهيم سعيداي ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٥هـ .
- شرح العقيدة الطحاوية ، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الحنفي ، المحقق: عبدالله ابن عبدالمحسن التركي وشعيب أرنـــاؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٥ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- شرح الكوكـــب المنير ، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد الفتوحي ، المحقق : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م .
- شرح اللمع في أصو لالفقه ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي ، المحقق : علي بن عبدالعزيز العميريني ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- شرح المعلقات السبع ، أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني ، دار القلم ، بيروت – لبنان .
- شرح النووي على صحيح مســلم ، أبو زكريا يحي بن شرف بن مري النووي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ .
- شرح قصيدة ابن القيم المسماة (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، المحقق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ .
- شرح لمعة الاعتقـــاد ، محمد بن صالح العثيمين ، مكتبة دار طبرية ، مكتبة أضواء السلف الرياض ، ط٣ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- شرح مختصر الروضة ، نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم بن سعيد الطوفي ، المحقق : عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، ط٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي الخزاز الكوفي ، المحقق : محمد بن عبدالرحمـــن الخميس ، مكتبة الفرقـــان، عجمان ، ط ١ ، ١٩٩٩م .

- الشريعة ، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ، المحقق : محمد بن الحسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- شعر النابغة الجعدي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط١ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، لابن قيم الجوزية ، المحقق : مصطفى أبو النصر الشلبي ، مكتبة السوادي ، جدة ، ط٢ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(الصـــــاد)

- الصارم المسلول على شاتم الرسول ، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني ، المحقق : محمد عبدالله عمر الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ١٤١٧هـ .
- صحيح ابن خزيمة ، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري ، المحقق : محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- صحيح البخاري ، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- صحيح جامع بيان العلم وفضله ، للحافظ ابن عبدالبر القرطبي ، المحقـق : أبو الأشبال الزهيري ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ومكتبة العلم ، جدة ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- صحيح سنن ابن ماجـه ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- صحيح سنن أبي داوود ، محمد ناصر الدين الألباني ، اختصر أسانيده وعلق عليه وفهرسه : زهير الشاويش ، مكتبة التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، توزيع المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- صحيح سنن الترمذي ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- صحيح سنن النسائي ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- صحيح مسلم ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، دار المغني ، المملكة العربية السعودية – الرياض ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

- صريح السنة ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، المحقق : بدر يوسف المعتوق ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .
- الصفدية ، ابن تيمية الحراني ، المحقق : محمد رشاد سالم ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ .
- صفوة الصفوة ، عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ، المحقق : محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٣٩هـ - ١٩٧٩م .
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ، المحقق : علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة ، الرياض ، ط٣ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(الطــــاء)

- طبقات الحفاظ ، جلال الدين السيوطي أبو الفضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
- طبقات الحنابلة ، محمد بن يعلي أبو الحسين ، المحقق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت .
- طبقات الشافعية ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، المحقق : الحافظ عبدالعليم خان ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ .
- طبقات الشافعية الكبرى ، أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي ، المحقق : عبدالفتاح الحلو ومحمود محمد الطناجي ، دار هجر ، الجيزة ، ط٢ ، ١٩٩٢م .
- طبقات الفقهاء ، إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق ، المحقق : خليل الميس ، دار القلم ، بيروت .
- الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري ، دار صادر ، بيروت .
- طبقات المفسرين ، جلال الدين السيوطي ، المحقق : علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ .

(العــــين)

- عبقرية عمر ، عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا – لبنان ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

- العدة في أصو لالفقه ، القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي ، المحقق : أحمد بن علي سير المباركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- العقل وفهم القرآن ، الحارث بن أسد المحاسبي ، المحقق : حسين القوتلي ، دار الكندي، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- العقلانية هداية أم غواية ، عبدالسلام بسيوني ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة .
- عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، الإمام شمس الدين محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي الشافعي ، مكتبة الإيمان ، السمانية – المدينة المنورة .
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني ، المحقق : ناصر بن عبدالرحمن بن محمد الجديع ، دار العاصمة ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ، سعد الدين السيد صالح ، مكتبة الصحابة ، جدة – الدمام ، مكتبة التابعين ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٦هـ .
- عيون المناظرات ، أبو علي عمر السكوني ، المحقق : سعد غراب ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٦م .

(الفـــــــاء)

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، المحقق : محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب ، درا المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ .
- فتح القدير الجامـــع بين فني الراوية والدراسة من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .
- الفتوى الحموية الكبرى ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية ، المحقق : حمد بن عبدالمحسن التويجري ، دار الصميعي ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- الفرق بين الفـــرق ، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ، المحقق ، محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار المعرفة ، بيروت .
- الفصل في الملل والأهواء والبخل ، أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهـــري ، المحقق : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

- فقه الإمام سعيد بن المسيب ، هاشم جميل عبدالله ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ط١ ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .
- الفوائد ، لابن قيم الجوزية ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط٧ ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

(القـــــــاف)

- القائد إلى تصحيح العقائـــد ، عبدالرحمن بن يحيي المعلمي ، المحقق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت – دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- القامـــوس المحيط ، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي ، دار الفكر، بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- القدر ، أبو بكر جعفر بن الحسن بن المستفاض الفريابي ، المحقق : عمرو عبدالمنعم سليم ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، دار الفكر العربي .
- القضاء والقدر في الإسلام ، فاروق أحمد الدسوقي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، مكتبة الخاني ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه ، عبدالرحمن بن صالح المحمود ، دار الوطن ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد ، عثمان علي حسن ، درا الوطن ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٣هـ .
- قواعد التحديث مهن فنون مصطلح الحديث ، محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ، المحقق : محمد بهجة البيطار ، درا النفائس ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي ، مصطـــفى حلمي ، دار الدعوة ، ط٣ ، مصر ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(الكـــــاف)

- كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ، المحقق : عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان ، مكتبة الرشد ، شركة الرياض ، الرياض ، ط٦ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمة في العقيدة ، المحقق : عبدالرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية .
- كشاف اصطلاحات الفنون ، محمد علي الفاروقي التهانوي ، المحقق : لطفي عبدالبديع وجماعة، مكتبة لبنان ناشرون ، ط ١ ، ١٩٩٦م .

(الـــــلام)

- لسان العـرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت ، ط١ .
- لوامع الأنوار البهية ، العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي ، المكتب الإسلامي ، دار الخاني ، بيروت – الرياض ، ط٣ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

(الميــــم)

- مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه ، الحارث المحاسبي ، المحقق : حسين القوتلي ، دار الكندي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ .
- مباحث ف يعلـــوم القرآن ، مناع القطان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ، المحقق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة السنة المحمدية ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
- مجمع الزوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربي ، القاهرة – بيروت ، ١٤٠٧هـ .
- مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة ، ناصر العقل ، دار الوطن ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٣هـ .
- مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم النجدي الحنبلي وابنه محمد ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

- محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمر والأوزاعي ، زين الدين بن تقي الدين بن عبدالرحمن الخطيب ، المحقق : الأمير شكيب أرسلان ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٧م .
- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، ويذيله كتاب (تلخيص المحصل) لنصير الدين الطوسي ، المحقق : طه عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .
- المحيط بالتكليف ، للقاضي عبدالجبار المعتزلي ، المحقق : عمر السيد عزمي ، المؤسسة المصرية العامة .
- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ، المحقق : محمود خاطر مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- مختصر الصواعق المرسلة ، لابن قيم الجوزية ، المحقق : سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت — القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- مشاهير علماء الأمصار ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، المحقق : م فلايش همر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٥٩م .
- مشاهير علماء نجد وغيرهم ، عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .
- مصنف أبي شيبة ، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، المحقق : كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ .
- معالم أصول الدين ، محمد بن عمر الرازي فخر الدين ، المحقق : طه عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية .
- المعجزة الكبرى (القرآن) ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- معجم البلدان ، ياقوت بن عبدالله الحموي أبو عبدالله ، درا الفكر ، بيروت .

- المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ، المحقق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الحديث ، القاهرة .
- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، المحقق : عبدالسلام محمد هارون ، درا الجيل ، بيروت .
- معرفة علوم الحديث ، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ، المحقق : السيد معظم حسين ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- المغني في أبواب التوحيد والعدل ، القاضي عبدالجبار بن أحمد بن همدان ، المحقق : محمد علي النجار وعبدالحليم النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- مفتاح دار السعادة ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، المحقق : علي بن حسن الحلي الأثري ، دار ابن عفان ، الخبر ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن ، المحقق : هلموت ريتر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ .
- مقدمة ابن خلدون ، مكتبة ودار المدينة المنورة ، والدار التونسية ، ١٩٨٤م .
- مقدمة في الفلسفة الإسلامية ، عمر محمد الشيباني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
- الملل والنحل ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني ، المحقق : أحمد فهمي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
- مناقب أبي حنيفة ، الإمام الموفق بن أحمد المكي والإمام حافظ الدين المعروف بالكردي وله الجزء الثاني من الكتاب ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- مناقب الإمام الشافعي ، عبدالرؤوف المناوي ، المحقق : ساعد بن عمر غازي ، دار الصحابة للتراث ، مصر – طنطا ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- مناقب الإمام الشافعي ، فخر الدين الرازي ، المحقق : أحمد حجازي السقا ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- مناهج البحث عند مفكري الإسلامي ، علي سامي النشار ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦م .

- المنتقى المفيد من العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، المحقق: أبو الوليد صالح بن علي بن محمد الربع السـلمي التميمي ، مكتبة التوبة ، الريـاض ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- منهاج السنة النبوية ، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس ، المحقق : محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .
- منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ، جابر إدريس علي أمير ، أضواء السلف ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله ، خالد بن عبداللطيف بن محمد نور ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- الموافقات في أصول الشريعة ، أبو إسحاق الشاطبي إبراهيم ابن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، المحقق : عبدالله دراز ومحمد عبدالله دراز وعبدالسلام عبدالشافي محمد ، درا الكبت العلمية بيروت — لبنان .
- المواقف في علم الكلام ، عضد الدين القاضي عبدالرحمن بن أحمد الايجي ، عالم الكتب ، بيروت .
- الموسوعة الحديثية ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المشرف العام على إصدار هذه الموسوعة : الدكتور / عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، المشرف على تحقيق هذا المسند : الشيخ / شعيب أرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت — لبنان ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- الموطأ ، (موطأ الإمام مالك) ، مالك بن أنس بن مالك أبو عبدالله الأصبحي ، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء التراث العربي ، مصر .
- موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، عبدالرحمن بن صالح بن صالح المحمود ، مكتبة الرشد، الرياض، ط١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، المحقق : علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٩٩٥م

(النـــــــون)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مصر .
- النزول ، أبو الحسين علي بن عمر الدار قطني، المحقق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، مصطفي حلمي ، دار الأنصار ، مصر .
- النقائض ، نقائض جرير والفرزدق ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٧م .
- نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علي المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد ، المحقق : رشيد ابن حسن الألمعي ، مكتبة الرشد ، شركة الرياض ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، المحقق : محمود محمد الطناحي ، وطاهر أحمد الزاوي ، المكتبة الإسلامية للحاج رياض الشيخ ، ط١ ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

(الـــــواو)

- الواضح في أصول الفقه ، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي، المحقق : عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- الوجيز في عقيدة السلف الصالح ، عبدالله بن عبدالحميد الأثري ، مكتبة الغرباء ، الدار الأثرية ، اسطنبول – تركيا ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، المحقق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨م .

فهرس الموضوعات

١